المحاضرة الاولى:

مصادر دراسة تاريخ العرب قبل الاسلام:

مدخل: مفهوم التاريخ:

تغيرت النظرة إلى التاريخ عما كانت عليه قبل هذا القرن, فأصبح علمًا من العلوم الاجتماعية له قواعد خاصة, إذ استبعدت شواهد التاريخ المبنية على مجرد العقيدة والأسطورة، وجعلت الشك أساسا للدراسة وواسطة للمعرفة. بل وجب على المؤرخ أن يرجع إلى الآثار المادية والأدبية التي تنبئ عن الماضي، فيستخرج نصوصها وأشكالها، ثم يستنطقها ويخضع رواياتها للتدقيق والنقد، فلا يقبل منها إلا ما ثبت صدقه وصحته، حسب قواعد علمية معينة، ثم يعمد إلى ربط الحقائق المفردة بعضها ببعض ليستخرج منها صورة الماضي أقرب ما تكون إلى الواقع ، ويفسرها تفسيرًا صحيحًا بقدر الإمكان.

ومن البديهي أن الصورة المستخرجة للحقائق التاريخية تبقى خاضعة في المستقبل للتعديل حسبما يظهر من أصول ووثائق جديدة، أو ما يكتشف من حقائق كانت مجهولة سابقا، أو ما يوجب تصحيح بعض ما حصل من أخطاء في التدقيق والاستنتاج. كل ذلك يفرض على المؤرخ أن تكون له صفة العالم المجرد من الغايات، الذي لا يميل مع العاطفة والأهواء، سواء أكانت وطنية أم حزبية أم قومية، بل من واجبه أن يلتزم النزاهة والتجرد التامَّيْنِ.

يقول الباحث إرنست كاسيرر: "المؤرخ الحقيقي يستبعد كل الاختراعات والخيالات من مؤلفاته ويلتزم الحقيقة التزامًا كليا.

و إذا جاز للمؤرخ أن يفسر الحوادث ويعللها، فإنه جائز له أيضًا أن يحاكم أعمال صناع التاريخ، أولئك الرجال من الأمة الذين يسهمون في صنع الأحداث وتوجيهها، وأن ينقد أعمالهم وتصرفاتهم، ويكوِّن الصورة الحقيقية لما قاموا به من منجزات، أو وقعوا فيه من أخطاء، فيعطي العناصر التي تساعد على الحكم لهم أو عليهم. فالمؤرخ يجمع إلى صفة العالم صفة القاضي المحقق الذي يفترض فيه أن يكون حريصًا على النزاهة. فكما يهتم القاضي بالتدقيق في الآثار التي يتركها المتهم، ويجمع الأدلة التي تدينه أو تبرئه،

ويتمعن في شهادات الشهود لكي تأتي نتيجة تحقيقاته صحيحة، كذلك يفعل المؤرخ بالنسبة لمادته التاريخية وآثاره. وآثار المؤرخ هي الأوابد والمسكوكات والمنقوشات والمنشآت العمرانية وشتى الوثائق التي تركها أجدادنا القدامى. وشهوده هم الأخباريون والرواة الذين عاصروا الحوادث أو اشتركوا فيها، وربما يكونون قد تركوا مذكرات دونوا فيها هذه الحوادث، أو نقلوا أخبارها عن أقرب الناس إليها، ووصلت إلينا في مصنفات قديمة، فيقع عليه أن يجمع هذه الآثار ويستنطقها، ويسمع لهؤلاء الشهود ويقابل بين أقوالهم، ويمحصها، وأن يتحلى بأتم ما يكون الوعي والحس التاريخي السليم لإدراك الصحيح من المزور من آثاره، والصادق من الكاذب من أقوال شهوده؛ لكي تأتي نتائجه سليمة صحيحة.

أولًا: المصادر الأثرية.

منذ قرن واحد من الزمان، كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام، تعتمد فقط على ما جاء في التوراة، وعلى ما كتبه القدامى من الأغريق والرومان، وكان هذا كله شيئًا قليلا لا يشفي غليل العلماء، حتى لو أضفنا إليه بعض ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الإسلام، أو ما نستطيع أن نحصل عليه من معلومات إذا درسنا الشعر الجاهلي، إلا أن الأمر سرعان ما بدأ يتغير عندما أخذت النقوش اليمنية طريقها إلى أيدي العلماء، وقد أصبح عددها الآن أكثر من خمسة آلاف نقش، فيها الكثير من المعلومات عن ممالك شبه الجزيرة العربية، كما وصل إلى أيدي العلماء كذلك عشرات الآلاف من "المخربشات" القصيرة على واجهات الصخور في شمال بلاد العرب، بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها ، فضلا عن تلك التي وجدت خارج شبه الجزيرة العربية كالنقوش الصفوية التي وجدت فوق جبال الصفا جنوب شرق دمشق، وهي قريبة –من حيث الخط واللغة وأسماء الآلهة– من النقوش الثمودية.

أضف إلى ذلك، تلك النقوش والكتابات غير العربية التي تطرقت إلى ذكر العرب، كما في بعض النقوش الآشورية والبابلية، والتي قدمت لنا معلومات قيمة عن بلاد العرب الشمالية، وعن علاقاتها بالإمبراطوريتين الآشورية والبابلية، كما عرفنا من هذه النقوش –مثلا– أن المرأة العربية قد وصلت منذ القرن الثامن قبل الميلاد إلى منصب رئيس الدولة، كالملكة "زبيبة" والملكة "شمس".

الأمر كذلك بالنسبة إلى النقوش المعينية أو السبئية في مصر أو في الحبشة، فضلا عن النقوش النبطية التي اكتشفت في بعض جزر اليونان، والتي تدل على المدى البعيد الذي بلغه أصحابها في النشاط التجاري

والبحري، ومن هذا النوع ذلك النقش الذي اكتشف عام ١٩٣٦م في جزيرة "كوس" ببحر إيجه، فضلا عن نقشين نبطيين وجدا بالقرب من "نابولي"، إلى جانب نقش ثالث وجد في "روما .

وهكذا أصبح لدينا الآن ما يساعدنا في تقديم صورة واضحة إلى حد ما، عما كان جاريًا في تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد، وحتى ظهور الإسلام، أي مدى ألف وخمسمائة سنة، سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الدينية أو الاقتصادية .

وهكذا تظهر لنا أهمية الآثار في دراسة التاريخ والحضارة، بل لعلها من أهم –إن لم تكن أهم– ما يجب أن يعتمد عليه المؤرخ في دراسته، فهي الشاهد الناطق الوحيد الباقي لنا من تلك الأيام الخوالي، ومن هنا كانت أهميتها في تقديم صورة للحياة العامة في كل مناحيها المختلفة، فمثلا عن طريق الكتابات المعينية الشمالية التي وجدت في "العلا" استطعنا أن نعرف منها أن المعينيين الشماليين كانوا يستخدمون الكتابة والديانة المعينية التي عرفها المعينيون الجنوبيون.

ويجب أن نلاحظ أن في هذه المصادر الأثرية نقاط ضعف كثيرة، منها:

"**أولًا**" أنها في معظمها تتشابه في مضمونها وفي إنشائها، لأنها تتعلق بأمور شخصية، كإنشاء بيت أو بناء معبد أو إقامة سور، ومن ثم فقد كانت أهميتها لغوية أكثر منها تاريخية، ولكنها في الوقت نفسه، قد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك، لولاها لما عرفنا عنهم شيئًا، كما قدمت لنا بعض المعلومات عن العلاقة بين القبائل بعضها بالبعض الآخر.

ومنها "**ثانيًا**" أن معظمها قد وجد في المعابد والقبور، ومن ثم فهي ذات صبغة دينية، ومنها "ثالثًا" أن النصوص اللحيانية عبارة عن "مخربشات" صغيرة، وبعضها –كما في النصوص المعينية الشمالية– ليست نقوشًا كاملة، وإنما هي أجزاء من نقوش، ذلك لأن معظم الأحجار التي دونت عليها النقوش إنما وجدت في غير أماكنها الأصلية، وقد استخدمها القوم أخيرًا كمواد للبناء، ومن ثم فقد وجدت في جدران المنازل وأسوار الحدائق في مدينة "العلاء"، وانطلاقًا من هذا، فإن الفائدة منها جد قليلة، كما أن قلة من العلماء هي التي كانت قادرة على ترجمتها.

ثانيًا: المصادر غير العربية.

أولًا: الكتابات اليهودية.

التوراة:

أو "التورة" كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى "التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية" والتي تنسب إلى موسى –عليه السلام– وهي جزء من العهد القديم، والذي يطلق عليه تجاوزًا اسم "التوراة" من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى، والتوراة، أو العهد القديم –تمييزًا له عن العهد الجديد كتاب المسيحيين المقدس– هو كتاب اليهود الذي يضم إلى جانب تاريخهم، عقائدهم وشرائعهم، ويقسمه أحبار اليهود إلى ثلاثة أقسام: الناموس والأنبياء والكتابات"١. هذا وقد تحدثت التوراة في كثير من أسفارها عن العرب وعلاقتهم بالإسرائيليين، كما جاء في أسفار التكوين والخروج والعدد ويشوع والقضاة وصموئيل –الأول والثاني– والملوك –الأول والثاني– وأخبار الأيام –الأول والثاني– ونحميا والمزامير وأشعياء وإرمياء وحزقيال ودانيال والمكابيين–الأول والثاني–.

غير أن التوراة عندما تتحدث عن العرب، فإنما تهتم بالقبائل والأماكن العربية ذات العلاقة الاقتصادية باليهود في بعض الأحيان، وذات العلاقة السياسية في أحوال أُخَر، ولهذا نجدها عندما تتحدث عن القبائل في شبه الجزيرة العربية، فإنما تتحدث عنها على أساس أنها قبائل كانت لها علاقة بالعبرانيين، ثم هي قبائل متبدية في المكان الأول، إلا عندما يتصل الأمر بقصة سليمان وملكة سبأ، فالأمر جد مختلف، ويصبح لهذه القبائل شأن آخر .

وعلى أي حال، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي، أن نتخلص تمامًا من الهالة التي أسبغها عليها المؤمنون بها، وأن ننظر إليها كما ننظر إلى غيرها من المصادر التاريخية، ولا يهمنا هنا أن تكون التوراة كتابًا مقدسًا أو لا تكون، فذلك شأن من يريدون أن يروها في نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك، ولكني يهمنا هنا ألا تكون كتاب تاريخ يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل، كما حاول فرضه على الماضي، وإذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد له سندًا، إلا فيما يزعم لها من قداسة، فالذي لا شك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ، وقيمتها ككتاب مقدس، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس تضاءلت الريبة في صدق ما تضمنته من وقائع وسهل وصول هذه الوقائع إلى

يقين الناس على أنها من حقائق التاريخ التي لا ينبغي الشك فيها، وقد أدركت الصهيونية العالمية هذه الحقيقية، فأحسنت استغلالها إعلاميًّا في الغرب المسيحي لدعم ما زعمت أنه حقها في إنشاء دولتها إسرائيل، ولكن أية قيمة تبقى لتاريخ لا يجد سندًا له، إلا فيما يزعم لكتاب واحد من قداسة، وهي بعد قداسة توجه إليها سهام الريب من أكثر من جانب، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما فوق مظان الشبهات .

ومن هنا فإننا سننظر إلى التوراة كمصدر تاريخي، دون أن نتقيد كثيرًا بتلك الهالة التي فرضتها على المؤمنين بها، إن من كتبوا التوراة المتداولة اليوم –كما يقول المؤرخ الإنجليزي سايس– كانوا بشرًا مثلنا، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيرًا عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق، كما أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه، وما دامت التوراة كتاب تاريخ، فليس هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها مناقشة حرة دون تمييز، يتقبل ما تقوله بصدر رحب، إن كان يتفق مع الأحداث التاريخية، ويوافق المنطق والمعقول، ويرفضه حين نذهب بعيدًا عن ذلك.

كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى:

ولد يوسف بن متى هذا "أو يوسفيوس فيلافيوس" في أورشليم عام ٣٧م وتوفي في روما عام ٩٨م "أو ١٠٠م"، وكان قد أرسل إلى روما في عام ٦٤م من قبل المحكمة العليا عند اليهود "السنهدرين" للدفاع عن الأحبار الذين سجنوا بأمر المفوض الروماني، ونجح في مهمته ثم عاد إلى القدس، واشترك في ثورة ضد الرومان انتهت بأسره، إلا القائد الروماني "فسباسيان" أنقذه.

وفي روما كتب يوسف كتابه الشهير اثار اليهود وحروب اليهودية في سبعة اجزاء كتب باللغة الارامية وترجم الى اليونانية في فترة لاحقة، وعلى الرغم من تحيز يوسف إلى قومه اليهود، فضلا عن الرغبة في إرضاء حُماته من أباطرة الرومان، وعلى اعتماده إلى حد كبير على كتاب العهد القديم في كتاباته، فإن لمؤلفاته قيمة تاريخية لا شك فيها، بخاصة عن الفترة التي عاصرها، والحروب التي شارك فيها، كما أن فيها معلومات ثمينة عن العرب والأنباط، لا نجدها في كتب أخرى قديمة، وكان الأنباط على أيامه يقطنون في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات وتتاخم بلاد الشام، ثم تنزل حتى البحر الأحمر، وقد عاصرهم يوسف هذا، وإن كان لا يهتم إلا فيما يختص بعلاقتهم باليهود، فضلا عن أن بلاد العرب عنده لا تعني سوى مملكة الأنباط.

كتابات الرحالة اليونان والرومان:

وتشتمل هذه الكتابات–على ما فيها من أخطاء– على معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب قبل الإسلام، وعن أسماء لقبائل عربية كثيرة، لولاها لما عرفنا عنها شيئًا، ويبدو أن أصحاب هذه الكتابات قد استقوا معلوماتهم من الجنود اليونان والرومان الذين اشتركوا في الحملات التي وجهتها بلادهم إلى بلاد العرب، ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل عربية وأقاموا بين ظهرانيها، وبخاصة في بلاد الأنباط، ومن التجار والبحارة الذين كانوا يتوغلون في تلك البلاد، وتعد الإسكندرية من أهم المراكز التي كانت تُعنى عناية خاصة بجمع المعلومات عن بلاد العرب وعن عادات سكانها، وما ينتج فيها لتقديمها إلى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط، وقد استقى كثير من كتاب الإغريق والرومان معارفهم عن بلاد العرب من هذه المصادر التجارية العالمية.

على أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين إنما كانوا يحكمون على ما يرونه ويسمعونه من وجهة نظرهم هم وحسب عقليتهم وإدراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها، فضلا عن أنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد التي كانوا يصفونها أو يتحدثون عن تاريخها، ومن ثم فقد اعتمدوا –كما أشرنا من قبل– على أفواه محدثيهم، وجلهم من مستوى لا يزيد عنهم كثيرًا في معرفته لتلك اللغات، أضف إلى ذلك أن كثيرًا منهم قد أساءوا فهم ما رأوه، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير أو تعليل ما سمعوه، أو وقعت عليه أبصارهم ، بل إن بعضهم قد ذهب إلى وجود أصل مشترك بين بعض القبائل العربية واليونان، ولعل إن بعضهم قد ذهب إلى وجود أصل مشترك بين بعض القبائل العربية واليونان، ولعل في هذه الفكرة –رغم سذاجتها– ما فيها من إشارات إلى علاقة ممعنة في القدم بين سكان شبه الجزيرة العربية، وبين سكان البحر المتوسط الشماليين .

ولعل أقدم من تحدث عن العرب من اليونان هو "إسكليوس" "٥٢٥–٤٥٦ق. م"، ثم جاء من بعده المؤرخ اليوناني المشهور "هيرودوت" "حوالي ٤٨٤–٤٣٠ق. م" الذي ندين له بأول عرض رحيب عن مصر ظل "، فإنه غير مطرد وقصصي كما أنه يميل إلى Euterpeسليمًا حتى اليوم، وأما كتابه الثاني "يوتربي" " الانحراف الذي يتسلسل إلى رواية ملحمة الكفاح بين الفرس والهلينيين، وقد تعرض "هيرودوت" لذكر العرب

عند الحديث عن الحروب التي قامت بين فارس ومصر على أيام الملك الفارسي "قمبيز" "٥٣٠-٥٢٢ق. م"، ورغم ما لهيرودوت من سمعة طيبة في عالم التاريخ، حتى دعاه "سيشرون" بأبي التاريخ.

أما "سترابو" "٦٦-٢٤ق. م" فهو من مواطني "بونتس" ويتحدث اليونانية، وقد عاش في الإسكندرية لبضع سنوات، وقد صحب صديقه الوالي الروماني "إليوس جالليوس" في حملته على بلاد العرب عام ٢٤ق. م، وأما كتابه عن بلاد العرب، فيتضمنه الكتاب السادس عشر من مؤلفه " Geographica" وقد وصف فيه مدائن العرب وقبائلهم على أيامه، كما قدم لنا وصفًا شيقًا عن الأحوال الاجتماعية والتجارية وقت ذاك، والأمر كذلك بالنسبة إلى حملة "إليوس جالليوس" -الآنفة الذكر- حيث قدم لنا وصف شاهد عيان لها، فضلا عن معلومات جديدة عن بلاد العرب التي مرت بها الحملة، وأخيرًا فعلينا أن نسجل أن "سترابو" كان كاتبًا مرحًا لا تعوزه المهارة .

وأما "أجاثار خيدس السفودي" -الجغرافي المؤرخ من القرن الثاني قبل الميلاد- فهو لم يستطع أن يتجنب الاستعانة "بهيرودوت" على نطاق واسع، وإن انساق وراء جمهرة نقاده ، وأما موسوعة " Historia Naturaiis " لـ "بليني الأكبر" "٣٢-٧٩"ق. م" فتجميع ضخم لقدامى المؤلفين، وقد نالت بلاد العرب والشرق نصيبًا من اهتمامه وهناك مؤرخ يوناني مجهول، وضع كتابًا سماه "الطواف حول البحر الأرتيري" وصف فيه رحلته في البحر الأحمر وسواحل بلاد العرب الجنوبية، وقد اختلف الباحثون في التأريخ لهذا الكتاب، فهو قد كتب في الفترة "٥٠-٦٠" على رأي، وفي حوالي عام ٧٥م على رأي آخر، وفي عام ٨٠م على رأي ثالث ، وفي حوالي عام ١٠٦م على رأي رابع، وفي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي على رأي خامس .

وأخيرًا هناك "كلوديوس بتولمايوس" الذي أخرج كتابه في الجغرافية حوالي عام ١٥٠م، والمعروف باسم "جغرافية بطليموس" وقد جمع فيه بتولمايوس "١٣٨٠١٦٥م" معلومات كثيرة عن بلاد العرب، فقسم الأقاليم حسب درجات الطول والعرض، كما زينه بخرائط تصور وجهة نظر العلم إلى العالم في عصره، ويشير العلماء إلى أن معلوماته عن حضرموت تشير إلى أن مصدره -ولعله تاجرًا أو مبعوثًا رومانيًّا- ربما قد أقام فترة في "شبوة"، ذلك لأن وصف "بتولمايوس" للأودية وللأماكن هناك يشير إلى معرفة بها، والأمر جد مختلف بالنسبة إلى "سبأ" التي لم تكن معلوماته، عنها تتفق ومستوى معلوماته عن حضرموت.

مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام:

القسم الثاني:

اولا: الكتابات المسيحية:

وترجع أهمية هذه الكتابات إلى أنها تؤرخ لانتشار المسيحية في بلاد العرب، وللقبائل العربية نفسها، فضلا عن علاقة العرب بالفرس واليونان، كما أنها تربط الأحداث بالمجامع الكنسية وبتاريخ القديسين، ومن ثم فقد حصلنا على تواريخ ثابتة، الأمر الذي افتقدناه إلى حد كبير في المصادر السابقة، على أنه يجب أن نلاحظ أن هذه الكتابات دينية، أكثر منها تاريخية، ومن هنا فقد غلبت عليها الصبغة النصرانية .

ولعل من أشهر هذه الكتابات مؤلفات "يوسبيوس" "٢٦٤-٣٤٩م" والذي كان واحدًا من آباء الكنيسة البارزين في عصره، وأول مؤرخ كنسي يعتد به، حتى لقب "بأبي التاريخ الكنيسي" وبـ"هيرودوت النصارى" ، وقد ولد في فلسطين، وربما في قيصرية التي كان أسقفا لها، وقد ساعدته صلاته بالإمبراطور قسطنطين "٣٠٦-٣٣٧م" وبرؤساء الكنيسة وكبار رجال الدولة إلى أن يعرف الكثير من الأسرار، وإلى أن يطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة، ومن ثم فقد أفاد منها فائدة كبيرة في مؤلفاته التاريخية.

، هذا بالإضافة إلى ما جاء بشأن العرب في المخطوطات السريانية المحفوظة في المتحف البريطاني ، فضلا عن كتابات المؤرخين النصارى -من روم وسريان- والذين عاشوا على أيام الأمويين والعباسيين، وقد كتبوا عن العرب في الجاهلية والإسلام فأمدونا بمعلومات لا نجدها في المصادر الإسلامية، وبخاصة عن انتشار المسيحية في بلاد العرب، وعن علاقة الروم بالعرب والفرس.

ثانيا: المصادر العربية الاسلامية.

١- القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله ، الذي: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ، نزل على مولانا وسيدنا رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ- منجما في ثلاث وعشرين سنة ، حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وكانت الآيات والسور تدون ساعة نزولها، إذ كان المصطفى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا ما نزلت عليه آية أو آيات قال: "ضعها في مكان كذا ... من سورة كذا"، فقد ورد أن جبريل -عليه السلام- كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي، فيقول له: يا محمد: إن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا"، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن "توقيفي" بمعنى أن ترتيبه بهذه لطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف، إنما هو بأمر ووحي من الله ".

وهكذا تمر الأيام بالرسول الكريم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ- وهو على هذا العهد، يأتيه الوحي نجمًا بعد نجم، كتاب الوحي يسجلونه آية بعد آية، حتى إذا ما كمل التنزيل، وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى، كان القرآن كله مسجلا في صحف، -وإن كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها فيما بين الدفتين، ولم يلزموا القراء توالي سورها- وكذا في صدور الحفاظ من اهل البيت والصحابة، هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبي المختار، والذين كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم في البيوت.

ليس هناك من شك في أن القرآن الكريم، كمصدر تاريخي، أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق، فهو موثوق السند -كما بينا آنفًا- ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، فقد دون في البداية بإملاء

الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتلي فيما بعد أمامه وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته ، ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية، لم تلتبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع .

، ثم إن الله -سبحانه وتعالى -قد تعهد- كما أشرنا آنفًا- بحفظه دون تحريف أو تبديل، ومن ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: "والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله"، أي بما طلب إليهم حفظه .

غير أن القرآن الكريم لم ينزل كتابًا في التاريخ، يتحدث عن أخبار الأمم، كما يتحدث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتي هي أقوم، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورًا للمسلمين، ومنهاجًا يسيرون عليه في حياتهم، يدعوهم إلى التوحيد، وإلى تهذيب النفوس، وإلى وضع مبادئ للأخلاق، وميزان للعدالة في الحكم، واستنباط لبعض الأحكام، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية، فإنما للعبرة والعظة .

إلا أن القرآن الكريم -مع ذلك- إنما يقدم لنا معلومات مهمة عن عصور ما قبل الإسلام، وأخبار دولها، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد، كما أننا نجد في تاب الله الكريم سورة كاملة تحمل اسم مملكة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام -وأعني بها سورة سبأ- هذا إلى أن القرآن الكريم قد انفرد -دون غيره من الكتب السماوية- بذكر أقوام عربية بادت، كقوم عاد وثمود ، فضلا عن قصة أصحاب الكهف وسيل العرم ، وقصة أصحاب الأخدود، إلى جانب قصة أصحاب الفيل ، وهجرة الخليل وولده إسماعيل، عليهما السلام، إلى الأرض الطاهرة في الحجاز، ثم إقامة إسماعيل هناك .

على أنه يجب علينا أن نلاحظ أنه رغم أن هدف القرآن من قصصه، ليس التأريخ لهذا القصص، وإنما عبرًا تفرض الاستفادة بما حل بالسابقين، ومع ذلك فيجب أن لا يغيب عن بالنا -دائمًا وأبدًا- أن هذا القصص، إن هو إلا الحق الصريح، وصدق الله العظيم حيث يقول: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً} ، ويقول: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} ويقول: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ} ، ويقول: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ}، ويقول: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} ويقول: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}.

٢- الحديث

الحديث هو ما ورد عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من قول أو فعل أو تقرير ، وللحديث مكانة كبرى في الدين تلي مرتبة القرآن الكريم مباشرة، وصدق رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حيث يقول: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبدًا، كتاب الله وعترتي اهل بيتي " ، والحديث الشريف مفسر للقرآن الكريم، ذلك أن كثيرًا من آيات الذكر الحكيم مجملة أو مطلقة أو عامة، فجاء رسول الله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ- فبينها أو قيدها أو خصصها ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} . وقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ، ومن هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، ثم هو أصدق المصادر التاريخية- بعد القرآن الكريم- لمعرفة التاريخ العربي القديم في عصوره القريبة من الإسلام بالذات .

وليس من شك في أن كتب الحديث وشروحها- رغم أنها مصدر فقهي أكثر منه تاريخي -مورد غني من الموارد الأساسية لتدوين أخبار الجاهلية فيما قبيل الإسلام، على أن الغريب من الأمر أن مؤرخي تلك الفترة قد تجاهلوا هذا المنهل الغزير، وبخاصة فيما يتصل بتاريخ عرب الحجاز، إلى حد كبير، ومن ثم فقد خسروا واحدًا من أهم وأصدق مصادر التاريخ العربي القديم.

٣-التفسير:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليب العرب وكلامهم ، يقول تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عربيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ، وهذا أمر طبيعي لأنه أتى يدعو العرب -بادئ ذي بدء- ثم الناس كافة، إلى الإسلام، ومن ثم فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها : تصديقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} .

ورغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي، وفي بيئة عربية كانت تفاخر من نواحي الحضارة بفن القول، فإنه لم يكن كله في متناول الصحابة جميعًا، يستطيعون أن يفهموه -إجمالا وتفصيلا- بمجرد أن يسمعوه، لأن العرب- كما يقول ابن قتيبة٥- لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض.

إلا أن هذا لا يمنعنا من القول بأن الصحابة على العموم كانوا أقدر الناس على فهم القرآن، لأنه نزل بلغتهم، ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها، ومع ذلك فقد اختلفوا في الفهم حسب اختلافهم في أدوات الفهم، وذلك لأسباب، منها "أولًا" أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم، وإن كانت العربية لغتهم، ومنها "ثانيًا" أن منهم من كان يلازم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ويقيم بجانبه، ويشاهد الأسباب التي دعت إلى نزول الآية، ومنهم من ليس كذلك، ومنها "ثالثًا" اختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم، فمن عرف عادات العرب في الحج في الجاهلية، استطاع أن يعرف آيات الحج في القرآن الكريم، أكثر من غيره ممن لم يعرف ذلك.

٤-كتب السير والمغازي:

وتعتبر هذه الكتب من المصادر المساعدة في التاريخ العربي القديم؛ ذلك لأن كُتاب السير والمغازي إنما كانوا يعرضون لذكر العرب الجاهليين والأنبياء السابقين، ويفصلون القول في نسب الرسول الكريم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ- وفي أخبار مكة وقريش، ومن يتصل بهما من أفراد وقبائل، كما كانت هذه الكتب تشتمل على الكثير من الشعر الجاهلي الذي كان يستخدمه كتاب السير والمغازي في الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون عنه.

ولعل أشهر كتب سيرة مولانا وسيدنا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هو كتاب ابن هشام، وهو أول كتاب عربي وصل إلينا يؤرخ لسيرة نبي الإسلام الأعظم- وكذا لتاريخ العرب قبل الإسلام- وقد اعتمد صاحبه "أبو محمد عبد الله بن هشام، المتوفى (ت٢١٣هـ)على الرواية الشفوية، فضلا عن كتب ضاعت، لعل أهمها كتاب "ابن إسحاق(ت١٥٠)، الذي كان أول من ألف في سيرة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور- واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له "بالأستاذ"، إلا أن هناك من سبقه في التأليف في المغازي، من أمثال "عروة بن الزبير" "ت١٢٤" و"شرحبيل بن سعد"، وهناك كذلك الواقدي، ومحمد بن سعد، صاحب "الطبقات الكبرى" "ت٢٣٠/ ٨٤٥"، والذي أخذ كثيرًا عن الواقدي حتى كان يسمى أحيانًا بكاتب الواقدي.

٥-الأدب الجاهلي:

ليس هناك من شك في أن أيام العرب في الجاهلية تعتبر مصدرًا خصبًا من مصادر التاريخ، وينبوعًا صافيًا من ينابيع الأدب ونوعًا طريفًا من أنواع القصص، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث، وما روي في أثناها من شعر ونثر وما اشتملت عليه من مأثور الحكم وبارع الحيل، ومصطفى القول، ورائع الكلام، فهي توضح شيئًا من الصلات التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الأمم كالفرس والروم، وتروي كثيرًا مما كان يقع بين العرب أنفسهم من خلاف، بل إنها سبيل لفهم ما وقع بين العرب بعد الإسلام من حروب شجرت بين القبائل، ووقائع كانت بين البطون والأفخاذ والعشائر.

ثم هي في أسلوبها القصصي وبيانها الفني مرآة صادقة لأحوال العرب وعاداتهم وأسلوب حياتهم، وشأنهم في الحرب والسلم، والاجتماع والفرقة، والفداء والأسر، والنجعة والاستقرار، وهي أيضًا مرآة صافية تظهر فيها

فضائلهم وشيمهم، كالدفاع عن الحريم والوفاء بالعهد، والانتصار للعشيرة وحماية الجار، والصبر في القتال والصدق عند اللقاء، وغير هذا مما نراه واضحًا في تلك الأيام.

ولو نظرت إلى الشعر الجاهلي في جملته وتفصيله، وبخاصة ما كان في الفخر والحماسة، والرثاء والهجاء، فإنك تجده قد ارتبط بتلك الأيام، فبينما كان الفوارس يناضلون بسيوفهم ورماحهم، ويجودون بنفوسهم رخيصة في سبيل أقوامهم، كان الشعراء من ورائهم يدفعون عن الأحساب بقصيدهم، ويطلقون ألسنتهم في خصومهم وأعدائهم، ويندبون بقوافيهم صرعاهم، والقتلى من أشرافهم وزعمائهم.

والشعر الجاهلي دون شك مصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، وقديمًا قالوا: "إن الشعر ديوان العرب" يعنون بذلك أنه سجلٌ سُجِلَتْ فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم، وإن شئت فقل إنهم سجلوا فيه أنفسهم، كما نستطيع أن نستدل به على شبه جزيرة العرب، وما فيها من بلاد وجبال ووديان وسهول ونبات وحيوان، فضلا عن عقيدة القوم في الجن وفي الأصنام وفي الخرافات.

من ثم فقد أصبحت كتب الأدب من المصادر المهمة في التاريخ العربي القديم، ففيها ثروة أدبية قيمة، قد لا نجد لها مثيلا في كتب التاريخ، وإن ما جاء بها عن ملوك الحيرة والغساسنة وكندة، أكثر مما جاء في كتب التاريخ، بل هو أحسن منه عرضًا وصفاءً، وأكثر منه دقة، ويدل عرضه بالأسلوب الأدبي المعروف على أنه مستمد من موارد عربية خالصة، لم يعكر صفوها شوائب من إسرائيليات ونصرانيات، فضلا عن أنه قد أخذ من أفواه شهود عيان، شهدوا ما تحدثوا عنه، بل نستطيع أن نذهب بعيدًا، فنقول أن كثيرًا من الأخبار ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسبتها، في أن حين أخبارًا خلقت خلقًا لأن ما قيل فيها من شعر كان سببًا في بقائها، ومن ثم فقد أصبح الشعر سببًا في تخليد الأخبار، لسهولة حفظه، ولاضطرار رواته إلى قص المناسبة التي قيل فيها.

٦- كتب اللغة:

تعتبر كتب اللغة من مصادر الحياة في الجاهلية؛ ذلك لأن اللغة العربية التي نكتب بها وننظم إنما هي من نتاج العصر الجاهلي، فهي من أجل ذلك لا تزال تدل بمفرداتها على أوجه الحياة والحضارة الجاهلية، هذا فضلا عن أن القاموس العربي ليس للمفردات اللغوية فحسب، بل هو في الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والفنية، ومن ثم فقد كانت كتب اللغة -ومعاجمها بصفة خاصة- مصادر مهمة للحياة في الجاهلية وربما كان من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أنه ربما لم تظفر لغة من اللغات بما ظفرت به اللغة العربية من ثراء في المعاجم وتنوع في مناهجها وطرق تبويبها، وأما قواميس العرب، فلعل أهمها، القاموس المحيط للفيروزآبادي، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للمرتضى الزبيدي، والصحاح للجوهري.

٧- كتب التاريخ والجغرافية:

لعل من الأمور الغريبة أن المؤرخين الإسلاميين قد انصرفوا عن تدوين التاريخ الجاهلي -ولا سيما القديم منه- وحين فعلوا لم تكن كتاباتهم إلا مقدمات لتواريخهم المفصلة والدقيقة للعصر الإسلامي، وحتى هذه المقدمات لم تكن مفصلة ولا دقيقة ، ذلك لأنهم لم يعتمدوا فيها على سند مدون، أو يأخذوها من نص مكتوب، وإنما كان عمادهم في ذلك أفواه الرجال، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان إليه، ذلك أن رواة الأخبار، حتى إن كانوا بعيدين عن الميول والأهواء، وحتى إن كانوا من أصحاب الملكات التي تستطيع التمييز بين الغث والسمين، فإن للذاكرة آمادًا لا تستطيع تجاوزها.

لقد تحدث أهل الأخبار عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم من الأمم البائدة، وتكلموا عن المباني القديمة وعن جن سليمان وأسلحته، ورووا شعرًا ونثرًا نسبوه إلى الأمم المذكورة، وإلى التبابعة، بل نسبوا شعرًا إلى آدم،

وزعموا أنه قاله حين حزن على ولده وأسف على فقده، ونسبوا شعرًا إلى إبليس، قالوا أنه نظمه في الرد على شعر آدم المذكور، وأنه أسمعه آدم بصوته دون أن يراه، ورووا أشياء أخرى كثيرة من هذه القبيل يصعب تصديقها مما جعل تاريخهم.

ان مؤرخو العرب يعتمدون في تأريخهم للعصور السابقة على الإسلام على الأدب العربي وعلى بعض آثار اليمن، حيث كان هناك من يزعم -صدقًا أو كذبًا- أنه بمستطيع أن يقرأ خط المسند، هذا إلى جانب اعتمادهم كذلك على بعض كتابات النصارى التي وجدت في الأديرة والكنائس في العراق والشام، وعلى ما تلقفوه من أفواه اليهود في اليمن والحجاز وغيرها، ومن أهم هذه الكتابات، كتاب أخبار اليمن لعبيد بن شريه الجرهمي، والذي كتب في أخريات أيام معاوية بن أبي سفيان،وكتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه "ت١١٠/ ٧٢٨" وكتاب الإكليل وصفة جزيرة العرب للهمداني "ت٣٤٠/ ٩٥١" وكتاب الأصنام لابن الكلبي "ت٢٠٤/ ٨١٩" وكتاب سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني٣، وكتاب ملوك حمير وأقيال اليمن لنشوان بن سعيد الحميري "ت٥٧٣هـ" .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المتصفح لما كتبه ابن إسحاق "ت١٥٠/ ٧٦٧م" وابن هشام "ت٢١٣/ ٧٢٨ أو ٢١٨/ ٨٣٤" في سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابن قتيبة "ت٢٧٦/ ٨٨٩" في "المعارف وفي عيون الأخبار وفي الشعر والشعراء وفي الإمامة والسياسة٥"، والدينوري في "الأخبار الطوال" واليعقوبي "ت٢٨٤/ ٨٩٧" في "التاريخ الكبير" والطبري "ت٣١٠/ ٩٢٣" في "تاريخ الرسل والملوك"، وابن عبد ربه "ت٣٢٧/ ٩٣٩" في "العقد الفريد"، والمسعودي "ت٣٤٥/ ٩٥٦" في "مروج الذهب وفي التنبيه والإشراف وفي أخبار الزمان.

وعلى الرغم من اهمية كتب التاريخ الاسلامي للمؤرخين المسلمين، الا ان هناك نقاط ضعف كثيرة طغت عليها، منها، أن الخلط من ناحية، والإسرائيليات من ناحية أخرى، قد لعبا دورًا كبيرًا في مسخ بعض هذا التاريخ الذي كتبه المؤرخون الإسلاميون عن العصور التي سبقت الإسلام بآماد طويلة.

ورغم ذلك كله -والحق يقال- فإن المؤرخين الإسلاميين قدموا لنا الكثير من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها في التأريخ لعصور ما قبل الإسلام، وأن كثيرًا منهم قد انتقدوا تلك المبالغات التي جاءت فيما كتب البعض منهم، كما أنه كثيرًا منهم كذلك قد نبهوا إلى الإسرائيليات والنصرانيات التي تسللت إلى التاريخ العربي القديم

المحاضرة الثالثة: دولة معين في اليمن: استاذ المادة: ا د. عباس فضل حسين المسعودي:

عصر دولة معين:

لقد دار- ولا يزال- جدل طويل حول عصر الدولة المعينية، والفرق بين السنوات التي يقدمها العلماء جد شاسع، حتى أننا نرى آراء تذهب إلى أنها إنما كانت بين الألف الثالثة والثانية ق. م، بينما تأخرت بها آراء أخرى إلى النصف الثاني من الألف الأولى ق. م، ذلك أن "إدوارد جلازر" يذهب إلى أن الأبجدية التي استعملها المعينيون في كتاباتهم إنما ترجع إلى الألف الثانية، وربما الثالثة ق. م، وهذا يعني أن تاريخ القوم إنما يرجع إلى ما قبل هذه الفترة.

ويتجه "فريتز هومل" إلى أن دولة معين قد بدأت فيما بين عامي 1500، 1200ق. م، وانتهت حوالي عام 700ق. م، بل نراه يحدد حوالي عام 1300ق. م، كبداية لظهور معين على مسرح التاريخ، وأما الحضارة والكتابة المعينية فيجب أن تكون أقدم من هذا التاريخ، وربما ترجع إلى منتصف الألف الثانية ق. م، ومن ثم فهو يرى أن دولة معين كانت سابقة لدولة سبأ

وأما بداية دولة معين، فلعلنا إن اعتمدنا على التوراة، لكان رأي الذين يرجعون بها إلى الألف الثانية ق. م، صحيحًا إلى حد كبير، ذلك أن سفر القضاة احد اسفار التوراة يحدثنا أن الصيدونيين والعمالقة والمعينيين كانوا يضايقون بني إسرائيل ، وخاصة فإن عصر القضاة سوف يكون في الربع الأخير من الألف الثانية ق. م، وإذا كان المقصود بالمعينيين هنا، الجالية المعينية في شمال غرب الجزيرة العربية، فإن دولة معين لابد وأن تكون قد قامت قبل هذه الفترة، وربما في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد.

ونقر أن في سفر أخبار الأيام الثاني، إشارات عن حرب دارت رحاها بين "يهوشافط"، من ناحية، وبين بني مؤاب وبني معون والمعينيين من ناحية أخرى ، وهذا يعني أن المعينيين كان لهم وجود على أيام الملك اليهودي "يهوشافط" "873-849ق. م"- أي في القرن التاسع قبل الميلاد- ووفقا لما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني "26: 7"، فإن الملك "عزيا" "77-740ق. م" قد حطم العرب الذين كانوا يسكنون في "حوربعل"، كما حطم أهل معين، ويفهم من نصوص التوراة هذه أن هؤلاء العرب كانوا يسكنون في الإقليم الواقع في الجنوب والجنوب الشرقي من البحر الميت -أي في نفس الإقليم الذي تقع فيه واحة معان ، ومعنى هذا -مرة أخرى- أن المعينيين كانوا أصحاب مستعمرات في شمال بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد، ولعل هذا كله إنما يعضد فكرة البداية المبكرة لقيام دولة معين في حوالي الألف الثانية قبل الميلاد، إلا إذا كانت "معون" التوراة، لا صلة لها بمعين بلاد العرب، وهو أمر لا يوافق عليه الكثير من الباحثين.

ملوك معين:

لقد توصل العلماء -عن طريق الرحالة والبعثات العلمية- إلى أسماء عدد من حكام معين، إلا أن الأمر لا يزال موضع خلاف، فيما يتصل بحكم هؤلاء الملوك، ولعل السبب في ذلك يرجع "أولًا" إلى عدم الاتفاق بين العلماء على فترة حكم دولة معين، وكذا على وقت سقوطها، ويرجع "ثانيًا" إلى أن الكتابات المعينية نفسها غير مؤرخة طبقًا لأي تقويم من التقاويم، فضلا عن أنها لم تقدم لنا الفترة الزمنية التي استغرقها حكم هؤلاء الملوك -كأفراد أو جماعات- ويرجع "ثالثًا" إلى أنها في جوهرها كتابات شخصية، أكثر منها سياسية، ومن هنا بات من الصعب على العلماء أن يتفقوا على قوائم ثابتة وصحيحة لملوك معين، أو لمدد حكمهم .

وقد رتب "هومل" ملوك معين في ثلاث أسرات، تتكون الواحدة منها من أربعة ملوك، ثم أسرة رابعة من ملكين ، بينما رتبهم "كليمات هوارت" في سبع طبقات، مجموعها 22 ملكًا، تتكون الأولى من أربعة ملوك، والثانية من خمسة، والثالثة من أربعة، والرابعة من اثنين، والخامسة من ثلاثة، بينما تتكون السادسة والسابعة من ملكين ، هذا وقد قدم لنا كذلك كل من "موللر" و"أوتووبير" و"موردتمان" و"ريكمانز" قوائم بملوك معين .

وأما "جون فلبي" فقد رتبهم في خمس أسرات، تفصل الواحدة عن الأخرى فترة مظلمة لا نعرف عنها شيئًا، كما أن فترة حكم كل أسرة تقوم على الفرض والتخمين، لا على الحقيقة والواقع، فهو مثلا يقدر أن فترة حكم الملك لا تتجاوز عشرين عاما،وأن فترة الانتقال بين الأسرة والأخرى تبلغ أيضًا عشرين عامًا ، ويضع "فلبي" على رأس الأسرة الأولى "إل يفع وقه"، متخذًا من عام 1120ق. م، بداية لحكمه، بينما يجعل" "تبع كرب" "650-630ق. م" الملك الأخير من الأسرة الخامسة .

وفي عام 1950م، قد لنا "وليم أولبرايت" قائمة تتكون من سبعة عشر ملكًا، ثم ذكر أن هناك ما لا يقل عن خمسة ملوك لا يعرف فترة حكمهم ، وفي عام 1953م، أعاد "أولبرايت" دراسة القوائم ثم قدمها لنا في ثلاث مجموعات، تتكون الأولى من "12 ملكًا"، والثانية من "6 ملوك"، والثالثة من "3 ملوك" .

ولعل من أهم الأحداث التي روتها النقوش ما كان في عهد الملك "أب يدع يثع" عن حرب وقعت بين الجنوب والشمال، ذلك أن نقوش "جلازر 1115، هاليفي 535، 578" إنما تتحدث عن حرب وقعت بين "ذيمنت" و"ذشامت" وكذا عن حرب أخرى وقعت بين "مذي" و"مصر" في وسط مصر ، وأن المقصود من الكتابة إنما هو شكر لآلهة معين "عثتر، ود نكرح" على نجاة القافلة المعينية من أضرار الحرب الأولى والثانية، ووصولها إلى "قرناو"

المراكز المعينية خارج اليمن.

لعل أن أهم المراكز المعينية خارج اليمن، ما كان في الشمال الغربي لبلاد العرب، حيث تقع واحة ديدان "العلا"، وفي واحة معون -وهي معان الحالية ، ويرى بعض الباحثين أن منطقة ديدان وما صاحبها من أراض إنما كانت بمثابة جزء من دولة معين، التي كان ملوكها يقومون بتعيين ولاة من قبلهم لإدارة هذه المنطقة يطلقون على الواحد منهم لقب "كبر" أي "كبير"، ويعهدون إليه بإدارة شئون المنطقة والمحافظة على الأمن فيها، ثم جمع الضرائب وإرسالها إلى "قرناو".

وكان بجانب هؤلاء الولاة، حامية عسكرية وجالية تتألف من الأوساط التجارية في تلك الواحات، وكانت هذه البقاع موردًا للكسب بالنسبة لأهل الواحات الأصليين، وللقبائل التي كانت تقيم في مجاوراتها، فكانت القبائل الشمالية تقدم لهذه الجاليات ما تحتاج إليه من القوت والثياب، وكان لهم -من أجل ذلك- نوع من السيطرة والسيادة .

وقد أدى ذلك إلى نتائج هامة، منها "أولًا" احتكاك الحكام المعينيين بحكام سورية وأشور عن طريق التجارة الرئيسي، ومن ثم فلم يعن الأخيرين بتفهم النظم السياسية المختلفة للواحات المتفرقة التي تقع على طول هذا الطريق، ولم يهتموا بالمفاوضات مع الملوك المحليين للإقليم وأشرافه، وإنما اتجهوا إلى ذلك المقيم الجنوبي الذي كان معروفًا لديهم بإشرافه على الإقليم، وكانوا يخلطون بينه وبين الملك الجنوبي -الذي كان هذا المقيم يعمل في خدمته- فذكروا اسمه، كما لو كان هو الملك الجنوبي، وهذا يفسر لنا الإشارات التي ترد في الوثائق السريانية والعبرية عن المعينيين والسبئيين، وتذكرهم كما لو كانوا يقيمون في الجنوب الشرقي للبحر الميت.

ومنها "ثانيًا" أن دولة معين إنما كانت -كما أشرنا آنفًا- تحكم كل ما يقال له الحجاز الآن إلى فلسطين، فلما ضعف المعينيون أصبحت سيادتهم مقصورة على ما يسمى "معين مصرو"، التي ما لبثت أن أصبحت بعد فترة تحت سلطان السبئيين، حين كتب لهؤلاء السيادة على الجنوب والشمال معا، وأخيرًا أصبح زمام الأمور بيد "اللحيانيين" الذين كانوا دولة مستقلة هي دولة "لحيان" ، والتي امتد نفوذها في أيام ازدهارها -فيما يرى البعض- على الأرض الممتدة غربي النفود، من شمال يثرب إلى ما يحاذي خليج العقبة، والذي أطلق عليه "أجاثر خيدس"، في القرن الثاني ق. م، اسم خليج لحيان، ثم حرف فيما بعد إلى "لات" "إيلات" .

وقد قام جدل طويل بين العلماء -ولا سيما المتخصصين منهم في الدراسات التوراتية- حول "معين موصرو" هذه، فذهب فريق منهم إلى أن كلمة "مصرايم" التي جاءت في التوراة، لا تدل على "مصر"، وإنما على الإقليم الواقع شمال بلاد العرب، والذي يمتد غربًا حتى حدود مصر الشرقية، ولهذا فإن ما يقال عن إقامة العبرانيين في مصر، إنما يعني إقامتهم في جنوب فلسطين، أو في شبه جزيرة سيناء وطبقًا لهذا الاتجاه، فإن خروج بني إسرائيل لم يحدث من مصر، وإنما من هذه المناطق المشار إليها، ذلك لأن الباحث اليهودي "هوجو فنكلر" إنما يرى أن اسم "مصرايم" لم يكن استعماله في البداية مقصورًا على الإشارة إلى مصر، ولكنه كان يشمل كذلك الإقليم الذي سماه الجغرافيون البابليون "مصر أو موصري"، والذي يقع جنوب البحر الميت، شمال شبه جزيرة العرب، ويمتد غربًا حتى حدود مصر الشرقية، ويضم جبل سعير ومدينة البتراء وأراضي مدين وأدوم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المعينيين، رغم أنهم شعب عربي جنوبي وأن دولتهم قد قامت في بلاد العرب الجنوبية، إلا أنهم قد انتشروا في شمال بلاد العرب، بل إن هناك من يذهب إلى أن نفوذهم قد امتد حتى الخليج العربي شرقًا وغزة غربًا، كما أن علاقاتهم التجارية قد امتدت إلى سورية وإلى بلاد اليونان ومصر، بدليل العثور على كتابات معينية في جزيرة "ديلوس"، إحدى جزر اليونان4، فضلا عن العثور على كتابات معينية أخرى في الجيزة، وعند قصر البنات -عند منتصف وادي الحمامات- وفي منطقة "إدفو" "بمحافظة أسوان"، وترجع بعض هذه الكتابات إلى أيام قمبيز "525-522ق. م"، وبعضها الآخر إلى أيام البطالمة

أهم المدن المعينية:

بقيت نقطة أخيرة تتصل بالمدن المعينية، والتي أهمها دون شك "قرناو" العاصمة -وتقع على مبعدة سبعة كيلو مترات ونصف إلى الشرق من قرية الحزم، مركز الحكومة الحالي في الجوف -وقد عرفت "قرناو" كذلك، كما عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم " Carna Karnna Katna"، وأما الأخباريون، فإن معين -في رأيهم- إنما هي من أبنية "التبابعة"، وأنها حصن بني في نفس الوقت مع "براقش" وبعد "سلحين" الذي بني -فيما يزعمون- في ثمانين عامًا .

وأما أهم آثار قرناو فمعبد "رصاف" الذي يقع خارج أسوار المدينة، فضلا عن آثار سكنى في مواضع متفرقة من المدينة، التي يرى البعض أنها ظلت مأهولة بالسكان حتى القرن الثاني عشر الميلادي، ثم بدأت الظروف تتغير، فأخذ سكان المدينة يتناقصون شيئًا فشيئًا حتى تحولت آخر الأمر إلى خرائب3.

وهناك كذلك المركز الهام "ياثل" "براقش"، والتي بقيت حتى أيام

"- آخر موضع Athiuia=Athrui همداني "334هـ=945م" فوصف آثارها وخرائبها، وهي نفسها مدينة " وصلته حملة إليوس جالليوس الروماني على اليمن في عام 24ق. م- وأما سبب التحريف في اسمها، فهو صعوبة لفظية، فيما يرى البعض ، ولعل اسم المدينة "ياثل" قد أصبح في العربية الفصحى "وثلة"، فقد ذكرها "الفيروزآبادي" في القاموس اسما لقرية، وقال من ناحية أخرى "وذو وثلة قيل" يعني من أقيال اليمن .

و"براقش" عند الإخباريين مدينة قديمة جدًّا، كان يسكنها عند ظهور الإسلام "بنو الأوبر من بني الحارث بن كعب ومراد" ، وأما سبب تسميتها ببراقش فموضع خلاف عندهم، فرواية تذهب إلى أنها سميت كذلك نسبة إلى "كلبة" عرفت ببراقش، بينما تجعلها رواية أخرى "امرأة" أسند إليها والدها تصريف أمور الدولة في أثناء غيابه في واحدة من غزواته، فما كان منها إلا أن اهتبلت الفرصة، فبنت مدينتي براقش ومعين تخليدًا لذكراها، إلا أن ذلك قد أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، وذهبت رواية ثالثة إلى أنها نسبة إلى براقش امرأة لقمان بن عاد.. وهكذا يحاول المؤرخون المسلمون تفسير الأمور ببساطة تدعو إلى العجب، إلا أنه مما لا شك فيه أن المثل المشهور "على نفسها جنت براقش" كان سببًا في هذه التفسيرات المتضاربة .

وهناك كذلك مدينة "نشق" "البيضاء" التي استولى عليها السبئيون في أيام "يدع أل بين" مكرب سبأ، وهي " التي ذكرها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان، وقد Mesca=Mescusنفسها -فيما يرى البعض- " استولى عليها "إليوس جالليوس" إبان حملته على اليمن .
وهناك كذلك "نشان"، "نشن" -وهي الخربة السوداء الحالية- وقد اكتشفناك ما يشير إلى أن المدينة كانت مركزًا " الذي ذكره بليني "32-79م" Labeciaصناعيًّا مهمًّا ، وهناك كذلك موضع "لوق" وهو -فيما يرى جلازر " من بين الأماكن التي استولى عليها "إليوس جالليوس".
دولة حضر موت:
تقع حضرموت إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب، ويصفها "ياقوت الحموي" بأنها ناحية واسعة في شرق عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السلام، وبقربها بئر برهوت، وبها مدينتان يقال لإحداهما "تريم" وللأخرى شبام"، وعندها قلاع وقرى .
وقد تردد اسم حضرموت في كتابات اليونان والرومان، مع شيء قليل أو كثير من التغيير أو التحري.
ترتبط حضرموت عند الأخباريين بشخصية ابن يقطان" وتلك في الواقع رواية التوراة حيث نقرأ في التكوين وفي أخبار الأيام الأول أن "يقطان ولد الموارد وشالف وحضرموت ورياح" .
وقد وصف صاحب كتاب "الطواف حول البحر الأرتيري" سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس، ومن ثم فلا يجمع التوابل منها إلا "دخول" ملك حضرموت، وإلا أولئك الذين كتب عليهم القصاص من جريمة ما ، ،ان لذلك صلة بالمعنى العبري للكلمة "دار الموت" والذي نقله مسلمة أهل الكتاب، كما نقلوا غيره إلى المصادر العربية ، ومن ثم فقد قيل اسم حضرموت في التوراة "حاضرميت"، وإن قيل كذلك، إنما سميت حضرموت نسبة إلى "حضرموت ابن يقطن بن عابر بن شالح ".
لكن"ياقوت الحموي يقدم لنا تعليلا آخر -توراتيًّا كذلك- يجعل حضرموت اسما لرجل، هو "عامر بن قحطان" وأنه كان إذا حضر حربًا أكثر فيها من القتل، ومن ثم فقد سمي بحضر موت ، أو أنها على اسم "حضرموت ابن قحطان" الذي نزل هذا المكان فسمي به، فهو اسم موضع، واسم قبيلة .
وأيًّا ما كان الصواب في هذه التعليلات، فمما لا شك فيه أن هناك دولة قامت في جنوب بلاد العرب تحمل اسم "حضرموت"، وأنها كانت تعاصر معين وقتبان وسبأ، إلا أن العلماء ما يزالون مختلفين على عصر هذه الدولة، فذهب نفر منهم إلى أنها إنما كانت في الفترة "450ق. م-290م، بينما ذهب فريق آخر إلى أنها إنما كانت في الفترة "450ق. م- القرن الثاني الميلادي" . هذا وقد قدمت لنا الاكتشافات الحديثة الكثير من أسماء ملوك حضرموت، وإن كان العلماء لم يتفقوا بعد على ترتيبهم ترتيبًا تاريخيًّا .
تدلنا النقوش التي تركها الحكام الحضارمة على مدى عنايتهم بالإصلاحات الداخلية، فضلا عن علاقتهم بالدويلات المجاورة، ومن ذلك الكتابة التي تركها لنا "شكم سلحان بن رضوان"، أحد كبار موظفي حكومة حضرموت، ربما في عهد "يشكر إيل يهرعش بن أبيع"، وفيها يتحدث الرجل عن بناء سور وباب وتحصينات لحصن" "قلت"- ويشرف على واد تقطعه الطريق بين مدينة "حجر" وميناء "قنا" -فضلا عن إنشاء جدار وحواجز في ممرات الوادي الرئيسية، وذلك لحماية منطقة حجر من أي غزو أجنبي، ولا سيما غزو الحميريين الذين كانوا يهددون حضرموت، ويتدخلون في شئونها، وأن ذلك العمل قد تم في خلال ثلاثة أشهر تقريبًا، كما أنشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من أي هجوم بحري، ومن ثم فقد أقام على ما يبدو حصونًا على لسانين بارزين في البحر لحماية الخليج الذي كان بينهما، كما حصّن المنفذ المؤدي إلى "ابنة" وإلى مدينة "ميفعة" حيث بنى سورًا قويًّا، فضلا عن برجين وباب وأماكن للجنود لاستخدامها إبان الدفاع عن المدينة.

هذا ويرى نفر من الباحثين أن الكتابة التي دونها صاحبنا "شكم شلجان" هذا، إنما هي أقدم كتابة حضرمية وصلت إلينا حتى الآن، وأنها ترجع إلى القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع قبل الميلاد3.
ويبدو أن حضرموت كانت تعاني في تلك الأيام من هجمات الحميريين المتتالية عليها، ومن ثم فقد لجأت إلى سد الأودية بجدر حصينة قوية، حتى يمكنها التحكم في المرور في الوادي، وبالتالي تستطيع منع الحميريين من غزوها، وكانوا في تلك الفترة يقيمون في جنوب وجنوب شرق لبنة وميفعة، قبل أن يتحولوا إلى الأماكن التي عرفت باسمهم قبيل القرن الثاني ق. م.
هناك نصوص تفيد أن "العزيلط" "وربما كان العزيلط الثاني" قد استقبل وفودًا من الهند ومن تدمر ومن الآراميين، بل إن الكتابة المعروفة ب"جام919" تتحدث عن مرافقة عشر نساء قرشيات له إلى حصن أنود، مما يدل على أن ملك حضرموت كانت له علاقات ودية -وربما تجارية في الدرجة الأولى- مع الهند وتدمر والآراميين، كما أن ذكر قريش هنا- إن كان المقصود بها قريش المعروفة صاحبة مكة- يعد أقدم ذكر لها في وثيقة مدونة، وإن كنا لا ندري ما هي صفة هؤلاء النسوة القرشيات.
وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن نقش "فلبي84" ذي الأهمية الخاصة بالعاصمة "شبوة"، حيث يتحدث فيه صاحبه "يدع إل بين بن رب شمس" بأنه من أحرار يهبأر -أي من صرحاء القبيلة- وأنه قد عمر مدينة شبوة وأقام بها، وبنى معبدها من الحجارة بعد الخراب الذي حل بها، وأنه -احتفالا بهذه المناسبة- قد أمر بتقديم القرابين في حصن أنود، فذبح "35 ثورًا، 82 خروفًا، 25 غزالًا، 8 فهود".
ومن أسف أن الملك الحضرمي لم يحدثنا عن سبب هذه المأساة التي حلت بشبوة، ومن ثم فقد تضاربت آراء الباحثين حوله، فذهب نفر منهم إلى أن ذلك إنما كان لأن سبأ قد استولت عليها، وأن قتالا ضاريًّا قد وقع بين الفريقين، بذل فيه "يدع إل بين" كل ما استطاع حتى لا تقع المدينة في أيدي الغزاة، ومن ثم فقد كان خراب المدينة وتدمير معبد الإله "سين" بها.
ذهب فريق آخر إلى أن "يدع إل بين" كان ثائرًا حضرميًّا ساءه أن تحتل سبأ عاصمة بلاده، ومن ثم فقد كانت الحرب الضروس بين الفريقين، مما أدى إلى خراب المدينة، وإعلان "يعد إل بين" نفسه ملكًا على حضرموت، وذهب رأي ثالث إلى أن الحرب إنما كانت بين الحضارمة أنفسهم، وأن "يدع إل بين" كان ثائرًا على الملك الشرعي في حضرموت -وليس في سبأ- وأن الحرب قد انتهت بزوال الأسرة الملكية السابقة، وتتويج "يدع إل بين" ملكًا على حضرموت، وإن كتب على المدينة أن تلاقي الأمرين في هذه الحرب الأهلية، وأن يدمر معبدها فيها، وأما تاريخ هذا النص فهو القرن الثاني الميلادي، على رأي "أولبرايت"، وبعد عام 200م، على رأي ريكمانز .
على أن "هومل" إنما يرى أن "يدع إل بين" إنما كان آخر ملوك حضرموت، وأن دولته قد دالت حوالي عام300م، وأن السبئيين قد ورثوها على أيام "شمر يهرعش" ، غير أن "فلبي" قد اعترض على ذلك، محتجًّا بأنه قد عثر في عام 1936م عند "العقلة" على نقش جاء فيه ذكر هذا الملك، كمؤسس لأسرة ظلت تحكم أجيالا، وكذلك كمؤسس لمدينة "شبوة" التي كانت من المدن المشهورة على أيام "سترابو" "66ق. م -24م" و"بليني" "32-79م"، هذا وقد عثر "هارولد إنجرامز" عام 1939م، على نقش عند أول وادي "عرمة"، ربما يرجع إلى ما قبل تأسيس شبوة -"وإن كان من المحتمل أن يكون لغير هذا الملك رغم تشابه الأسماء" -ومن ثم فإن تاريخ شبوه وقيام هذه الأسرة بحكم حضرموت، إنما يرجع إلى القرن الثاني ق. م، بخاصة وأن الظروف وقت ذاك، كانت تتطلب أسرة حضرمية جديدة، تبادر إلى تأسيس عاصمة جديدة، وتهيمن على طرق مواصلات تجارة البخور، بعد أن بدأت عوامل الضعف تدب في مملكة سبأ منذ القرن الثالث قبل الميلاد.

أما متى انتهت دولة حضرموت، وكيف أصبحت جزءًا من مملكة سبأ وذي ريدان، فذلك موضع خلاف بين الباحثين، فهناك من يرى أن ذلك إنما كان في عام 290، بينما يرى آخرون أنه كان على أيام "شمر يهرعش"، وبعد عام 300م، وأخيرًا فهناك فريق ثالث يذهب إلى أن سقراط حضرموت، إنما كان في القرن الرابع الميلادي، وقبل احتلال الحبشة الأول للعربية الجنوبية "الذي يرونه فيما بين عامي 335، 370م" بقليل.

أهم مدن حضرموت:

المذكورة في التوراة في نظر Sabtahومما لا شك فيه فان شبوه العاصمة تعد من اهم مدن حضر موت،وهي . وذكر "الهمداني" موضع "شبوة" في جملة ما Sawa أنها Hogarthبعض الباحثين . وزعم "هوكارت" ذكره من حصون "حضرموت" ومحافدها .

وقد ظن "فون مالتزن" وآخرون غيره أنها مدينة "شبام" . وزار "فلبي" "شبوة"، وعثر على آثار معابدها وقصورها القديمة، كما شاهد بقايا السدود التي كانت في وادي شبوة لحصر مياه الأمطار والاستفادة منها في إرواء تلك المناطق الواسعة الخصبة .

وتشاهد في "وادي أنصاص" وفي خرائب "شبوة" بقايا سد وأقنية للاستفادة من المياه وخزنها عند الحاجة إليها . وهناك سدود أخرى بنيت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية للاستفادة من مياه الأمطار وللسيطرة على السيول، وتحويلها إلى مادة نافعة تخدم الإنسان.

وأما حصن "أنود" "أنودم"، الموضع الذي يحتفل فيه الملوك عند تتويجهم وإعلانهم اللقب الذي يتلقبون به بعد توليهم العرش، فإنه موضع "عقلة" في الزمن الحاضر. وهو خربة على شكل مربع.

هناك كذلك مدينة "ميفعة"، العاصمة القديمة لحضرموت، وهي نفسها التي أشار إليها صاحب كتاب "الطواف حول البحر الأرتيري" على رأي بعض الباحثين، وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن تحصين "ميفعة" وعن تسويرها بالحجارة وبالصخر المقدد وبالخشب، فضلا عن الأبراج التي أقيمت حول السور لصد الغزاة، ومنها نص يشير إلى أن "هبسل بن شجب" قد بنى سور المدينة وأبوابها، وأنه قد أقام فيها بيوتًا ومعابد، وأن ابنه "صدق يد" قد زاد في أسوراها وأحكم بناءها، على أن الخراب سرعان ما حل بها في أي عيزان . القرن الرابع الميلادي، ثم حل مكانها موضع عرف بـ "

وهناك مدينة "قنا" ميناء حضرموت الرئيسي -حيث كان يجمع اللبان والبخور، ثم يصدر منها برًّا وبحرًا، وأما موقع "قنا" فهو إلى الشرق من "عدن"، وقد ذهب نفر من الباحثين إلى أنه في مكان "حصن الغراب" الحالي، وكان يعرف

وهناك مدينة "مذب" أو مذاب"، وقد اشتهرت بمعبدها المكرس لعبادة إله القمر "سين" وتقع بقاياه اليوم في الموقع المعروف باسم "الحريضة"، وقد قامت ثلاث رحالات أوربيات "ج. كاتون طومسون، أ. جاردنر، ف. شترك" في عام 1937م، برحلة إلى حضرموت، وهناك في وادي عمد، مقابل حريضة، كشفن عن معبد إله القمر "سين"، كما عثرن على عدد من الكتابات تبين أن بعضها سبئية، فضلا عن العثور على بعض القبور والأواني الفخارية والخزفية، التي يظن أنها ترجع إلى القرن السابع أو الخامس قبل الميلاد ، إلا أن البعثة لم تتوصل إلى تاريخ بناء المعبد بصورة نهائية.

هناك في حضرموت أماكن قديمة "حضرمية وسبئية"، ينسبها القوم إلى عاد وثمود، فقرية "سنا" يرون أن بها قبر هود عليه السلام، وفي موضع "غيبون" خرائب يظنها القوم من آثار عاد، بينما يرى الأثريون فيها بقايا مدينة حميرية، وعند ملتقى وادي "منوة" بوادي "ثقبة" صخور مهيمنة على الوادي، نقرها أصحابها لتكون مأوى للجنود، تمكنهم من مهاجمة أعدائهم على غرة، وعلى مقربة من "تريم" خرائب قديمة، لعلها في أغلب الظن من آثار معبد قديم، هذا فضلا عن مواقع أثرية أخرى مثل حصن "عر" و"حدبة الغصن" و"المكنون"

و"ثوبة" وغيرها، مما يدل على أن حضرموت قد حصنت حدودها، وأقامت عليها الحاميات العسكرية لحماية نفسها من أي طامع فيها، أو ثائر من داخلها، وأن هذه الحصون قد أقيمت في مواقع منيعة على التلال وقمم الجبال والمرتفعات، حتى تستطيع بسهولة الإشراف على السهول ومضايق الأودية.

دولة سبأ:

أن السبئيين كانوا قبل ذلك يشكلون دولة مستقلة إلى جانب دولة معين، بدأت تخمينًا من عام 950 ق. م. ومعنى ذلك أن أوائل حكامهم كانوا يعاصرون العهد الأخير من ملوك المعينيين. ولنلاحظ أن المعلومات عن دولة سبأ وافره نوعًا ما قياسًا لما هو معروف عن الدول التي سبقتها؛ لأن النقوش العائدة للعهد السبئي قد توفرت للعلماء أكثر من غيرها .

ويستدل من نقوش آشورية عثر عليها في بلاد الرافدين عن عهد "تغلات فلاسر" الثالث "745– 727 ق. م" ومن عهد "سرجون" الثاني "721 – 705 ق. م" وغيرهما من ملوك آشور أنهم قد استوفوا الجزية من بعض ملوك السبئيين. وبما أن الآشوريين لم يصلوا في فتوحهم إلى أرض اليمن، فيظهر أن هذه الجزية إنما هي عبارة عن رسوم أو هدايا كان السبئيون يقدمونها إليهم عن تجارتهم التي كان يحرصون على إيصالها إلى الشمال ولا سيما بلدة غزة التي كانت مخزنًا لتصريف السلع اليمنية في حوض البحر الأبيض المتوسط، أو ربما كان المقصود بما ذكر في النقوش قبائل عرفت باسم "سبأ" أو "سبأي" يظن الباحثون أنها كانت قاطنة في الشمال العربي، سيما وأنهم استنتجوا أن أصل السبئيين من الشمال، وهو الرأي المرجح لدى العالم المستشرق "هومل" الذي استند على نقش عثر عليه "غلازر"، فقال: إن أصلهم من القبائل العربية التي كانت تسكن منطقة الجوف "في الشمال" نزحوا لسبب من الأسباب –وقد يكون بضغط من الآشوريين– إلى الجنوب اليمني واستوطنوا فيه، ثم أخذوا في بناء دولتهم وفي التوسع، حتى قضوا على دولة معين، وحلوا محلها، وحكموا البلاد بأجمعها .

لقد اتفق الباحثون على تقسيم حكم السبئيين إلى دورين:

الأول: يمتد من 950 إلى 630 ق. م، وهو الدور الذي كان حكامهم يلقبون فيه باللقب الديني "مكرب"، وكانت عاصمتهم مدينة "صرواح" الواقعة بين مدينة مأرب وصنعاء، ومكانها اليوم مدينة "خريبة" شرق صنعاء.

الثاني: من 630 إلى 115 ق. م، وهو الدور الذي تغلبوا فيه على معين وورثوها ولقبوا بألقاب "ملوك"، وأصبحت عاصمتهم مدينة "مأرب" التي تقع على بعد 100كم إلى الشرق من صنعاء.

وقد بُدِئَ ببناء سد مأرب في أواخر الدور الأول، وبقي قائمًا حتى أيام الدولة الحميرية التي قامت على أنقاض دولة سبأ منذ 115 ق. م. وقد ظهر من الكتابات المنقوشة على السد أن أوائل بناته من المكربين "سمه علي ينوف"، ثم ابنه "يتعمر بيين" ثم "كرب آل بيين" ولم تزل الإضافات تترى عليه في عهد الملوك حتى اكتمل حوالي عام 300 م في عهد الحميريين.

إن وجود هذا السد في بلاد اليمن دليل واضح على أن السبئيين كانوا على جانب كبير من الحضارة ومن التقدم، في فن البناء والهندسة, بالإضافة إلى اهتمامهم بالزراعة. وقد ورد له ذكر في القرآن الكريم {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} . كما شاهد الهمداني أنقاضه في القرن الرابع الهجري، ووصفه في كتابه "الإكليل" وصفًا ينطبق على ما وجده المكتشفون الحديثون من أنقاضه. وقد حدثنا عن مشاهداته لمقاسم الماء من مداخر السد قائلًا: "كأن صانعها قد فرغ من عملها بالأمس.... ورأيت أحد الصدفين، وهو الذي يخرج منه الماء، قائمًا بحاله على أوثق ما يكون، وإنما وقع الكسر في العرم، وقد بقي قسم من العرم..".

بُني سد مأرب في مضيق بين جبلين يسمى كل منهما باسم "بلق" وفي وادٍ يسمى "وادي أذنة" الذي كانت تندفع فيه السيول نحو الشمال الشرقي، ومكانه يبعد مسيرة ثلاث ساعات عن "مأرب". وقد زار أنقاضه كل من "أرنو وهاليفي وغلازر" ووصفوه بما يتفق مع رواية الهمداني. وهو في مكان يرتفع 3900 قدم فوق سطح البحر، بطول 800 ذراع وعرض 150 ذراعًا، وارتفاع بضعة عشر ذراعًا، مبني بالحجارة الضخمة، ويستند

ند طرفيه على الجبلين حيث صنعت له فتحتان في الجانبين، تتسرب منهما المياه في أقنية خاصة تتجه نحو الجنتين. وكان للفتحات أبواب صنعت من عوارض الخشب والحديد، تفتح لدى المباشرة بالسقاية .

ويظهر أنه بدأ يتصدع فيما بعد ويرمم، وآخر ما كان من ذلك عام 539 م في عهد الاحتلال الحبشي، ثم قلت العناية به في أواخر هذا العهد فتهدم.

بالرغم من أن دولة سبأ قد كرست جل عنايتها للزراعة والتجارة والعمران، فإن النصوص التي عثر عليها في أنقاضها، وبخاصة منها ما وقع في يد "غلازر" تشير إلى حروب خاضها مكربوها في أواخر الدور الأول، ضد جيرانهم من الأذواء والأقيال. كان الهدف من هذه الحروب توسيع رقعة الدولة، والقضاء على الإمارات المستقلة المجاورة وصهرها، ولا سيما إسقاط دولة معين وابتلاعها. فهناك مسلة مرمرية، ونص معروف باسم (صرواح) نقوش كتابية تشير إلى هذه الحروب المكرب "يثع أمر بيين" قد انتصر على القتبانيين فقتل الآلاف، وهاجم مملكة معين وضم بعض مقاطعاتها. والمكربان "مهأمرم" و"أمرم" هاجما بعض القبائل التي لم تخضع لسبأ، وجرت معها معركة قرب نجران أسفرت عن قتل عشرات آلاف الأعداء واغتنام عشرات الآلاف من رءوس الماشية، وإحراق وتخريب عدد من المدن في نجران أو حوالي يثيل .

ويستدل من النقوش أن "كرب آل وتر" كان آخر المكربين وأول الملوك، فمن الرقم ما يحمل اسمه مقرونا بلقب "مكرب"، ومنها ما يقرنه بلقب "ملك" والنقوش –ولا سيما نص "صرواح"– تفصح عن حروبه الكثيرة وانتصاراته المتتالية على جيرانه، وبخاصة معين وأوسان وقتبان التي ذكر أنها كانت حليفة له، ولكن يظهر أنه حاربها أيضا

عندما شعر بازدياد قوته وهو يهاجم مملكة "أوسان" –وكانت تقيم في الجنوب الغربي من اليمن، وبلغت من القوة أنها بسطت سيطرتها على منطقة حضرموت وعلى الطرق التجارية المتفرعة عنها– فيحرز انتصارات كثيرة، يقتل ويأسر الآلاف، وينزع المناطق الأرضين منها ومن معين وقتبان. وقد وصفه الدكتور جواد علي بكونه جسورًا مغامرًا أولع بالفتح والتوسع حتى انتهى به الأمر إلى إسقاط دولة معين، وبسط سلطانة بالحرب على جميع القبائل والمشيخات، فأسس مملكة واحدة تجمع كل ممالك اليمن تحت سيطرته ونفوذه، فاتخذ لنفسه لقب "ملك" مستبدلًا إياه بلقبه السابق "مكرب" وكان ذلك سنة 630 ق. م .

إن الكتابات التي عثر عليها في خرائب اليمن قد تعرضت لأسماء ملوك سبأ، وقد عرف منهم حتى الآن 20 ملكًا بالإضافة إلى 17 مكربًا، وكان لهم ألقاب تضاف إلى أسمائهم مثل: وتار "العظيم" بيين "الممتاز"، ذرح "الشريف"، ينوف "السامي". إنما لم يستطع العلماء معرفة الكثير من أخبارهم، وأكثر ما وقفوا عليه هو ما يتعلق بعنايتهم بالتجارة والعمران من بناء قصور ومعابد وإضافات لسد مأرب وغير ذلك. ومن المستندات الأثرية ما يدل على عنايتهم بالتنظيم الإداري والمالي, من ذلك قانون وضع في عهد الملك "يدع آل بيين" ابن الملك "كرب آل وتر" يتعلق بقبيلة "سبأ" وسائر القبائل، حددت فيه شروط استغلال الأراضي واستثمارها في مقابل ضرائب معينة تدفع للدولة, وقيام القبائل بالخدمة العسكرية، وتقديم عدد من الجنود لخدمة الدولة. وتوقيت صدور مثل هذا القانون مباشرة بعد فترة التوسع، يدلنا على تفرغ الدولة للتنظيم بعد الاضطرابات والحروب.

وقد استنتج الباحثون من هذا القانون أن الرؤساء هم الذين كانوا يلتزمون بدفع الضرائب عن قبائلهم، وتقديم الرجال للخدمة العسكرية، إذ كانت أسماؤهم تذكر في الأوامر الملكية المتعلقة بالضرائب، إشعارًا منهم بموافقتهم والتزامهم بدفعها للدولة وفق الشروط التي تم الاتفاق عليها .

أما من حيث التجارة فإن السبئيين كانوا ملاحين ماهرين وتجارًا نشيطين، عبروا المحيط الهندي إلى الشرق الأقصى، معتمدين على معرفتهم بمواقيت حركات الرياح الموسمية التي تتبدل اتجاهاتها بحسب المواسم والفصول، فاحتكروا التجارة مع الهند، وجنوا من ذلك الأرباح الطائلة، إذ كان لهم أسطول تجاري يجوب موانئ الهند والصين والصومال وسومطرة وغيرها، وينقلون على متنه التوابل والأفاويه وغيرها من سلع الهند، وبعد أن يفرغوها في ساحل عمان يسيرون بها برًّا حتى البحر الأحمر، ومن هناك ينقلونها إلى مصر على ظهور السفن عن طريق البحر الأحمر.

كما سيطر السبئيون على الطرق التجارية التي تصل اليمن بالشمال، وهي التي تسير من مدينة شبوة في حضرموت إلى مأرب فمكة فالبتراء فغزة، وقد بقي رخاء السبئيين مستمرًا لمدة طويلة، فزهدت بلادهم، وازدهرت

واتسعت ثروتهم، واتجهوا إلى العمران فبنوا السدود والخزانات والقصور والهياكل والمعابد وأحاطوها بالأسوار وتفننوا في تزيينها وزخرفتها وتجميلها، وغرسوا الحدائق حولها، واستتموا أسباب القوة التي تميز بها عهد المكربين.

وهكذا إلى أن برز في وجه حكام سبأ في العهد الملكي من ينافسهم من الأمم الأخرى، كالبطالمة حكام مصر الذين استطاعوا أن يجدوا لهم منفذا إلى البحر الأحمر فالمحيط الهندي، فلم تعد الملاحة في هذه الجهات حكرا للسبئيين، لا سيما وأن البطالمة قد استطاعوا إحياء القناة الفرعونية القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر، فصارت سفنهم تجتازها وتسير برحلاتهم إلى هذا البحر، وحاولوا خوض غمار البحر الهندي، للوصول إلى أرض التوابل دونما حاجة إلى وساطة السبئيين، والحصول على التوابل والأفاوية التي كان الأوروبيون من سكان حوض البحر الأبيض المتوسط يقبلون على شرائها إقبالا شديدا. لكنهم فشلوا في تحقيق مآربهم لجهلهم سر تقلبات الرياح الموسمية، وخصائص المد والجزر في ذلك المحيط، إنما نجحوا مع ذلك في ارتياد البحر الأحمر وفي منافسة التجارة السبئية فيه؛ فانحط بذلك شأن السبئيين لزوال أهمية الطريق البري الذي كانوا يسيطرون عليه, وحل محله الطريق البحري من حيث الأهمية، إذ اتصل البطالمة بموانئه وبدءوا يتعاملون مع أهلها في التجارة. لهذه الأسباب تناقصت أهمية مدن سبأ، لتنتعش من التجارة البحرية المدن اليمنية الواقعة على شاطئ البحر الأحمر، الأمر الذي أدى إلى بروز أمرائها وازدياد نفوذهم، وكان من هؤلاء أذواء ريدان وأذواء حمير وغيرهم وبدأت المنافسة السياسية بين هؤلاء وبين ملوك سبأ، لا سيما وأن الوهن والانحطاط قد سلكا طريقهما إلى الدولة السبئية بسبب زوال العوامل الاقتصادية التي أدت إلى انتعاشها وازدهارها وقوتها –كما قدمنا– فاضطر قسم كبير من القبائل إلى النزوح عن البلاد، وتعاقب على العرش ملوك ضعفاء لم يستطيعوا السيطرة على الاضطرابات الداخلية التي عمت البلاد طولًا وعرضًا.

ومن الرجوع إلى النصوص القديمة نلاحظ أن أسباب الضعف الاقتصادي الذي أصاب مملكة سبأ يتضافر ويتشابك مع الأسباب الاجتماعية والسياسية ليئول أمر المملكة في النهاية إلى الزوال.

طبيعة النظام السياسي

كان النظام السبئي السياسي في عهد المكربين يقوم على أساس العصبية القبلية لأسرة سبأ ممتزجة مع الدين، فهو نظام يمزج بين السياسة والدين. والمجتمع مكون من مدن وقرى وقبائل لكل منها آلهتها الذي يجمع شملها فهو حاميها، بدليل أن السبئيين كانوا يرفقون اسم الإله بكلمة "شيمم" ومعناها: حامٍ وناصر، أي: إن الإله حامي أتباعه وناصرهم، أو بكلمة "ألم" أي: إله الطائفة، أو بكلمة "صبلم" الطائفة ويعني: الرباط المقدس الذي يجمع

شملها. وكان الإله "ألمقة" الذي يرمز إلى القمر، هو الإله القومي لسبأ، مع وجود آلهة أخرى إلى جانبه مثل "ذات حميم" و"ذات بعدن" وهما رمزان للشمس، و"عثتر" الذي يرمز إلى الزهرة.

غير أننا ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد لا نلبث أن نشاهد أن أسرًا جديدة قوية تظهر على مسرح الحوادث، وتنافس الأسرة السبئية "لأسباب اقتصادية وسياسية" وتلعب دورا خطيرا في سياسة اليمن، كما يلمع في سماء نفوذ الدولة الجديدة آلهة جديدة لم يكن لها شأن في الماضي، إنما برزت أهميتها بفضل الأسر الجديدة التي كانت تعبدها، فنقرأ أسماء آلهة مثل "تالب ريام"، "ذو سماوي" –وكانت تخص قبيلة همدان التي لعبت الدور الرئيسي في سياسة هذا العهد– كما نقرأ أسماء آلهة أخرى تخص غيرها من القبائل.

إن ظهور هذه الأسر الجديدة والآلهة الجديدة ليس من قبيل الصدفة، إنما هو دليل على تطور خطير قد حدث في السياسة والاجتماع والدين، وظهور الهمدانيين كمنافسين للقبائل والعشائر التي أقامت عرش سبأ لم يكن من قبيل الاتفاق, ولم يكن من السهل على سبأ أن تقبل بآلهة جديدة تنافس إلهها القومي "ألمقة" لولا أن يكون ثمة عامل قاهر هو عامل القوة الذي زعزع التوازن السياسي في الدولة. والواقع أن دولة المكربين التي بدأت على أساس ثيوقراطي "ديني" صارت تضم –نتيجة للتوسع والفتح– عناصر غير سبئية وأراضي جديدة لم تكن من صميم الأراضي السبئية. كما ضمت إمارات كانت –بطبيعة كيفية الضم– معادية لها، إذ اندمجت معها إثر حركة الفتح، فبزغت مفاهيم سياسية جديدة حطمت ما قبلها من مفاهيم قبلية ضيقة مستندة إلى أساس التعصب الشديد لمدينة أو قبيلة بعينها، وأحلت محلها مفاهيم جديدة بنيت على تفكير أوسع ونظرة أعمق وأشمل للواقع. لكن هذه المفاهيم سرعان ما ترجمت إلى أعمال عنف تركت أثرها السيئ على المملكة.

فمن النصوص المكتشفة نستنتج أن مملكة سبأ قد وقعت في أواخر أيامها فريسة للفوضى وهدفًا للأطماع الخارجية، وأقضت مضجعها المنازعات التي وقعت بينها وبين جيرانها الريدانيين والحضارمة والقتبانيين والحميريين الذين شعروا بكياناتهم السياسية المتميزة –بعد أن أفاقوا من صدمة قضاء السبئيين على استقلالهم– فنتج عنها حروب طويلة تفاقم أمرها؛ كان منها ما وقع بين سبأ و"ذو ريدان" وانتصرت فيها سبأ فضمت إمارة "ذو ريدان" فأصبح ملكها "ملك سبأ وذو ريدان". لكن الأحوال لم تهدأ، بل أعقبها حروب أخرى أشمل وقعت بين ملوك سبأ و"ذو ريدان" من جهة وحضرموت وقتبان من جهة ثانية، وقد اشترك فيها هؤلاء الملوك وشعوبهم وقبائلهم وانتشرت في جميع أنحاء البلاد.

عندئذٍ أصبح الملك السبئي مضطرًا إلى الاستعانة بأمير قبيلة همدان "يرم أيمن" –وكانت مكانته قد ارتفعت في نظر الملك– لفض النزاع بينه وبين أعدائه، فأدى هذا الأمير دوره بنجاح وانعقد بين الطرفين صلح لم يعرف أكانت شروطه في جانب سبأ أم في جانب خصومها.

لكن "يرم أيمن" لم يدع الفرصة تفوته، بل اهتبلها، مستغلًا نفوذه الذي بلغ الأوج في البلاط الملكي، ونفوذ قبيلته الذي توسع بين القبائل؛ لينافس الملك السبئي على العرش.

الدولة الحميرية

إن ثمة اتفاقًا في وجهة النظر بين المؤرخين على تقسيم الدولة الحميرية إلى دورين:

الدور الأول: وكان لقب الملوك فيه "ملك سبأ وذو ريدان" كما ظهر في النقوش التي عثر عليها في أنقاضهم، والتي يستدل منها أن أول ظهور لهذا اللقب كان سنة ١١٥ ق. م. غير أن هذا اللقب قد خضع لتطور جديد منذ عام ٣٠٠ ق. م. إذ أضيفت إليه أسماء بعض المناطق الأخرى، فأصبح "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت"، وفي فترة أخرى أضيف "يمنات وعربهم في الجبال وتهامة" ولذا جنح المؤرخون إلى جعل سنة ٣٠٠ م بدءًا لعهد جديد لليمن. وقد في الدولة الحميرية سموه: الدور الثاني، وقالوا: إن نهايته كانت سنة ٥٢٥ م الموافقة للاحتلال الحبشي اتخذت الدولة الجديدة مدينة ريدان التي عرفت فيما بعد باسم "ظفار" عاصمة لها، وهي تقع على بعد مائة كيلومتر إلى الشمال الشرقي من "مخا" على الطريق الذي يصل بينها وبين صنعاء.

الدور الأول: "١١٥ ق. م – ٣٠٠ م":

تمتعت الدولة في هذا الدور بالاستقرار والازدهار الاقتصادي, ففي الميدان الاقتصادي أفادت الدولة الحميرية من الضعف الذي بدأ يدب في دولة البطالمة في أواخر أيامها، لا سيما وأن قوتها قد أخذت في التلاشي أمام الضغط الذي لقيته من الدولة الرومانية التي ما لبثت أن تغلبت عليها، وانتزعت منها سورية ومصر في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. لكن الفرصة لم تتهيأ لها في بادئ الأمر للاستقرار والاهتمام بالنشاط التجاري، فانفتح المجال بذلك لعودة التجارة اليمنية إلى سلوك الطريق البري القديم إلى جانب الطريق البحري، فلعب الحميريون دورا مهمًا في هذا الميدان، وعادوا إلى فرض السيطرة العربية على النشاط التجاري بين الشرق والبحر الأبيض المتوسط عبر الطريقين البحري والبري، فجنوا الأرباح الطائلة وجمعوا الثروات الضخمة، وازدهرت دولتهم أيما ازدهار، إذ أنشئوا القصور الشامخة، وأبرزها قصر غمدان الذي ذكر الهمداني أنه بني على عشرين طابقًا، ووصفه وصفًا يظهر أنه مبالغ فيه، وبنوا المعابد الفخمة وتفننوا في تزيينها وتجميلها، وغرسوا الحدائق حولها, واستحالت بلادهم إلى جنان وارفة الظلال عامرة البنيان، كما اقتنوا أفخر الأثاث والرياش وتمتعوا بنعيم الحياة.

وفي الميدان السياسي شعرت الدولة الحميرية في بسط سيطرتها على كافة أرجاء الجنوب اليمني، وامتد نفوذها إلى خارجها، إذ هاجر جماعة من اليمنيين إلى أرض كوش "الحبشة حاليا" لأغراض تجارية، وأنشئوا هناك مستعمرات، وكونوا جالية يمنية نشرت بين الأحباش ثقافة لم يكن بوسع هؤلاء أن ينشئوها، وتمكنت في القرن الأول قبل الميلاد من إقامة دولة سميت "دولة أكسوم" التي اتخذت الخط اليمني "المسند" لكتابة لغتها التي عرفت باسم "الجعزية".

كما هاجرت قبائل يمنية أخرى، ومنها معافر على ما يعتقد، إلى الشاطئ الشرقي من إفريقيا، وانتشرت في مختلف جهاتها، وأنشأت فيها –وبخاصة في الصومال وفي جوار زنجبار– بعض المشيخات والحكومات.

غير أن الوهن ما لبث أن دب في الدولة خلال الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، وكان عليها أن تواجه الخطر الروماني في مصر بعد أن أصبح قريبًا منها، فتعرضت لأطماع روما التي أخذت تمد نفوذها المناطق المجاورة، لا سيما وأن الرومان قد تضايقوا من الدولة الحميرية، ومن قوتها وسيطرتها على التجارة في المناطق المجاورة لأملاكهم الجديدة، واحتكارها لمواد الترف وللتوابل التي تأتي بها من الهند وتتحكم في أسعارها فلا تصل إلى أوروبا إلا بأغلى ثمن، فلما تسنم "أغسطس" عرش الإمبراطورية في روما عقد العزم على استلحاق البلاد اليمنية فأوعز إلى واليه في مصر "إيليوس غالوس" سنة ٢٤ ق. م. بأن يسير على رأس حملة حربية نحو اليمن للاستيلاء عليها وعلى ثروتها ومحاصيلها، وللقضاء على القراصنة الذين كانوا على ما يظهر يزعجون سفن الرومان في البحر الأحمر، والذين كانوا يحتمون بسواحل الحجاز واليمن وللهيمنة على ملاحة وتجارة البحر الأحمر.

فتحركت الحملة، وكان قوامها عشرة آلاف جندي بينهم مصريون ورومان بالإضافة إلى عدد من الأنباط يقدرون بألف جندي وخمسمائة يهودي. وقد رافقها كل من المؤرخ اليوناني "سترابون" والوزير النبطي "صالح" الذي وضعه ملك الأنباط عبادة الثاني أو الثالث "٢٨ – ٩ ق. م" تحت تصرف الحملة ليكون دليلها ومستشارها، بعد أن وقعت دولة الأنباط تحت سيطرة الرومان.

سارت الحملة من الموانئ المصرية، ونزلت في الميناء النبطي "نيجرا" الواقع على البحر الأحمر إذ كانت سيطرة الأنباط تمتد إلى هذه الجهات، ومنها ثابرت على زحفها بطريق البر نحو الجنوب في أرض وعرة، قليلة الزرع والأمطار، إلى أن وصلت إلى مدينة نجران فاستولت عليها, ثم تجاوزتها إلى الجنوب حتى مسيرة ستة أيام. ولم يبق بينها وبين الوصول إلى هدفها سوى مسيرة يومين حينما شعر "إيليوس غالوس" باستحالة الاستمرار في الحملة بسبب الأمراض الفتاكة التي انتشرت بين جنوده، لا سيما وقد أصابهم الإنهاك الشديد، فعاد بها إلى "نيجرا" ومنها أبحرت إلى البر المصري بعد أن مضى على خروجها من الميناء النبطي ستة أشهر ولم تحقق الغاية التي ذهبت من أجلها. وقد تعرضت سواء في الذهاب أو الإياب إلى مهاجمة العرب لها هجومًا عنيفًا؛ مما اضطرها إلى خوض معارك ضارية معهم وكان لها الأثر الفعال والرئيسي في إخفاق الحملة.

ما "إسترابون" الذي رافق الحملة، فقد ذكر أسبابًا أخرى لفشلها، إذ عزا ذلك إلى ما زعمه من خيانة الوزير النبطي صالح، الذي اتهمه بتضليل الرومان والسير بهم في طريق مقفرة، وفي أراضٍ لا زرع فيها ولا ماء، بقصد إهلاك

الجيش الروماني، وقد أنحى عليه باللائمة وحمله مسئولية الإخفاق، بينما يرى "غلازر" أن مسئولية الإخفاق إنما تقع في الحقيقة على عاتق الرومان أنفسهم لجهلهم بطبيعة أراضي العرب ولغرورهم.

لقد أثبتت حملة "إيليوس غالوس" أن الاستيلاء على اليمن عن طريق القوة ضرب من المحال؛ لذلك عدل الرومان عن هذا الأسلوب إلى آخر هو أسلوب الدسائس والمؤامرات للوصول إلى فرض النفوذ الاستعماري الروماني غير المباشر، واتخذوا الحبشة مخلب قط لتحقيق مخططهم في إخضاع اليمن. كما ثابروا على تنفيذ سياستهم المرسومة للقضاء على احتكار اليمنيين لتجارة الشرق والحلول محلهم في امتلاك مقاليدها.

وقد نجحوا في هذه السياسة إلى حد بعيد، فما أشرف الدور الأول الحميري على الانتهاء حتى بدأت قوة عرب الجنوب في الانحدار والتضعضع لاستمرار مزاحمة الرومان لهم في النشاط التجاري وعجزهم عن مقاومة هذه المنافسة. ذلك أن الرومان قد أفادوا إفادة كبرى من تجارب أسلافهم البطالمة في هذا الميدان، ومن القناة الفرعونية التي أعادوا فتحها، فتمكنوا من تسيير سفنهم في المحيط الهندي واستطاعوا الوصول إلى الهند والتزود من محاصيلها والعودة بها إلى بلادهم، فقضوا بذلك على الاحتكار اليمني لتجارة الشرق، الأمر الذي قاد الحميريين إلى طريق الانهيار الاقتصادي فالسياسي.

الدور الثاني من الدولة الحميرية "٣٠٠ – ٥٢٥ م أو عصر التبابعة":

أما من الناحية السياسية، فإن تسرب الأحباش إلى اليمن قد بدأ كما رأينا منذ القرن الثاني قبل الميلاد نتيجة النزاع السبئي الهمداني، وقد حاولوا احتلال اليمن مرات عديدة بعد ذلك، ونجحوا في الحصول على موطئ قدم لهم في بعض المدن الساحلية مرتين، كان أخراهما عام ٣٤٥م. وقد أثبت ذلك ما جاء في الكتابات الحبشية الأثرية التي أصبحت تطلق على ملوك الحبشة لقب "ملوك أكسوم وحمير وريدان وتهامة".

من الثابت أن هذه الحملات الحبشية الأولى كانت تهدف إلى انتزاع السيادة التجارية من اليمنيين ونشر الدين المسيحي في ربوع اليمن بتحريض من الرومان, كما كانت بمثابة حملات استطلاعية مهدت السبيل لحملات تالية. غير أن الحكم الحبشي لم يستطع أن يعيش طويلًا، إذ تضافرت جهود الحميريين من مختلف الفئات، من دينية ورسمية، في مقاومة الأحباش وتمكنوا من إخراجهم سنة ٣٧٨م، وعاد الحميريون إلى حكم بلادهم حتى عام ٥٢٥م.

ويطلق الأخباريون العرب على ملوك هذا الدور لقب "التبابعة" "جمع: تبع"، ويروون قصصًا خيالية عن قوتهم وعظمتهم، لا سيما امتداد حكم بعض ملوكهم إلى أماكن بعيدة كغزو سمرقند وفارس والسغد وأفريقية وبسط

السيطرة العربية عليها١، مما يتنافى مع الحقيقة التاريخية، ولا يمكن قبوله، لا سيما في هذه الفترة التي كانت اليمن فيها مهددة بالغزو الخارجي.

في هذا الدور دخلت الديانتان المسيحية واليهودية إلى بلاد العرب. أما الديانة المسيحية فقد دخلتها بواسطة مبشرين من نساطرة سورية والحيرة تسربوا إلى الجزيرة العربية، أو بواسطة اليعاقبة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، الذين جاءوا من الحبشة وأنشئوا لهم كنائس عديدة في عدن وظفار ونجران، وكان قيصر الروم البيزنطي الإمبراطور قسطنطين من وراء هذه المحاولات. فقد عمل على إدخال المسيحية إلى بلاد العرب سواء بطريقة الدعاية أو التبشير "إرسال بعثات تبشيرية برئاسة كهنة منهم: توفيل فرومنتوس" أو بطريق الفتح الحربي لتحقيق غاية مزدوجة هي نشر الدين المسيحي ونفوذ الروم السياسي والتجاري في آن واحد، مستهدفًا من ذلك كله مقاومة نفوذ الفرس الذي أخذ يتغلغل في البلاد، ومقاومة الديانة اليهودية في الوقت نفسه.

ويعتقد أن ملوك حمير الذين غادروا اليمن إثر احتلال الأحباش لبلادهم، والتجئوا إلى يثرب قد تأثروا بالديانة اليهودية، غير أنه ليس من دليل ثابت على أنهم قد اعتنقوها، وإن كان هناك من يعتقد أن آخر ملوكهم "أسعد كامل" الملقب باسم "ذي نواس" قد اعتنقها، وهذا مشكوك فيه، بالرغم من أن حركة تبشيرية يهودية قوية قد رافقت حكمه، وأحرزت نجاحًا كبيرًا، فانتشرت اليهودية بشكل واسع في اليمن "في القرن السادس الميلادي" حتى قيل: إن ١٠٠ ألف من اليمنيين قد اعتنقوها. ويبدو أن ذلك كان كرد فعل لنشاط التغلغل المسيحي ولنشاط الضغط الاستعماري الروماني الذي يكمن وراءه.

الدور الحبشي "٥٢٥ – ٥٧٥ م":

احتل الأحباش اليمن في عهد الملك ذي نواس الذي أصبح التنافس اليهودي المسيحي في عهده على أشد ما يكون. فقد بلغ التوتر منتهاه عندما أدرك العرب أن المسيحيين العرب كانوا واسطة لتسرب النفوذ الحبشي إلى البلاد، فاعتبر ذو نواس المسيحيين خونة، واتخذ من قتلهم غلامين يهوديين ذريعة لاضطهادهم والفتك بهم، فسار إليهم بجيش كبير ودخل مدينتهم نجران، وخيرهم بين ترك ديانتهم أو القتل، ولما أبوا إلا البقاء على دينهم أقام لهم مذبحة رهيبة وأحرق عددًا كبيرًا منهم ودفنهم في أخدود. وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم {قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ, النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ} .

لم تمض حادثة الأخدود بسلام، فما أن أبلغ بها الإمبراطور البيزنطي "جوستين الأول" –وكانت بيزنطة وريثة الحكم الروماني في الشرق تعتبر نفسها حامية المسيحية في هذه الجهات آنذاك– حتى اغتنم الفرصة لتحقيق مآرب دولته الاستعمارية في اليمن، وإضافة مراكزها التجارية البرية والبحرية إلى ما استولى عليه من مناطق

كالبتراء وتدمر ومعان، التي أصبحت في ذلك الحين تحت سيطرة الروم المباشرة، فتكمل بذلك جميع حلقات السلسلة بضم الحلقة الناقصة منها، فكتب إلى نجاشي الحبشة – وكان الأحباش

أقرب إلى الأتباع منهم إلى حلفاء أو أصدقاء البيزنطيين– لتأديب ملك اليمن. فأرسل النجاشي ٧٠ ألف مقاتل بقيادة القائد "أرياط" الذي ظل يقاتل الملك الحميري حتى انتصر عليه سنة ٥٢٥م، واستولى على اليمن وقضى على استقلالها وسيادتها، وأذل حمير وقتل ثلث رجالها، وبعث إلى النجاشي بثلث نسائها سبايا، بينما رمى ذو نواس نفسه في البحر وانتحر، وكان آخر ملوك حمير.

حكم بعد أرياط أحد قواده "أبرهة" الذي قتل سلفه وانتزع القيادة منه، وما لبث الأحباش أن كشفوا القناع عن وجه استعماري مقيت، فحكموا حكمًا شديدًا ضج منه الناس ودام خمسين عاما. وقد استغلوا حكمهم لليمن في نشر الديانة المسيحية في جميع أرجاء الجزيرة العربية، جنوبيها وشماليها، وفي بسط سيطرتهم الاقتصادية عليها، لا سيما في ميدان التجارة، هذا الميدان الذي بدأ عرب الشمال في اقتحامه، وبدأت تجارتهم في النمو والازدهار، وأخذت قوافلهم التجارية ترتاد طرق التجارة العربية من الحجاز حتى بلاد الشام من جهة ومن الحجاز حتى اليمن من جهة ثانية، وأصبحت مكة والمدينة مركزين لهما أهمية عظيمة في النشاط التجاري، وإن يكن هذا النشاط قد اقتصر على داخل الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر.

وقد زاد الحجاز أهميةً كونُهُ المركز الديني لعرب شبه الجزيرة لوجود الكعبة، وهي أكبر مركز ديني وثني آنذاك، فأثار هذا كله حفيظة أبرهة الحبشي، ودفعه إلى منافسة التجارة الحجازية، ومجاراة مكة في أهميتها الدينية كوسيلة لاستقطاب النشاط التجاري الداخلي لعرب الجزيرة، وتركيزه في المدن اليمنية التي يسيطر عليها الأحباش. وهذا ما حدا به إلى بناء كاتدرائية عرفت باسم "الكليس" أو "القليس" –وهي كلمة محرفة من كلمة إيكليزيا اليونانية– في صنعاء، وبالغ في تزيينها وإتقانها، وقد نقشها بالذهب والفضة وصنوف الجواهر والزجاج والفسيفساء، وأخذ يسعى لجذب العرب إلى زيارتها والعزوف عن زيارة الكعبة.

لكن العرب أظهروا تعلقهم بالكعبة وكرههم للأحباش واحتقارهم للكليس، فقام اثنان من قبيلة فقيم ووضعوا أقذارًا فيها؛ الأمر الذي جعل أبرهة يتميز غضبًا وأقسم ليهدمن الكعبة، وسار بجيش إلى مكة لينفذ وعيده في العام الذي سمي بعام الفيل ٥٧٠ – ٥٧١ م" وكان ما هو معروف من فشل الحملة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم "سورة الفيل". ويفسر بعض المفسرين ما ورد في سورة الفيل من ذكر للطير الأبابيل بأن ما رمته هذه الطيور إنما هو كرات من الطين موبوءة، فانتشر داء الجدري والحصبة في جيش أبرهة، وتقرحت جسومهم على ما يذكره الرواة،

فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذعر الجيش الحبشي وتراجع، ويروى أن أبرهة نفسه قد أصيب بهذا الوباء وقضى نحبه بعد قليل.

الدور الفارسي "٥٧٥ – ٦٣٢ م":

حكم "أبرهة" اليمن ما يقارب ٢٣ عامًا، ولما توفي خلفه ابنه "يكوم" ثم أخوه "مسروق". وقد أساء الأحباش إلى اليمنيين وأذلوهم، حتى إذا اشتد بهؤلاء البلاء عزموا على التخلص من مستعمريهم، وقد تزعمهم رجل من أذواء حمير يدعى الأمير "سيف بن ذي يزن" الذي أصبحت سيرته في تحرير بلاده موضوع روايات وملاحم دخلها كثير من الخيال والأسطورة.

لجأ سيف بن ذي يزن إلى كسرى الفرس وطلب مساعدته في إخراج الأحباش من بلاده، فاستجاب كسرى لطلبه؛ نظرًا للعداء الفارسي البيزنطي، ولكون الاحتلال الحبشي لليمن وما يكمن وراءه من نفوذ بيزنطي يؤثر تأثيرًا سيئًا على الاقتصاد الفارسي من حيث تحويل تجارة الشرق الأقصى إلى أيدي البيزنطيين، وحرمان الفرس من الأرباح التي تأتيهم من تجارة التوابل عبر الخليج العربي إلى المناطق الشمالية؛ لوجود منافسين أقوياء إلى جانبهم، هذا بالإضافة إلى ما ينجم عن احتلال اليمن من تزايد في السيطرة السياسية البيزنطية، ومن اختلال في توازن القوى السياسية بين الدولتين العدوتين.

وهكذا أرسل كسرى مع سيف بن ذي يزن جيشًا بقيادة "وهرز" أبحروا من الخليج العربي ونزلوا في شواطئ حضرموت، وما كادوا ينزلون البر اليمني حتى انضم إليهم كثير من السكان، فقاتلوا الأحباش، واستطاعوا أن يطردوهم، وأن يحرروا اليمن من حكمهم.

وتسنم سيف بن ذي يزن مقاليد الحكم بالاشتراك مع الفرس، واتخذ قصر غمدان –بعد أن رمم– مقرًّا له، ثم أخذ ينتقم من الأحباش ويقتلهم حتى كاد أن يفنيهم، ولم يبق منهم إلا قلة ذليلة اتخذ من أفرادها عبيدا له. فاغتنم هؤلاء غفلة منه واغتالوه،

فانفرد الفرس الساسانيون في الحكم. والواقع أن الفرس دخلوا البلاد كمحررين، وجعلوا الحكم أولًا مشتركا بينهم وبين العرب، لكنهم ما لبثوا أن استغنوا عن العرب –بعد مقتل سيف– وحكموا البلاد حكمًا مباشرًا.

غير أن الاضطرابات التي حدثت في الدولة الفارسية جعلت مركز الحاكم الفارسي ضعيفا، فاستقوت عليه القبائل العربية وثارت ضده؛ فانحصر نفوذه في صنعاء وما يجاورها، بينما قوي نفوذ الأمراء المحليين. أما ولاة الفرس فكان أولهم "وهرز" وآخرهم "شهر بن باذان" الذي أدرك والده الإسلام واعتنقه سنة ٦٢٨ م "٦هـ" وظل واليًا عليها

هو وابنه شهر من بعده حتى عام ٦٣٢ م "١٠ هـ" حينما أصبحت اليمن ولاية إسلامية، وانتهى بذلك حكم الفرس لليمن.

المحاضرة السادسة:: استاذ المادة: ا.د. عباس فضل حسين

دولة الأنباط

الموقع الجغرافي:

امتدت دولة الأنباط من حدود فلسطين شمالًا، إلى حدود الحجاز جنوبًا، ومن بادية الشام شرقًا، إلى شبه جزيرة سيناء غربًا. وهي دولة عربية لم يرد ذكرها في كتب العرب القدماء، إنما عرفت أخبارها مما كتبه اليونان عن البطالمة والسلوقيين والرومان، أو من الآثار التي عثر عليها المنقبون في أنقاضها ومما قرأوا من أخبارها المرقومة عليها. وعاصمتها البتراء تقع في الشمال الشرقي من رأس خليج العقبة غير بعيدة عنه، ومكانها الآن في أراضي شرق الأردن، وفي وادي موسى الذي يمتد إلى الشرق من وادي العربة، هذا الوادي الذي يبدأ من جنوبي البحر الميت وينتهي في خليج العقبة. وتمتاز البتراء بكونها مدينة صخرية قائمة في منبسط من الأرض هو عبارة عن هضبة تعلو ١٠٠٠م عن سطح البحر، تحيط بها الصخور فتجعلها محصنة من نواحيها الشرقية والغربية والجنوبية، بينما يكون الدخول إليها من ناحية الشمال من مضيق يتلوى بين صفين من التلال الصخرية القائمة على جانبيه بارتفاع لا يقل عن مائة متر، ويستمر في الضيق حتى يصبح بعرض لا يزيد على خمسة أمتار عند مدخل المدينة.

ويظهر أن اسم البتراء مأخوذ من كلمة Patra اليونانية التي تعني الصخر. وقد سماها اليونان والرومان باسم "بلاد العربية الصخرية Arabia Patra" بينما عرفها العبريون باسم "سلاع" الذي يعني الحجر في لغتهم، كما عرفها العرب باسم "الرقيم" وهو الذي كان الأنباط يطلقونه على مدينتهم.

لقد أحرزت المنطقة أهمية كبيرة بفضل وضعها الجغرافي، وموقعها على طريق القوافل التجارية، وهي في ذلك المكان البقعة الوحيدة التي توجد فيها بكثرة مياه عذبة تجمع في صهاريج من مجاري السيول؛ الأمر الذي جعلها محطة تجارية عظيمة الأهمية. تجد فيها القوافل التجارية -بعد مسيرها في الأراضي الصحراوية مسافات طويلة- مكانًا للراحة والتزود بالماء والطعام،وقد أتاحت لها هيمنتها على طرق القوافل التجارية التوسع فيما بعد لتصبح مدينة مهمة.

أصل الأنباط:

سكن البتراء الحوريون والآدميون حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وفي حوالي سنة ٥٠٠ق. م، قدم الأنباط -وهم عرب رحل لا يعرف على وجه التدقيق الموطن الذي أتوا منه، وربما كان مجيئهم من شمالي الحجاز أو من أواسط الجزيرة العربية- وهاجموهم وغلبوهم على أمرهم، وانتزعوا منهم أراضيهم، وتمثلوهم ودمجوهم في الدولة العربية التي أقاموها فيما بعد، والتي دامت أكثر من خمسة قرون، واستمدت نسغ الحياة والقوة من التجارة، وكان لموقعها الحصين أثر كبير في بقائها على قيد الوجود مدة طويلة.

ويظهر أن الأنباط قد ثابروا في بادئ الأمر على نمط حياتهم البدوية من حيث حياة الترحل والرعوية، وكره الزراعة والصناعة، ولم يألفوا حياة الحضارة إلا بعد قرنين من الزمن بعد قدومهم، وقد تلاءموا مع هذه الحياة تدريجيًّا، حتى جذبتهم الحضارة إلى رحابها، إذ وجدوا فيما تتطلبه القوافل من خدمة، وما تأتي به من سلع تجارية يسهمون في تصريفها، وسيلة مجدية للربح وكسب العيش، فاستقروا وما لبثوا أن أقاموا دولة منظمة وحكموا بلادهم على أساس النظام الملكي، وضربوا النقود واستوزروا الوزراء.

ووصلت الدولة إلى أقصى اتساعها في عهد ملكها الحارث الثالث "٨٧-٦٢ ق. م" إذ بلغ اتساعها حدًّا شمل البلاد الواقعة بين دمشق وبين مدائن صالح في شمالي الحجاز، بما فيها سواحل البحر الأحمر ومنطقة شبه جزيرة سيناء وشرق الأردن وحوران.

الأنباط بين السلوقيين والبطالمة:

عاصرت دولة الأنباط السلوقيين والبطالمة قبل الميلاد والدولة الرومانية بعد الميلاد، إنما يظهر أنها غالبًا ما كانت تميل إلى البطالمة وتتأثر بنفوذهم مع المحافظة على استقلالها. ويبدو أن قيامها كان في أواخر النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، حيث إنه لم يعرف عن تاريخها شيء كثير قبل عام ٣١٢ ق. م، ذلك التاريخ الذي صدت فيه حملة يونانية وجهها إليها "أنطيغونس" خليفة الإسكندر المقدوني في سورية، إذ كان في طريقه إلى مصر لإخضاع

"بطليموس" الذي انتزى على مصر بعد الإسكندر، فرأى أن يستولي في طريقه على البتراء، فوجه إليها قائده "أثينايوس" على رأس حملة مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل؛ ليقطع بذلك التجارة عن منافسه.
اغتنمت الحملة خلو المدينة من الرجال، إذ كانوا قد توجهوا إلى إحدى الأسواق التجارية، فدخلت المدينة ونهبت ما وجدته فيها من بضائع ومعادن ثمينة، وقتلت كل من قاومها من الرجال. وبينما كانت عائدة داهمها الأنباط الذين لحقوا بها بعد أن عادوا إلى المدينة، وعرفوا ما حل بها، فلقنوا الغزاة درسًا قاسيًا واستأصلوا شأفتهم، فلم يسلم منهم سوى خمسين فارسًا.
غير أنهم رأوا ألا يستفحل العداء بينهم وبين السلوقيين فكتبوا إلى "أنطيغونس" يخففون عنه وقع الحادث بإظهار أسفهم لما حدث، وبإلقاء التبعة على عاتق القائد "أثينايوس". ويظهر أن الملك السلوقي "أنطيغونس" قد استعمل المكر معهم، إذ قبل العذر ظاهرا، مدعيًا أن قائده إنما قام بهذا العمل دون علمه، وأبدى رغبته في تحسين علاقته بالأنباط، لكنه في الواقع كان يضمر لهم الغدر بإدخال الاطمئنان إلى قلوبهم؛ كي يفاجئهم بالحرب على حين غرة، إذ لم تمض فترة وجيزة حتى وجه إليهم حملة أخرى تأديبية، بقيادة قائد آخر من قواده هو "ديمتريوس". فلما أدرك الأنباط الخطر المحدق بمملكتهم هرَّبوا كل ما هو ثمين من أمتعتهم وحليهم وتجارتهم إلى خارج المدينة، وتحصنوا في معاقلهم، وأخذوا يفاوضون القائد السلوقي، وعرضوا عليه مبلغًا من المال لقاء الانسحاب، وإلا فإنهم مصممون على الصمود حتى الفناء التام. وخاطبوه بقولهم: "وإذا أبيتم إلا إطالة الحصار فلا تنالون غير التعب والفشل؛ لأنكم لن تجدوا سبيلًا إلينا, ونحن في هذا الحصن المنيع. وإذا قدر لكم الظفر فلن تنالوه إلا بعد أن نموت جميعًا، ولا يبقى لكم غير هذه الصخور الصماء، وأنتم لا تستطيعون سكناها".
وإن أدرك القائد السلوقي استحالة احتلال البتراء المنيعة، ووجد أن لا مطمع له في هذه المملكة، آثر الانسحاب لقاء مبلغ من المال اتفق عليه.
وأما البطالمة فلما تراءت لهم أهمية موقع الأنباط التجاري والإستراتيجي, حاولوا أن يبسطوا سيطرتهم على بلادهم، غير أنهم أدركوا استحالة ذلك لمناعة البتراء، فقرروا أن يسلكوا معهم سياسة أخرى تقضي بتركهم مستقلين، والاكتفاء بجعلهم تحت نفوذهم، فشرعوا في الاستيلاء على المدن الفينيقية والفلسطينية التي لها صلات تجارية معهم والتي تمر فيها قوافلهم، وأقاموا حولهم المستعمرات، فسيطروا بذلك على منافذ تجارتهم، ثم سيطروا وأقاموا فيها من الموانئ والمحطات ما هو كفيل بالقضاء على التجارة التي تمر بالبتراء, وانتزاع مقاليدها من أيديهم للحلول مكانهم في النشاط التجاري. غير أن الأنباط لم يستسلموا لهذا الحصار والتنافس الاقتصادي، بل أخذوا في مهاجمة سفن البطالمة التي تمر بالبحر الأحمر لعرقلة تجارتهم، الأمر الذي دفع البطالمة إلى بناء أسطول حربي، يعهد إليه بحماية الأسطول التجاري.
وقد استمر الحال على ذلك حتى القرن الثاني قبل الميلاد، عندما استرجع السلوقيون البلاد السورية التي احتلها البطالمة، واتجهوا إلى الأنباط يحسنون علاقتهم بهم لاستمالتهم, فعاد النشاط إلى التجارة النبطية، ولا سيما مع بلاد الشام ومنها صور بوجه خاص.
وازدادت التجارة النبطية ازدهارًا، عندما قامت الإمبراطورية البارثية في فارس، وأعقبها فترة ضعف مر بها السلوقيون، وعم الاضطراب بلادهم، وقامت في شمالها الثورات وانتشرت الفوضى؛ مما ساعد على انتقال مركز الثقل في النشاط التجاري من الشرق إلى غربي الجزيرة العربية. عندئذٍ اغتنم الأنباط فرصة الضعف التي مر بها السلوقيون، فأخذوا يوسعون حدودهم على حسابهم, وقد خاض من ملوكهم الحارث الثاني "١١٠-٩٦ ق. م" غمار حرب ضد الدولة اليهودية في فلسطين، واحتل عبادة الأول "٩٠ ق. م" جنوب شرقي سورية بما فيها حوران وجبل العرب، وبسط الحارث الثالث "٨٧-٦٢ ق. م" سيطرته على سورية بكاملها.

الأنباط واليهود:

قامت في بادئ الأمر علاقة طيبة بين الأنباط في عهد الحارث الأول "١٦٩-١٤٦ ق. م" وبين اليهود في فلسطين، كيما يستطيع الطرفان الصمود أمام المطامع التي واجهتهما من قبل الدولتين القويتين المجاورتين: السلوقية والبطلمية. غير أن الحارث الثاني "١١٠-٩٦ ق. م" ما لبث أن وجه لليهود ضربة رادعة عندما حاولوا استغلال هذه العلاقة لنشر اليهودية بين الأنباط؛ تمهيدًا لبسط سيطرتهم عليها. فبادر إلى مساعدة أهل غزة التي كان يحاصرها اليهود،

الأمر الذي حمل الملك اليهودي للعودة إلى صداقة الملك النبطي الجديد عبادة الأول "٩٦-٨٧ ق. م" وللتنازل له عن بعض المناطق التي كانت تحت سيطرة اليهود.
وفي عهد الحارث الثالث بلغ الانقسام في الدولة اليهودية حدًّا خطيرًا: الفريسيون من جهة والصدوقيون من جهة ثانية. فاستغل الملك النبطي هذا الانقسام، لا سيما عندما استنجد به الفريسيون وزعيمهم "هركانوس" ضد خصومهم، لقاء وعد بإعطائه ما بقي من منطقة شرق الأردن خارج سلطة الأنباط. فقبل الحارث وهاجم الصدوقيين وهزم زعيمهم "أرسطوبولس" وحاصر القدس التي احتمى بها واستولى على البقاع .
غير أن دخول الرومان سورية أتاح لخصمه اليهودي أن يستنجد بهم وأن يقدم لهم رشوة كبيرة. وكان على الحارث أن يرضخ للإنذار الروماني بالارتداد عن القدس حرصًا على تجنب النزاع معهم.

الحارث الثالث: عصر الذروة:

كان الحارث الثالث أعظم ملوك الأنباط شأنًا، وقد بلغت الدولة في عهده أوج عزها واتساعها. وقد استفاد من ضعف الدولة السلوقية وانحطاطها، واستجاب لدعوة الدمشقيين له باحتلال مدينتهم -وكانوا يكرهون حكامهم السلوقيين كرهًا شديدًا- فاحتلها وبسط سيطرته على سورية "٨٥ ق. م" فمنحوه لقب "فيلهلن" Philhellene "محب اليونان". وفيما كان يحاصر القدس "٦٦-٦٥ ق. م" -كما مر معنا- فوجئ بالاحتلال الروماني لسورية فانسحب أمام الحملة الكبيرة التي أتى بها الإمبراطور "بومبيوس" واحتل دمشق "٦٤ ق. م". وبعد سنتين توفي الحارث وبدأ الانهيار النبطي.

خضوع الأنباط للرومان وسقوط دولتهم:

لم يقف الرومان عند دمشق والقدس في موجة احتلالهم لبلاد الشام، بل تابعوا سيرهم حتى البتراء، فضربوا عليها الحصار، وأنذروا ملكها بدفع الجزية وبالخضوع لروما؛ فرضخ الملك النبطي لهذا الإنذار.
لقد شاهد الأنباط أن الرومان قد سيطروا على آسيا الصغرى وسورية ومصر وموانئ البحر المتوسط، وهي منافذ التجارة النبطية، فلم يقاوموهم كما قاوموا السلوقيين والبطالمة، واضطروا إلى إقامة علاقات طيبة معهم، مع الخضوع لنفوذهم.
وقد أسهموا في حروبهم؛ فاشتركوا في حملة وجهها الرومان إلى الإسكندرية "٤٧ ق. م." بناءً على طلب من يوليوس قيصر إلى الملك النبطي ملكو الأول "مالك" وأرفقوا حملة "إيليوس غالوس" الروماني "٢٤ ق. م" إلى بلاد العرب بوزيرهم "سيليوس" "صالح" في عهد الملك عبادة الثاني. وعندما ثار اليهود على الحكم الروماني "٦٩م" بادر ملك الأنباط "ملكو" الثاني إلى مساعدة الدولة الرومانية في قمع ثورتهم،بإرسال ألف حصان وخمسة آلاف من المشاة اشتركوا مع القائد الروماني "تيطس" في محاصرة القدس.
غير أن العلاقات بدأت بعدئذٍ تسوء بين الطرفين، فحاصرتهم الجيوش الرومانية مرات، فقاوموها إلى أن وجه إليهم الإمبراطور "تراجان" حملة كبيرة بقيادة القائد الروماني "كورنيليوس بالما" استطاع بها أن يخضعهم، وأن يجعل بلادهم ولاية رومانية "١٠٦م" سميت "الولاية العربية الرومانية".
ومع ذلك استمرت البتراء في الاحتفاظ بمركزها التجاري في عهد الاحتلال الروماني, وقد بلغ ازدهارها الاقتصادي ذروته في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي. غير أن ازدياد غارات البدو عليها، وارتفاع شأن الدولة البارثية الفارسية في الشرق، وسيادة السلم بينها وبين الدولة الرومانية، أعاد النشاط للطريق التجاري المار بالعراق، وأخذ طريق غربي الجزيرة المار بالبتراء في الانحطاط؛ لينتقل مركز الثقل التجاري إلى تدمر التي أخذت تستقطب التجارة العربية، بينما أخذ التدهور سبيله إلى التجارة النبطية.

مدنية الأنباط وحضارتهم:

للأنباط حضارة عريقة تميزت بطابعها التجاري والعمراني. وهي عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، يونانية رومانية في فنها وهندسة عمارتها؛ لذلك فهي مزيج حضارة مركبة، سطحية المظهر الهليني ولكنها عربية الأساس. والصورة العامة التي أعطاها المؤرخون للشعب النبطي هي كونه شعبًا متفهمًا للأمور، محبًّا للكسب، منهمكًا في التجارة والزراعة والصناعة، مزدهر الاقتصاد بحيث خلا منه الفقراء المعدمون.

نظام الحكم:

لقد امتاز المجتمع النبطي بكونه منظمًا ديمقراطي النهج، لم يوجد فيه سوى عدد قليل من العبيد، وهو يقوم على النظام الملكي الوراثي، لكن الملك يستعين في سياسة المملكة وإدارتها بمجلس استشاري يشترك معه في تصريف مختلف شئونها.

التجارة والزراعة والصناعة:

امتد نشاط الأنباط التجاري إلى مناطق واسعة، ووصلت علاقاتهم إلى أبعد المناطق المتمدنة آنذاك. فقد تركوا فيما بين " التي بقيت زمنًا طويلًا المرفأ الرئيسي للرومان، وبين "جرها " "العقير حاليا" على الخليج العربي وسواحل البحر الأحمر وديلوس ومليتوس ورودس في اليونان، ودلتا نهر النيل الشرقية ومصر العليا وعند مصب نهر الفرات آثارًا كتابية ووثائقَ لا يزال بعضها محفوظًا في متحف نابولي، وكلها تشهد بنشاط الأنباط التجاري في تلك الجهات، مثلما تشهد الوثائق الصينية بمشروعات الأنباط التجارية فيها.

وكان من سلسلة المحطات التي تمر بها القوافل التجارية النبطية مدينة "لويكة كومة" وهي مدينة عربية كانت تقع على ساحل البحر الأحمر قرب "الوجه" ومدينة "ليلة" وكانتا حلقتين خارجيتين في السلسلة، بينما كانت كل من بصرى وصلخد حلقتين داخليتين.

ومما ذكره "سترابون" أن اهتمام البتراء بتنشيط العمل التجاري بلغ من الشدة أنهم كانوا يفرضون الغرامات على كل من يهمل عمله فتنقص ممتلكاته، بينما كانوا يمنحون مراتب الشرف لمن يزيد فيها. كما كانوا يهتمون بحماية طرق القوافل لتسهيل مرور البضائع في بلدتهم فيفرضون عليها الضرائب والرسوم، بينما كانوا قد مارسوا نوعًا من الاحتكار لمدة من الزمن .

كان الأنباط يتاجرون في مختلف السلع كالعطور والطيوب والتوابل والأفاوية والمر والبخور يحملونها من اليمن، والحرير والمنسوجات بأنواعها من الصين ومن دمشق،والزجاج والأرجوان والأصبغة من صور وصيدا، واللؤلؤ من الخليج العربي، ويوزعونها في مختلف المناطق التي يتصلون بها. باختصار لم تكن تجارة ما تنتقل بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب إلا على يدهم أو مرورًا بمدينتهم. وقد انتقلت حضارتهم مع توسعهم التجاري إلى المناطق المجاورة لهم. وكان للأنباط عملة خاصة بهم يعود فضل سكها لملكهم الحارث الثالث اقتباسًا من اليونان السلوقيين في أثناء حكمه لسورية.

كما عمل الأنباط في الزراعة, إذ حفروا الآبار وجمعوا مياه السيول في صهاريج حفروها في الصخور، ووصلوا بعضها ببعض بأقنية نقبت في الصخر، وقد وجهوا إليها مياه الأودية والسيول، واستعملوها في المدينة، وفي الحقول للشرب وللزراعة. هذه الصهاريج تعتبر الآن من الآثار المهمة في البتراء، وهي مربعة الشكل لها فوهات ضيقة حتى إذا امتلأت الصهاريج أحكموا سد هذه الفوهات واستخدموا كل ما أُوتوا من مهارة ليخفوها عن الأنظار، فيجعلون عليها علامات لا يعرفها سواهم؛ لترشدهم إليها عند الإيجاب بينما يستحيل على الأعداء -فيما إذا هاجموهم- أن يعثروا عليها فيموتون عطشًا في هذه المنطقة الجافة المحرومة من المياه الطبيعية.

أما صناعتهم: فإنها قد تركزت في صنع الأواني الخزفية, وقد أتانا منهم العديد من القطع التي تعتبر أحسن نوع من أنواع الخزف التي أنتجتها منطقة الشرق الأدنى. منها كؤوس وفناجين وصحون وأباريق وطاسات في غاية الرقة، وهي تدعو إلى الإعجاب بهذه الرقة التي لا تتجاوز رقة قشرة البيضة، مما يشهد بتفوق صناعتها. وثمة أنواع مختلفة منها: كالبسيط الخالي من الزخارف، أو المدهون المزخرف برسوم تغلب عليها أشكال الزهور أو الأوراق المنحوتة بترتيب هندسي، وهي على الأكثر من أوراق الكرمة وعناقيد العنب، تظهر على الأواني الخزفية والفخارية كما تظهر

في الزخارف المعمارية. وفي رأي العلماء وخبراء الفن، أن الأنباط كانوا في الفن والبناء والهندسة وفي الصناعة الخزفية من ذوي المواهب العالية ومن أكثر الشعوب براعةً.

العمارة والفنون :

وأما عمران الأنباط فإنه من النوع الفريد المدهش؛ ذلك أن معظم ما يشاهد فيها الآن من أبنية جميلة إنما هو منحوت في الصخر, وتشكل آثارها تراثًا فنيًّا رائعًا يجذب إليها السياح، وتفيد المملكة العربية الأردنية من ريعها. ويتبع العمران النبطي أساليب فنية وزخرفية نافرة متأثرة بالفن "الهلنستي" الذي كان سائدًا في سورية ومصر في أثناء حكم السلوقيين والبطالمة. وهو فن مزيج من عناصر هللينية "يونانية" في الأصل خضعت لتأثيرات وأوضاع شرقية طورته. والملك الحارث الثالث هو الذي أدخل مملكته ضمن محور الحضارة الهلنستية، فأعطي لقب "محب الهيلنية" إذ استقدم الصناع السوريين فأدخلوا معهم نماذج هللنستية تبدو ملامحها على الواجهة الجميلة لبناء يسمى اليوم "هيكل الخزنة" في البتراء، كما يبدو أن المسرح المدرج قد بني في زمن الرومان، ومن حينها بدأت العاصمة النبطية تتخذ مظاهر مدينة هللنستية نموذجية . وبالإضافة إلى السمات الهلنستية نشاهد على عمائر البتراء السمات الفنية المصرية والآشورية واليونانية والرومانية، مما يدل على أنها خضعت لمزيج من التأثيرات الفنية المتنوعة .

وآثار البتراء مجموعة من الهياكل والمذابح والمدافن وصهاريج الماء، بالإضافة إلى شارع رئيسي جميل، وإلى مسرح مدرج يتسع لثلاثة آلاف متفرج. وتبدو الصخور التي نحتت فيها هذه الأبنية بألوان متعددة يغلب عليها عموما اللون الوردي، مما دعا أوائل الذين اكتشفوا آثارها إلى تسميتها باسم "المدينة الوردية".

ومن أهم ما نشاهد فيها بناء شامخ على واجهته نقوش وكتابات بالقلم النبطي، وهو مؤلف من طبقتين نُقر في واجهتهما صَفَّانِ من الأعمدة الكورنثية الجميلة، والرسوم والأفاريز البديعة المزخرفة التي تعتبر من آيات الفن الرائعة. وفي أعلى الطابق الثاني ترس مثلث داخله كتلة بيضية الشكل تشبه الجرة؛ ولذا اعتقد أعراب تلك المنطقة بأنها خزنة فرعون فغلب على البناء اسم "هيكل الخزنة". وفيها أيضًا بناء آخر يسمى "الدير" يقع في مرتفع من الأرض، يظهر أنه كان مخصصا لعبادة الإله "دوشارا = ذو الشرا" وقد نحت على أسلوب البناء السابق، لكنه لا يدانيه في دقة زخارفه وجماله. وبالقرب من هذا البناء مقابر ملكية على شكل بروج واجهتها تشبه واجهة الدير

الديانة:

أما الديانة النبطية فهي من النوع الوثني المنتشر آنذاك في الجزيرة العربية، ويحمل بعض آلهتها نفس أسماء الآلهة التي كان عرب الشمال يعبدونها مثل "اللات" -وهي أنثى- وترمز إلى القمر، و"مناة" آلهة المنية أو الموت، و"العزى" و"هبل". ومن آلهتهم ما كان يُعبد عند الآراميين في الشام مثل "أتارغاتس" وتعتبر إلهة الحبوب وأوراق النباتات والثمار والسمك. ومنها ما كان يقابل آلهة تدمر و"دورا أوروبس" كما كانت الأفعى تشكل جزءًا من ديانتهم.

وقد عبد النبطيون من الآلهة "شيخ القوم" ويعتبر حامي القوافل، و"بعل شمين" إله السماء والمطر والخصب، وعبدوا بعض ملوكهم أحيانا؛ على أن أهم آلهتهم، وأبرزها "دوشارا = ذو الشرا" الذي كانوا يخصونه بالتقديس أكثر من غيره ومقره البتراء وهو يمثل الشمس. ويستدل من اسمه على أنه كان إلهًا للتجارة "سيد الشراء" وقد مثلوه على شكل مسلة، أو حجر أسود غير منحوت ذي أربع زوايا.

وأما طقوسهم العبادية وما يرافقها من احتفالات فلا نعرف عنها سوى القليل. وقد جاء في وصف قدمه لنا "سترابون" عن إحدى الولائم الملكية أن كل واحد يشترك فيها قد يشرب أكثر من عشر كؤوس، مستعملًا في كل مرة كأسًا ذهبية مختلفة. من هذه الرواية ومن رواية أخرى يقول فيها "سترابون": إن الأنباط كانوا يأكلون على موائد مشتركة بشكل جماعات تتألف من ١٣ شخصًا يقوم على خدمة كل جماعة مغنيتان، تتضح لنا بعض الطقوس التي يعتقد أنها تتصل بعبادة الأنباط

اللغة والكتابة:

الأنباط عرب تكلموا اللغة العربية إلى جانب الآرامية وربما اليونانية، ثم اللاتينية بدرجة أقل. وعرفوا من قبل اليونان بكونهم عربًا، وأسماء ملوكهم عربية مثل: الحارث، عبادة، رئبال، ملكو "مالك". وقد ظهر في نصوص "بتيولي" الأثرية وغيرها أسماء: علي, حبيب، سعيد التي كان يتسمى بها الأنباط, وعرب الحويطات هم الذين يمثلون الآن الأنباط القدماء. وإذا كان الأنباط القدماء قد تركوا لنا نقوشا أثرية مكتوبة باللغة الآرامية، فإنهم لم يستعملوها إلا للتعبير عن ثقافتهم؛ لأن الآرامية كانت منتشرة في جميع أرجاء الشرق الأدنى آنذاك بما يشبه اللغة العالمية. وقد استعملها الأنباط على نقودهم وأبنيتهم إلى أن انفصلت عن الآرامية بالتدريج، حتى اتخذت طابعها المميز في منتصف القرن الأول ق. م. وأصبحت ذات صفة ثابتة. وقد جاء نص "النمارة" "راجع ما جاء في الفصل الرابع من هذا الكتاب" -وهو أقدم نص عربي عثر عليه- مكتوبًا بحروف نبطية ، إذ قد حرر الأنباط الخط الآرامي مع الزمن، حتى تحول على يدهم إلى خط عرف باسم "الخط النبطي" الذي استعمل في تدوين اللغة العربية الشمالية. ففي أحد النقوش الأثرية التي ترجع إلى عام ٢٢٨م، نلاحظ أن النص يكاد أن يكون عربيا برمته. وقد انبثق عن الخط النبطي الخط النسخي الذي يعتبر من حيث القدم كالخط الكوفي المنسوب للكوفة والحيرة.

الغساسنة: **أ.د. عباس فضل حسين**

يقول الأخباريون: إن أصل الغساسنة من اليمن, وإنهم ينتسبون إلى قبيلة الأزد، وإنهم خرجوا من اليمن حينما تصدع سد مأرب، ونزلوا على ماء في سهل تهامة يسمى "غسان" فنسبوا إليه، وإن الذي قادهم في هذا الخروج هو جدهم الأعلى عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ، الذي ينتهي نسبه إلى ثعلبة بن مازن بن الأزد بن غوث، وإن أول ملوكهم هو "جفنة" ولذا فإنهم يعرفون باسم "آل جفنة" أيضا. ونحن ليس لدينا ما ينقض ولا ما يؤيد هذه الأقوال, إنما يستدل من الشعر الذي وصلنا من صدر الإسلام، أن مثل هذه الأقوال عن أصل الغساسنة كانت شائعة في الجاهلية القريبة من الإسلام وفي صدر الإسلام ، من مثل قول حسان بن ثابت الذي ينتمي إلى قبيلة الأزد:

فأما سألت فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا والماء غسان

ويزعم الأخباريون أن الغساسنة حين قدموا إلى منطقة حوران والجولان وجدوا أن قبائل أخرى تسكنها وتعرف باسم الضجاعمة الذين أرجعهم النسابون إلى سليح بن حلوان من قضاعة. والمعلومات عن الضجاعمة غير متوفرة للمؤرخين، ويروي النسابون روايات مضطربة عن الذين تزعموهم. يقول الأخباريون: إن الحكم الذي أقامه الغساسنة في جهات الشام لم يأتهم عفوًا وبطريق سهل، إنما أخذوه بالقوة والحرب. فلما نزلوا المنطقة إلى جوار سليح ضربت هذه عليهم الأتاوة لحساب الروم، وكان يتزعم الغساسنة آنذاك كبيرهم ثعلبة بن عمرو، فتحايل أخوه جذع على كبير سليح واغتاله، فوقعت الحرب بين القبيلتين، وكانت الغلبة للغساسنة وصار الملك إليهم. ويورد الأخباريون هذه القصة تفسيرًا لأصل المثل القائل: "خذ من جذع ما أعطاك". ويظهر أن الأخبار المروية عن فتك الغساسنة بالضجاعمة مبالغ فيه؛ ذلك أنهم وإن فقدوا ملكهم، فإنهم لم يرتحلوا عن المنطقة، لا بل يروى أنهم أسهموا في مقاومة خالد بن الوليد في دومة الجندل، عندما تصدى المسلمون لفتح الشام .

كما يروي الأخباريون أن الروم كانوا يفرضون نفوذهم على الضجاعمة، وأنهم قد أنابوهم عنهم في جمع الإتاوات من السكان، فلما ظهر الغساسنة عليهم وثقوا بقوتهم واستمالوهم ووطدوا صلاتهم بهم، واعترفوا لهم بالرئاسة على العرب في بلاد الشام ومدوهم بالمعونة، واتخذوا منهم مجنا يتقون به

غزوات الأعراب التي كانت غالبًا ما كانت تغير على مراكز الحضارة البيزنطية، كما اتخذوا منهم حلفاء ضد أعدائهم الفرس في الشرق، وهكذا أصبح الغساسنة دولة تابعة للروم البيزنطيين.

ويختلف المؤرخون حول من هو أول ملك من ملوك الغساسنة؛ فبينما يقول بعضهم: إنه جفنة بن عمرو مزيقياء، يذكر المسعودي أنه الحارث بن عمرو مزيقياء. ويقرن المؤرخون بين جفنة وبين الإمبراطور أنسطاس الذي حكم بين ٤٩١–٥١٨م، ويقولون: إن هذا الإمبراطور قد ملَّكه على عرب الشام، فقتل ملوك قضاعة من سليح وبني جلق وغيرها، وبه سمي آل جفنة عمالًا للقياصرة على عرب الشام. فإذا صح زعمهم فيكون جفنة قد حكم بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلادي.

والواقع أن تاريخ الغساسنة غامض، وليس ثمة اتفاق في التواريخ العربية على عدد ملوكهم. فهناك من يقول: إنهم أحد عشر ملكًا، وآخرون يقولون: إنهم اثنان وثلاثون، والفرق كبير بين القولين. أما التواريخ البيزنطية فلا تهتم إلا بعلاقاتهم مع القسطنطينية، ولا يعرف على التحقيق، وبشيء من التفصيل سوى تاريخ خمسة من ملوكهم حكموا في أواخر الدولة. وأول ملك اطمأن المؤرخون المحدثون إلى حقيقة حكمه هو جبلة بن الحارث أول هؤلاء الخمسة .

وقد روي عنه أنه غزا فلسطين عام ٥٠٠م، لكن المعلومات عنه قليلة ولا يعرف عنه ما يستحق الذكر. وحكم بعده ابنه

الحارث بن جبلة "٥٢٩–٥٦٩م":

وقد لقب بلقب "الأعرج" وهو الذي حارب المنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة وقتله في موقعه عين أباغ "يوم حليمة" وأبلى بلاءً حسنًا في قتال الفرس، فمنحه الإمبراطور جوستنيان لقب "بطريق" وهو يعني قائد عشرة آلاف في الجيش البيزنطي، ولقب "فيلارك" ويعني رئيس قبيلة، وقد ترجم العرب هذه الألقاب بمعنى "ملك" ويفسر بعض المؤرخين ذلك بأن ربما اعتبر ملوك الغساسنة أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط. وقد قدم الحارث للبيزنطيين خدمات جلى، إذ رفعه ولاؤه للعرش البيزنطي إلى قتال المناذرة وأسهم في إخماد فتنة قامت ضد الإمبراطورية في السامرة في فلسطين، وحارب في الجيش

البيزنطي الذي زحف إلى العاصمة الفارسية بقيادة القائد "بليزاريوس" لكنه آثر الانفصال عن الجيش البيزنطي، والعودة إلى مراكز إمارته لأسباب ذكرتها سابقًا.

كان الحارث ذا شخصية قوية ومهابة عظيمة، زار سنة ٥٦٣م بلاط جوستنيان؛ ليتداول معه في شئون الإمارة، ومنها قضية من سيخلفه، وما يجب اتخاذه من تدابير لمواجهة خصمه القوي عمرو بن هند ملك الحيرة الجديد. وكان ظهوره في البلاط البيزنطي مثار اهتمام كبير من الحاشية ورجال القصر، وترك أثرا عميقا في نفوسهم بوصفه شيخا بدويا مهيبا.

وقد بلغت الإمارة الغسانية في عهده ذروة اتساعها، فقد امتدت من قرب البتراء إلى الرصافة شمال تدمر، واشتملت على البلقاء والصفا وحوران، وأصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها سنة ٥١٢ م العاصمة الدينية في المنطقة، كما اشتهرت بكونها مركزا تجاريا نشطا. ولما كان الحارث من أتباع القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح "المنوفستية" فقد استطاع في أثناء إقامته في القسطنطينية أن يقنع الإمبراطور بإسناد أسقفيات المقاطعات السورية إلى رؤساء هذه الطائفة، بالرغم من مخالفتها لمذهب الدولة الرسمي. ويقال: إن عدد الأساقفة الذين عينوا لهذه الأسقفيات بلغ تسعة وثمانين، فانتشرت العقيدة الجديدة في سورية في أثناء حكمه وحكم ابنه على نطاق واسع.

والحارث هذا هو الملك الذي روي أن امرأ القيس الشاعر الكندي قد لجأ إليه؛ كي يتوسط لدى الإمبراطور البيزنطي ليعاونه على قتلة أبيه. وهو أيضا صاحب القصة المشهورة عن وفاء السموأل بن عادياء الذي أودع امرؤ القيس لديه دروعه، فأصر على رفض تسليمها لمندوبي الملك ولو كلفه ذلك قتل ولده. وقد خلفه ابنه:

المنذر بن الحارث "٥٦٩-٥٨١م":

الذي كان متطرفًا في تأييد مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، وقد حدث جفاء بينه وبين البيزنطيين بسبب ذلك, إذ ارتاب الإمبراطور جوستين "ابن أخي جوستنيان وخليفته" بولاء المنذر؛ نظرا لتعصبه الشديد لمذهبه, فكتب رسالة إلى حاكم سورية البيزنطي يأمره فيها بالتخلص منه. لكن كاتب الإمبراطور أرسلها خطأ إلى المنذر بدلا من الرسالة الموجهة إليه بدعوته إلى زيارة الحاكم للتشاور.

فحصل الجفاء، وقطع الإمبراطور عنه الإمدادات مدة ثلاث سنوات متعاقبة، فتمرد وغادر أرض الروم إلى البادية، الأمر الذي أطمع المناذرة بسورية فهاجموها وأمعنوا في غزوهم لها، وأوقعوا الرعب في قلوب أهلها، مما حمل الروم على مصالحة المنذر، والتودد إليه لاسترضائه فعقد الصلح بين الطرفين في مدينة الرصافة سنة ٥٧٨م، فعاد المنذر إلى عرشه وتصدى لحرب المناذرة وانتصر عليهم، وتمكن من بلوغ عاصمتهم الحيرة وأحرقها وكان ذلك في عام ٥٨٠م.

وقد زار المنذر وولدان له العاصمة البيزنطية في العام نفسه، فاستقبله الإمبراطور الجديد "تيبريوس" الثاني بحفاوة عظيمة، وأنعم عليه بالتاج بينما لم يكن لأسلافه سوى الإكليل يضعونه على رؤوسهم . وانتهز المنذر فرصة وجوده في العاصمة لإقناع رجال

القصر بالتسامح مع أتباع الطبيعة الواحدة والصفح عنهم، ومن المحتمل أن يكون قد عقد مجمعًا هناك لتعزيز مذهبه، واتصل بالبطاركة للتوفيق بين رجال الكنيستين، لكن مساعيه خابت بالرغم من إبداء البطاركة رغبتهم وعدم ممانعتهم في ذلك.

لكن الوفاق لم يلبث أن انقلب إلى جفاء مرة ثانية، عندما تمادى المنذر في مساعيه الهادفة إلى إعلاء شأن مذهبه، الأمر الذي أوغر عليه صدر الكهنوت الرسمي للدولة، فحرض رجاله الإمبراطور عليه، سيما قد رافق ذلك إسهامه مع حاكم سورية البيزنطي في هجوم على الفرس، حيث أحجم الحاكم عن متابعة السير عند رؤيته أن الجسر القائم على نهر الفرات, والذي يؤدي إلى الأراضي الفارسية مهدم؛ فعاد أدراجه إلى الشام, وكتب إلى القسطنطينية كتابًا يدفع فيه عن نفسه مسئولية الإخفاق والخيبة، ويتهم المنذر بالخيانة، وبأن له صلات سرية مع الفرس، وأنه قد أخبرهم بقيام الحملة, وأوعز إليهم بهدم الجسر ليكتب لها الإخفاق. وزاد الأمر سوءًا أن المنذر بعد أن عاد إلى الشام جهز جيشًا سار به إلى الحيرة، فغزاها وألحق بها أضرارا جسيمة، ولم يغادرها إلا وهي شعلة من نار، خلافا لمقتضيات الهدنة بين الإمبراطوريتين. فاتخذ الروم من هذه الأعمال جميعها دليلًا على تحديه لهم. فأصدر الإمبراطور أمرا سريا إلى عامله الجديد في الشام –وكان صديقا للمنذر– بأن يحتال للقبض عليه، فدعاه لحضور حفلة تدشين كنيسة جديدة بنيت في حوران، وما أن أطل

عليها حتى ألقي القبض عليه، وأرسله إلى العاصمة مع زوجته وثلاثة من أولاده، فوضعوا جميعًا في الأسر، ثم جرى نفيهم إلى صقلية حيث قضى المنذر نحبه بعد حين. قطع البيزنطيون بعد ذلك ونهائيا الإعانة المالية وسواها من الإعانات التي كانوا يدفعونها للغساسنة١.

فما كان من أولاد المنذر، وعلى رأسهم ابنه الأكبر النعمان, إلا أن غادروا ديارهم وأعلنوا الثورة، فاتخذوا البادية منطلقا لسلسلة من الغارات، شنوها على أراضي البيزنطيين في الشام ينهبون ويدمرون. وقد استولوا على بلدة حوارين وقتلوا بعض أهلها، وأسروا آخرين منهم، وعادوا بكثير من الغنائم. ولم يسع القيصر إلا الإيعاز لحاكمه على الشام بتجهيز حملة إليهم. فلما رأى الحاكم صعوبة مهاجمتهم في البادية، عمد إلى المكر والحيلة فتمكن من إلقاء القبض على النعمان، وأرسله أسيرًا إلى القسطنطينية "٥٨٤م" عندئذٍ تجزأت المملكة إلى أقسام متعددة يرأس كلًّا منها أمير، وتحالف بعضهم مع دولة الفرس، وبقي بعضهم الآخر بجانب بيزنطة. والواقع أن تاريخ الغساسنة في هذه الفترة يبدو على شيء من الغموض والاضطراب . أما الفوضى فقد بقيت سائدة مدة من الزمن؛ الأمر الذي شجع الفرس على مهاجمة سورية بين ٦١١-٦١٤م إذ استولوا على دمشق والقدس، ولم يستطع هرقل أن يستردهما إلا بجهد عظيم "٦٢٩م" إذ استولوا على دمشق والقدس، ولم يستطع هرقل أن يستردهما إلا بجهد عظيم "٦٢٩ م". وربما يكون الروم قد أدركوا قيمة تحالفهم مع الغساسنة، فأعادوهم إلى إمارتهم، إذ جاء في أخبار الفتوح العربية لبلاد الشام أنهم واجهوا من قبل الغساسنة مقاومة، إذ حارب هؤلاء العرب الفاتحين في جانب البيزنطيين، وقد يكون:

جَبَلَة بن الأيهم:

آخر ملوكهم، وهو الذي وقف مع الروم ضد خالد بن الوليد في دومة الجندل وفي موقعة اليرموك, لكنه أسلم عقب هذه المعركة، وانضم إلى العرب المسلمين، ثم ارتد عن الإسلام بعد الحادثة المعروفة التي تروى عن وطء إزاره من قبل رجل عربي فلَطْمه له، وعدم قبوله حكم عمر بن الخطاب الذي أعطى العربي حق القود من جبلة، ولم يكن منه إلا أن هرب إلى القسطنطينية، وقضى بقية أيام حياته فيها.

. مملكة تدمر:

نشأت تدمر في الظروف نفسها التي نشأت فيها دولة الأنباط بصفتها محطة تجارية في واحة تقع في طرف البادية، التي تفصل الشام عن العراق، وتحيط بها مناطق صحراوية، وهي تقع إلى الشرق من مدينة حمص على بعد لا يتجاوز ١٦٥كيلومترًا عنها. وكان لموقع المدينة على طرق القوافل التي تسير بين بلاد الشام والعراق، ولوجود آبار المياه العذبة والحلوة ومجاري المياه المعدنية فيها فضل كبير على نشوئها وارتقائها من محطة للقوافل إلى مدينة عامرة، بعد أن استقرت فيها بضع قبائل عربية لم يتأكد بعد المكان الذي أتت منه، إنما يعتقد بعض المؤرخين المحدثين أنها أخذت تسكن شرقي إقليم كنعان بعد سقوط الدولة البابلية، وبدأت تتعلم التكلم والكتابة باللغة الآرامية . كما أثرت في نشوئها عوامل سياسية، ذلك أنها كانت تقع بين إمبراطوريتين كبيرتين: البارثية والرومانية المتعاديتين، فحافظت على توازنها واستقلالها بينهما زمنا طويلا، مستغلة موقعها المنعزل في قلب الصحراء، وصعوبة وصول الفرق الفارسية والرومانية إليها لإخضاعها ، وحرص كل من الطرفين على استمالتها لجانبه.

على أن أهميتها وازدهارها كانا بين مد وجزر تبعًا لميزان العلاقة بين حكام العراق وفارس من آشوريين وبارثيين وساسانيين من جهة، وبين حكام سورية من سلوقيين ورومان من جهة أخرى. إذ كانت تتقدم وتزدهر عندما تتمكن إحدى هذه الدول من السيطرة على المنطقة برمتها من البحر المتوسط إلى العراق، وتصبح تدمر عقدة المواصلات بين الشرق والغرب، فتنتعش انتعاشًا كبيرًا، لكنها تتأخر عندما تسوء العلاقات بين حكام المنطقتين فتقوم الحروب وتفقد ميزتها كوسيط تجاري بين الجهتين فيتحول النشاط التجاري إلى شواطئ البحر الأحمر.

فقد انْصَبّ نشاط التدمريين على خدمة القوافل، يتولون قيادتها والإشراف على صيانة آبار الماء على الطرق التي تسلكها. كما أن تعرض القوافل أحيانًا للاعتداء والنهب من قبل قطاع الطرق واللصوص قد دفعهم إلى تأمين سلامتها من هذه الأخطار، وهكذا فإننا نجد في النقوش التدمرية القديمة ترديدًا لذكر "رئيس الخفر" الذي تسير القوافل في ظل سطوته، وقد بلغ من النفوذ ما يخوله أن يفعل ما يشاء ولا يلقى معارضًا، وكان إلى جانبه موظف آخر يسمى "رئيس السوق".

إن تاريخ تدمر خلال الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد غامض، غير أن أقدم ذكر لها، باسمها المعروف الآن "تدمر"، قد ورد في نقشين كتابيين أولهما يعود إلى عام ١٨٠٠ ق. م، والثاني إلى عهد الملك الآشوري "تغلات فلاسر" الأول عام ١١٠٠ ق. م. ويختلف الباحثون حول منشأ هذا الاسم ويفرضون بعض الاحتمالات منها:" واسمها لدى اليونان والرومان يعني النخيل في اللغة اللاتينية، فهي على هذا الاعتبار "مدينة النخيل" وكلمة "تدمر" تقابل في

العبرانية كلمة "تامار" التي تعني التمر، وهو الأمر الذي حدا بأحد المؤرخين العبرانيين إلى الخلط بين "تدمر" وبين بلدة يهودية أخرى تسمى "تامار" في جنوب البحر الميت, فروى أن سليمان الحكيم هو الذي بناها؛ فانساق بعض المؤرخين المسلمين وراء هذا الخلط فرددوا أسطورة كون المدينة قد بنيت من قبل الجن بأمر من سليمان ، لاعتقادهم أن ما تشتمل عليه من روائع عمرانية هي فوق طاقة الإنسان . أما الساميون والكتاب الكلاسيكيون فقد عرفوها منذ أقدم العصور باسم "تادامورا .

إذا رجعنا إلى أخبار تدمر نرى أن أقدمها لا يعود إلى أبعد من القرن ٩ ق. م. وقد كشف العلماء عن نقوش مكتوبة بالآرامية واليونانية ثم باللاتينية والآرامية، وهي وبعض الكتب الكلاسيكية القديمة تعطينا فكرة نوعًا ما واضحة عن تاريخها، ويستدل منها أن عوامل عديدة قد تضافرت على نشوئها. وأهم هذه العوامل كون الفرس قد سيطروا على آسيا الغربية بأكملها بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد، الأمر الذي أعان على توسع النشاط التجاري بين الشرق الأقصى وسورية وتركيا عبر العراق، وكانت تدمر المحطة الرئيسة، إذ كانت بمثابة العقدة المتوسطة في العمود الفقري لهذه المواصلات. وقد احتفظت بمكانتها حتى عهد السلوقيين الذين وحدوا بدورهم سورية والعراق وشجعوا طريق التجارة بينهما مرورًا بتدمر؛ لينافسوا بذلك غرماءهم البطالمة في مصر الذين كانوا يحرصون على ازدهار الطريق التجاري الذي يمر بالبحر الأحمر، فاستفادت تدمر استفادة عظيمة من هذه السياسة وانتعشت، بالرغم من أنها وقعت تحت نفوذهم على الأغلب، وبقيت كذلك حتى استيلاء الرومان على الشرق الأدنى.

غير أن تاريخ خضوعها للرومان لا يمكن تحديده على وجه الدقة. ويظهر أن ازدهارها وغناها قد أغراهم؛ فاستهدفت لحملة رومانية بقيادة "مرقس أنطونيوس" الذي كان عائدًا من حرب شنها على الفرس في الشرق، فأرسل سنة ٤١ ق. م. إلى أهل تدمر ينبئهم بأنه سيمر بمدينتهم للاستراحة، بينما كان يضمر الاستيلاء عليها. ففطنوا إلى المكيدة، وأخلوا مدينتهم من كل ما تحوي من أموال ومتاع ثمين، واستعدوا لقتاله وأحبطوا حملته، ولكن بعد أن أحدث بعض التخريب فيها .

لكنها ربما تكون قد خضعت للرومان في الربع الأخير من القرن الأول للميلاد, بعد أن أخضع الرومان بلاد الشام لسيطرتهم وسيادتهم. وإذا استثنينا بعض الأحوال التي لجأ فيها الرومان إلى سياسة القسر والإخضاع، فإن العلاقات الودية قد ظلت سائدة بين روما وتدمر لمدة طويلة. ففي سنة ١٣٠م زارها الإمبراطور "هدريان" –وهو الذي بدأ عهده بعلاقات سلمية مع البارثيين– ولقبها بلقب "هادريانا بالميرا" ومنحها درجة "مستعمرةرومانية عليا" فنال التدمريون حقوق الإيطاليين في الملكية المطلقة، وأُعفيت تجارتهم من الضرائب، ومنحت لهم حريتهم التامة في إدارة سياستهم.

وهكذا انتعشت تدمر اقتصاديًّا كما انتعشت سياسيًّا؛ ذلك أنها لم تخضع لروما إلا خضوعا اسميا وشكليا، إذ كانت في الواقع مستقلة في أمورها الداخلية، واحترم "هدريان" هذا الاستقلال الذي قامت على توطيد أركانه سلطة تنفيذية يرأسها شيخان وبجانبهما ديوان مؤلف من عشرة أعضاء، بالإضافة إلى مجلس شيوخ يتمتع بحق إصدار القوانين وتقرير الضرائب، فازدهرت واتسعت تجارتها وتضخمت ثروتها ونشط عمرانها، وعاشت بين سنة ١٣٠-١٧٠م أزهر أيامها .

ومما زاد من أهمية تدمر السياسية أن تطورات مهمة قد حدثت في مملكة الفرس, ففي القرن الثالث الميلادي اغتصبت الأسرة الساسانية العرش من الأسرة البارثية، واتبعت سياسة العنف مع جيرانها، فتجددت الحروب بينها وبين الرومان. وكان الحكم آنذاكٍ لأسرة وطنية عريقة يقوم على رأسها زعيم يسمى "أذينة بن خيران" الذي وصل إلى منصب عضو في مجلس الشيوخ الروماني وحمل لقب "سبتيم" فأحسنت هذه الأسرة الاستفادة من هذه الحروب والحصول على مركز مرموق عند الرومان. كما استغلت المشاكل الداخلية المختلفة التي كانت تحيط بالإمبراطورية، إذ تعرضت لغزوات الجرمن البرابرة التي كانت تهددها من الشمال، فأهملت شئون الشرق، فانصرف اهتمام حكام تدمر إلى تكوين جيش من المليشيا مؤلف من القبائل الموالية لهم، ومن العناصر التدمرية المسرحة من الجيش الروماني، أو التي اضطرتها حالة الفوضى إلى ترك الخدمة العسكرية، أو فرت من المعارك الناشبة بين الفرس والروم.

واعتنى حكامها بتسليح وتقوية جيشهم حتى أصبح في المستوى الذي يسمح لهم بأن يقوموا بدور سياسي وعسكري مهم في سياسة الشرق. وقد اضطلع به زعيم الأسرة أذينة الأول الذي نسبه الطبري إلى العرب العمالقة، قائلًا: إنه أذينة بين السميذع بن هوبر العملقي. فقد تقرب من القياصرة وأظهر لهم من التأييد ما أكسبه ودهم وعطفهم على أسرته، فمنحوه الألقاب والأوسمة والمال، كما أرضوا طموحه بمنحه درجة العضوية في مجلس

الشيوخ الروماني وكان لقبه الرسمي "رأس تدمر" غير أن طموحه لم يقف عند حد فأطلق على نفسه لقب "ملك". عندئذ أدرك الإمبراطور "إسكندر سيفيروس " ما يكمن وراء هذا التصرف من مخاطر تهدد الإمبراطورية في الشرق, بالإضافة لما أصبح لأسرته ولتدمر من نفوذ يوحي بطموحها للاستقلال التام عن روما، فأوعز إلى أعوانه بتدبير خطة لقتله، فاعتلى ابنه الأكبر سبتيموس خيران الحكم، لكن المنية سرعان ما أدركته ولم يزل ابنه معن صغير السن قاصرًا، فتولى الحكم عمه "أذينة الثاني" بن "أذينة الأول".

في هذه الفترة وقعت الحرب بين الرومان والفرس، وتقدم الملك "سابور" الفارسي نحو الغرب، فاجتاح ولاية أنطاكية، وأحرز الغلبة على الإمبراطور "فاليريان" وتمكن من أسره "٢٦٠م". ويظهر أن "أذينة الثاني" قد اغتنم هذه الفرصة للانتقام لوالده، لا سيما وأن فاليريان كان قبل أسره قد رفض طلبًا قدمه إليه أذينة بوجوب إنزال العقاب بقاتل والده، فأرسل إلى "سابور" رسلًا للتفاوض معه في سبيل العمل المشترك ضد الرومان في بلاده الشام، فلم يكن من الملك

الفارسي إلا أن استخف بالرسل وبمن أرسلهم وأهانهم. عندئذٍ تحول "أذينة" إلى الرومان الذين بادروا إلى الاستنجاد به فخف لمساعدتهم، وحارب الفرس ليرد الإهانة التي وجهوها إليه وانتصر عليهم وتعقب ملكهم سابور حتى أبواب عاصمته طيسفون "المدائن" وألحق بمملكته خسائر فادحة، فأنعمت عليه روما بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق وفي هذه الحملة كادت العاصمة الفارسية أن تسقط في يديه، لولا أن بلغة خبر ثورة قام بها أحد قادة الرومان " لاقتطاع آسيا الصغرى وسورية ومصر، فخف لقمع الثورة وقضى على القائمين بها، فأضافت إليه الدولة لقبًا جديدًا "إمبراطور على جميع أنحاء الشرق" مكافأة له على أعماله في نصرتها. لكن "أذينة" لم يكتفِ بهذه الألقاب بل اتخذ لنفسه لقب "ملك الملوك" وضرب النقود باسمه. فهل يستدل من تصرفه هذا أنه لم يقم بمساعدة الرومان إلا في سبيل تقوية مركزه، ونفوذ أسرته ودولته تمهيدًا لتحقيق مراميه السياسية؟ هذا هو الذي يغلب على الظن لأول وهلة، لكن فقدان الأدلة والأحداث التالية تقلل من هذا الظن.

فقد قاد حملة ثانية على "طيسفون" وضرب عليها الحصار، ولم يقبل بما قدمه الفرس من تنازل، بل كان شرطه الأساسي أن يطلقوا سراح الإمبراطور "فاليريان" ولم ينقذ العاصمة الفارسية من تهديده لها سوى الخطر الذي حاق بالإمبراطورية الرومانية في هجوم الجرمن البرابرة والقوط، فارتد إليهم وخلصها من خطرهم. وفي طريق عودته إلى عاصمته نزل في حمص حيث انقض عليه ابن أخيه معن وأعوان له في أثناء مأدبة كان قد أقامها احتفالًا بعيد ميلاده، فقتله غيلة؛ لزعمه بأنه كان غاصبا لعرشه.

غير أن الغموض يكتنف الظروف التي قتل فيها "أذينة" وليس هناك من الأدلة القاطعة ما يؤكد أن الحادثة قد وقعت بتدبير من الرومان، أو من الحزب الوطني التدمري الذي كان يكره اليونان والرومان . وتتوالى الأحداث سراعًا بعد مقتله إذ لم يلبث أهل حمص –وربما بإيحاء من زوجته زنوبيا وأعوان زوجها الراحل– أن انقضوا على "معن" الذي تولى الحكم بعده فقتلوه، وآل الحكم بعدئذ إلى ابن لأذينة صغير السن هو "وهب اللات" فكان على أمه زنوبيا أن تتولى الوصاية عليه، وأن تحكم باسمه.

حكم زنوبيا:

كانت زنوبيا عربية الأصل ، ذات شخصية قوية، تتحلى بتربية عالية، تجيد اليونانية والآرامية، وتتكلم بهما بمثل الطلاقة التي تتكلم بها العربية، ولم تكن تجهل اللاتينية، ولها اطلاع على تاريخ الغرب بالإضافة إلى كونها قد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق، مما يدل على سعة اطلاعها عليه، وأَلِفَتْ أن تعقد الموازنة بين روائع "هوميروس وأفلاطون" تحت إشراف فيلسوف بلاطها العالم "لونجين" الأمر الذي يشهد باطلاعها أيضا على الفلسفة الأفلاطونية. يصفها إدوار جيبون بأنها كانت تتمتع بعبقرية فذة، وأنها أُوتيت من الصفات كالجرأة والشجاعة، ما رفعها إلى مرتبة

البطولة، عودت جسمها وبنيتها على التعب والجهد، فكانت ترتدي اللباس العسكري، وتمتطي الجواد وتسير في مقدمة جيشها، وأنها بحسن بصرها بالأمور وجلدها وثباتها كانت خير عون لزوجها أذينة في أداء مهام الحكم.

وفي عهد وصايتها على ابنها "وهب اللات" بدأ نجمها يسطع، وأصبح بلاطها من الفخامة بحيث يضاهي البلاط الساساني رونقًا وبهاءً. حكمت في عزم الرجال تدمر وسورية والشرق لأكثر من خمس سنوات، واستشعرت الدول المجاورة لها، كدولتي أرمينية وفارس، الرهبة من عدائها فتوسلت لمحالفتها.

هنالك رواية عربية معروفة، ذكرها كل من الطبري والمسعودي، تزعم بأنها هي نفسها الزباء، ويسميها الطبري نائلة بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميذع العمليقي، بينما يسميها المسعودي باسم "الزباء بنت عمر ... إلخ" التي انتقمت من جذيمة الأبرش أول ملك للحيرة كما تزعم بعض الروايات العربية، إذ استدرجته إلى قصرها وقتلته انتقامًا لقتله والدها، فقام بعده ابن أخته وخليفته عمرو بن عدي فانتقم بدوره له عن طريق الحيلة، إذ وجه إليها رجلًا يسمى قصير بن سعد الذي جدع أنفه، وادعى أنه مطرود من بلاط الحيرة، حتى إذا نال ثقة الزباء أدخل رجال عمرو بن عدي إلى قصرها فقتلوها "ومن هنا جاء المثل المعروف: لأمر ما جدع قصير أنفه". وهذه الرواية تبدو بعيدة عن الصحة ومختلقة، إنما ترمز إلى ما كان من صلات تجارية بين تدمر والحيرة.

شعرت زنوبيا بقوتها بعد أن أصبح تحت تصرفها جيش بلغ من القوة والبأس ما تستطيع أن تتحدى به الإمبراطورية الرومانية، فلم تعد تهتم بالخضوع لها، واحتقرت مجلس الشيوخ "السيناتو" الذي لم يعترف لها بما كان لزوجها من سلطة، فآلت على نفسها أن تنتقم لزوجها الذي اعتقدت أن الرومان هم الذين دبروا مؤامرة قتله، وربما كان مشروعها يرمي إلى الاستقلال عن روما وقطع كل علاقة معها. فما كان من الرومان –وقد شعروا بنواياها– إلا أن سيَّرُوا إليها حملة تظاهرت باتجاهها لمحاربة الفرس، لكنها في الواقع كانت موجهة لإخضاعها، فقابلتها زنوبيا وهزمتها وقتلت قائدها "هركليانوس". ثم اغتنمت مشاكل الإمبراطورية الداخلية من صراع الطامعين بالعرش مع

الإمبراطور القائم، ومن قيام الجرمن البرابرة بحركات تمرد في بلاد الغال التابعة لروما، فوجهت إلى مصر جيشًا مؤلفًا من ٧٠ ألف جندي بقيادة قائدها زبدة , فاحتلها وألحقتها بالدولة التدمرية، ولم يسع الإمبراطور الروماني كلوديوس –وقد اعتلى العرش حديثًا– إلا أن يعترف بعجزه عن إخضاعها، وأن يسلم بالأمر الواقع ويتفق معها على بقاء الجيوش التدمرية في القطر المصري, شريطة اعتراف زنوبيا بتبعيتها للدولة الرومانية.

لكن السلام الذي حل بين الطرفين لم يلبث أن تبدد باعتلاء الإمبراطور أورليانوس العرش، إذ تمكن من دحر المتمردين وتفرغ لإخضاغ زنوبيا. وكان على هذه أن تجابه الإمبراطور بنقض الاتفاقية المعقودة مع روما، وأردفت ذلك بإسقاط رسم الإمبراطور عن النقود واستبدلت به رسم ابنها، واتخاذها وابنها "وهب اللات" لقب أغسطس الخاص

بالإمبراطور الروماني. ثم وجهت حملة إلى آسيا الصغرى، فاحتلت جزءًا كبيرًا منها سنة ٢٧٠م، ودحرت الجيوش الرومانية وردتها إلى ما وراء أنقرة، وأحدقت جيوشها بأسوار القسطنطينية.

أما أورليانوس فلم يبدأ هجومه على زنوبيا من جهة البلقان والأناضول كما كانت تتوقع، بل بدأ بمصر مستغلًّا ضعف وسائل الدفاع عنها، وذلك أنها قد سحبت منها معظم قواتها لتعزز بهم جبهة الأناضول؛ اعتقادًا منها بأن المصريين الناقمين على الرومان سيهبون للدفاع ضدهم. إنما خاب ظنها بهم؛ لأن الرومان تمكنوا من استمالة قسم منهم، فأحرزوا بذلك انتصارا ساحقا واستعادوا سيطرتهم على مصر "٢٧١م".

ثم التفت الإمبراطور إلى الشرق، وتقدم لمحاربتها في عدة جبهات، فمن البحر أرسل أسطولا كبيرا لاحتلال أنطاكية، ومن البر الأناضولي تقدم نحو أنقرة فتراجعت الجيوش التدمرية حتى أنطاكية، حيث التقى الإمبراطور بالجيش التدمري، وكان بقيادة زباي الذي كان يتلقى أوامره من زنوبيا نفسها التي لم تغادر أرض المعركة. كان الجيش التدمري مؤلفا من رماة السهام الخفاف، ومن الخيالة الثقيلة المدرعة بالصلب، فلم يقوَ فرسان أوليان على تحمل الهجوم الثقيل من جانب التدمريين، فهربوا تصنعًا أو حقيقة، فتعقبهم فرسان تدمر، وكان من الطبيعي أن يصيبهم الإرهاق لثقل معداتهم وعسر حركتهم، فعمد الرومان إلى مضايقتهم بمناوشات جانبية متقطعة حتى تمكنوا من دحرهم حين بدا عليهم الارتباك، ثم التفتوا إلى المشاة من رماة النبل، وكانوا قد انعزلوا ونفدت نبلهم، فسهل على الإمبراطور إلحاق الهزيمة بهم.

تقدم الإمبراطور بعدئذٍ نحو حمص متابعا زنوبيا التي انسحبت إليها، فأوقع بجيشها هزيمة أخرى، شابهت ظروفها ظروف معركة أنطاكية، وتابع سيره إلى تدمر لمحاصرة الملكة التي لم تر بُدًّا من الاعتصام داخل أسوار عاصمتها، وقد أعدت كل ما تستطيع إعداده من وسائل الدفاع، إذ وضعت على كل برج من أبراج السور اثنين أو ثلاثة من المجانيق تقذف المهاجمين بالحجارة، وتمطرهم بقذائف النفط الملتهبة، وصممت على المقاومة بشجاعة بطولية، معلنة أنه إذا كان لا بد لحكمها من نهاية فلتقترن هذه النهاية بنهاية حياتها. وهكذا كان حصار الإمبراطور لتدمر من أشد ما واجه من صعاب، لا سيما وأنه قد أصيب خلاله بجرح من أحد النبال. يدلنا على ذلك ما جاء في خطاب له: "إن الشعب الروماني يتحدث باستهزاء وسخرية عن الحرب التي أشنها ضد امرأة، لكنهم يجهلون شخصية زنوبيا وقوتها. وإنه لمن العسير أن تحصى معداتها الحربية من الحجارة والسهام وكل أنواع القذائف" .

ولم يغب عن خاطر أورليان أن يضع ثقته بآلهة روما مستمدًّا عونها ونصرتها له ضد هذه المرأة الشجاعة. ولما ساوره الشك في نصرة آلهته عرض على زنوبيا التسليم لقاء شروط معتدلة: أن تنسحب انسحابًا كريمًا، وأن يحتفظ مواطنوها بامتيازاتهم القديمة. لكنها رفضت شروطه بإباء وشمم، "لا بل اقترن الرفض بالإهانة" . والواقع أنها ركزت أملها في أن تحل المجاعة في الجيش الروماني فيرغم على الانسحاب، وبأن يأتيها المدد من ملك فارس. لكن سابور قد توفي في

تلك الآونة, وشغل الفرس بالفتن الداخلية, وحال الرومان دون وصول أية نجدة إليها، بينما كانت النجدات الرومانية تتدفق على أورليان ،ولم تر زنوبيا في النهاية، وبعد أن استبد بها اليأس، إلا أن تفر إلى الصحراء في محاولة منها للالتجاء إلى الفرس، لكن أورليان تمكن من أسرها عند ضفاف الفرات واقتادها معه إلى روما، فقضت بقية أيام حياتها منسية في العاصمة الرومانية، ولم يعاقب الإمبراطور بالقتل سوى كبار قوادها ومستشاريها بعد محاكمة أُجريت لهم في حمص.

أما تدمر فقد وضع عليها حاكمًا رومانيًّا وفرض عليها غرامة كبيرة، فلم تلبث بعدئذ أن أعلنت على الحكم الروماني ثورة قضت فيها على الحامية الرومانية، فكان على أورليان أن يعود أدراجه إليها ليخمدها، وقد استباح تدمر لجنوده ودمرها وأعمل السيف في رقاب أهلها . وهناك رسالة لأورليان نفسه يعترف فيها بأن الإعدام الرهيب لم يقتصر على المتمردين المسلحين، بل تعداه إلى الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين . وقد سببت هذه الأعمال ضعف تدمر وانحطاط شأنها، ولم يسمع لها خبر حتى الفتح الإسلامي.

مدنية تدمر وحضارتها:

طبقات المجتمع:

كان المجتمع التدمري يتألف من طبقات عديدة؛ فهنالك الطبقة الخاصة والطبقة العامة وأفرادهما مواطنون أحرار، وكانت الطبقة الخاصة تتألف من عدد من القبائل العربية منها بيوتات الشرف، وهي تملك الثروة والنفوذ، وتتشبه بالرومان في طراز معيشتها . وأما العامة فهي سواد الشعب وتضم العمال والفلاحين ورجال القوافل وتأتي بعدهما طبقة العبيد. وكان في تدمر عدد من الجاليات الأجنبية لا سيما الرومان، وقد سكنتها للتجارة، وكان لكل جالية فندقها الخاص بها.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

كان للنشاط التجاري وللصلات التجارية الخارجية الفضل في اتساع أفق التدمريين وتقدمهم في الحضارة، فأتقنوا عدة لغات كالإغريقية التي استعملوها لكتابة وثائقهم الإدارية، وكالآرامية لمكاتباتهم العادية والتجارية. كانت تدمر نقطة تجارية متوسطة بين سورية وشبه جزيرة العرب والخليج العربي والعراق وإيران والأناضول ومصر. وامتد نشاطها التجاري حتى روما وفرنسا وأسبانيا، وحتى الهند والصين، كما اتضح من النقش الذي عثر عليه في أنقاضها واسمه "القانون المالي لتدمر" والذي يذكر المواد التجارية التي كانت تمر في تدمر، مع نسبة الرسوم الجمركية التي كانت تفرض عليها.

نظام الحكم:

تطور نظام الحكم في تدمر، فقبل عهد أذينة الأول كانت تتمتع بحكم شوري يقوم عليه مجلس شيوخ "بولو " لا يضم سوى أصحاب الجاه والثروة. ولكل عشيرة مجلس يسمى "ديموس" يضم كل أفرادها البالغين. وللمدينة حاكم يسمى "آراخون" وموظف للشئون المالية وآخر مسئول عن الأسواق وقائد جيش وقائد حامية وقوة بوليس لحماية القوافل تسند زعامتها إلى رئيس من التجار الأغنياء. ومنذ عهد أذينة قام فيها حكم ملكي وراثي يجمع بين سلطة المجالس وبين سلطة الحاكم الفرد.

الفن التدمري والعمران:

أما الفن التدمري فهو مزيج من عناصر يونانية وإيرانية وسورية، وقد تأثر من حيث الزخرفة والبناء بالأسلوب اليوناني مع تأثيرات شرقية، فجاءت معظم الأبنية وفق الطراز الهللنستي الذي يتصف بكثرة الزخارف وتنوعها، وبالدقة والوضوح.

وأهم الآثار التدمرية "الشارع الكبير" وهو يبدأ من الجهة الجنوبية الشرقية بقوس نصر كبير، ويسير نحو الشمال الغربي بطول ١١٠م وعرض ١١م، وكان على جانبيه رواقان مسقوفان لا يزال ١٥٠ من أعمدتهما قائمًا حتى الآن. وهي من أصل ٣٧٥ عمودًا "بطول ١٠م وقطر ١م" مصنوعة من المرمر الأبيض والجرانيت السماقي، وكلها ذات تيجان كورنثية.

وفي تدمر هيكل "بعل" المؤلف من باحة مكشوفة, وقد استعمل في بنائه ٤٠٠ عمود لا يزال مائة منها قائمًا في صفوف منتظمة، أمام أروقة تعلو واجهتها أفاريز عليها نقوش بديعة. فقد رسم التدمريون على عمائرهم وعلى أعمدتها أغصان الشجر، ومنها الكرمة التي تشاهد أوراقها وعناقيدها. ومن الهياكل المشهورة هيكل "بعل شمين" سيد السموات، وفي المدينة أقنية فخارية لتوزيع المياه، ومسرح مدرج اكتشف حديثًا بالقرب من قوس النصر ومن هيكل بعل.

الكتابة التدمرية:

استعمل التدمريون إحدى لهجات اللغة العربية، وكانت أسماؤهم وطبائعهم وسائر أحوالهم تدل على عروبتهم. لكنهم كالأنباط كتبوا بالخط الآرامي الذي طوروه إلى خط تدمري كما فعل الأنباط، وقد أمكن قراءته بفضل الترجمة اليونانية التي وجدت إلى جانب النصوص المكتشفة.

الديانة:

عبد التدمريون آلهة ترمز إلى مظاهر الطبيعة، شأنهم في ذلك كشأن بقية الساميين، وكان لهم أكثر من أربعين إلهًا، وأعظمها شأنًا بعل "بل" وهو إله وطني يمثل الشمس التي عبدوها وشيدوا لها أعظم هيكل، والإله بعل شمين "إله

السموات" ويعتبر حامي الزراعة، والإله يرحبل "إله القمر". وهناك اللات وعزنرو وساعي القوم "حامي القوافل". ووجود هذا الإله أمر طبيعي في مجتمع يعيش على التجارة، وكانوا يعتبرونه إله الخير الطيب الذي يرعى القوافل.

دولة المناذرة..... أد. عباس فضل حسين

- مدينة الحيرة:

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية، حتى إذا ما وصلوا إلى وادي الفرات أقاموا في ربوعه، وفي أوائل القرن الثالث الميلادي، وإبان الاضطرابات التي أعقبت سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية في حوالي عام ٢٢٦م، تحت زعامة "أردشير بن بابك بن ساسان" وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية، وسكنت في المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات، وما أن يمضي حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرفت "بالحيرة"، تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة- وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة، واقترابه منه على مبعدة خمسين كيلو مترا- التي أصبحت بمثابة حصن للملك الفارسي حيال العرب الرحل . على أن هناك من يرجع بتاريخ المدينة إلى أيام الملك البابلي "نبوخذ نصر" "٦٠٥-٥٦٢ق. م" طبقا لرواية سبق لنا مناقشتها في هذه الدراسة بينما يرى آخرون أن مؤسس الحيرة إنما هو "الأردوان" ملك الأنباط ، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنها من بناء "تبع أب كرب" ، وأخيرًا فهناك من يرى أنها مدينة بارثية.

ليس هناك من شك في أن "الحيرة" مدينة قديمة، وإن كنا لا نعرف تاريخها على وجه التحقيق، ولعل أقدم ما وصلنا عنها إنما هي كتابة ترجع إلى عام ١٣٢م، ذكرت فيها المدينة تحت اسم "حيرتا"، فإذا كانت "حيرتا" هذه، إنما هي "الحيرة" حقا، فإن أقدم ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى عام ١٣٢م ، ولعل مما تجدر ملاحظته هنا أن الحفريات لم تقدم لنا شيئا يمكن الاعتماد عليه فيما يتصل بموقع المدينة وتاريخها، وأن كل ما وصلنا لا يعدو نقوشا من الجبس مما تكسى به الجدران، فضلا عن مجموعة من الجرار وآثار صغيرة، بعضها يرجع إلى ما قبل الإسلام، ويرجع بعضها الآخر إلى العصر الإسلامي .

وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم "الحيرة" ومصدر اشتقاقه، فهناك رواية تذهب إلى أن "تبان أسعد أب كرب" كان قد خرج من اليمن يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلا تحير، فأقام مكانه، ومن ثم فقد سمي ذلك الموضع "الحيرة" ، وتذهب رواية أخرى إلى أن "تبعا الأكبر" قد ترك ضعاف جنود في ذلك الموضع، وقال لهم "حنروابه" أي أقيموا به . هذا ويذهب العلماء المحدثون إلى أن كلمة "الحيرة" إنما هي كلمة "أرامية" وأنها "حرتا" "حرتو" السريانية الأصل، بمعنى "المخيم أو المعسكر" وأنها تقابل "المعسكر" عند المسلمين، و"حاصير" عند العبرانيين .

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية، والحير العربي، إنما هما من أصل سامٍ واحد، ذلك أن المضرب والمعسكر والحمى، إنما هي ألفاظ يدل أصلها على

عنى واحد ، ويميل الدكتور عبد العزيز سالم إلى هذا الرأي، معتمدا في ذلك على وصف "اليعقوبي" على خطط "سر من رأى" والحير الذي أقيم بها، وجعل حظيرة للوحش من الظباء والحمير الوحشي والأيايل والأرانب والأنعام .

وتقع الحيرة قريبا من مدينة بابل القديمة، وعلى مبعدة ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة ، في نهاية طريق يجتاز شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافي هذا، مركزا هاما جدا للقوافل، لم يسع الساسانيين إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم .

هذا وقد اشتهرت المدينة باسم "حيرة النعمان" عند المؤرخين العرب، و"الحيرة مدينة العرب" عند المؤرخين السريان، و"حيرته" في المجمع الكنسي الذي عقد في عام ٤١٠م، كما سميت كذلك باسم "حيرة النعمان التي في بلاد الفرس" في تاريخ يوحنا الإفسوسي –من القرن السادس الميلادي– وأما "التلمود" فقد أطلق عليها اسم "حيرتا دي طيبة" أي "معسكر العرب وحيرة العرب" ، وقد أطنبت المؤلفات العربية في وصف هوائها النقي، وصفاء جوها، وعذوبة مائها، حتى قيل "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة" وقيل "إنها منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام" و"أن هوءاها وترابها أصح من الكوفة"، ولعل كل هذه الأوصاف ربما كانت السبب في أن تقول العرب "لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربة"، بل إن "حمزة الأصفهاني" ليزعم أنه لم يمت بالحيرة بسبب هوائها النقي أحد من الملوك إلا قابوس بن المنذر هذا وقد كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يتحدثون بها في حياتهم العادية، وأما في الكتابة فقد كانوا يستعملون السريانية، ولعلهم في هذا يشبهون الأنباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية، هذا وهناك من يذهب إلى أن دخول النصرانية إلى اليمن إنما كان بجهود رجال الكنيسة السورية في الحيرة، فضلا عن انتقال الكتابة من الحيرة إلى الحجاز ، وعلى أية حال، فلقد أصبحت الحيرة في القرن السادس الميلادي، وعلى أثر اتساع نفوذ سلالة اللخميين نقطة التقاء للتيارات الإيرانية والآرامية على حدود المحيط العربي الفاصلة، حتى لقد ظهرت المدينة بمظهر العاصمة الفكرية .

ملوك الحيرة:

يزعم الأخباريون أن مالك بن فهم الأزدي أول من ولي أمر العرب في العراق، وأنه كان يسكن الأنبار، ثم جاء من بعده أخوه "عمرو" على رأي، و"جذيمة الأبرش" –صاحب القصة المشهورة مع الزباء– على رأي آخر ، على أن المؤسس الحقيقي لدولة اللخميين إنما كان "عمرو بن عدي" "٢٦٨–٢٨٨م"، ابن أخت جذيمة، وأول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب، وأول من مجده أهل الحيرة في كتبهم، وإليه ينسب ملوك العرب في العراق .

وجاء بعده ولده، "امرؤ القيس" "٢٨٨–٣٢٨م" –والمعروف بامرئ القيس

البدء، وامرئ القيس الأول –وكان ملكه واسعا، فقد كان عاملا لملك الفرس على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة، كما كان أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس –فيما يرى الأخباريون .

وامرؤ القيس هذا هو صاحب "نقش النمارة" – والذي يمكن أن نستخلص منه عدة نتائج، منها "أولا" أن امرأ القيس هذا، إنما هو أول ملوك الحيرة الذي وصل إلينا بعضا من أخبارهم مكتوبا، ومنها "ثانيا" أنه قد توفي في عام ٣٢٨م "الموافق لعام ٢٢٣ من تقويم بصرى" ، ومنها "ثالثا" أن النص– وهو أقدم وثيقة مكتوبة باللغة العربية– يؤكد أن لغتنا العربية كانت هي نفسها، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي، وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة إليه، ومنها "رابعا" أن النص يؤكد لنا أن المناذرة –شأنهم في ذلك شأن الغساسنة– إنما هم عرب شماليون؛ لأنه مكتوب بلغة عربية شمالية، وبالحرف النبطي، وليس باللغة الحميرية أو الحرف المسند ، وهو بهذا يمثل مرحلة انتقال من الحروف النبطية إلى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة حتى الآن ، لأن الخط العربي الشائع بيننا الآن منحول عن الخط النبطي الذي كان شائعا في مملكة الأنباط ومنها "خامسا" أن النص إنما يفيد أن امرأ القيس قد فتح معظم شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فهذا يتناقض والروايات التي تنسب إلى "شمر يهرعش" الفتوحات العظيمة، وتجعله فاتحا للعراق وما وراءه حتى الصين، وتعكس القضية تماما، بل إن النص إنما يصل بفتوحات امرئ القيس حتى أسوار نجران، ومن ثم فقد سمي –كما يقول النص– "ملك العرب كلهم" و"لم يبلغ ملك مبلغه"، وبعبارة أخرى فقد مد حكمه من الحيرة وبلاد الشام إلى نجد والحجاز، حتى بلغ مدينة نجران١، وإن كان يبدو لي أن في النص مبالغات، شأنه في ذلك شأن روايات الإخباريين عن "شهر يهرعش"، وإن كانت الأخيرة تكاد أن تكون أقرب إلى الأساطير منها إلى حقائق التاريخ.

على أن في "نقش النمارة" عبارة تدعو إلى التساؤل، وذلك حين يقول النقش "واستعمل أبناءه على القبائل، ووكلهم على الفرس والروم" مما دعا بعض الباحثين إلى أن يرى امرأ القيس قد جاء إلى الشام –حيث كتب النص بعد وفاته في النمارة– على إثر خلاف بين أمراء الفرس على العرش وأن الخلاف قد انتهى في غير مصلحة الحزب الذي كان يؤيده امرؤ القيس، ومن ثم فقد أقام في الشام، وبدأ يتجه نحو الروم، الذين انتهزوا الفرصة فأقروه على عرب الشام، وبالتالي فإن الرجل قد عمل في أول أمره للفرس، ثم بعد ذلك للروم ، ومن ثم فإن القراءة الصحيحة، ربما تكون "واستعمل أبناءه على الشعوب وجعلهم فرسانا للروم"، وهذا يعني أن امرأ القيس كان يعمل عند وفاته للروم فحسب، لأنه ليس من المقبول أن يذكر عمله للفرس في نص مكتوب في بلاد تخضع للروم، وحتى لو كان قد امتلك هذه المنطقة بحد السيف، فالمنطق هنا يستدعي عدم ذكر الروم، ويرى "كلير مونت جانيو" أن لفظ التاج

وحده كاف على علاقة امرئ القيس بالفرس، لأنه من ألقاب ملوك الحيرة، وأما وجود قبره في حوران، فربما كان دليلا على أن سلطته قد امتدت إلى هناك ، ومع ذلك، وعلى فرض صحة تفسير، "كلير مونت جانيو" هذا،

ويرى الطبري أن الفرس قد استعملوا "عمرو بن امرئ القيس" "٣٢٨-٣٦٣م" بعد أبيه، ثم تلاه "أوس بن قلام" "٣٦٣-٣٦٨م"، والرجل -كما يبدو من اسمه- ليس من بني لخم، ومن ثم فهناك من يرى أن نزاعا قد حدث بين أولاد عمرو على وراثة العرش، مما أدى إلى قيام الفتن والاضطرابات، فأقام "سابور ذو الأكتاف" "٣١٠-٣٧٩م" "أوسا" هذا ملكا على الحيرة ، غير أن "أوسا" سرعان ما قتل بيد أحد أبناء بني نصر، فعادت حكومة الحيرة إليهم، في شخص "امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس" "٣٦٨-٣٩٠م."

وجاء "النعمان الأول" "٣٩٠-٤١٨م" -والمعروف بالنعمان الأعور، والنعمان السائح- بعد أبيه امرئ القيس الثاني، وينسب الإخباريون إليه بناء "قصر الخورنق" "وهو لفظة فارسية بمعنى حصن منيع"، ليقيم فيه "بهرام بن يزدجر الأول" "٣٩٩-٤١٠م" ملك الفرس، وأن الذي بناه إنما هو رجل رومي يدعى "سنمار"، كتب عليه أن يلقى ميتة عنيفة على يد "النعمان" نفسه، ذلك أن سنمار بعد أن فرغ من بنائه، وأعجب النعمان به قال: "لو عرفت أنكم توفونني أجري، وتصنعون بي ما أنا أهله، لجعلته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت"، فقال النعمان: "وإنك لتقدر على بناء ما هو أفضل منه ثم لم تبنه"؟، وأمر به فطرح من رأس الخورنق، على أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن سنمار قد أخبر النعمان، إنه يعرف في القصر حجرا واحدا، وأنه لو حرك من مكانه لتردى القصر، ثم عرف الملك موضع الحجر، وخشي أن يدل سنمار آخرين عليه، فأمر به فأردى من أعلى القصر فتقطع، فضربت العرب به المثل.

يبدو أن النعمان كان على علاقة طيبة بالنصارى من قومه -على الأقل في الفترة الأخيرة من حكمه- وأنه بدأ يتقبل المسيحية، أو أنه كان يميل إليها، ولعل السبب في ذلك، أننا نقرأ في سجل الكنيسة الشرقية أن الحيرة كان عليها أسقف في عام ٤١٠م، وأن ملكها قد حمى النصرانية، ومن ثم فقد كانت الروايات التي تدور حول تنسكه حين أدرك أن حطام الدنيا لا محالة زائل، بما فيها قصره الفخم، ومن ثم فقد زهد فيها، وعكف على البر والتقوى، فانقلب سائحا زاهد١، وإن كان أمر اعتناقه المسيحية ما يزال موضع شك كبير، ذلك لأن ملوك الحيرة كانوا حتى أواسط القرن السادس الميلادي ما يزالون على الوثنية، وأن المنذر بن ماء السماء كان يقدم الذبائح البشرية إلى العزى . وعلى أي حال، فلقد اشتهر النعمان كذلك بكتيبتي الخيالة الشهيرتين عند العرب، وهما: الدوسر ورجالها من الفرس، والشهباء ورجالها من تنوخ، وغزا بهما عرب الشام عدة مرات، وعلى أيامه ازدهرت مدينة الحيرة، كما لم تكن من قبل .

وجاء بعد النعمان ولده "المنذر" "٤١٨-٤٦٢م" من زوجه "هند بنت زيد مناة بن زيد الله بن عمرو الغساني"٤، وقد وصلت الحيرة في عهده إلى درجة مكنتها من أن يكون لها صوت مسموع في أحداث العصر، كما مكنت المنذر من أن يحمل كهنة الفرس على تتويج "بهرام" الذي رباه أبوه النعمان، غير عابئين بمنع آخر كان يسعى إلى العرش بكل قوته .

وقد شارك المنذر في الحروب التي قامت بين الفرس والروم، بسبب اضطهادمسيحيين في فارس، وكانت أرض العراق هي ميدان المعركة، وحاصر الروم "نصيبين"، وأسرع "بهرام" لإنقاذها، واشترك المنذر في المعارك، كما اتجه بعد ذلك إلى أنطاكية للاستيلاء عليها، إلا أنه لم يحقق نصرا، وانتهت الأمور بعقد صلح بين الفرس والروم في عام ٤٢٢م .

وجاء بعد المنذر ولده الأسود، ثم أخوه المنذر، ثم النعمان بن الأسود، ثم انتقل العرش بعد ذلك من أمراء بني نصر، إلى "يعفر بن علقمة"، غير أنه عاد مرة أخرى إلى بني نصر، حيث تولى عرش الحيرة "امرؤ القيس الثالث" ثم "المنذر بن امرئ القيس" "٥٩٦ أو ٥٠٨-٥٥٤م"٢ ، والذي يعرف بذي القرنين، بسبب ضفيرتين كانتا له، وبابن ماء السماء "وماء السماء هو لقب أمه مارية أو ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال من بني النمر بن قاسط" ، وعلى أي حال، ففي عام ٥٠٦م عقد صلح بين الروم والفرس، في مقابل إتاوة يدفعها القيصر لملك الفرس، غير أن الروم قد تأخروا في دفعها، مما كان سببا في أن يقوم المنذر في عام ٥١٩م بغزو الحدود الرومانية، وأسر قائدين رومانيين .

وفي عام ٥٢٤م، أرسل القيصر "جستنين الأول" "٥١٨-٥٢٧م" إلى المنذر، وفدا يتكون من إبراهيم والد المؤرخ "نونوسرس"، وشمعون الأرشامي، وسرجيوس أسقف الرصافة، يطلب إطلاق سراح القائدين الرومانيين "جان وتموستران" وعقد صلح مع المنذر، ويبدو أن الوفد قد حقق الهدف الأول من مهمته، وأن الشواهد تشير إلى أن الهدف الثاني كان بعيدا عن التحقيق، هذا ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الوفد الرومي قد صادف وصول، وفد ذي نواس" الحميري الذي يطلب من ملك الحيرة أن يفعل بنصارى مملكته، ما يفعله هو بنصارى نجران، وأن شمعون الأرشامي ليزعم أنه قد دون قصة تعذيب نصارى نجران، طبقا لما جاء في رسالة

وتسوء العلاقات بين الروم والفرس وتدق طبول الحرب بينهما في عام ٥٢٨م، ويشترك المنذر فيها إلى جانب الفرس، فيهاجم بلاد الشام حتى يصل إلى أنطاكية ويحرق عددا من المدن، منها خلقدونية، ويضحي -فيما يزعم المؤرخون السريان- بأربعمائة امرأة للعزى، وإن كان "ابن العبري" يرى أنه أخذهن لنفسه، وهنا يضطر القيصر "جستنيان" إلى طلب مساعدة الحارث الغساني، فيسبغ عليه لقب "فيلارخ".

ومن أسف أن الجيوش العربية –اللخمية والغسانية– إنما كانت تحارب بعضها البعض الآخر، بينما كان الروم يحاربون الفرس ، وهكذا كان العربي يقتل أخاه العربي ابتغاء مرضاة الفرس أو الروم، أو حبا في المغامرة، وفي أحسن الفروض، إيفاء بما وعد به الحارث أو المنذر أصدقاءه الروم أو الفرس، وإن كان الوفاء بالوعد يبيح قتل الأخ لأخيه، إرضاء لصديق أو سيد، وعلى أي حال، فإن الموقف سرعان ما يتغير حين تنطفئ نيران الحرب بين الكبار، بينما لا يزال الصغار يلعبون بمقدرات شعوبهم، ولم تنتهي نيران الحرب بين الكبار، بينما لا يزال الصغار يلعبون بمقدرات شعوبهم، ولم تنتهي إلا بقتل المنذر في عام ٥٥٤م في موقعة يوم حليمة –كما أشرنا من قبل– وإن كان "أوليري" يرى –طبقا لرواية المؤرخ ثيوقانس– أن المنذر بقي حيا، حتى تم الصلح بين الروم والفرس في عام ٥٦٢م ، والذي اتفق الطرفان فيه على أن يترك لكل منهما ماله من الأراضي القديمة، وعلى حرية التجارة بين إيران وبيزنطة، وعلى أن يمنح النصارى حرية العقيدة، وعلى أن لا يسعى أحد من رجال الدين في الدولتين إلى التبشير بدينه.

وجاء بعد المنذر ولده "عمرو بن هند" "٥٥٤–٦٩م" من زوجه "هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار"، وهو –فيما يرى الأخباريون– "مضرط الحجارة" كناية عن قوة ملكه وشدة بأسه، وهو "المحرق" لأنه حرق بني تميم، أو حرق نخل اليمامة، وقد كان عاتيا جبارًا، لا يبتسم ولا يضحك، ومن ثم فقد كانت العرب تهابه وتخشاه .

وقد حذا عمرو حذو غيره من ملوك لخم وجفنه، الذين أدركوا أن الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرأي العام بين العرب، يديرون دفة الدعاية كيفما شاءوا، فلم يأل جهدا في إكرامهم وغمرهم بفضله، كما فعل سواه من الملوك، طمعا في اجتذاب العرب إليه، وهكذا أصبحت الحيرة في عصره موئل الشعراء يأتون إليه من شبه الجزيرة العربية ينشدونه شعرهم، وينالون جوائزه، ويعقدون المناظرات في حضرته، وعلى رأسهم ثلاثة من أصحاب المعلقات السبع –طرفة بن العبد، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم .

ويبدو أن "عمر بن هند" هذا، كان شديد الغرور لدرجة جعلته يعتقد أنه ليس هناك من بين أمراء العرب من يستنكف أن يخدمه، أو يأبى أن يسعى إلى مرضاته، أيا كانت الوسيلة، وأن هذا الزعم الكذوب إنما كان سببا في أن يجندله "عمرو بن كلثوم" بسيفه في رواية تقول: إنه قال لجلسائه ذات يوم: هل تعرفون أحدا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي، فقالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمه "ليلى" بنت "مهلهل بن ربيعة، وعمها "كليب بن وائل"، وزوجها "كلثوم"، وولدها "عمرو"، وهكذا أمر "عمرو بن هند" أن يطلب من "عمرو بن كلثوم"، أن يحضر إلى قصره، ثم أمر أمه "هند" أن تصرف الخدم بعد الفراغ من الطعام، ثم تطلب من "ليلى" أن تناولها الشيء بعد الشيء، وتفعل "هند" ما أمر به ابنها الملك، غير أن "ليلى" سرعان ما ترفض ذلك في

إباء وشمم، قائلة: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، ثم تصيح، واذلاه يا آل تغلب، فما كان من عمرو بن كلثوم، إلا أن أمسك بسيف الملك، وأطاح به رأسه، وهكذا جنى عمرو بن هند ثمرة غروره" إن صحت الرواية .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن "هندا" أم "عمرو بن هند" هذه، إنما كانت نصرانية، وقد نسب إليها بناء "دير هند الكبرى"، الذي بقي حتى القرن الثاني الهجري، ويذهب البعض إلى أن البناء إنما تم على أيام الأسقف "مار أفرايم" في عهد ملك الفرس "خسرو أنوشروان"، وقد جاء في صدر هيكل الدير: "بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة بنت الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أم المسيح وأم عبده، في زمن ملك الأملاك خسرو أنوشروان وفي زمن مار أفرايم الأسقف، فالإله الذي بنت له هذا البيت يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها، ويقبل بهما، ويقومها إقامة الحق، ويكون الإله معها ومع ولدها الدهر الداهر" ، فإذا صحت هذه القراءة فإن بناء الدير، إنما يرجع إلى عهد "عمرو بن هند" .

هذا ويذهب "لويس شيخو" إلى أن "عمرو بن هند" قد تنصر، إذ كانت الحيرة في وقته تموج بالمبشرين المسيحيين، ومن ثم فليس ببعيد أن تكون هند قد أجابت دعوتهم، فاعتنقت النصرانية، ثم عملت على جذب ابنها لاعتناقها ، وإن كان هناك من يشك في ذلك، ويرى أن النعمان بن المنذر "٥٨٠-٦٠٢م" هو الوحيد الذي تنصر من ملوك الحيرة .

وجاء بعد "عمرو بن هند" أخوه "قابوس بن المنذر"، والذي كان موضع ثقة أخيه، وقائد جيوشه ضد الرومان وبخاصة تلك الحملات التي قادها في عامي ٥٥٦/ ٥٥٧م، بسبب عدم دفع الرومان ما كانوا يدفعونه من قبل للمنذر، أو بسبب المقابلة السيئة التي قوبل بها رسول عمرو بن هند في بلاد "جستين الثاني"، وأيا ما كان السبب في هاتين الغزوتين اللتين شنهما عمرو بن هند على الروم، فإن أخاه قابوس كان القائد فيهما، هذا وقد كان عمرو يعهد إلى أخيه قابوس كذلك بشئون البادية، ويعتقد "كوسان ده برسيفال" أن قابوسا إنما كان يحكم الحيرة مع النعمان أخيه، بينما يرجع "يوسف زرق الله" أن إدارة شئون الحيرة على أيام قابوس إنما كان يتولاها "زيد بن حماد بن أيوب"

وليس صحيحا ما ذهب إليه البعض من أن قابوسا كان ضعيفا، أو أنه لم يكن ملكا، فقد أطلق عليه "يوحنا الأفسوسي" لقب "ملك"، كما أنه كثير ما كان يقود الجيوش على أيام أخيه -كما أشرنا آنفا- فضلا عن الغارات التي شنها ضد الغساسنة إبان فترة جلوسه على العرش، وإن لم يجن منها سوى الفشل والهزيمة٢.

وجاء بعد قابوس أمير فارسي يدعى "فيشهرت" أو "السهراب"، وربما كان السبب في ذلك وجود خلاف بين أمراء بني لخم بعد قابوس على ولاية العرش وربما رغبة من الفرس في إضعاف مركز العر ب في الحيرة، بعد أن قوي أمرهم، واستفحل خطرهم، في ذلك الوقت الذي أخذت فيه قوى الغساسنة في الاضمحلال .

وأيا ما كان الأمر، فلقد جلس على عرش الحيرة بعد ذلك "المنذر بن المنذر" الذي ترك من بعده ثلاثة عشر ولدًا، دون أن يوصي لواحد منهم دون الآخر بالعرش، وإنما ترك الأمر بيد "إياس بن قبيصة" الطائي، حتى يرى كسرى رأيه، ومن ثم فإننا نرى "كسرى" يستشير "عدي بن زيد" الذي يشير بامتحان للأبناء جميعا،

كانوا كثيرًا ما يتهكمون به، مما أثر في نفسيته وفي سلوكه، حتى أصبح سريع الغضب، سهل التصديق للوشايات، حتى أوقع بـ "عدي بن زيد" الذي أجلسه على العرش، وحين أراد أن يكفر عن خطيئته هذه، أضاع نفسه وأضاع عرشه .

وهكذا تذهب بعض الروايات إلى أنه ساعد "زيد بن عدي بن زيد"، ليكون عند "كسرى أبرويز" "٥٩٠-٦٢٨م" في مكان أبيه، وأن زيدا إنما كان يضمر الحقد للنعمان، وينتهز الفرصة للانتقام منه، وقد جاءته هذه في طلب كسرى زوجاته لأولاده، ومن ثم فقد أشار عليه بأن يطلبهن من النعمان، ففي بناته وبنات عمه وأهله، أكثر من عشرين امرأة، يصلحن لمصاهرة كسرى، وكان زيد يعلم أن النعمان إنما يضن بذلك على كسرى، بل إن جوابه إنما كان على طلب كسرى "أما في بقر السواد وفارس ما يكفيه "أي كسرى" "حتى يطلب ما عندنا"، وكان ذلك سببا في غضب كسرى، وفي استدعاء النعمان إلى فارس بغية القضاء عليه، ومن ثم فقد هرب النعمان إلى أصهاره في "طيء"، أملا في حمايتهم له، ولكن القوم رفضوا حمايته، مما دفعه إلى أن يودع أهله وماله عند "هانئ بن مسعود الشيباني" وأن يتوجه إلى كسرى، حيث أرسل مخفورا إلى "خانقين" أو "ساباط"، وبقي هناك حتى مات بالطاعون على رواية، وطرح بين أرجل الفيلة فداسته حتى مات على رواية أخرى .

وعلى أي حال، فيبدو أن دولة الحيرة قد بدأ الضعف يتسرب إليها على أيام النعمان، لانصرافه إلى اللعب والشراب، فعلى أيامه هزم "بنو يربوع" جيش النعمان لما أراد أن ينقل الحجابة منهم، كذلك انهزمت جموعه أمام "بني عامر بن صعصعة" بعد أن تعرضوا لإحدى قوافله التي كان قد أرسلها إلى سوق عكاظ، كما كانت حروب الفجار المشهورة بين كنانة وقيس، بسبب تعرض القيسية لإحدى قوافله التي كانت في حراسة بعض الكنانيين .

وأيا ما كان الأمر، فلقد تولى أمر الحيرة بعد النعمان أحد أشرافها المشهورين "إياس بن قبيصة" "٦٠٢-٦١١م" ، الذي كان المنذر قد عهد إليه من قبل بأمر أولاده، وإن كان هناك من يرى أن الذي خلف النعمان إنما كان واحدا من الفرس ، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن الرجلين، إنما توليا الأمر معا .

ومهما يكن من أمر، فإن "كسرى أبرويز" قد طلب من "إياس بن قبيصة الطائي" أن يجمع ما خلفه النعمان وأن يرسله إليه، ومن ثم فقد بعث "إياس" إلى "هانئ بن مسعود" أن يرسل إليه ما استودعه النعمان إياه، فأبى هانئ ذلك، وغضب كسرى، وهنا أشار عليه أحد أعداء بني شيبان وسائر بكر بن وائل، أن ينتظر ريثما ينزل القوم "ذي

قار" ، فيبعث إليهم من يأخذهم بالقوة، وهكذا ما أن يحين الحين، حتى يرسل إليهم كسرى من يخيرهم بين ثلاث، أحلاهن مر، الاستسلام، أو الرحيل عن الديار، أو الحرب، وكان رد العرب أن السيف هو الحكم، وهكذا وقعت الواقعة وأبلى العرب بلاء حسنا، وكتب لهم –ولأول مرة– نصرا مؤزرا على الفرس.

ويختلف المؤرخون في زمن موقعة ذي قار هذه، فذهب فريق إلى أنها إنما كانت يوم مولد المصطفى –صلوات الله وسلامه عليه– ومن ثم فإن هناك رواية تذهب إلى أنه –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– قال: "هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا"، بينما ذهب رأي آخر إلى أنها إنما كانت سنة أربعين لمولد النبي الأعظم –عليه الصلاة والسلام– وذهب رأي ثالث إلى أنها إنما كانت في العام الثالث من مبعث المصطفى –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– هذا وقد رأى فريق رابع إلى أنها كانت بعد الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة، على أن فريقا خامسا إنما يرى كانت بعد موقعة بدر الكبرى مباشرة، وربما بعدها بأشهر معدودات ، فإذا كان صحيحا ما ذهبنا إليه من قبل في هذه الدراسة من أصحابنا الإخباريين إنما يضعون تاريخ معركة ذي قار، فيما بين الأعوام ٥٧١م، ٦١١م، ٦١٣م، ٦٢٤م.

دولة كندة العربية

أ.د.عباس فضل حسين

قامت دولة كندة في أواسط شبه الجزيرة العربية، وشملت معظم بلاد نجد مما يلي الحجاز شرقًا، وامتدت في الشمال والشرق الشمالي إلى مشارف الشام والعراق. وكان لها بعض النفوذ على قبائل منطقة عمان في الجنوب، وقد امتد حكمها في فترة من الزمن إلى الحيرة. واستمرت الدولة ما ينوف عن قرن من الزمان، وكان ظهورها بعد منتصف القرن الخامس الميلادي تحقيقًا أو قبل ذلك القرن تخمينًا.

لم يعر المؤرخون الكلاسيكيون كبير اهتمام لتأريخ حوادث دولة كندة، ومعلوماتنا عنها مستمدة على الأغلب من الأخباريين العرب الذين تضاربت أخبارهم في التأريخ لها. وإذا صرفنا النظر عن التفاصيل التي اختلف فيها المؤرخون، فيمكن تلخيص ما اتفق معظمهم عليه في الخطوط التالية:

ينتمي آل كندة الذين حكموها إلى قبيلة يمنية قحطانية يرجع نسبها إلى ثور بن عفير، الذي كان يلقب باسم "كندة" وينتهي في كهلان بن سبأ. سكنت هذه القبيلة قبيل قدومها إلى أراضي نجد هضاب اليمن، فيما يلي حضرموت إلى الشرق، وكانت حاضرتها "دَمُّون" التي ذكرها شاعرها امرؤ القيس في بعض أشعاره مثل قوله:

كأني لم ألهو بدمون مرة ... ولم أشهد الغارات يومًا بعندل

قد هاجرت جماعات منها، بعد الانحطاط الاقتصادي الذي أصاب اليمن؛ بسبب تأخر التجارة نتيجة للمنافسة الأجنبية والتدخل الأجنبي في شئون دولة حمير، أو بسبب نزاعات قبلية، إلى الشمال في منتصف القرن الثالث أو الرابع الميلادي، ونزلوا في أرض لمعد في موقع بنجد يسمى "بطن عاقل" على مسيرة يومين شرق مكة، سمي فيما بعد "غمر كندة" ويقع جنوب وادي الرمة بين مكة والبصرة، وسرعان ما اندمجوا بعرب الشمال وأصبحوا لا يختلفون عنهم، الأمر الذي حمل بعض المؤرخين إلى القول: إنهم من عرب العدنانية، بينما الأصح في نظرنا أن نأخذ بما روي عن كونهم من أصل يمني.

يقول المستشرق "نيكلسون": إن كندة كانت تتبع ملوك اليمن. وربما كان هذا القول مستندًا على ما ذكره المؤرخ العربي هشام بن الكلبي، من أنه كان لكندة علاقة قوية بملوك حمير التبابعة. ويظهر أن الحميريين قد استعانوا بآل كندة لتأمين سلامة القوافل التجارية التي تسير بين الشمال والجنوب. وتكاد كلمة المؤرخين تتفق على أن قبائل معد الشمالية كانت تابعة لملوك حمير الذين كان لهم إشراف عليها؛ نتيجة توسعهم في الشمال، ولذا فإن ملوك حمير، على رأي أغلب الأخباريين، هم الذين كانوا يعينون ملوك كندة، كما يروى عن تعيين حجر بن عمرو، الذي قيل: إنه أول ملوكهم، إذ كانت توليته موافقة للسياسة اليمنية؛ لأن عصبيته كانت يمنية، وكان من أسرة تولت الملك في بلادها الأصلية، كما كان قد مضى على استقرارها أكثر من قرن أو قرنين

في الشمال فعرف اتجاه العصبيات القبلية، وفهم عقلية عرب الشمال. وهذا هو الذي يحمل على القول: إن الدولة لم تكن في الواقع سوى تحالف أو اتحاد يجمع عدة قبائل تخضع لرئيس واحد اتخذ لقب "ملك". ويبدو من الأخبار المروية عن بعض ملوكها، أنهم قد بسطوا نفوذهم على هذه القبائل سواء بالمحالفات أو بالمصاهرة أو بالقوة.

وقد جرت تولية حجر، بناء على طلب زعماء قبيلة بكر التي طغى سفهاؤها على عقلائها، وأكل قويها الضعفاء منها، فاختاره "حسان بن تبع" ملك اليمن لحكمهم؛ لأنه زعيم آل كندة، وكان ذا رأي راجح ووجاهة في قومه، وذلك في حوالي سنة ٤٨٠م .

ومن الرواة من ذكر أن حجرًا كان أخًا لحسان بن تبَّع من أمه، فلما دوخ حسان

بلاد العرب، وسار في الحجاز، وأخضع نجدًا وهم بالانصراف ولى أخاه حجرًا على معد، فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة. غير أن من المؤرخين من يذكر أن عدة ملوك حكموا قبل حجر، وأن مدد بعضهم في الحكم كانت طويلة، تتراوح بين ٢٠-٤٠ سنة ، لكن المعلومات عنهم قليلة جدًّا، ولا يُستطاع استنتاج مادة تاريخية منها. وتذكر الأخبار أن حجرًا قام إثر توليه الملك بحملات توسع بها في أطراف نجد، إذ هاجم قبائل الحجاز وشمالي شبه الجزيرة العربية وجهات البحرين، بعد أن بسط سيطرته على أرض اليمامة في الشرق، وانتزع جانبًا من الأراضي التي كانت تحت سيطرة مناذرة الحيرة. وفي رواية أنه بينما كان في غزوة بجهات عُمان، استغل أحد أمراء الغساسنة فرصة غيابه عن بلاده، فأغار على أراضيه، وغنم أموالا كثيرة، وقينة من أحب قيانه إليه -أو في رواية أخرى: زوجته- وفيما هو منصرف قال للقينة: "ما ظنك بحجر؟ فقالت: لا أعرفه ينام إلا وعضو فيه يقظان, وليأتينك فاغرًا فاه كأنه بعير آكلٌ مرارًا ... " فلطمها الغساني، فما لبثوا أن لحقهم حجر كما وصفت، فرد الأموال والقينة٢. ويرجع الأخباريون سبب تسميته بلقب "آكل المرار" الذي غلب عليه لهذه المناسبة، بينما يذكر آخرون أن سببه تكشير كان به، يشبه تكشير الإبل إذا أكلت مرارًا فقلصت مشافرها، وغير ذلك من أسباب لا مجال لذكرها .

ولما توفي حجر طاعنا في السن خلفه ابنه عمرو الملقب بالمقصور؛ ربما لأنه اقتصر على ما تحت نفوذه من أراضٍ، ولم يستطع الوقوف أمام القبائل التي انشقت عنه، أو لأن ربيعة قصرته على ملك أبيه، الأمر الذي يدعو إلى الظن أنه لم يكن قويًّا صاحب عزم وإرادة. ويروى أنه عقد علاقات طيبة مع المناذرة، لا سيما وأنه زوج ابنته من الأسود بن المنذر الأول ملك الحيرة، فولدت له ابنه النعمان بن الأسود الذي ملك الحيرة بين ٤٤٩-٥٠٣م، كما كانت له علاقات وثيقة مع ملوك اليمن وحسنة مع مختلف القبائل، إذ كان قد أصهر إلى

بعضها. غير أن قبائل ربيعة قد خرجت في عهده –الذي يبدو أنه لم يكن طويلًا– عن طاعة كندة إلى حين، وذلك بظهور وائل بن ربيعة الملقب باسم "كليب" والمعروف في بني تغلب، وتختلف الروايات عن كيفية موته. فهل قتله الحارث بن أبي شمر الغساني؛ لأنه غزا الشام مع ربيعة بحسب رواية اليعقوبي؟ أم أن قتله كان على يد ربيعة حينما خرجت عليه، فاستنجد بالتبابعة فأمدوه بجيش لكنه قتل في المعركة؟ وقد تولى بعده ابنه: الحارث بن عمرو:

غير أن الغموض يكتنف كيفية تسنمه العرش، ويظهر أنه لم يتسنمه إرثًا من أبيه بكل بساطة وسهولة، لا بل إنه كان للتبابعة الفضل في ذلك، الأمر الذي يستدل منه أنه كان للتبابعة إشراف مستمر على ملوك كندة، ويبدو أن الاضطراب قد حل في المملكة في أواخر عهد أبيه عمرو، بخروج ربيعة عليه، فأعاد التبابعة السكينة والهدوء، وولوا الحارث بناءً على طلب من قبيلة بكر التي سادت فيهم الفوضى من جديد، فأرسل ملك حمير الحارث على رأس جيش إلى بلاد معد والحيرة، فتسنم العرش خليفةً لأبيه .

كان الحارث أشهر وأعظم ملوك كندة، فقد استطاع أن يعيد سيطرة دولته على قبائل ربيعة، كما توسط –بعد حرب البسوس التي دامت أربعين سنة، والتي أودت بأبطال بكر وتغلب– بين القبيلتين بالصلح. واغتنم مشاكل البيزنطيين الداخلية فهاجم فلسطين, ولكن حاكمها "رومانوس" هزمه في إحدى المعارك، فلم يلبث الحارث أن شن على الروم هجوما انتقاميا هزمهم فيه، فاضطر الإمبراطور "أنستاسيوس" إلى عقد صلح معه؛ لكي يأمن هجماته على المدن السورية "٥٠٢م".

وفي عهده الطويل جرى الفتح الحبشي لليمن فضعف شأن آل كندة؛ بسبب أنهم كانوا يستمدون قوتهم من ملوك حمير، فحاول الحارث التقرب من ملوك فارس, وقد عاصره منهم "قباذ". ويروي ابن الأثير أن الحارث قد اعتنق المزدكية بناء على طلب من قباذ ،وأن الملك الفارسي قد أعانه على ملك الحيرة المنذر الثالث الذي رفض الاستجابة لطلب "قباذ" باعتناقها، فلم يكن من الحارث إلا أن احتل الحيرة وتسلم عرشها بمساعدة "قباذ" . غير أن معظم الروايات العربية، وإن هي اتفقت حول استيلاء الحارث على الحيرة في هذه الفترة، تغفل ما روي عن اعتناقه المزدكية، لا سيما وأن الدينوري المهتم بتأريخ الفرس لا يذكرها, وهي تتفق في خطوطها الأساسية حول روايتين لابن الكلبي، ملخصهما أن الملك الفارسي قباذ كان ضعيف الإرادة يعوزه العزم والحزم، عاجزًا عن ضبط مملكته، فاستغل قبيلة ربيعة ضعفه وعجزه عن نصرة المناذرة، فوثبت على ملك الحيرة فأخرجته. وهنا تختلف الروايات حول من هو ملك الحيرة الذي تعرض للإخراج، أهو المنذر الثالث أم والده النعمان الثاني. ومهما يكن هذا الاختلاف، فالرواية تتابع القول بأن ربيعة لجأت إلى الحارث بن عمرو الكندي،

وقاتلت معه حتى قتل النعمان، وظهر الحارث على ابنه المنذر الثالث، الذي اضطر إلى الانضواء إليه، بعد أن تنازل عن حقه في عرش أبيه. ولما حصل هذا اضطر قباذ إلى ملاطفة الحارث، وإقرار العمل الذي قام به.

وليس في هذه الروايات ما يشير إلى اعتناق الحارث المزدكية، أو إلى رفض النعمان أو المنذر الثالث اعتناقها، وكل ما في الأمر ضعف قباذ، وعجزه عن مساعدة صاحبه النعمان، وانتهاز الحارث الذكي الفرصة لتوسيع مملكته وبسط سيطرته على مملكة الحيرة . ويظهر أن أعداء ملوك الحيرة هم الذين أشاعوا عنه ذلك؛ للحط من قدره في نظر العرب.

غير أن الدكتور جواد علي يعلق على هذه الحوادث بقوله: "إن الحالة في العراق قد ساءت بين ٥٠٣ و٥٠٦م، ففي هذه الفترة وقعت الحرب بين الروم والفرس وارتبك الوضع، وشغلت الحرب عرب الحيرة عن حماية أنفسهم من الأعراب الذين كانوا يترقبون مثل هذه الفرصة السانحة. وربما كان هؤلاء قد استولوا على الحيرة، فأغار الحارث عليها، بعد أن غادرها ملكها ليحارب الروم مع الفرس، واستولى على ما كان تابعًا له، وأضافه إلى ملكه مدة من الزمن، فلما انتهت الحرب بعقد الهدنة "٥٠٦م" وهدأت الأحوال استعاد ملك الحيرة –المنذر الثالث– ملكه من آل آكل المرار" .

على أن الحارث بن عمرو بعد أن استولى على الحيرة التفَّتْ قبائل معد حوله, وتقرب رؤساؤها منه، ودانوا له بالطاعة ففرق أولاده فيهم ملوكا، إذ وضع ابنه حجرًا على أسد وغطفان وكنانة، وكانت مساكنها عند وادي الرمة بين جبل شمر وخيبر، وابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها، ومعد يكرب على قيس عيلان بأسرها، وسلمة على تغلب وما إليها.

وأما المنذر الثالث، الذي كان قد خضع له وتقرب منه وتزوج ابنته هند "عمة امرئ القيس" فإنه بعد أن انتزع ملكه منه، وكان ذلك بعد موت قباذ وتولي ابنه كسرى أنوشروان عرش فارس, قد قلب له ظهر المجن، وانتقم منه شر انتقام، فلاحقه إلى أراضي بني كلب، وأسر من عائلته أربعين شخصًا بينهم ولدان له، فذبحهم وفيهم يقول امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا

ولم يكف المنذر من جهة أخرى عن التنكيل بآل كندة، وظل يسعى إلى التفريق فيما بينهم، حتى أوقع بعضهم ببعض، فاحترب الأخوان سلمة وشرحبيل، واستمال كل منهما عددًا من القبائل إلى جانبه، وتمكن الأول من قتل الثاني ، لكنه لم يسلم من ملاحقة المنذر له، فالتجأ إلى قبيلة بكر بن وائل فملكته عليها. غير أن المنذر لم

يلبث أن شن الحرب عليها في يوم "أوارة" الأول وحقق لنفسه نصرا ساحقا، وقتل سلمة مع عدد كبير من أنصاره وأحرق نساءهم.

ولما أدرك امرؤ القيس بن حجر , الشاعر الكندي المعروف، انشغال أعمامه وإخوته بعضهم ببعض، وعجزهم عن الأخذ بثأر أبيه أخذ على عاتقه هذه المهمة، وكان أصغرهم سنًّا وأقلهم أملًا بالملك. وتذكر الروايات أن حجرا لم يكن راضيا عن ابنه امرئ القيس، فطرده وآلى على نفسه ألا يأويه في داره أنفةً من قوله الشعر، وكانت الملوك كما قيل تأنف من ذلك. وهناك روايات أخرى مضطربة عن كون السبب في طرده ناشئًا عن تغزله بامرأة من نساء أبيه كان عاشقا لها فلم يصل إليها، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل، حيث قال قصيدته المعلقة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومما جاء فيها ذكره لها وتسميتها بـ "أم الحويرث" بينما لم تكن سوى "هرا" التي قيل: إنها زوجة أبيه:

كدأبك من أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأسل

ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جُلْجُل

تجاه مثل هذه الروايات المضطربة، لا يستطيع المؤرخ إلا أن يقف حائرًا. ولطالم

لا نملك من المستندات ما يسمح لنا برسم صورة أكثر علمية لهذه الأحداث، فليس لنا إلا متابعة الرواية وهي تقول: إنه بعد أن طرده والده، كان يسير في أحياء العرب، ومعه أخلاط من شذاذ العرب، فإذا صادف غديرًا أو روضة أقام فذبح لهم، وأكل وأكلوا معه, وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه. وفي الأغاني نجد قصة وصول خبر مقتل والده إليه وهو على هذه الحالة يلعب النرد في موقع "دمون" فلم يلتفت إلى ناقله إلا بعد أن انتهى نديمه من ضرب نرده؛ لئلا يفسد عليه دسته. أي: إن الرواية تحرص على حبك القصة بالبرهان على صلابة امرئ القيس، خلافا لإخوته الذين تظهرهم وقد جزعوا وحثوا التراب على رءوسهم، وكانت وصية الوالد المحتضر ألا يُدفع كتابه إلا إلى أيهم لا يجزع للخبر. فلما التفت إلى الساعي وعلم الخبر قال:

تطاول الليل علينا دمون ... دمون إنا معشر يمانون

سعى لدى بكر وتغلب في سبيل الأخذ بثأر أبيه. فلما لمست قبيلة أسد الجانية استعداده لقتالها؛ حاولت استرضاءه، وأرسلت إليه وفدًا من ساداتها ظل ثلاثة أيام يحاول مقابلته، فاحتجب عنهم ثلاثة أيام ثم خرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء؛ إشعارًا بأنه مطالب بثأر أبيه. ورفض جميع عروضهم، وكان منها أنهم على استعداد لكي يسدوا إليه بمن يختار من بيت أسد "أشرفهم بيتا وأعلاهم في بناء المكرمات" فيذبحه، أو أن

يرضى منهم بفداء بالغ ما بلغ. ثم فاجأهم بقوله: "لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر، وأني لن أعتاض به جملًا أو ناقة فأكتسب بذلك مسبة". وكان قسم امرئ القيس أن يقتل من أسد مائة ويجز نواصي مائة.

ولما أدركت قبيلة أسد إصرار امرئ القيس على قتالها ثأرًا لدم أبيه، هجرت ديارها فلاحقها في قوة من بني بكر وتغلب، وقاتلها حتى كثر فيها القتلى والجرحى, ولما جاء الليل فحجز بين الطرفين هربت أسد. وفي صباح اليوم التالي رفضت بكر وتغلب الاستمرار في مساعدته؛ لأنهما رأته أنه قد أخذ بثأره ولا ضرورة لمتابعة القتال، فلما أجاب بأنه لم يصب من بني أسد ما يشفي غليل الثأر في صدره، قالوا: بلى ولكنك رجل مشئوم، وكرهوا القتال معه وانصرفوا، فحاول الاستنجاد ضد أعدائه بقبائل أخرى. ولما خاب أمله فيها طلب مساعدة أحد أقيال اليمن، فأرسل معه قوة لا يتجاوز عدد أفرادها ٥٠٠ رجل، وتبعه بعض شذاذ العرب، واستأجر من القبائل رجالًا، ثم سار بهؤلاء جميعًا إلى بني أسد، فظفر بهم.

مهما يكن من أمر، فإن المنذر بن ماء السماء قد أخذ يلاحق امرأ القيس، بعد أن بسط سيطرته على المنطقة، والتجأت إليه قبيلة أسد، واحتمت به، فوجه إليه جيشًا عززه كسرى أنوشروان بفصيلة من المقاتلين الفرس الأساورة، فلم يكن من القوى التي كانت بجانب امرئ القيس إلا أن انفضت من حوله خوفًا من بطش المنذر بها، ولم يستطع أن يجد نصيرا من أية قبيلة من القبائل التي طلب مساعدتها، فهام على وجهه؛ ولذلك لصق به لقب "الملك الضليل" ثم رأى في النهاية أن يسير إلى القسطنطينية متخذًا من الملك الغساني الحارث بن أبي شمر وسيطا له عند قيصرها لينصره على أعدائه، وفي ذلك يقول:

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمدًا إلى الروم أنفرا

ويروى أنه في طريقه إلى أرض الروم مر على "تيماء" وفيها السموأل بن عادياء، فأودع عنده ابنته وأمواله وأدرعًا خمسة كانت لبني آكل المرار، وقد كتب له السموأل كتابا إلى الحارث بن أبي شمر بالجيش، ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعارا يشهرها بها بين العرب فيفضحها ويفضحك" . فبعث القيصر إليه بحلة وشي منسوجة بالذهب مسمومة، بعد أن خرج بالجيش، فلما لبسها تسمم جسمه وتقرح فسمي بـ "ذي القروح" وكان ذلك سبب وفاته. وفي شعر امرئ القيس إشارة إلى ذلك وإلى الطماح الذي يقال: إنه وشى به:

غير أن مثل هذه الروايات لا يمكن الوثوق بصحتها؛ إذ ليس لها من مستند ترتكز عليه، لا سيما وأن في القصيدة التي يذكر فيها الطماح بيتًا من الشعر يدل على أنه كان مصابا بداء قديم، ربما كان الجدري أو داء آخر ينتج عنه قروح في الجلد، قد كان ينتابه بين حين وآخر حتى فتك به في النهاية:

تأويني دائي القديم فغلسا ... أحاذر أن يرتد دائي فأنكسا

وبموت امرئ القيس اضمحلت مملكة كندة، وامَّحى أثرها، وحلت محلها دولة المناذرة في النفوذ على القبائل التي كانت تابعة لها، حتى إذا تضعضعت هذه الدولة إثر موقعة ذي قار، استقلت القبائل في شئونها الداخلية. وبعد لا بد من كلمة حول قصة الوفاء التي نسبت إلى السموأل بن عادياء الذي أودع امرؤ القيس عنده دروعه وأمواله. فقد روي أن الملك الغساني الحارث بن أبي شمر، قد أرسل إلى السموأل يطلب منه تسليم الدروع والأموال، فأبى من تسليمها بالرغم من تهديد رسل الملك بقتل ولده إن لم يسلمها، وكانت تضحيته بولده مثالًا للوفاء عند العرب. ويختلف المؤرخون فيما إذا كان السموأل يهوديا أو نصرانيا أمه من غسان, وقد نسبه بعضهم إلى آل غسان, قال ابن دريد: إنه من غسان، لكنه ذكر أيضا أنه يهودي، بينما نسبه

أما عن حضارة دولة كندة فإنها لم تترك من الآثار الحضرية شيئًا سوى ذكرى شاعرها الكبير امرئ القيس وقصائده الشهيرة، إذ لم يكن لها مدن ولا حصون ولا قصور جديرة بالخلود، إنما الذين قاموا عليها كانوا بدوا حافظوا على نظم البداوة وتقاليدها، واستعملوا الخيام مساكن لهم، ولم يستقروا في حاضرة معينة، أما ديانتهم فكانت وثنية، من أصنامهم ذو الخلصة. على أن اليهودية قد تسربت إلى بعضهم، لكن المسيحية قد انتشرت على نطاق واسع، فاعتنقها بنو تغلب وجماعة من أسد. غير أن قيام هذه الدولة يعد أول محاولة في شمالي شبه الجزيرة العربية لتكتل مجموعة من القبائل، حول سلطة مركزية لها زعيم واحد. لكنها فشلت بسبب افتقارها إلى المؤهلات التي تجعل منها دولة واحدة، ذلك الذي ستنجح فيه محاولة أخرى أقوى منها؛ لتوفر العوامل الفكرية والاجتماعية لا سيما قوة العقيدة التي جاءت بها، تلك هي الدعوة الإسلامية التي كانت كفيلة بأن تعيد لا إلى هذه القبائل وحسب، بل إلى جميع القبائل العربية في شبه الجزيرة وحدتها، وتنظمها في دولة واحدة وطيدة الأركان.

النظام السياسي العربي قبل الاسلام:
اولا: القبيلة:
والقبيلة هي عماد الحياة في البادية، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله، حيث لا "شُرَط" في البوادي تؤدب المعتدين، ولا سجون يُسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع، وكل ما هناك "عصبية" تأخذ بالحق و"أعراف" يجب أن تطاع.
والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو "النسب", ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد وبصلب جد أعلى, من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم؛ ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة إلى حد أعلى، ثم يرجعون أنساب الجدود، أي: أجداد القبائل إلى أجداد أقدم، وهكذا حتى يصلوا إلى الجدين العرب: قحطان وعدنان.
وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل، لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار. وهي تفيدنا من هذه الناحية فائدة كبيرة في الوقوف على هذه القبائل، وبعضها كان قد هلك وانحلَّ واختلط في القبائل الأخرى قبل الميلاد وبعضها بعد الميلاد وقبل الإسلام بأمد.
وتتألف القبيلة من بيوت، يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة، وباختلاف المواسم. ففي مواسم الربيع، تضطر أحياء القبيلة إلى الانتشار والابتعاد؛ لتتمكن إبلها من الرعي ومن إملاء بطونها بالعشب, فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة منها ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتًا. أما في المواسم الأخرى، حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض، فتعود أحياء القبيلة إلى تكتلها وتجمعها، فتكون كل مجموعة حوالي "٥٠٠" بيت أو أكثر, تتجمع حذر وقوع غزو عليها، وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر
والقبيلة في عرف علماء اللغة: جماعة من أب واحد، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها ، فهي إذن جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها، وهي تنتمي كلها إلى أصل واحد، وجذرراسخ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة. فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو "الدم"، أي النسب، والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية. والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي, حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها. وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعتدي عليه.
وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة, هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على إطلاق لفظة "القبيلة" على الحضر أيضًا, مع أنهم استقروا وأقاموا. فقريش عندهم قبيلة، والأوس والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة؛ ذلك لأن هؤلاء الناس وإن تحضروا واستقروا وأقاموا وتركوا الحياة الأعرابية، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب إلى جد

أعلى وإلى أحياء وبطون, وفي إجابة النخوة والعصبية، وما شابه ذلك من سجايا البداوة، فعدوا في القبائل، وإن صاروا حضرًا وأهل قرار، وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلأ.
وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة؛ لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبيلة, والقبيلة عندها جماعة من بيوت ترى أنها من أصل واحد، وقد انحدرت كلها من صلب جد واحد. فهم جميعًا أبناء الجد الذي تتسمى به القبيلة، وهم مثل العرب في النداء وفي النسب, قد يذكرون الاسم فقط, فيقولون مثلًا: أدوم ومؤاب وإسرائيل ويهوذا، أو أبناء إسرائيل وأبناء يهوذا، وبنو إسرائيل وبنو يهوذا، وقد يقولون: بيت إسرائيل وبيت يوسف وبيت خمرى وبيت أديني بمعنى أبناء المذكورين، تمامًا كما نقول: غسان، وآل غسان، وأبناء غسان, وأولاد غسان, ومن غسان، وغساني، وما شاكل ذلك، ويريدون بها شيئًا واحدًا، وهو النسب، أي: الانتماء إلى جد واحد, به تسمى القبيلة وإليه يرجع نسبها.
والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا أنها دولة القبيلة, وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة، دولة العظم واللحم، دولة اللحم والدم, أي: دولة النسب. فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم، وهو دين الدولة عندهم وقانونها المقرر المعترف به. وعلى هذا القانون يعامل الإنسان، وبالعرف القبلي تسير الأمور، فالحكام من القبيلة، وأحكامهم أحكام تنفذ في القبيلة، وإذا كانت ملائمة لعقلية القبيلة والبيئة، وهذا هو ما يحدث في الغالب, تصير سنة للقبيلة، نستطيع تسميتها بـ"سنة الأولين". ووطن القبيلة هو بالطبع مضارب القبيلة حيث تكون، وحيث يصل نفوذها إليه، فهو يتقلص ويتوسع بتلقص وبتوسع نفوذ القبيلة.
وقد واجه المسلمون في أيام الفتوح صعوبة كبيرة في فتوحهم؛ بسبب العقلية القبلية وضيق أفقها، وعدم تمكنها من التخلص من مثلها الجاهلية بسهولة. فقد كان على القائد أن يقاتل عدوه بجيش يحارب على شكل كتل قبائل، تتكون كل كتلة من مقاتلي قبيلة واحدة، لا من جنود ينتمون إلى أمة هي فوق الكتل والقبائل. وكان على رأس كل وحدة مقاتلة رؤساء من القبيلة التي ينتمي إليها الجنود، وقد واجه الإمام "علي" (عليه السلام) صعوبة حينما حارب في معركة الجمل وفي معركة صفين وغيرها، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة، ألا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده، فالهمدانيون الذين معه يحاربون الهمدانيين الذين يحاربون مع خصمه. وهكذا فعلت بقية القبائل، للعصبية القبلية؛ لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك إخوانهم من قبيلتهم، وهم ينادون بشعار العصبية، شعار القبيلة. أما هم فإن قاتلوا إخوانهم من قبيلتهم، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالًا قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء، لا يلتفت فيه إلى وجود دم واحد بين المتقاتلين، وإلى أنهم من بيت أب وأم، يحتم عليهم التكتل والتعصب، إذ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال.
وليس من الضرورة أن أسماء القبائل لا تعني بالضرورة أنها أسماء أجداد حقيقيين عاشوا وماتوا. فبينها كما سبق أن قلت أسماء مواضع، مثل غسان، وبينها أسماء أصنام مثل "بني سعد العشيرة", وبينها أسماء أحلاف مثل "تنوخ", وبينها نعوت وألقاب ... إلى آخر ذلك من أسماء قبائل وصلت

إلى علم علماء الأنساب, فأوجدوا لها معاني واعتبروها أسماء رجال حقيقيين تزوجوا ونسلوا ومنهم من كان عاقرًا فلم ينسل، فذهب أثره، ولم تبق له بقية .
والمفهوم من لفظة "القبيلة" في العادة: القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام. فإذا ذكرت القبيلة انصراف الذهن إلى آلاف من البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة. ولكن الناس يتجوزون في الكلام، وفي الكتابة أحيانًا فيطلقونها على عدد قليل من الناس, قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل: "بني عبد الله بن أفصي بن جديلة"، و"بني جساس بن عمرو بن خوية بن لوذان" من "بني فزارة"، و"كليب بن عدي بن جناب بن هبل"، و"بني شقرة" من تميم. وقد يطلقونها على أكثر من ذلك، ولكن على عدد قليل من الناس أيضًا، كأن يكون خمسين رجلًا أو ستين , وهذا الاستعمال، هو على سبيل التجوز لا الاصطلاح.
التقسيمات القبلية:
ويرى علماء العربية أن هناك تجمعات، هي في نظرهم أكبر حجمًا من القبيلة, أطلقوا عليها "الشعوب". فذكروا أن الشعوب فوق القبائل، ومثاله: بنو قحطان، وبنو عدنان، فكل منهما شعب, وما دونهما قبائل. وذهب بعض منهم إلى أن "الشعوب" للعجم، فإن الشعوب بالنسبة لهم، مثل القبائل للعرب، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم "شعوبي"، وقيل: بل هي للعرب وللعجم. والذي عليه أكثر علماء الأنساب أن الشعب أكبر من القبيلة، وأن الشعب أبو القبائل الذي ينتسبون إليه، أي: يجمعهم ويضمهم .
ويظهر أن مرد هذا الاختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم من قوله: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} . فقدم "الشعوب" على القبائل, فذهب أكثر المفسرين والعلماء إلى أن هذا التقديم يعني أن الشعب أكبر من القبيلة، وأن الشعوب الجمَّاع والقبائل البطون، أو الشعوب الجمهور والقبائل الأفخاذ، أو الشعوب: النسب البعيد، والقبائل: دون ذلك، كقولك فلان من بني فلان، وفلان من بني فلان. وتأول بعض آخر هذا المعنى، فذهبوا إلى أن هذا التقديم أو التأخير، لا علاقة له بالكبر، أي: بحجم الشعب أو القبيلة، والآية لا تريد ذلك، وإنما تريد الأنساب، وأنها نزلت في بيان أن الإنسان لا بنسبه، وإنما بعمله. وعلى هذا, فإن الشعب في نظرهم دون القبيلة في الترتيب, والشعب بعد القبيلة في الدرجة .
وقد أخذ العلماء بالتأويل الأول للفظة "الشعب" حتى صار هذا المعنى هو المعنى المفهوم منها عند الناس في الإسلام، فهي إنما تعني اليوم جنسًا من أجناس البشر له خصائصه ومميزاته، كالشعب العربي والشعب اليوناني والشعب التركي والشعب البريطاني والشعب الأمريكي، وهكذا, أو جزءًا كبيرًا مستقلًّا من أجزاء أمة واحدة، كأن نقول: الشعب العراقي، والشعب السوري، والشعب السعودي، والشعب المصري، أي: وحدة جغرافية سياسية ذات كيان.
ولفظة "الشعب" من الألفاظ الواردة في نصوص المسند, وهي فيها بمعنى قبيلة، وتكتب "شعبن"، بمعنى "الشعب"، وحرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في العربيات الجنوبية. فهي إذن

مرادف "قبيلة" بالضبط, والجمع "أشعب"، أي "شعوب". ورد "سباواشعبهمو"، أي "سبأ وشعوبهم"
و "سبأ وقبائلهم" بتعبير أدق وأصح. وورد "شعبن معن"، أي "قبيلة معين"، و"شعين همدان", أي "قبيلة همدان". والظاهر أن أهل مكة وقفوا في الجاهلية على هذه اللفظة أيضًا فاستخدموها, وأن قبائل حجازية مجاورة لمكة، كانت تستعمل لفظة "شعب" و"الشعب" بمعنى قبيلة، ونظرًا لورودهما معًا في القرآن الكريم، فرَّق العلماء بين اللفظتين، باعتبار أن ذكرهما معًا يعنى وجود بعض الاختلاف في المراد منهما. فوقع من ثَمَّ بين المسلمين هذا التمييز، وصارت لفظة "الشعب" تدل على معنى يختلف عن معنى كلمة "قبيلة" و"القبيلة".
ويلي الشعب في اصطلاح أهل النسب: القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة.
فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم، وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس . وجعل "ابن الكلبي" مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة, وهي رهط الرجل .
وورد أن البطن دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة. وذكر بعضهم أن أول العشيرة: الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ . وذلك على رأي من جعل العشيرة: العامة، مثل: بني تميم وبني عمرو بن تميم، أي: الجماعة العظيمة .
وزاد بعض العلماء الجذم قبل الشعب، وبعد الفصيلة العشيرة، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة، ثم العترة. ورتبها آخرون على هذه الصورة: جذم, ثم جمهور، ثم شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم عشيرة, ثم فصيلة، ثم رهط، ثم أسرة، ثم عترة، ثم ذرية. وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة هي: بيت، وحي، وجماع . وذكر بعض علماء اللغة أن "الجذم"، الأصل في كل شيء؛ فيقال: جذم القوم: أهلهم وعشيرتهم, ومنه حديث حاطب: "لم يكن رجل من قريش إلا له جذم بمكة" .
وذكر بعض العلماء أن العمارة الحي العظيم يقوم بنفسه , وأن الفرق بين الحي والقبيلة هو أن الحي لا يقال فيه: بنو فلان نحو قريش وثقيف ومعد وجذام, والقبائل يقال فيها: بنو فلان مثل بني نعيم وبني سلول٤. وذكر أيضًا أن العمارة: الحي العظيم الذي يقوم بنفسه، ينفرد بظعنها وإقامتها ونجعتها, وقيل هو أصغر من القبيلة. وفي الحديث: "أنه كتب لعمائر كلب وأحلافها كتابًا". قال التغلبي:
لكل أناس من معد عمارة ... عروضٌ، إليها يلجئون، وجانب
وقسم "النويري" النظام القبلي عند العرب إلى عشر طبقات , وابتدأ بـ"الجذم" وهو الأصل, وهو قحطان وعدنان، والطبقة الأولى، ثم الجماهير وهي الطبقة الثانية، ثم الطبقة الثالثة: الشعوب، والطبقة الرابعة: القبيلة، وهي التي دون الشعب تجمع العمائر، ثم الطبقة الخامسة: العمائر، وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون، ثم الطبقة السادسة: البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ, والطبقة

السابعة: الأفخاذ, وهي أصغر من البطن، والفخذ تجمع العشائر, والطبقة الثامنة: العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء, والطبقة التاسعة: الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته، والطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته.
ما ذكرته يمثل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة، حتى تصل إلى البيت الذي يتكون من الأب والأم وأولادهما. وقد رأينا أنهم قد اختلفوا فيما بينهم وتباينوا في الترتيب وفي العدد, منهم من يقدم، ومنهم من يؤخر، ومنهم من يزيد، ومنهم من ينقص. واختلافهم هذا فيما بينهم، هو دليل يشعرنا أن التقسيم المذكور لم يكن تقسيمًا ثابتًا عند كل القبائل وأنه لم يكن تقسيمًا جاهليًّا بل كان تقسيمًا محليًّا اختلف بين قبيلة وأخرى، وأن أسماء أجزاء القبيلة، لم تكن أسماء عامة متبعة عند الجميع، أي أسماء مقررة عند كل قبيلة، بل هي أسماء أخذها العلماء من هنا وهناك، ولهذا وقع بينهم هذا الاختلاف، ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لأجزاء القبيلة فما كان من المعقول أن يقع علماء النسب واللغة فيما رأينا من تباين واختلاف, ولوجب اتفاقهم في الترتيب وفي العدد. فالتقاسيم المذكورة إذن، هي من وضع وترتيب وجمع علماء النسب واللغة في الإسلام.
وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي: الأسرة، أي "البيت". فهي نواة القبيلة وبذرتها وجرثومتها، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة التي يختلف حجمها وتختلف كثرة أغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها، من بذرة جيدة ومن تربة صالحة وماء كافٍ. والبيت هو نواة القبيلة عند العرب، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية, بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع إنساني.

ثانيا: انساب العرب:
كان للنسب أهمية عظيمة وشأن خطير في الجاهلية؛ إذ كانوا يعيشون قبائل متفرقة، تتنازع فيما بينها وتغزو بعضها بعضًا، فوجهوا عنايتهم إلى حفظ أنسابهم وضبطها؛ لأنها في المجتمع القبلي دعامة من دعائم النظام السياسي، فكثيرًا ما كان النسب يلعب دوره في قيام المحالفات بين القبائل، كل منها تختار في الغالب أقرب العشائر إلى نسبها، إذ يبدو أن تعاطف الأرحام كان أدعى إلى التآلف والتعاضد والتضافر والتناصر على الخصوم ، والنسب هو الضامن والكفيل للحصول على حقوق المواطنة في المجتمع القبلي، وهو يقوم مقام القومية والجنسية عندهم . وكثيرًا ما كانوا سندًا في المنافرة والمفاخرة مع خصومهم.
ولذلك فإن جماعات من القوم، عرفوا باسم النسابين، قد تخصصوا في معرفة الأنساب وتقصي جذورها، وأصول القبائل وفروعها، وعلاقات بعضها ببعض على مر الزمن. الأمر الذي جعل حفظ الأنساب من المعارف ذات الشأن قبل الإسلام. ولم يكن شأنها أقل في الإسلام، بدليل أن اشتراك العرب في الفتوح الإسلامية الكبرى، زمن الراشدين، كان يتم على أساس الوحدات القبلية، حتى إذا قام العهد الأموي، وبلغ الصراع القبلي بين المضرية واليمنية حدًّا خطيرًا،

أصبحت العصبية القبلية هي الأساس الذي كان القوم يتقربون به إلى الحكام؛ فازدادت أهمية حفظ الأنساب، وأصبح النسب علمًا قائمًا بذاته، شأنه كشأن بقية العلوم العربية، وألفت في الأنساب مُصنَّفَات خاصة.

ثالثا:

الحياة السياسية في البادية العربية

إذا اعتبرنا التنظيم السياسي بمثابة الدولة أو الحكومة التي تنبثق عن إرادة الشعب، لتحكم وفق ما يؤمن المصلحة العامة لمجموع الأمة، بواسطة مؤسسات تلتزم كل منها بالنظر في نوع معين من الاختصاص، فإننا لا نرى مثل ذلك التنظيم عند القبائل، التي كانت تعيش في بوادي شبه الجزيرة العربية. كل ما في الأمر، أن القبائل العربية كانت تتصور الدولة على أنها القبيلة، فتكرس ولاءها لها، ولا ولاء تكرسه لغير القبيلة. فالقبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي تتقمص صفة الدولة، وتقوم بمهامها في البادية، لا دستور لها مكتوب، ولا قوانين مقننة، ولا نظم تشرعها مجالس، اللهم إلا تقاليد وأعراف متوارثة راسخة، فرضتها على الجميع طبيعة الحياة في البادية، فالتزم القوم بها التزامًا دقيقًا.

ويرتبط أفراد القبيلة برابطة تقوم على أساس وحدة الدم ووحدة الجماعة ، والإيمان بهذه الوحدة والتعصب لها هو ما يطلق عليه اسم "العصبية القبلية"، فالعصبية القبلية هي بمثابة الشعور القومي في عرف البدوي. وتتوسع هذه العصبية في الأحلاف، فتشمل القبائل والعشائر بالنسب أو بالجوار أو الداخلة في الحلف٢.

وباعتبار أن شبه الجزيرة كانت تضم عشرات من القبائل, لكل منها عصبيتها الخاصة، فإن مجتمعًا هذا شأنه لا يمكن أن تظهر فيه نزعة قومية شاملة، بالرغم من كون القبائل العربية كلها تعيش في محيط جغرافي واحد، وتجمع ما بينها تقاليد وعادات واحدة، وتدرك أنها تنتمي إلى قوم واحد، وجنس واحد، وتتكلم لغة واحدة تتعصب لها تصف ما سواها باللغات الأعجمية. وليس مرد فقدان النزعة القومية عند العرب آنذاك إلا لضعف الوعي السياسي في نفوسهم، وانحصاره في أفق ضيق محدود، لا تتجاوز حدوده حدود القبيلة.

ولم يكن لدى البدوي مفهوم الوطن الشامل، الذي يضم هذه الوحدات المتجانسة في تركيبها الاجتماعي، المتنافرة في علاقاتها السياسية. كل ما يفهمه أن الأرض التي تنزل فيها هي وطنه، فإذا تركها وانتقل إلى غيرها، أصبحت وطنًا لقبيلة جديدة تحل محل قبيلته فيها، ويصبح له وطن جديد في أرض جديدة تحتلها قبيلته، وكل ما هو خارج هذه الأرض هو بالنسبة إليه في حكم الأرض الأجنبية، وكل من ينتمي لغير قبيلته هو في حكم الأجنبي الغريب عنه، فوطن البدوي وطن متنقل يتبدل باستمرار.

على أن ضيق المعاش في أرض قاحلة كشبه جزيرة العرب، كان يدفع القبائل إلى البحث باستمرار عن الماء والكلأ، وإلى تنافس القبائل عليهما، فتقع الحروب والغارات بينها، وتضطرب

شبه الجزيرة وتمور بمنازعات دامية لا نهاية لها، كل منها تقاتل وتحارب لتنتزع من غيرها ما تحت يدها من مراعٍ بقوة السيف، فيما يسمى "شريعة الغاب" .
وقد فرضت ظروف الحرب الدائمة بين القبائل، وبحثها عن موارد الرزق الشحيحة، أن يكون للقبيلة زعيم ترتضيه لقيادتها وإدارة شئونها الحربية والاقتصادية، رجل يستطيع بسجاياه وكفاءته أن ينتزع الاعتراف بتقدمه وسيادته عن رضًا وطيب نفس، والحرب في الحقيقة خير مناسبة لظهور كفاءة الرجال وبروز الزعامة؛ لحاجة القوم إلى من يستطيع أن يسدد خطاهم نحو النصر.
كان لكل قبيلة رئيس يسمى شيخ القبيلة, وكي يتولى رئاستها لا بد من أن تتوفر فيه بعض الصفات المثلى الضرورية للمجتمعات القبلية، والتي يستطيع بها أن يحقق مصالح القبيلة وأن يسودها، كالشجاعة والغنى والكرم والحلم والعدل وكثرة الأنصار وسداد الرأي وكمال التجربة مع كبر السن على الغالب.
باعتبار أن المجتمع مجتمع نزاع دائم وغزو مستمرّ، فالشجاعة والمواهب من أولى الصفات التي يجب أن تتوفر في الرئيس؛ لكي يستطيع أن يحقق النصر تلو النصر لقبيلته.
ثم هنالك الثروة والكرم، فهما خلتان ضروريتان في بيئة فقيرة، إذ لا بد للرئيس أن يكون على شيء كثير من الغنى، يستطيع معه الإنفاق عن سعة على أتباعه في أوقات الشدة والمجاعات. ولا تستقيم الرئاسة والغنى مع البخل، وإلا تعرض الرئيس للهجاء والمذمة وربما فكر القوم بالاستغناء عنه، كما يقول زهير بن أبي سلمى:
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذممُ
والحنكة السياسية لا بد منها للرئيس؛ ذلك أن رؤساء القبائل هم رجال السياسة في دنيا البادية.
ففي محيط القبيلة يتحتم على الرئيس أن يحافظ على وحدة قبيلته وتماسكها، فيراعي مكانة وجهاء قبيلته ورؤساء بطونها، ويظهر لهم الاحترام، ولا يمس شعورهم بشيء يكرهونه، لا سيما إذا كان فيهم من تدفعه قوة شخصيته، ومقدرته العقلية، وشجاعته إلى منافسة الرئيس، والطموح إلى الحلول مكانه. وعليه أيضا أن يداري إخوته وذوي قرباه، فغلطة واحدة قد تؤدي إلى حدوث شقاق في القبيلة، فتتصدع وحدتها، وتحترب بطونها، فتنفرط وتتبعثر. ولعل المسايرة وتغابي الرئيس والتظاهر أحيانا بقلة الإدراك، فيتغاضى عن بعض الهفوات التي تصدر عمن يحيطون به، قد تكسبه احترامهم ومحبتهم، كما يقول الشاعر:
ليس الغبي بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي
وفي علاقاته مع القبائل الأخرى يتوجب عليه أن يكون حكيمًا لبقًا بعيدَ النظر، فرب هفوة واحدة تصدر منه تثير حربًا تتطاحن فيها عدة قبائل، أو تسبب كارثة لقبيلته، أو للحلف الذي يتزعمه .
ولعل الحلم من الصفات التي تجعل الرئيس موضوع تقديس أكثر من غيرها، في مجتمع فرضت ظروفه على الأفراد طبعا حادا ومزاجا عصبيا، سرعان ما يلجئهم إلى الاحتكام لحد السيف عند أقل إثارة، فتقوم المنازعات الدموية لأتفه الأسباب. إن في بيئة مثل هذه يسودها الطيش والرعونة لا بد أن يكون الرئيس على قسط وافر من الحلم والحكمة؛ ليستطيع السيطرة على جهالة الجهال.

وأخيرًا لا بد أن يكون الرئيس على قسط كبير من العدل؛ لكي يكون محترمًا من الجميع، باعتبار أنه -في كثير من الأحيان- يكون الحَكَم الذي يرجع القوم إليه في المنازعات التي تشجر بين أفراد القبيلة، ولكي يكون حكمه نافذًا على الجميع.

شكل الحكم:

أما كيفية ممارسة الشيخ لسلطاته, فيغلب عليها النهج الديمقراطي، ذلك أن الفرد في القبيلة له مكانة مرموقة، وليس شيئا تافها عديم الأهمية. بل قد يؤدي قتل فرد من أفرادها على يد فرد من قبيلة أخرى إلى حرب بين القبيلتين أخذًا بثأره؛ لأن أهمية القبيلة تكون بقوة أفرادها وكثرة عددهم.

ولذلك وجب على الرئيس ألا يمارس على أفراد قبيلته سلطة دكتاتورية مستبدة طاغية، بل وجب عليه أن يسود قبيلته بالتشاور مع رؤساء وزعماء بطونها وذوي الرأي والمشورة من أبنائها، بحيث يضمهم مجلس يسمى "مجلس القبيلة" الذي ينبغي عليه أن يجتمع كلما دعت الضرورة إلى اجتماعه. ومع ذلك يمكن القول: إنه كان للرئيس نفوذ كبير على قبيلته، إذ كانت كلمته مطاعة من الجميع, يتبعون رأيه فيوجههم أنَّى شاء، يقيمون بإقامته ويظعنون بظعنه، وإذا دعاهم للحرب لا يتأخرون.

وللرئيس حقوق أدبية: معنوية ومادية على أفراد قبيلته مثلما عليه واجبات نحوهم. فلقاء ما يبذل من جهود لتأمين مصالحهم وتدبير معاشهم ورفع مكانتهم، وجب عليهم -كما يقول ابن خلدون- أن يوقروه ويجلوه ويحترموه ، وأن يرضوا بما يخص به نفسه من رئاسته وسيادته للقبيلة، يعده لما يطرأ من النوائب، وما يتحمل من التبعات المالية ، فيفي بما يوجب عليه الكرم والجود من موجبات هي في أخلاق البادية فرض واجب على الزعيم والرئيس. وقد جمع أحد الشعراء ما يصيب رئيس القبيلة من الغنيمة في بيت واحد من الشعر:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

وعلى الرغم من أن تولي الرئاسة يكون قائما على مبدأ الانتخاب، لكنه ليس انتخابا بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بل هو أشبه بالاختيار التلقائي، إذ يفرض الرئيس نفسه على قبيلته بما وهب من صفات ذكرناها. ومع أن الحكم في القبيلة وراثي، ينتقل في الغالب إلى أكبر أبناء الرئيس، فإنه كثيرًا ما يتعين على الابن أن يحقق هذه الزعامة لنفسه بأن يقيم الدليل -مستقلا- على شدة بأسه وقوة مراسه، ولا يتنكر في سلوكه للصفات التي يجب أن تتوفر لرئيس القبيلة حتى يسودها ويدير شئونها، كما يفصح عن ذلك عامر بن الطفيل أحد زعماء القبائل في الجاهلية.

غير أنه لا بد للقبيلة، ممثلةً بمجلس زعمائها، أن ترضى غالبًا بابن رئيسها الراحل، زعيمًا وشيخًا للقبيلة. يقول ابن خلدون: إنه من النادر أن تستمر رئاسة القبيلة في أكثر من أربعة آباء في العقب الواحد. ويعلل ذلك بأن الفضائل التي يتحلى بها الرئيس الأول، والتي تخوله السيادة والسيطرة، لا تلبث أن تنحل رويدا رويدا كلما تولى واحد من أعقابه المتتالين، إلى أن تضمحل تلك الفضائل في السيد الرابع، فتحتقر القبيلة شأنه، وتستبدل به سواه من تلك القبيلة . غير أن ما يذكره ابن خلدون

لا يمكن أن يعتبر قاعدة، فقد يأتي من أبناء وأحفاد الرئيس من هم أقدر وأجدر بالحكم من أبيهم أو جدهم.

وقد تمتد سلطة الرئيس إلى قبائل أخرى يجمعها تحت لوائه بالحلف أو الجوار؛ فتزداد قوته ويتسع نفوذه، وقد يكون العكس فتنقسم قبيلته بعد موته، فيتولى كل ولد من أولاده بطنًا من بطونها.

وللأحلاف التي انعقدت بين مختلف القبائل العربية قبل الإسلام أهميتها، من حيث كونها بداية تجمع، قد استُغل مرارًا لتشكيل عدد من الدول "دولة الحيرة، دولة كندة" ذلك أن القبائل العربية قد شعرت بضرر العزلة وخطورتها، وأدركت ألا سبيل إلى أن تحافظ قبيلة ما على كيانها إن بقيت في عزلة عن غيرها، بل هي بحاجة إلى التضافر والتناصر مع القبائل التي تمتُّ إليها بصلة النسب أو الجوار أو المصلحة المشتركة.

المحاضرة الحادية عشرة.... تاريخ العرب قبل الاسلام.... أ.د.عباس فضل حسين

الحياة الفكرية للعرب قبل الاسلام...

قد يتبادر إلى الذهن أن عرب الجاهلية كانوا أمة منعزلة عن العالم؛ بسبب الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب, التي تحيط بها الصحارى والبحار من جميع الجهات. غير أن الدراسات الحديثة قد كشفت عن خطأ هذا الاعتقاد، وأثبتت أن العرب لم يكونوا في منأى عن الحضارات الكبرى التي جاورتهم ، بل اتصلوا بها وتفاعلوا معها. وكانت صلة الوصل بينهم وبينها، أولًا التجارة، ثم المدنيات العربية التي اضطلعت بها بعض الإمارات العربية المتاخمة لحدود بيزنطة وفارس، كدول الأنباط والغساسنة والمناذرة، أو بواسطة الجاليات المسيحية واليهودية التي استقرت في بعض المدن الحجازية، كيثرب ومكة ونجران.

فقد كان لوقوع مكة والمدينة على طرق القوافل التجارية أثر كبير في ازدياد أهميتهما وارتقائهما فكريا وحضاريا؛ ذلك أن أهلهما قد احتكوا بالأمم المجاورة، واعتنق بعضهم الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية، وأصبح بعضهم يعرفون القراءة والكتابة وتقدموا فكريًّا. وعلى رأي بعض المستشرقين أن بعض أجزاء شبه جزيرة العرب قد تفاعلت مع مظاهر الحضارة الهللينية، وأن كثيرا من الأفكار، ومن نتاج الثقافات اليونانية والرومانية، ومن العقائد المسيحية والمزدكية قد اختلطت وامتزجت فيها. وهكذا لم يبق العرب سادرين في عزلتهم, بل أخذوا بنصيب من يقظة عارمة، زاد في وضوح معالمها وقوعهم في أطراف المدنيات الكبرى . ومن الجدير بالذكر أن من أهم النتائج الفكرية التي أسفرت عنها رحلات المكيين إلى الحيرة أنهم قد نقلوا منها حروف الهجاء، الأمر الذي استتبع نشوء الخط المعروف باسم الخط الكوفي.

يقارن الجاحظ بين العرب وغيرهم من الأمم فيقول: "بأنه وإن عرف عن الهند واليونان وفارس تطرقهم إلى صنوف من العلم والفلسفة والمنطق والخطابة، إنما لم يتصفوا بالبيان وزلاقة اللسان وانثيال البديهة، بل كان ما خرج عنهم، إنما هو عن "طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة" بينما "كل شيء للعرب، إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام ليس فيه معاناة ولا مكابدة" وأنهم بالرغم من كونهم أميين، كانوا مطبوعين لا يتكلفون، "تأتيهم المعاني إرسالًا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالًا" وأن كل ما خلفوه من شعر أو نثر لشاهد صادق على الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم أن يجاريه" .

ويقول أحمد أمين: "إن العربي الجاهلي عصبي المزاج سريع الغضب، والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء. وفي الحق: إن العربي ذكي، يظهر ذكاؤه في لغته, فكثيرا ما يعتمد على اللمحة الدالة، والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديهته، فما هو إلا أن يفاجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب" .

مما تقدم تتضح لنا الخطوط الأساسية لمميزات الفكر العربي في الجاهلية. فالعربي الجاهلي لم يمارس العلم، ولم تكن له فلسفة ولا منطق، إنما تميزت ثقافته بالفنون الأدبية من خطابة ونثر وأمثال وشعر، تنثال عليه المعاني انثيالًا دون تكلف. فالسليقة الشعرية فيه طبع أصيل، وقد فطر على البديهة والارتجال والإلهام. وهو ذكي سريع الخاطر يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة.

إن هذه الثقافة لمما يتفق مع بداوة العيش، وهي طور مر العرب فيه. والبداوة كما قال ابن خلدون في حديثه عن العرب "جيل في الخلقة طبيعي" مثلهم كمثل غيرهم من الأمم المتبدية، كالبربر والترك والأكراد، وهي حالة اجتماعية تمر فيها الأمم في طور نشوئها وارتقائها.

غير أن حالتهم الفكرية كانت من التقدم النسبي بحيث إن الدين الإسلامي بما انبثق عنه من نظم انقلابية ثورية، قد لقي استجابة منهم، فنفذ إلى قلوبهم ونقلهم بأيسر وجه إلى ميادين الحضارة، إذ تفهموا علوم اليونان والسريان وغيرهم، وتمثلوها وصهروها في بوتقة العروبة، وأقاموا على أسسها صروح حضارتهم العربية الإسلامية، التي استتمت جميع مقومات العبقرية والإلهام، وسحرت الكتاب والمستشرقين، فأفاضوا في وصفها، وتعمقوا في دراستها.

وبالرغم مما انطوى عليه العهد الجاهلي من عبادة للأوثان، ومن اعتقادات وطقوس اجتماعية بدائية جلها خرافي، فليس من العدل أن ترتسم عنه في الأذهان صورة سيئة ومشوهة، بحيث نتصوره وكأنه عهد ظلم وقاتم. ذلك أننا لو أمعنا النظر فيما اتصل بنا من ترك الجاهلية في الأدب والشعر والنثر والخطابة والأمثال والحكم، لرأينا أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن شعب بلغ درجة كافية من التطور الفكري، وأن اللغة التي صيغ بها، لم تكن لتبلغ ما بلغته من كمال التركيب، والغنى بالمفردات، والدقة في التعبير، والبلاغة والمقدرة على أداء المعاني، لو لم يكن قد مضى على تطورها آنذاك قرون عديدة لا ندرك مداها. فقد قطعت شوطًا بعيدًا في التكامل والاستقرار ، وبلغت في عبقرية التعبير عن المعاني بألفاظ وتراكيب توافق الجرس والحركة والإيقاع شأوًا بعيدًا ، وأوفت على الكمال حتى أصبحت أتم اللغات السامية صرفا ونحوا وبلاغة٤.

فالشعر الجاهلي بما اشتمل عليه من رائع الوصف وجمال الصور ونبل الأخلاق والمشاعر، وما يخلب اللب من فن الإيقاع٥ لدليل ساطع على أن قائليه قد وُهبوا قسطاً وفيرًا من رهافة الإحساس ورقة الشعور، وبرهنوا عن تقديم فني مرموق، وذوق أدبي مصقول. وعلى العموم, إننا نجد في الأدب الجاهلي شعرًا كان أو نثرًا، من المثل العليا والآراء في الحياة، ما يجعله أدبا إنسانيا خصبا وغزيرا .

يقول الشاعر سليمان العيسى في حديث له في مجلة الموقف العربي :

"إننا لا ندري من أية غاية مجهولة موغلة في القدم انحدرت إلينا القصيدة العربية بشكلها الذي نعرفه جميعًا. كل ما تعلمناه في المدارس وسمعناه من أساتذتنا، أن أقدم ما وصلنا من تراثنا الشعري هو الشعر الجاهلي، وعلى رأس الشعر الجاهلي هذه القصائد الساحرة: المعلقات.

والشعر الجاهلي يرجع إلى الوراء، فإذا هو لا يتعدى مائة وخمسين سنة قبل الإسلام. والمعلقات تحوم حول الإسلام، ومن أصحابها من أدرك الدعوة الجديدة وآمن بها، ومنهم من مات قبل الدعوة بقليل.

وتلقي بنظرك إلى هذه المعلقات، إلى هذه الأشكال التقليدية الأولى، فإذا أنت أمام شعر قد بلغ الذروة؛ ذروة في اللغة، وذروة في الخيال والفكر، وذروة في الموسيقى، وذروة في نضج التجربة وأصالة التعبير، أفيعقل أن يكون مثل هذا النضج الفني بداية؟ أفيمكن أن يكون القطرات الأولى التي تألف منها نهر الشعر العربي؟.

إني لأرى، ويشاركني في هذا الرأي كثيرون، أن منابع الشعر ما تزال أقوى وأغنى من مصبه حتى الآن، وأن شعرنا الجاهلي ما يزال النموذج الرائع الجدير بأن نعود إليه، وأن نغترف منه، وأن نتتلمذ عليه إذا أردنا أن نكون كتابًا أو شعراء مجيدين".

ثم ينتهي إلى القول: "إن تاريخ القصيدة العربية قديم قديم، ما أحسب إلا أن البحث الجدي سيبلغ جذوره، ويكشفها في يوم من الأيام". والواقع كما يقول سليمان العيسى، إن تاريخ القصيدة العربية قديم، وهو أقدم بكثير من التاريخ الذي حدده لقدمه "١٥٠ سنة قبل الهجرة". فلكي تبلغ اللغة العربية والشعر العربي الكمال والروعة للذين بلغاهما عند ظهور الإسلام، وكي يتجلى رونق اللغة العربية بأجمل وأروع ما يمكن أن يتجلى به في القرآن الكريم، لا بد أن يكون قد مضى على تدرجهما في الرقي أضعاف أضعاف هذه المدة.

والعصر الجاهلي بما اتصف به من تفتح الخصائص القومية، ذلك التفتح الذي يتجلى في تكامل اللغة العربية، أحرى بأن نعتبره عصرًا من العصور المرموقة للعروبة. وليس في هذه النظرة أي "تناقض، ولا هي تعليل لتعصب العرب لجنسهم" كما يزعم المستشرق الفرنسي كلود كاهن . وبالإضافة إلى ذلك، وكما يقول كلود كاهن،

لا بد لنا من الوقوف على التقاليد الجاهلية كي نفهم النصوص الإسلامية المقدسة، ولندرك إدراكًا كاملًا التشريع الإسلامي سواء من حيث نقضه لتلك التقاليد، أو إقراره لبعضها.

ومن التراث الأدبي الجاهلي كان الشعر يؤلف الكثرة المطلقة، فأكثر ما بلغنا منهم الشعر وأقله النثر . وكان للشعر والشعراء مكانة عظيمة في المجتمع الجاهلي، وبوسع الشاعر أن يرفع من شأن الذليل والوضيع إذا مدحه، أو أن يذل الرفيع والعزيز إذا هجاه . وكان لظهور الشاعر في المجتمع الجاهلي أهمية عظيمة, إذ تقام الأفراح في القبيلة وتجري الاحتفالات وتنحر الذبائح، وتأتي الوفود لتهنئ القبيلة التي نبغ فيها الشاعر. والشاعر يدافع عن قبيلته بشعره كما يدافع الفارس عنها بسيفه٤. والشعر كما قيل عن حق ديوان العرب، يستطيع الباحث الاستعانة به؛ ليجلو الكثير من نواحي المجتمع العربي الجاهلي، ومن أخلاق الجاهليين وعاداتهم وتقاليدهم. كل ما كان للجاهليين من آراء ومذاهب وميول قد عبروا عنها بالشعر، ففي الشعر كانت تنطلق نفوسهم على سجيتها، وتكشف عما تحب وتكره. وفي الشعر يعظمون القوة، ويمجدون الشجاعة والبطولة، بينما كرسوا النثر للخطب والوصايا، والأقاصيص والأمثال والحكم، وفيه كانت تتجلى آراؤهم ومناهج تفكيرهم.

معارف العرب:

صحيح أن العرب كانوا يؤمنون ببعض المعتقدات الخرافية، وكثير منها مقتبس من غيرهم، وما ذلك إلا لعجز عقولهم عن تكوين نظرة شاملة عن الكون واتساق حوادثه، وهذا ناتج عن طبيعة بيئتهم التي لم تهيئ لهم الاستقرار المادي والنفسي؛ ليتمكنوا من التفكير السليم والملاحظة الدقيقة الهادئة، والنظر في حوادث الكون، وربط النتائج بالأسباب، وتعليلها تعليلا منطقيا صحيحا، فآمنوا بوجود الجن والأرواح الخفية، وكونها العلل التي تجلب الأمراض والشرور، غير أنهم مع ذلك قد عرفوا صنوفا من الثقافة, تتناسب مع ما هيأه لهم مجتمعهم البدوي من فرصة النظر في الكون. فما كان منه متعلقا بالعلم والفلسفة، فقد كان مبنيًّا على التجربة القاصرة. ولذلك لا نستطيع أن نقول: إنه كان لديهم علوم، بل معارف اقتضتها ظروف حياتهم اليومية.

فإذا نظروا في السماء ورصدوا النجوم؛ فلكي تهديهم في أسفارهم، ويستدلوا بها على المواقع والمسالك التي يريدون سلوكها. ومع ذلك فقد هداهم نظرهم إلى معرفة مواقع الكواكب، وتنقلها في بروجها بين فصل وآخر من فصول السنة، وميزوا السيارة من الثابتة منها.

وقد ركزوا اهتمامهم على القمر الذي يهتدي به السارون، واستعملوا كالبابليين السنة القمرية والشهر القمري والتقسيم الأسبوعي للشهر. ولكنهم لما أدركوا عدم انطباق السنة القمرية على السنة الشمسية، وتتابع الفصول سنة بعد أخرى، لجئوا إلى ما يسمى بالنسيء –أي إضافة شهر إلى السنة القمرية كل ثلاث سنوات كي توافق السنة الشمسية– وقد أعطوا بعض الكواكب أسماء لا تزال معروفة حتى الآن مثل: عطارد، سهيل، العيوق،لدبران، الزهرة، الثريا، المجرة، الفرقدان، السماكان، الشعريان. وسموا أولادهم بأسماء بعضها مثل: سهيل، هلال، الزبرقان .

ومما يلاحظ أن معلومات العرب الجاهليين الفلكية عملية، ولا تعتمد على المسلمات العلمية والحساب، وكانت تتناقل بالرواية وتحفظ بالمران والمخالطة، ولم يُعن أحد بتدوينها أو التأليف فيها. ويظهر أن بعض معلوماتهم الفلكية قد تسربت إليهم من جيرانهم البابليين والكلدانيين في العراق.

أما الطب، فبالرغم من أنه كان يعتمد في كثير من الأحيان على التعاويذ والرقى والعزائم وطرد الجن من جسم المريض، أو بعبارة موجزة على الشعوذة، فإنهم قد اعتمدوا أيضا على التجربة. فقد عرفوا التداوي بالحشائش، واستعملوا البتر لمداواة الأعضاء الفاسدة في الجسم، والكي والحجامة ومداواة العيون وغير ذلك. كما كان لهم أطباء تعلموا في فارس أو بلاد الروم, فالحارث بن كلدة تعلم في فارس وتمرن فيها، وعرف تشخيص الداء ووصف الدواء. ونشأ ابنه النضر طبيبًا كأبيه، وهو الذي أمر الرسول بقتله، وكان قريبا له "ابن خالته"؛ لأنه حارب الدعوة الجديدة حربًا شعواء، وكان كثير الأذى للرسول.

ومارسوا العرافة، والعراف يشبه الكاهن في ادعائه معرفة الغيب، وكان مثله يطبب الناس روحيا ونفسيا بما هو أقرب إلى الشعوذة. وقد اشتهر من الكهنة والعرافين عدد من الرجال والنساء.

كما مارسوا القيافة، وهي تتبع الأثر على الرمال, ومعرفة بصمات الأقدام، وتمييزها عن بعضها، ولو تزاحمت وتراكمت. ولا يخفى ما لهذه المعرفة من أثر في الصحراء، حيث تقضي الحاجة الماسة بتتبع آثار اللصوص والفارين والشاردين والقوافل. ونبغوا في الفراسة وهي معرفة انتماء الأشخاص بمجرد التفرس في وجوههم, أو معرفة القرابة بين شخص وآخر بمجرد ملاحظة وجوههم وبعض أعضائهم. ومارسوا الريافة، وهي معرفة استنباط الماء من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده, فيعرف بعده وقربه بشم التراب، أو برائحة بعض النباتات فيه.

وعرف عرب الجاهلية حركات الأنواء، وأحوال الجو، والاستدلال منها على تقلبات الطقس. وكانوا يستدلون على هطول المطر قبل نزوله بلون الغيوم, وعرفوا المسالك والاتجاهات، وهي نوع من المعارف الجغرافية تفيدهم في الأسفار، يهديهم إلى ذلك مسامتة الكواكب الثابتة ومنازل القمر، إذ لكل كوكب سمت يهتدى به .

غير أن ملاحظاتهم كانت مبنية على تجربة ناقصة، قد تصيب حينا وتخطئ أحيانا، إنما لم تخلُ من ذكاء ونباهة في كثير من الأحيان.

المحاضرة الثالثة: تاريخ العرب قبل الاسلام..... ا.د. عباس فضل حسين

الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام(القسم الاول):

اولا: صفات العرب وسجاياهم:

أن القبائل العربية كانت في نزاع مستمر بينها, وقد طبعت حياة البداوة فيها على الكفاح والذود عن الحمى، بل وممارسة الظلم في بعض الأحيان والمواقف، أي: مبادرة الخصم بالعداء قبل التعرض لعدائه. قال زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يُهدَّم ومن لا يظلم الناس يُظلَم

غير أن في أخلاق البداوة ما يخفف كثيرًا من مساوئ الغزو والسلب والظلم. فالبدوي ولا سيما العربي أقرب بطبيعته الفطرية إلى الخير، ومهما تمادى في السلب والعدوان تنافسًا على أسباب الحياة من كلأ ومرعى، فإن طبيعته التي فطرت على الجود والكرم تدفعه إلى موازنة الشر الناتج عن تلك المنافسة. فقد فرضت عليه حياة البادية نوعا من السلوك، جعل من الشهامة والأريحية، والنجدة وحب الضيافة، والعفو عند المقدرة، وإباء الضيم، والوفاء بالعهد، والأمانة، والدفاع عن الجار واللاجئ والمستغيث، طبعا أصيلا وفطريا فيه ، وهو بعيد عن المداراة والمصانعة؛ لأنها بعيدة عن الفطرة, قريبة من الرياء.

وقد اشتهر العرب بالكرم شهرة عظيمة، ولهم فيه ضروب شتى، وأصبحت سيرة بعضهم مضرب الأمثال؛ كحاتم الطائي، وكعب بن مامة الإيادي، وأوس بن حارثة الطائي، وهرم بن سنان، وعبد الله بن جدعان التميمي الملقب باسم "حاسي الذهب" وفيه ضرب المثل القائل: "أقرى من حاسي الذهب". وأجواد العرب وكرماؤهم كُثُرٌ يصعب حصرهم.

ويتجلى الكرم في نحر الجُزُر -مفردها: جَزُور، وهو ما يُجزر من النوق والغنم- وإطعام الضيوف والفقراء والمساكين، أو بموجز العبارة: أن يبذل المرء أكثر مما يأخذ. وكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران في ربوات عالية؛ ليهتدي بها السائرون في الصحراء، ويتجهوا إلى المضارب المستعدة لاستضافتهم.

ومن السجايا التي تحلى بها العربي المروءة، وقد تركز المثل الأعلى للأخلاق العربية في هذه السجية التي تغنى بها الشعراء، وهي تتجلى في الشجاعة، وفي كثرة ما يبذل من جهد، وما يظهر من تفانٍ دفاعًا عن القبيلة، وفي سبيل إجارة المظلوم، ونجدة الملهوف، وحماية الجار والعِرْض، والكرم، وقد فسرت بأنها كمال الرجولة، أو بعبارة موجزة، تقتضي المروءة من المرء أن "يغشى الوغى ويعف عن المغنم" .

وقد هيأت الطبيعة كل المقومات التي تجعل من العربي رجلًا قويًّا، صحيح الجسم شجاعًا، يضطلع بالمهام التي فرضتها عليه ظروف بيئته، بالإضافة إلى ما فطر عليه من الذكاء وصفاء الذهن.

فالبدوي العربي يكتسب صحة البدن وقوته من هواء البادية النقي، ومن أشعة الشمس الساطعة على الدوام، ومن الجو الطلق الذي يعيش فيه، ومن حركته الدائمة ومرانه المستمر على احتمال المشاق. ويكتسب الشجاعة من اضطراره الدائم إلى الدفاع عن نفسه وأهله، وما يملك من متاع ضد المغيرين

على قبيلته، وضد الحيوانات المفترسة. فالشجاعة والقتال طبع فُطر عليهما العربي من نعومة أظفاره.
وكل ما يحلم به العربي أن ينال الذكر الحسن بين الناس، فيشيد هؤلاء بالفضائل التي يتحلى بها، فما المرء في نظره إلا أن يترك سيرة حسنة، فهو حديث من بعده. على أن الحرية واستقلال الفكر من أنبل المقاصد التي يسعى إليها العربي، وهي مثله الأعلى المنشود، وأشد السجايا اتصالا بنفسه وقلبه، فقد رضعها في المهد، وتشربت بها نفسه في آفاق الصحراء التي لا حد لها. وقد بلغ من تعلقه بحب الحرية أنه كان يكره كل قانون إلا قانون البادية، وكل نظام عدا نظام العشيرة.
ثانيا: الاسرة:
إن الوحدة الاجتماعية في البادية والحضر معًا هي القبيلة، وركن القبيلة هي الأسرة، والرجل هو عماد الأسرة وربها وصاحب نسبها. والعلاقة الاجتماعية بين أفراد الأسرة كانت قائمة على أساس التضامن الوثيق بين أفرادها، كتضامن أسر القبيلة ضد القبائل الأخرى. فالعلاقات في المجتمع العربي تقوم على أساس التضامن المتسلسل الصاعد، اعتبارًا من أفراد الأسرة ثم الأفخاذ فالبطون فالعشائر، ثم الأحلاف، وللنسب دخل كبير في هذا التضامن، وهو الذي نسميه بالعصبية القبلية.
ثالثا: الزواج:
كانت الأسرة تقوم على أساس الزواج بعقد وبمهر معين، يدفعه الزوج بعد رضاء أولياء الفتاة ورضائها في بعض الأحيان، وهو ما يسمى بزواج المهر أو زواج البعولة، وقد يغالي بعض الآباء في قيمة المهر مغالاة شديدة، على أنه ذكر إلى جانب هذا أنواع أخرى من الزواج منها زواج السبي من نساء العدو الأسيرات، ولا يشترط فيه رضا الفتاة أو المهر، ثم زواج الإماء، ويكون بشراء أمة تكون هي وأولادها منه ملك يمينه إلا إذا أعتقهم. وهذه الأنواع من الزواج كان يقرها المجتمع الجاهلي، وقد أقرها المجتمع الإسلامي بعد ذلك مع شيء من التعديل، من حيث تحديد تعدد الزوجات، والتشجيع على عتق الإماء. وعرف العرب أيضا زواج المتعة، وكان يجري بعقد شخصي بين رجل وامرأة غير بكر، لوقت معين تنتهي العلاقة بينهما بانتهائه، وبمهر مقدم وحقوق للأولاد على أبيهم في الإرث, غير أن الانتساب فيه يكون للأم في الغالب, وهو يشبه زواج المهر إلا من حيث اشتراط المدة وانتساب الأولاد . ومن أنواع الزواج التي عرفت في الجاهلية زواج الشغار، وذلك بأن يتفق رجلان على أن يتزوج كل منهما قريبة الآخر، ممن له عليها حق الولاية كالأخت أو الابنة، وبدون مهر. وفي ذلك ما فيه من عدم احترام حرية المرأة وحقوقها، إنما لم يكن شائعًا شيوعًا كبيرًا. وقريب منه نكاح البدل كأن ينزل رجلان كل منهما للآخر.
ن زوجته، وهو لا يقتضي المهر. وقد عرف في الجاهلية نكاح "الخدن" "المخادنة" كأن يتخذ رجل صديقة له "خليلة".
ومن أنواع الزواج التي لم يقرها الإسلام, واستهجنها المجتمع الجاهلي أيضا زواج المقت، ويكون بأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه، إذا لم يكن لها أولاد منه كما يرث المتاع، إلا إذا افتدت نفسها من الورثة برضا منهم، وإذا أراد زَوَّجها من أحد إخوته بمهر جديد، وما ذلك إلا لأن الزواج كان يعني

أن تقطع المرأة صلتها بأبيها وإخوتها، فإذا لم تكن ذات ولد ساءت حالتها ولم تجد من يعيلها .
والمعتقد أن هذا النوع من الزواج كان نادر الوقوع، ومقصورًا على فئات خاصة ضئيلة من السكان، وربما يكون قد تسرب إلى المجتمع العربي من المجوس. وقد سمي باسم زواج المقت؛ لأنه كان ممقوتا، والولد الذي يكون ثمرته يسمى "مقيتًا". أما الرجل الذي يخلف أباه على امرأته إذا طلقها أو مات عنها، أو يزاحم أباه على امرأته فكانوا يطلقون عليه اسم "الضيزن" أي: الشريك أو المزاحم عند الاستسقاء "ومعنى الضيزن: الصنم".
وقد حرم المجتمع الجاهلي زواج الأب بابنته، والزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخت وزوجات الأبناء. لكن زواج الرجل بأختين تكونان معًا في عصمته كان مباحًا.
ويضاف إلى العادات التي كانت معروفة عند العرب في الجاهلية أن أحدهم إذا تقابل مع آخر من غير قبيلته ومعه ظعينة قاتله عليها، وإن تمكن أخذها منه، واستحلها لنفسه. كما أن الجاهليين قد اعتبروا الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة بدون عقد ضربا من الزنى، فيقولون للمرأة عندئذ: إنها بغي وزانية وفاجرة وعاهرة ومسافحة .
ولم يكن عدد الزوجات محددًا، بل كان للجاهلي أن يعدد من الزوجات ما يشاء، مدفوعا إلى ذلك بعوامل شتى، قد تكون شخصية بحتة أو إنسانية، كأن يدخل في عصمته نساء لا معيل لهن، أو سياسية بأن يُصهر إلى عدد كبير من القبائل، تناصره وتؤيده عند الحاجة.
رابعا: الطلاق:
كان الطلاق من حق الرجل، يستعمله متى شاء لأي سبب أو حتى بدون سبب. وكان العرف يقضي بأن الرجل إذا طلق زوجته واحدةً كان أحق الناس بها. أما إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها، فالطلاق ثلاثًا معناه الفرقة التامة بين الزوجين . على أن هنالك من النسوة من كن يشترطن عند الزواج أن يكون لهن الحق في الطلاق إذا أردن, وكانت المرأة إذا أرادت أن تطلق زوجها غيرت باب قبائها، فإن كان قِبَل المشرق جعلته قبل المغرب، فإذا رأى الزوج ذلك عرف أنها قد طلقته فلم يأتها, لكن ذلك لم يكن ليحصنهن من تطليق أزواجهن لهن إذا أرادوا. وإذا طلقت الزوجة أو مات عنها زوجها ألزمت بقضاء العدة حتى يتبين ما إذا كانت حاملًا أم غير حامل، خوفًا من أن تختلط الأنساب فيما لو تزوجت قبل انقضاء العدة.
خامسا: العلاقات ضمن الأسرة:
لقد اختلف الباحثون المحدثون حول وضع المرأة الاجتماعي في العهد الجاهلي، وقد استنتج بعضهم من الآيات القرآنية التي تدعو إلى إحقاق حقوق المرأة، وعدم إمساكها ضرارًا إذا طُلقت - كقوله تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُن} و {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُن ... } - أنها كانت مضطهدة، يبغى عليها ويستهان شأنها، بينما استنتج آخرون من أخبار الجاهلية التي وصلت إلينا في كتب التاريخ والآداب القديمة، أنها كانت تتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع الجاهلي.

كن الواقع أن موضوع مكانة المرأة في العصر الجاهلي يحتاج إلى دراسة عميقة وشاملة، ولا يمكن للباحث أن يعطي أحكامًا مطلقة موجزة عنه في ثنايا البحوث العامة. ومن الأخبار المتناثرة في بعض كتب الأدب نلمس أن علاقة الرجل بالمرأة في العهد الجاهلي كانت قائمة على الاحترام المتبادل في كثير من الأحيان، إذ كانت تستشار في بعض الأمور، وتشارك الرجل أكثر أعماله، وتتمتع بقسط من الحرية. فالشعراء كانوا يعطونها حقها من النسيب، ويبدءون قصائدهم بالتشبيب بها، وبعض الآباء يستشيرون بناتهم في أمر زواجهن واختيار بعولهن .

لا نكران أن الرجل في الأسرة الجاهلية كان له المركز الممتاز، فهو قوام الأسرة وربها، والمسئول عن حياتها ورزقها ومختلف شئونها، والمحارب المدافع عنها، المطالب بالثأر والغرامات، وصاحب الكلمة النافذة، والمرأة كانت تابعة له، ومنسوبة إليه، وتحت حمايته ومسئوليته، غير أنها كانت تشاطر الرجل كثيرًا من مسئولياته. وإذا كانت لا تغني غناء الرجل في الحروب، والحروب هي أساس الحياة في المجتمع الجاهلي؛ ولذلك تدنت منزلتها عن منزلته، إلا أنها كانت خير رفيق له وخير عون، وكانت تجيد من الفنون ما يجعلها في مستوى ثقافي يلائمه، من قول للشعر والغناء، بالإضافة إلى قيامها بواجباتها كأم ومربية للأطفال، وكانوا يسمونها ربة المنزل تكريمًا لها . وفي الروايات القديمة أن المرأة مارست الكهانة والعرافة كالرجل، وكان الرجال يلجئون إلى رأيها في معضلات الأمور, كما جرى عندما لجأ عبد المطلب بن هاشم إلى كاهنة عندما أبى عليه قومه إلا أن يذبح ابنه عبد الله، وفاء لنذر نذره للآلهة. والمرأة الجاهلية فوق ذلك كانت تشعر بشخصيتها وبمكانتها في المجتمع، وتحرص على مكانتها من أن تهان, "قصة ليلى أم عمرو بن كلثوم مع هند أم عمرو بن هند".

ومما تجدر الإشارة إليه، أن العرب لم يكونوا يزوجون بناتهم في غير العرب، وأن الفتيات البدويات لم يكنَّ يحببن الزواج في الحضر، وأن المرأة المرغوب فيها هي الولود التي تنجب كثيرًا من البنين؛ لأنهم عماد الأسرة العربية، التي اعتادت أن تعيش في حراسة السواعد المفتولة والرماح السمهرية.

كان العربي يغار على نسائه، ويحرص عليهن، ويعتبر العرض أغلى من النفس والمال والولد ؛ ولذلك كان الرجال يصطحبون نساءهم في الغزوات والحروب، ويجعلونهن في مؤخرة الجيش، خوفًا من مباغتة العدو لهن في مضارب القبيلة والرجال غائبون، وكي يدرك المحارب أن هزيمته ستجعل عرضه مباحًا لأعدائه، فيستميت في القتال ليجنب نساءه السبي. وفضلا عن ذلك، فإن النساء في المؤخرة كنَّ يعنين بالمرضى، ويضمدن جراح المصابين، كما يشجعن المحاربين، ويأخذن بتلابيب الفارين من ساحة القتال.

سادسا: معاملة الأولاد:

إن أولوية الرجل في الأسرة الجاهلية قد جعلت للأب سلطة على أفراد عائلته، وقد تصل إلى حد تجعل للآباء على أولادهم حق التصرف بمصائرهم، ففي بعض الأحيان كانوا يجعلون أولادهم رهائن في أيدي خصومهم؛ فيؤدي ذلك أحيانا إلى قتل هؤلاء لهم، وإذا استثنينا هذه الحالة الشاذة، ومثلها ما كان من وأد البنات، فإن العربي كان يعامل أبناءه معاملة تنطوي على العطف والحنان

والمحبة ١ مع حرصه على تربيتهم تربية خشنة، تؤدي بهم إلى استكمال أسباب القوة؛ ليكونوا درعًا حصينًا له ولقبيلته. وكان الآباء يتخيرون لأبنائهم الأسماء التي تدل على الخشونة، أو توحي بالتفاؤل بالظفر على الأعداء مثل: كلب، أسد، فهر، صخر, غلاب، ضرار، حنظلة، حرب، بينما كانوا يتخيرون لأرقائهم أسماء جميلة مثل: سهيل، ميسور، هانئ، نجاح، فلاح, ونحو ذلك. سئل الدقيش الكلابي: لماذا تسمون أبناءكم بشر الأسماء، وعبيدكم بأحسنها؟ قال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا .

كان الجاهليون يفضلون من المواليد البنين على البنات، وقد دعاهم إلى ذلك عوامل عديدة؛ فالأولاد يصبحون في المستقبل محاربين، تعتمد عليهم القبيلة في الدفاع عن حوزتها وفي الكسب، بينما تكون البنت عبئًا ثقيلًا تحتاج إلى حماية، أو قد تجلب العار إلى قبيلتها فيما إذا تعرضت للسبي. تقول الآية الكريمة: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} وكذلك جاء في قوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} يتضح لنا من هذه الآيات ثلاثة أمور: أولًا أن العرب كانوا يفضلون البنين على البنات، وأنهم كانوا يئدون البنات، وأن سبب كره ولادة البنات عدم غنائهن في القتال والخصام، وقد لمس الباحثون أسبابًا أخرى للوأد منها الإملاق: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُم}.

وعدم القدرة على إعالة الأولاد، أو الحرص على صيانة العرض، وخشية أن يلحق القبيلة عار من فعل السبي.

وعلى كل حال لم يكن الوأد شاملًا، بل اقتصر على بعض الأوساط المتردية ماديًّا واجتماعيًّا، ولا سيما في سني القحط والمجاعات، وفي البوادي القاحلة. ويروى أنه قد اقتصر على بعض الحالات، في بعض بطون قبيلتي تميم وأسد ، كحالة ولادة مولود مشوه، أو إذا كان الوالد فقيرا، أو كثير العيال، أو كان مع فقره مئناثًا، وفوق ذلك لا يستطيع الدفاع عن حريمه لضعفه.

ومع ذلك كان هناك ما يحد من هذه العادة السيئة، كإقدام ذوي الشهامة والمروءة على تبني أولاد ليسوا من صلبهم، يجعلون لهم مثلما لأولادهم من حقوق، وإنقاذ المجتمع من عادة الوأد بتساقط الأخبار عمن يقدم على وأد بناته، فيفتدونهن من آبائهن. فالشاعر الفرزدق كان يفتخر بأن جده غالب بن صعصعة، كان يعرف في الجاهلية أنه محيي الموءودات.

الاحلاف في الجاهلية:

وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين. والحلف في اصطلاح علماء اللغة: العهدُ بين القوم، والحلف والمحالفة: المعاهدة، وأصله اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد، ثم عُبر به عن كل يمين, والمحالفة: أن يحلف كل للآخر . فمعنى الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق، وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقًا وعهدًا، وتآخوا على العمل يدًا واحدة، وقد حالف الرسول بين المهاجرين والأنصار, أي: آخى بينهم .

وفي كلمة الحلف شيء من الدلالة على الشعائر والأيمان والمعاني الدينية؛ ولذلك قيل للحلف اليمين، لأن من عادتهم عند عقد الحلف بسط أيمانهم إذا حلفوا وتحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا . وكانوا ينظرون إليها على أن لها قداسة خاصة وحرمة، والحانث بيمينه ينظر إليه بأشد أنواع التحقير والازدراء. ويعد الحنث باليمين من الموبقات ومن الكبائر التي لا يُغتفر صدورها من شخص في شريعة الجاهليين, وقد أمر الإسلام بالوفاء بالعهد .

و"العهد" بمعنى الحلف أيضًا, وقيل: العهد: كل ما عُوهد عليه، وكل ما بين الناس من المواثيق. وهو أيضًا الموثق واليمين؛ ولذلك ورد: "على عهد الله" و"أخذت عليه عهد الله"، و"ولي العهد"؛ لأنه ولي الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة, وعلى من يعطي العهد الوفاء به: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}, {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ} , أي: من وفاء . ووردت لفظة "عاهدتم" بمعنى التحالف والتعاقد في مواضع من كتاب الله .

ويرد "الميثاق" بمعنى العهد, والمواثقة: المعاهدة، وأما "التواثق"، فالتحالف والتعاهد. وفي القرآن الكريم: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ}, {فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ}،{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ}. وقد قال العلماء: إنه عقد مؤكد بيمين و عهد . والحلف الذي نتحدث عنه هو "ميثاق"؛ لأنه عهد يؤخذ بحلف مؤكد بيمين وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات التي نص عليها، واتفق الطرفان المتعاقدان أو الأطراف المتعاقدة على الوفاء بها كاملة غير منقوصة.

ويكون الحلف بين الأفراد، كما يكون بين الجماعات والحكومات، فيتحالف الأفراد بعضهم مع بعض، ويعلن ذلك الحلف ليكون معلومًا بين الناس, وتتحالف القبائل بعضها مع بعض, ويعلن حلفها هذا ليكون معلومًا عند أفرادها وعند القبائل الأخرى، وتتحالف الحكومات: حكومات عربية مع حكومات عربية، أو حكومات عربية مع حكومات أعجمية. وفي المسند أمثلة عديدة على محالفات الحكومات العربية بعضها مع بعض، أو محالفتها لحكومة أجنبية مثل: الحبشة، كما في الكتابات الآشورية وفي مؤلفات اليونان واللاتين، وفي كتب أهل الأخبار أمثلة من محالفات العرب مع غيرهم، أو محالفاتهم بعضهم مع بعض.

والفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم. وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة، أي: نفس الفكرة التي تدفع الدول على التكتل والتحزب وعقد الأحلاف الدولية في هذا اليوم، أو في المستقبل. وهناك أحلاف عقدت لأغراض هجومية، وأحلاف عقدت لمصالح اقتصادية، مثل أكثر أحلاف قريش مع القبائل, وأحلاف لتثبيت نظم وإقرار قوانين وأخذ حقوق وردع ظالم وإنصاف مظلوم.

وقد تعقد الأحلاف لأغراض معينة، فتكون لها آجال محددة، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صد غزو سيقع عليها, أو لمساعدتها في غزو قبيلة أخرى، أو الوقوف موقف حياد تجاه الغزو، أو مساعدة قبيلة قبيلة أخرى للأخذ بثأر من قبيلة لها ثأر معها. ومثل هذه الأحلاف لا تعمر طويلًا، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عقد الحلف.

الغالب أن الضعيف هو الذي يبحث عن حليف يحالفه؛ ليقوي بهذا التحالف نفسه، ويعز به مكانه. قال البكري: "فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، وتنافس الناس في الماء والكلأ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضًا على البلاد والمعاش، واستضعاف القوي للضعيف –انضم الذليل منهم إلى العزيز, وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومحالِّهم، وانتشر كل قوم فيما يليهم" .

لقد دفعت الضرورات قبائل جزيرة العرب إلى تكوين الأحلاف؛ للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول. وإذا دام الحلف أمدًا, وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة، فإن هذه الرابطة تنتهي إلى نسب يشعر معه أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة, تسلسلت من جد واحد. وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة، أو ما يدعو إلى انفصال بعض قبائل الحلف، فتنضم القبائل المنفصلة إلى أحلاف أخرى، وهكذا نجد في الجزيرة أحلافًا تتكون، وأحلافا قديمة تنحل أو تضعف .

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشد أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى، أو أرادت الأخذ بالثأر منها. لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف، إلا عددًا قليلًا من القبائل القوية الكثيرة العدد، وكانت تتفاخر بنفسها؛ لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف. ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن، وقد تنزل القبائل على حلفائها، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلًا، وطالما انتهت تلك الأحلاف كما انتهت عند العرب إلى نسب، فيشعر المتحالفون أنهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد . ويقال للحلف "تكلع" وعند اليمانيين , "وبه سمي ذو الكلاع, وهو ملك حميري من ملوك اليمن من الأذواء، وسمي ذا الكلاع؛ لأنهم تكلعوا على يديه أي تجمعوا، وإذا اجتمعت القبائل وتناصرت فقد تكلعت" .

ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل المؤثر في تأليف الأحلاف، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح. وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها، كأن تعقد لغزو قبيلة، أو للوقوف أمام غزو محتمل، أو لأجل معين. ومتى نفذت أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ، انحل الحلف، وتعد هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التأريخ العربي، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة؛ لذلك نجدها تتألف للمسائل الداخلية التي تخص قبائل جزيرة العرب, ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب ولمقاومة أعداء العرب. ولا يمكن أن نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية أن يفعل غير ذلك، فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها, فإذا ارتحلت عنها، ونزلت بأرض جديدة، كانت الأرض الجديدة هي المواطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه. ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادات القبائل، أصبحت حتى اليوم من أهم العوائق في تكوين الحكومات الكبيرة في جزيرة العرب، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية للأعراب.

وخير مثال للقبائل التي اقتضت مصالحها التكتل والتحالف بينها، هو الحلف الذي قيل له "تنوخ". فقد اجتمع بالبحرين قبائل من العرب، وتحالفوا وتعاقدوا على التناصر والتساعد والتآزر فصاروا يدًا واحدة، وضمهم اسم "تنوخ" , وحلف "فرسان" وهو حلف آخر قديم تكون من انضمام قبائل عديدة بعضها إلى بعض للتناصر والتآزر . ولما لم يعرف أهل الأخبار واللغة شيئًا من تلك الأمور العادية، أوجدوا تلك القصص والأخبار والأنساب المدونة عن تنوخ وأمثال تنوخ .

ومن هذا القبيل، الحلف الذي قيل له: "البراجم", وهو من عمرو وظليم وقيس وكلفة وغالب. زعم أهل الأخبار أن "حارثة بن عمرو بن حنظلة"، قال لهم: أيتها القبائل التي قد ذهب عددها، تعالوا فلنجتمع ولنكن كبراجم يدي هذه, فقبلوا، فقيل لهم: البراجم, وهم يد مع عبد الله بن دارم. فنحن أمام حلف من أحياء قل عددها وذهب أمرها، وخافت على نفسها، فلم تجد أمامها من وسيلة للمحافظة على حياتها سوى التحالف، فكان من ذلك حلف البراجم.

ونجد لفظة "الحليفان" للدلالة على تحالف قبيلتين، أو "الأحلاف" تعبيرًا عن حلف عُقد بين قبيلتين أو أكثر – تتردد في كتب أهل الأنساب والأخبار, وقد قصد بها أحلاف عديدة. فقد قيل لأسد وغطفان: "الحليفان"؛ لأنهما تحالفا وتعاقدا وعقدا حلفًا بينهما على التناصر والتآزر، كما قيل لهما "الأحلاف", والأحلاف أسد وغطفان , وقيل لقوم من ثقيف: "الأحلاف". والظاهر أنهم كانوا في الأصل طوائف لم تتمكن من البقاء وحدها في وسط عالم لا يعيش فيه إلا القوي، فتحالفت للدفاع عن نفسها، ويقال لأسد وطيء: "الحليفان", ولفِزَارة وأسد: "حليفان"؛ لأن خزاعة لما أجلت بني أسد عن الحرم، خرجت فحالفت طيئًا، ثم حالفت بني فزارة .

ولما تحالفت غطفان وبنو أسد وطيء، قيل لهم: الأحاليف؛ لعقدهم حلفًا على التناصر والتآزر وقد ورد في معلقة "الحارث بن حلزة اليشكري" اسم "حلف ذي المجاز", الذي عُقد بين بكر وتغلب بوساطة "عمرو بن هند"، وقد أخذ فيه عمرو بن هند العهود والمواثيق والكفلاء من الطرفين حذر الجور والتعدي .

وتكون الهيمنة في الأحلاف التي تعقد بين قبائل غير متكافئة للقبائل القوية، أي: للقبائل التي لجأت إليها القبائل الضعيفة لعقد حلف معها. فتكون الكلمة عندئذ لسادات القبائل البارزة في هذا الحلف, وعلى القبائل الضعيفة دفع شيء للقبائل القوية في مقابل حمايتها لها وبسط سلطانها عليها, ومنع ما قد يقع من اعتداء من قبائل أخرى عليها.

وقد كانت هذه الأحلاف تدوم ما دامت المصالح متشابهة، فإذا اختل التوازن بين المتحالفين، أو وجد أحد الطرفين أن مصالحه تقتضي الانضمام إلى حلف آخر, فسخ ذلك العقد وعقد حلفا آخر، وحالف قبائل أخرى قد تكون معادية لقبائل الحلف السابق، ويقال لفسخ الأحلاف: "الخلع" .

وهكذا كانت الحياة السياسية في الجاهلية: أحلاف تتكون وأخرى قديمة تنحل, ولا سيما إذا كانت قد تكونت من قبائل لا رابطة دموية بينها ولا اشتراك في المواطن، وإنما كانت عوامل مؤقتة وأحوال طارئة اقتضت تكتلها, ثم اقتضت انحلالها لزوال تلك الأسباب.

وتعقد الأحلاف أحيانا بين عشائر وبطون قبيلة واحدة، تعقد على نمط الأحلاف التي تعقد بين القبائل. وقد يعقد الحلف بين عشائر وبطون قبيلة، وبين عشائر وبطون قبائل غريبة؛ وذلك بسبب حدوث مشاحنات ومنافسات بين عشائر وبطون القبيلة، فتتكتل العشائر والبطون وتتحزب وقد تتقاتل, وتضطر عندئذٍ إلى تأليف أحلاف بينها لتتغلب بها على العشائر والبطون المنافسة. ومثل هذه الأحلاف تضعف القبيلة وتؤدي إلى تصدعها ما لم

يتدارك أمرها أصحاب الرأي والسداد فيتولوا اصلاح ما قد وقع بين رجال القبيلة من فساد, وتهدئة الحال حفظًا لمصلحة القبيلة. ونجد أمثلة من هذا القبيل عند أهل الأخبار.

ولم يكن من الواجب على كل أحياء قبيلة، الاشتراك في الأحلاف التي تعقدها غالبية أحياء تلك القبيلة، فقد اعتزلت "حنيفة" الحلف الذي عقدته قبائل "بكر" في الجاهلية؛ لأنها كانت من أهل المدر، وكان الحلف في أهل الوبر, فلما جاء الإسلام دخلت في "عجل"، وصارت لهزمة .

وكان في العرف الجاهلي أن الأحياء التي تتحضر من قبيلة ما، لا تدخل في الأحلاف التي تعقدها الأحياء المتبدية؛ لاختلاف الحالة، لا سيما إذا كانت المواطن بعيدة. فالحضارة تبعد الأعراب عمن يتحضر منهم, إلا إذا وجدت مصالح خاصة، والمصالح أساس التعامل.

ونظرًا إلى ما للحلف من قدسية في النفوس، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم مؤثرة ورد وصف بعضها في الأخبار، مثل حلف "المطيبين" الذي عقد في مكة بعد اختلاف بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن قصي، وإجماعهم على أخذ ما في أيدي بني عبد الدار مما كان قصي قد جعله فيهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، فعقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا, على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا "ما بَلَّ بحرٌ صوفةُ"، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا, فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أخرجنها لهم، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسكوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم، فسُموا المطيبين. وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفًا مؤكدًا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا، فسُموا الأحلاف .

والأحلاف ست قبائل: عبد الدار، وجمح، ومخزوم، وبنو عدي, وكعب، وسهم" .

ومن هذا القبيل حلف الفضول، إذ تداعت قبائل من قريش إلى حلف وتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول , وهو من الأحلاف التي ظل الناس يحترمون أحكامها حتى الإسلام. وقد عقد على هذه الصورة: اجتمعت بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان، وصنع لهم طعامًا كثيرًا, ثم "عمدوا إلى ماء من ماء زمزم فجعلوه في جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه، ثم أتوا به فشربوه" .

وأضيف إلى هذه الأحلاف، حلف "الرباب". وهو حلف عقد بين المتحالفين بإدخال أيديهم في "رُبّ" وتحالفوا عليه، أو لأنهم جاءوا برب فأكلوا منه، وغمسوا أيديهم فيه، وتحالفوا عليه, فصاروا يدًا واحدة، وقيل: لأنهم اجتمعوا كاجتماع الربابة، وهم: تيم وعدي وعُكْل ومُزَينة وضَبَّة أو: ضبة, وثور، وعكل، وتيم، وعدي٤.

ومن تلك الأحلاف، حلف لَعَقة الدم, وقد عقد على أثر تخاصم القبائل حول في وضع الحجر الأسود في موضعه. فلما استعدت للقتال قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هو وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا "لعقة الدم" . ويظهر أن عقد الحلف بإدخال الأيدي في الدم من المراسيم المعروفة. وقد عرف قوم من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة بلعقة الدم, وكانوا ذوي بأس شديد , وجاء أن خَثْعَمًا إنما سموا خثعمًا؛ لأنهم غمسوا أيديهم في دم جَزُور .

وتعقد الأحلاف على النار كذلك، وقد وصف "هيرودوتس" طريقة من طرق التحالف والمؤاخاة والمحافظة على العهود عند العرب، فذكر أن العرب يحافظون على العهود والمواثيق محافظة شديدة، لا يشاركهم في ذلك أحد من الأمم، ولها قداسة خاصة عندهم، حتى تكاد تكون من الأمور الدينية المقدسة. وإذا ما أراد أحدهم عقد حلف مع آخر، أوقفا شخصًا ثالثًا بينهما ليقوم بإجراء المراسيم المطلوبة في عقد الحلف؛ ليكتسب حكما شرعيًّا، فيأخذ ذلك الشخص حجرًا له حافة حادة كالسكين يخدش به راحتي الشخصين قرب الإصبع الوسطى، ثم يقطع قطعة من ملابسهما فيغمسهما في دمي الراحتين، ويلوث بهما سبعة أحجار.

وما ذكره "هيرودوتس" عن عقد العرب أحلافهم على النار، هو صحيح على وجه عام. يؤيده ما ذكره أهل الأخبار عن "نار التحالف", وقولهم: كان أهل الجاهلية إذا أرادوا أن يعقدوا حلفًا، أوقدا نارًا وعقدوا حلفهم عندها، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ويحل العقد، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا للحالف: هذه النار تهددتك، يخوفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد، ولا يحلف كذبًا ويضمر غير ما يظهر؛ ولذلك عرفت هذه النار بنار التحالف. وهي نار يقسم المتخاصمون عليها كذلك، فإن كان الحالف مبطلًا نكل، وإن بريئًا حلف ولهذا سموها أيضًا "نار المهوّل" و"الهولة" , وذكر أنهم كانوا لا يعقدون حلفًا إلا عليها.

قد ذكر أهل الأخبار حلفًا سموه: "حلف المحرقين"، وزعموا أن المتحالفين تحالفوا عند نار حتى أمحشوا أي: احترقوا, وأن يزيد بن أبي حارثة بن سنان, وهو أخو هرم بن سنان الذي مدحه زهير، يمحش المحاش، وهم بنو خصيلة بن مرة وبنو نشبة بن غيظ بن مرة على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة، فتحالفوا على بني

يربوع على النار، فسموا المحاشّ بتحالفهم على النار . وزعموا أن المحاش القوم يجتمعون من قبائل شتى، فيتحالفون عند النار .

وذكر علماء اللغة أن "المحاشن": القوم يجتمعون من قبائل يحالفون غيرهم من الحلف عند النار, وكانوا يوقدون نارًا لدى الحلف ليكون أوكد وقريب من هذا ما كانت تفعله قريش حين تعقد حلفًا، فيأخذ الحليف حليفه إلى الكعبة، ثم يطوفان بالأصنام لإشهادها على ذلك، ثم يعود الحليف بحليفه لإشهاد قريش ومن يكون في الكعبة آنئذ على صحة هذا الحلف، وقبوله محالفة الحليف، إذ أصبح وله ما له وعليه ما عليه، وعلى قومه حمايته حمايتهم له. وقد ذكرت كتب السيرة والأخبار والأدب طرفًا من أخبار المحالفات التي كانت تعقد بمكة وكيفيتها وبعض المراسيم التي تمت فيها.

ولا تعرف صيغة واحدة معينة للقسم الذي يقسم به المحالفون. فمنهم من أقسم بالأصنام التي يعبدونها ويقفون عندها حين يعقدون الحلف, ومنهم، وهم أغلب أهل مكة، من كانوا يحلفون عند الركن من الكعبة، فيضع المتحالفون أيديهم عليه، فيحلفون. وقد ذكر أن قَسَم قريش والأحابيش عند الركن يوم تحالفوا وتعاقدوا، حلفوا "بالله القاتل وحرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام على مصر, على الخلق جميعًا, حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى التعاقد والتساعد على من عاداهم من الناس ما بل بحر صوفة، وما قام حراء وثبير، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة.

ومنهم من أقسم بالآباء والأجداد، لما لهم من مكانة ومقام في نفوسهم. ومنهم من حلف وعقد الحلف عند المشاهد العظيمة، أو في معابد الأصنام، أو عند قبور سادات القبائل المحترمين، فيحلفون بصاحب هذا القبر ويذكرون اسمه على التعاقد والتآزر أو على ما يتفق المتحالفون عليه، وعلى الوفاء بالعهد. وقد رُوي أن النبي أدرك "عمر" في ركب وهو يحلف بأبيه، فنادى رسول الله: "أما أن الله –عز وجل– ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. من كان حالفًا، فليحلف بالله أو يصمت".

وفي كتب أهل الأخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف, عقدت في مراسيم خاصة، يمكن الوقوف عليها وتعيينها من دراستها والوقوف على معانيها، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء.

ومن عاداتهم في عقد الأحلاف ما ذكرته من التحالف على الطيب أو النار أو القسم عند صنم. "وفي حديث الهجرة: وقد غمس حلفًا في آل العاص، أي: أخذ نصيبًا من عقدهم وحلفهم يأمن به. وكان عادتهم أن يحضروا في جفنة طيبًا أو دمًا أو رمادًا، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد".

وحلفوا بالملح وبالماء, "قال ابن الأعرابي": "والعرب تحلف بالملح والماء تعظيما لهما, ومن المجاز: "ملحه على ركبته"، بمعنى قليل الوفاء , وحلفوا بالخبز والملح. وعلى من يأكل خبز وملح شخص الوفاء لذلك الشخص، ولا يجوز الاعتداء على من أكل خبز وملح قبيلة، وعليها الدفاع عنه وأخذ حقه ممن ظلمه من أهل تلك القبيلة.

وتدون الأحلاف أحيانا لتوكيدها وتثبيتها، وتحفظ عند المتعاقدين، وقد تودع في المعابد كالذي رُوي في خبر "صحيفة قريش" يوم تآمر المشركون وتحالفوا على مقاطعة "بني هاشم" في شِعْبهم، إذ كتبوا صحيفة بما اتفقوا عليه, ثم أودعوها –كما يقول أهل الأخبار– جوف الكعبة.

وفي أخبار أهل الأخبار شواهد تشهد بتدوين الجاهليين لعقود الأحلاف. ورد في شرح "التبريزي" على المعلقات قوله في معرض شرحه لمعلقة "الحارث بن حلزة اليشكري": إن كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر والخيانة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا، فكيف تصنعون بما هو في الصحف مكتوب عليكم من العهود والمواثيق والبينات فيما علينا وعليكم ؟. وورد أن أهل الجاهلية "كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيمًا للأمر، وتبعيدًا من النسيان" . وورد في شعر ينسب إلى "درهم بن زيد الأوسي"، ما يفيد وجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين الأوس والخزرج , ووردت إشارة إلى "الصحف": صحف العهود والمواثيق في شعر للشاعر قيس بن الخطيم .

وروي أنه قد كان عند "عمر بن إبراهيم" من ولد "أبرهة بن الصباح" الحبشي المعروف، كتاب دون "الدينوري" صورته، فيه حلف اليمن وربيعة في حكم الملك "تبع بن ملك يكرب"، وقد دون بشهر رجب الأصم . وهو كتاب يظهر أنه دون في الإسلام، وأن واضعه لم يكن له علم بأحوال اليمن في الجاهلية.

لما كانت مراسيم الأحلاف من المراسيم المهمة ومن الأحداث الخطيرة، اقترنت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين. فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على مائدة واحدة كالذي ذكرته من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين يوم عقدوا "حلف الفضول". وقد تكون الوليمة نفسها مظهرًا من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف؛ لما للخبز والملح من أثر عند العرب، فعلى من يأكل خبز رجل وملحه أن يمر به ويوفي له؛ ولهذا يعنف الإنسان الغادر ويوبخه، لأنه لم يراعِ حرمة الخبز والملح، وهي حرمة تكاد تصل إلى حرمة الدم والرحم.

يتبين مما تقدم أن العرب كانت ترى توكيد الأحلاف بكسوتها بقدسية خاصة، وذلك بعقدها مراسيم ذات صبغة دينية. وقد راعت في تلك المراسيم جهد إمكانها إيلاج ما يوضع في تلك المراسيم إلى أجسام المتحالفين، وكأنهم أرادوا بذلك إدخال القسم وما حلف عليه في جسم المتحالفين؛ ولهذا كان الذين يغمسون إصبعهم في جفنة الدم

أو في دم الجزور, يلطعون إصبعهم، وكان الذين يغمسون صابعهم في الطيب يلطعون أصابعهم أيضًا، وكان الذين يقسمون على الماء المقدس يشربون من ذلك الماء، وكان الذين يجرحون أيديهم ويعقدون الحلف يضعون راحتي المتحالفين اليمنيين إحداهما فوق الأخرى، إلى آخر ذلك من مظاهر توحي أن المتحالفين لم يكونوا قد فعلوا ذلك عبثًا ومن غير هدف ولا قصد، بل أرادوا من كل ذلك التأثير في المتحالفين, وجعلهم يشعرون بأن حلفهم هذا –أي قسمهم– على التحالف لتنفيذ ما اتفق عليه, قد صار جزءًا من جسمهم، وقد حل في دمهم كما يحل الدم والخبز في دم الجسم.

وتعقد الأحلاف الخطيرة المهمة أمام الأصنام وفي المعابد في الغالب؛ وذلك كي تكتسب قدسية خاصة. ويشرف على عقدها سادن الصنم، وقد يساعده مساعدون؛ ليقوموا بمساعدته في إتمام المراسيم.

ويكون بين قبائل الحلف سلم وود؛ لذلك يستطيع أبناء القبائل المتحالفة المرور بمواطن هذه القبائل غير خائفين، وتمر قوافلهم بأمان لا يُتعرض لها، ولا تجبى إلا على وفق ما اتفق عليه وجرت عليه عادة المتحالفين. وعلى أبناء هذه القبائل حماية من يجتاز بأرضهم وتقديم المساعدات له وإضافته ودفع الأذى عنه، وإذا وقع عليه اعتداء من قبائل غريبة فعليه مساعدته والذب عنه واستصراخ قومه لنجدته؛ لأنهم من حلف واحد, وعلى الإنسان أن يتعصب للحلف تعصبه لقبيلته.

ويلاحظ أن الأحلاف إذا طالت وتماسكت، أحدثت اندماجًا بين قبائل الحلف قد يتحول إلى النسب، بأن تربط القبائل والعشائر الضعيفة نسبها بنسب القبيلة البارزة المهيمنة على الحلف, وينتمي الأفراد إلى سيد تلك القبيلة البارزة, فتدخل أنسابها في نسب الأكبر. وفي كتب الأنساب والأدب أمثلة عديدة على تداخل الأنساب، وانتفاء قبائل من أنسابها القديمة ودخولها في أنساب جديدة.

ويؤدي انحلال الحلف أو انحلال عقد عشائر القبيلة الذي هو في الواقع حلف سمي "قبيلة", إلى انحلال الأنساب وظهور أنساب جديدة، فإن القبائل المنحلة تنضم إلى حلف جديد، فيحدث ما ذكرته آنفًا من تولد أنساب جديدة، ومن تداخل قبائل في قبائل أخرى, وأخذها نسبها. ومن هنا قال "جولد زيهر": إنه لفهم الأنساب عند العرب، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف, فإنها تكوِّن القبائل؛ لأن أكثر أسماء أجداد القبائل هي أسماء أحلاف، ضمت عددًا من القبائل توحدت مصالحها, فاتفقت على عقد حلف فيما بينها على نحو ما مر .

وفي كتب الأنساب والأدب أدلة عديدة معروفة على أسماء أحلاف, مشت بين الناس وفشت وشاعت حتى صارت كأنها نسب من الأنساب, ومن ذلك "الأحلاف" و"المطيبون". جاء "ابن صفوان" إلى "عبد الله بن عباس",

فقال له: "نعم الإمارة إمارة الأحلاف، كانت لكم", فقال "ابن عباس": "الذي كان قبلها خير منا. كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من المطيبين، وكان عمر من الأحلاف" يعني: "إمارة عمر" , وقيل لعمر: أحلافي؛ لأنه عَدَوِي. والأحلاف صار اسمًا لهم كما صار الأنصار اسمًا للأوس والخزرج .

لإسلام وعند العرب في الإسلام كذلك، على الرغم من الحديث المنسوب إلى الرسول الذي يناهض الحلف: "لا حلف في الإسلام" . وقد أدرك الرسول, ولا شك، ضررها بالمجتمع العربي إذ كانت من أسباب التفريق، فحل الأحلاف وأحل الدولة مكانها، وحتم على القبائل إطاعة الرسول أو من يقوم مقامه من المسلمين.

وأما ما رواه "قيس بن عاصم" من أن الرسول قال: "لا حلف في الإسلام، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية"، فالظاهر أنه قصد بذلك الجوار . وقد أكد الإسلام احترام الجار، ووجوب الدفاع عنه، كما أيد الأحلاف الجاهلية التي تدعو إلى الخير ونصرة الحق. أما الممنوع، فما خالف حكم الإسلام، ودعا إلى الهلاك والضرر والفتن والقتال، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام .

واستعمل الجاهليون لفظة "حبل"، و"حبال" للعهود والمواثيق؛ فـ"الحبل" هو العهد والذمة والأمان، وهو مثل الجوار. وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يخيف بعضهم بعضًا، فكان الرجل إذا أراد سفرًا أخذ عهدًا من سيد كل قبيلة، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة، حتى ينتهي إلى الأخرى، فيأخذ مثل ذلك أيضًا، يريد به الأمان. فهذا حبل الجوار، أي: ما دام مجاورًا أرضه.

قد استفادت قريش من "الحبال" التي عقدتها بينها وبين القبائل؛ إذ أمنت بذلك على تجارتها، وقد كانت واسعة تشمل كل جزيرة العرب، وتتصل بالعراق وببلاد الشام، فصارت قوافلها العامة والخاصة تمر بأمن وسلام من كل مكان, بفضل حنكة سادة مكة وذكائهم في تأليف قلوب سادات القبائل وربطهم بهم بعهود ومواثيق، جعلت التحرش بقوافلهم من الأمور الصعبة، وإذا طمع بها طامع أدبه سيد قبيلته الذي يخضع له.

المحاضرة الخامسة.. الكورس الثاني... تاريخ العرب قبل الاسلام..... أ.د. عباس فضل حسين

الحياة الدينية عند العرب قبل الاسلام (القسم الاول):

عبادة الأصنام والطقوس العبادية الوثنية:

وعبد العرب الجاهليون الأصنام، وهي تماثيل أو صخور عرفت بتسميات شتى، تختلف باختلاف المادة التي صنعت منها. فما كان منها مصنوعا من الخشب أو الذهب أو الفضة على صورة إنسان فهي أصنام, وما كان منها مصنوعا من الحجر فهي أوثان. ونوع ثالث منها عبدوه وأطلقوا عليه اسم الأنصاب, والأنصاب نوع من "حجارة غُبْر منصوبة، كانوا يطوفون بها ويعترون عندها" يعترون: يقدمون لها العتيرة أي: الذبيحة, ويسمون الطواف بها: "الدوار" ، وقد تكون الأصنام على هيئة حيوان أو طير، أو على أشكال أخرى.

والعرب لم يعبدوا تلك الأصنام لمجرد كونها تماثيل أو حجارة، إنما لكونها تمثل فينظرهم قوى عليا، هي فوق الطبيعة، ظنوا أنها كامنة فيها، كما أنها تمثل الأرواح التي تقدم معنا الحديث عنها، ومنها أرواح أسلافهم وأبطالهم ورجالهم الصالحين المتوفين، أو آلهة معينة، جعلوها رمزًا لها. وقد مرت معنا بعض الشواهد على ذلك، مثل إقامة بني قابيل تمثالا لجدهم، أو إقامتهم أيضا تماثيل لخمسة من أسلافهم الصالحين، صاروا يطوفون حولها تعظيمًا لهم. ومثل ما روي أن "اللات" في الطائف كانت تمثل رجلا من ثقيف، عبدوه عندما قال لهم عمرو بن لحي الخزاعي: إنه لم يمت إنما دخل الصخرة، وأمرهم بأن يبنوا عليها بنيانًا وأن يطوفوا حولها تعظيمًا له ، أو أنه قال لهم: إن ربكم دخل هذه الصخرة، ونصبها لهم ليعبدوها. وقد اعتقد الجاهليون أيضا، أن فيها وفي العزى شيطانين يكلمان الناس.

كان لكل قبيلة إلهها الخاص، وقد تشترك عدة قبائل في عبادة إله أكبر، ويظهر أن العرب قد اقتبسوا شيئا من معتقداتهم وعباداتهم وأصنامهم من الأمم المجاورة. فقد كان من أصنامهم ما هو قديم، نشأت عبادته في شبه جزيرة العرب، كالذي ذكرته عما روي من إقامة بني شيث بن آدم وبني قابيل بن آدم تماثيل لأسلافهم، كما كان منها ما هو دخيل عليهم جاءهم من خارج شبه الجزيرة، ولا سيما من الشعوب السامية في شمال بلادهم.

ففي رواية لابن الكلبي أن أول من غيَّر دين إسماعيل "فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحَّر البحيرة، وحمى الحامية" هو عمرو بن لحي الخزاعي، الذي كان يلي أمور مكة والكعبة بعد جرهم، إذ "مرض مرضًا شديدًا فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حَمَّة إن أتيتها برئت. فأتاها فاستحم بها فبرئ، ووجد أهلها يعبدون

الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو. فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة" .

كانت الكعبة معبدا كبيرا يضم أكبر عدد من الأصنام والأوثان. فقد حطم فيها الرسول –صلى الله عليه واله وسلم– عند فتحه مكة، أكثر من ثلاثمائة صنم. ذلك أن قريشا قد نصبت في داخل الكعبة وحولها أصنام شتى القبائل العربية القريبة منها والبعيدة، لتجذبها إلى زيارة الكعبة، وإلى ارتياد الأسواق التي كانت تقام في موسم الحج، فتستفيد من ذلك فوائد اقتصادية ومعنوية. وكان أشهر أصنام المشركين أربعة: هبل واللات والعزى ومناة. وبينما لم يرد للأول ذكر في القرآن الكريم، ذكر الثلاثة الأخر وغيرها من آلهة الجاهليين مرارًا: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى، إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} . وقد جاءت هذه الآية تنديدًا بالكفار الذين جعلوا هذه الآلهة بنات الله، وأنهن يشفعن بالناس عنده. وكانت قريش تطوف الكعبة وتقول: "واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى" .

ويظهر أن بعض الآلهة كانت تعبد منذ عهد نوح، كما جاء في قوله تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} . وقد تقدم معنا ما روي عن عبادة هذه الآلهة، منذ أن صنع بنو قابيل خمسة أصنام لخمسة من عظمائهم، ماتوا وكانوا يتسمون بهذه الأسماء.

هبل:

كان هبل أعظم الآلهة الوثنية في مكة، ويظهر أن عبادته كانت عامة في عرب الشمال، وكان موضعه داخل الكعبة، وهو مصنوع من عقيق أحمر على صورة إنسان، ويقال: إن أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له "هبل خزيمة". وكان مكسور الذراع الأيمن، فأبدله القرشيون ذراعًا من ذهب، وكانوا يطوفون حوله، ويستقسمون عنده بالأزلام، ويقدمون له الهدايا. روى ابن الكلبي أنه كان أمامه سبعة قِداح اثنان منها مكتوب على أحدهما "صريح" وعلى الثاني "ملصق"، فإذا شكوا في مولود أتوا إليه بهدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج "صريح" ألحقوا المولود بنسبهم، وإن خرج "ملصق" دفعوه. وكان على أحد قدحين آخرين كلمة ناهي" وعلى الثاني "آمر"، فإذا أرادوا الإقدام على عمل أتوا واستقسموا، فإذا خرج "الآمر" فعلوا، وإن خرج "الناهي" أحجموا,

وهكذا في أمور أخرى. وعند هبل ضرب عبد المطلب على ابنه عبد الله. ولما ظفرت قريش في معركة أحد، صاح أبو سفيان "اعل هبل" "أي: علا دينك"، فقالوا الرسول: "الله أعلى وأجل" .

اللات:

صخرة مربعة أقيم عليها بناء في الطائف, وقد اعتبرتها ثقيف من أعظم المعبودات، وعظمتها قريش وجميع العرب. وكانت تعرف عندهم باسم "الربَّة" أي السيدة، وقد شبهها "هيرودوت" بإلهة الفلك، وهي تقابل الأم الكبرى للآلهة، أو "عشتروت" عند الساميين الشماليين . وكانوا يسمون أولادهم بأسماء منسوبة إليها مسبوقة بكلمة "وهب، تيم، زيد" مثل وهب اللات، تيم اللات، زيد اللات، بينما كانوا يسبقون أسماء الآلهة الأخرى بكلمة عبد كقولهم: عبد العزى، عبد يغوث، عبد مناف ... إلخ.

وكان تحت صخرة اللات حفرة عرف باسم "غبغب" تحفظ فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم إليها.

ويظهر من بيت ينسب إلى كعب بن مالك الأنصاري:

وننسى اللات والعُزَّى وودًّا ... ونسلبها القلائد والسيوفا

أن الناس كانوا يعلقون القلائد والسيوف على الأصنام، ويقدمون إليها الحلي والثياب والنفائس، وما طاب في الأعين، كهدايا ونذور إليها . فلما أسلمت ثقيف بعث الرسول –صلى الله عليه وسلم– المغيرة بن شعبة إليها، فهدمها وحرَّقها بالنار، واستولى على كل ما كان عندها العُزَّى:

وكانت أعظم الأصنام عند قريش بعد هبل، وربما نافسته، يزورونها ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح، وكانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له "حُراض" بين مكة والعراق. أما أول من اتخذها فهو "ظالم بن أسعد" فبنى عليها بيتا، وحمت لها قريش شعبًا من الوادي. وزعم العرب أن العزى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نخلة، وأن أصواتًا كانت تخرج من داخل بيتها يسمعها المتعبدون. وكان العرب إذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة، لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفوا بها ويحلوا عندها، ويعكفوا عندها يومًا. وفي كتاب الأصنام رواية طريفة عن قيام خالد بن الوليد بهدم بيتها وتحطيمها، وقطع السمرات الثلاث التي قيل: إنها كانت تحيط ببيتها .

مناة:

وكانت معروفة في مكة, وقد شاعت عبادتها بين قبائل هذيل وخزاعة، وكان مكانها عند ساحل البحر بين المدينة ومكة، تعظمها القبائل الساكنة في تلك الجهات، ولا سيما الأوس والخزرج، إذا كانتا تخصانها بالتعظيم، كخاصة ثقيف للات وقريش للعزى، فإذا حجوا إلى مكة، عادوا إلى مناة، ليحلقوا شعرهم عندها. وربما اعتبرت مناة إلهة

القضاء والقدر، أو ما يقابل الحظ المخلص عند الإغريق. وأما تحطيم صنمها، فكان في السنة الثامنة للهجرة عندما سار الرسول –صلى الله عليه وسلم– لفتح مكة, فأرسل علي بن أبي طالب للقيام بهذه المهمة، فهدمها وأخذ ما كان لها، ومن ذلك سيفان روي أن الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة كان قد أهداهما إليها، ويقال: إن ذا الفقار سيف علي أحدهما .

ومن أبرز الأصنام التي عبدها العرب من أقدم العصور:

ود:

وقد اتخذته "كلب" بدومة الجندل. ويروي ابن الكلبي أن أول من آمن به وعبده –عندما أرسله عمرو بن لحي من شط جدة، وأمر بأن تدعى العرب إلى عبادته وهي في موسم الحج– عوف بن عذرة من كلب، إذ نصبه في دومة الجندل، وجعل ابنه عامرًا سادنًا له، ولم يزل بنوه يسدنونه حتى ظهر الإسلام، ولما كانت غزوة تبوك أُرسل خالد بن الوليد لهدمه، فحالت بنو عبدود وبنو عامر دون ذلك، فقاتلهم خالد حتى قتلهم وهدمه وكسره، وكان فيمن قتل آنذاك حسان بن مصاد ابن عم الأكيدر صاحب دومة الجندل.

ويصفه ابن الكلبي فيقول: "كأن تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد دُبر "نقش" عليه حُلتان، متزر بحلة، مرتدٍ بأخرى، عليه سيف قد تقلده وتنكب قوسًا، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة "جعبة" فيها نبل" ومن طريف ما روى ابن الكلبي أن رجلا يسمى حارثة الأجداري كان يهدي اللبن إلى الصنم، ويرسله مع ابنه مالك، وينقل عن مالك قوله: "كان أبي يبعثني باللبن إليه فيقول: اسقه إلهك، فأشربه" .

وابن الكلبي يجعل عمرو بن لحي الخزاعي بطل عبادة الأصنام، فهو يدفع بهذا الصنم أو ذاك إلى هذه القبيلة أو تلك؛ لتعبده. ويظهر أن هذا الأمر كان معروفًا عنه عند ظهور الإسلام، إذ روي عن الرسول قوله: "رفعت لي النار فرأيت عمرًا رجلًا قصيرًا أحمر أزرق يجر قصبه في النار. قلت من هذا؟ قيل: عمرو بن لحي، أول من بحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان" . وكان من هذه الأوثان:

سواع:

الذي دفع به عمرو إلى رجل من هذيل، يقال له الحارث بن تميم، ينتسب إلى مدركة بن إلياس، فجعله في أرض يقال لها رهاط من بطن نخلة، وتعبَّده من يليه من مضر. وحينما أجابته مذحج دفع إلى رجل منها:

يغوث:

فوضع بأكمة في اليمن يقال لها مذحج، وتعبدته مذحج ومن والاها، وأجابته هَمْدان فدفع إلى رجل منها:

يعوق:

فوضع في قرية يقال لها خَيْوان، وتعبدته همدان ومن والاها من أرض اليمن. وأجابته حمير، فدفع إلى رجل منها: نسرًا: فوضع في مكان من أرض سبأ يقال له "بَلْخع" وتعبدته حمير ومن والاها، وظلوا يعبدونه حتى هودهم ذو نواس.

وإلى جانب هذه الآلهة، هناك آلهة أخرى أقل أهمية مثل:

الفَلْس:

وكان لطيء تعبده وتهدي إليه، وتَعتِر عنده، ومكانه وسط جبلهم أجأ. ويظهر أنه كان عبارة عن صخرة سوداء منتصبة، وكأنها تمثال إنسان، وكان له سادن من بني بولان، وفي اعتقادهم أنه لا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له. وكان لطيء أصنام أخرى مثل: "اليَعْبوب" وهو صنم لجديلة طيء، و"باجر".

وهناك أصنام أخرى تَعبَّد لها العرب منها: "الأقيصر" لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان، و"سعد" لبني مالك وكان صخرة طويلة بساحل جدة، و"نهم" لمزينة، و"سعير" لعَنَزَة، و"ذو الخلصة" وكان لباهلة وبجيلة وأزد السراة وهوازن. ومن الأصنام ما اعتقد الجاهليون أنها كانت بشرًا، فمسخها الله حجرًا مثل صنمي:

إساف ونائلة:

ويروى أنهما كانا رجلًا وامرأة من جرهم قد تحابا، ثم قصدا مكة للحج فدخلا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففجرا بها، فمسخا حجرين، فأخرجا ووضعا موضعهما؛ ليعتبر بهما الناس، فعبدا بمرور الزمن، عبدتهما خزاعة وقريش، ومن حج البيت من العرب .

وقد ذكرت الآيات الكريمة أن مما آمن به الجاهليون "الجبت والطاغوت": {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كفروا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} . والتنزيل الحكيم في هذه الآية، يُنحي باللائمة على اليهود الذين أيدوا الكفار في موقفهم من الدين الجديد. ويقال في تفسير الجبت والطاغوت: إن الجبت في الأصل صنم، فاستعملت الكلمة في كل ما عُبِد من دون الله، وكذلك الطاغوت، ويقال أيضا: إنهما الكهنة والشياطين، أو إن الطاغوت هو "هبل"، أو إن الطواغيت بيوت كانت العرب تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب، وتهدي لها، وتطوف بها كطوافها بالكعبة، وتنحر عندها ، لكنها لا ترقى في مكانتها إلى منزلة الكعبة.

طقوس العرب العبادية:

كان الحج أهم هذه الطقوس، وللحج أشهر معلومات تبين بالأهلة كما يقول في التنزيل الحكيم فيما يتعلق بعبادة المسلمين: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} . وقد ذكرت الروايات المتواترة أنها كانت عند الجاهليين ثلاثة: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم. وقد جعلت حُرُمًا لا يجوز فيها القتال؛ ليأتي الناس للحج آمنين مطمئنين.

ومن أبرز الأمثلة على حرص المكيين على حرمة هذه الأشهر، أنه لما لمس زعماء قريش أن هناك من تسول لهم أنفسهم أن ينتهكوا حرمتها، بخلق الأسباب الداعية إلى الحرب، قد تداعوا إلى عقد حلف يسمى "حلف الفضول". وقد حضره الرسول وفضل حضوره على حمر النعم. يقول ابن سعد : "كان حلف الفضول منصرف قريش من الفجار ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– يومئذٍ ابن عشرين سنة ... وكان أشرف حلف كان قط، وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتميم في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعامًا، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله: لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه، ما بل بحر صوفة، وفي التآسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول" ... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حُمْرَ النَّعَم".

جعلت هذه الأشهر ثلاثة مع أن موسم الحج لا يستغرق أكثر من شهر وأيام، غير أن المسافات الشاسعة التي يضطر الحاج لقطعها، تحتاج إلى مدة كافية يذهب فيها ويعود، ويتعاطى فيها الناس البيع والشراء في الأسواق في ظل الأشهر الحرم.

والطواف بالكعبة هو أهم مراسم تحيتها وتكريمها، وكان في الجاهلية أبرز تقليد من تقاليد الحج، وقد جعله الدين الإسلامي ركنًا من أركانه. غير أن الإسلام لم يقر هذا التقليد إلا لأنه في الأصل من تقاليد دين سماوي كما في قوله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} .

وزيارة الكعبة نوعان: زيارة عمرة في أي وقت، وزيارة حج في وقت معلوم، ولم يكن يجوز الجمع بينهما في الجاهلية وإلا عد ذلك فجورًا، حتى إذا جاء الإسلام أجاز الجمع بينهما. والطواف سبعة أشواط على مدار الكعبة، ويبدأ من الركن الذي فيه الحجر الأسود، وهو حجر صواني لامع اعتقد العرب أنه أنزل من السماء هدية للكعبة. وقد حافظ الإسلام على قدسيته وعلى تقاليد الحج، إنما نفي عنها كل ما يمت إلى الوثنية بصلة وكرسها لله الواحد الأحد، فأعاد الأمور إلى نصابها، باعتبار أن الكعبة كانت في الأصل بيتًا لله سبحانه وتعالى .

يذكر الأخباريون أن الطائفين بالبيت كانوا صنفين، صنف يطوفون عراة ويعرفون باسم "الحُلَّة" وهم من غير قريش، وصنف يطوفون بثيابهم ويعرفون باسم "الحُمس" وهم من قريش.

الحُلَّة:

ومن الروايات أن أيًّا من الحلة طاف بثيابه ألزم بطرحها بعد الطواف، ولا يجوز له استعمالها بعدئذ، وتبقى في مكانها حتى تبلى من الوطء والشمس فتسمى عندئذ "لقًى". وفي رواية أخرى أن من يطوف من الحلة بثيابه يضرب, وتنتزع منه ثيابه، ويلزم أن يأخذ من الحمس ثيابا للإحرام تسمى الثياب الأحمسية، إما شراء أو إعارة أو هبة، وإلا فإن عليه أن يطوف عاريًا. وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضا، إنما كن يتفادين انكشاف عورتهن للحجاج، بأن يتخذ بعضهن سيورًا يعلقنها على خصورهن، أو يطفن في دروع مفرجة المقاديم والمآخير، فيستترن بها، أو يطفن ليلًا.

والتفسير الذي أعطي لهذه الفروض، هو الحرص على أن يكون الطائف نقيا متحررا من آثامه، فلا يطوف في ثياب قارف فيها الذنوب، فيلزم بتدارك ثياب من الحمس، باعتبارهم متشددين في دينهم أتقياء زهاد، فالثياب التي يبيعونها أو يؤجرونها نظيفة كنظافة أهلها، بعيدة عن الإثم بعدهم عنها، فهي الثياب الوحيدة الصالحة للطواف. ولا بد أن يكون طواف العري –والحالة هذه– طوافًا دوافعه فقر الطائف، وعدم تمكنه من شراء أو استئجار ثوب من الأحمسي ليطوف به، وعدم قدرته من جهة أخرى على طرح ثيابه لتصبح "لُقًى" إذ لا ثياب له غيرها، فلا يكون أمامه سوى الطواف عاريا . على أن الإسلام قد حرم طواف العري، وحتم على قريش وغيرها لبس "الإحرام".

الحُمْس:

والحمس على نقيض الحلة, إنهم من قريش وحلفائها. ومعنى الكلمة التشدد في الدين، وكانوا إذا زوجوا امرأة منهم إلى أحد من غير الحمس، فرضوا عليه أن يكون نسله منها حمسًا، بينما كانوا يتزوجون من أية قبيلة كانت دون قيد أو شرط. وكانوا إذا أحرموا لا يسلئون السمن، ولا يأتقطون الأقط "أي: لا يصنعون طعامًا من اللبن المخيض"، ولا يأكلون الزبد، ولا يغزلون الوبر والشعر، ولا يستظلون بخيام صنعت بها, بل يستظلون

لأدم ما داموا حرمًا، ويطوفون بالبيت بثيابهم. وإذا أحرم أحدهم وكان من أهل المدر، نقب نقبًا في ظهر بيته منه يدخل ومنه يخرج, ولا يدخل من بابه. وكانوا يفرضون على غير الأحمسي ألا يطوف بالبيت إلا بثياب أحمسية، وألا يأكل في الحرم إلا من طعام أهل الحرم، أكان ذلك شراء أو قراء، كما كلفوا العرب أن تفيض من مزدلفة بدلًا من عرفة التي كانوا يفيضون منها .

يتبين مما سبق، أن الحمس هم عمومًا من سكان مكة أهل الحرم، وأما الحلة فمن غير أهل مكة. فلأهل مكة امتيازات خاصة، ميزوا أنفسهم بها عن سائر الناس؛ لأنهم جيران البيت وسدنته، وقد شرفوا على غيرهم بوجوده بينهم، فجعلوا من أنفسهم طبقة أرستقراطية، وفرضوا نفوذهم على العرب جميعا لحاجة هؤلاء إليهم.

الطُّلس:

وهم وسط بين الحمس والحلة كما قيل، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس، فلا يطوفون عراة ولا يستعيرون ثياب الحمس، لكنهم يدخلون البيوت من أبوابها، ويقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون ولا يختلفون عنهم إلا في قصة طواف العري. وهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وإياد.

الحلق والتقصير والهدي:

كان الحلق والتقصير قبل البعثة من علامات التحلل من الإحرام بعد أداء المناسك، فلا يحلق الحاج قبل تقديم قربانه. وكان يطلق على القرابين اسم "الهدي والقلائد" وهي الحيوان الذي يسوقه الحاج ليذبحه قربان شكر للآلهة. وكان من عادة العرب أن يضعوا في عنق الهدي قلادة من سيور الجلد أو ألياف الشجر أو فتيل الخيط. كما يعمدون إلى إشعار البُدْن أي جرحها جرحًا خفيفًا في سنامها، فيسيل دمها على ظهرها، إشارة إلى كونها هديًا فتصبح بذلك محرمة، ويسمون البدن المجروحة "شعيرة".

وقد أقر الإسلام هذه الطقوس لما فيها من فائدة: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} . وقد أشار التنزيل الحكيم إلى الهدي المقلد أو المجروح بأنه من شعائر الله، وأنه واجب الاحترام ولا يجوز الاعتداء عليه. وكان أصحاب الهدي في الجاهلية يتأثمون من أكل لحوم هديهم، ويتركونها للفقراء والمساكين والبائسين، أو للجوارح من الطير والوحش . غير أن الإسلام قد أباح لأصحابها أن يأكلوا منها، وأن يطعموا الفقراء والبائسين والمحتاجين: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ, لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} .

الهدايا:

تتلخص موجبات التقديس التي كان يكرسها الجاهليون للقوى التي عبدوها بنوعين من السلوك، فقد قدسوها إما رهبةً وإما رغبةً. قدسوا القوى الشريرة "الجن" لا لأنهم جعلوها في مصاف الآلهة، بل لأنها تملك من القوى الخارقة

ما لا يملكه الإنسان، وهي قادرة على الأذى والضرر، فهي في نظرهم فوق البشر، ولكنها دون الآلهة منزلةً. أما التي اعتقدوا فيها الخير من الآلهة، فقد عبدوها رغبة في نوال خيرها ونفعها.

وإن رجاء الإنسان الخير من آلهته، أمر معروف عند جميع الأمم القديمة، وليس أدل على ذلك من أن هذه الشعوب كانت تصطحب معها تماثيل آلهتها في الحرب؛ كي تنصرها على أعدائها. وعمرو بن لحي الخزاعي جلب الأصنام من الشام؛ لأن عبدتها أفهموه أنهم يستسقون بها المطر، ويستنصرون بها على أعدائهم. وكذلك فعل أبو سفيان بن حرب في موقعة أحد، إذ اصطحب كلًّا من اللات والعزى، ليستنصر بهما على المسلمين.

وكان للأنباط والتدمريين آلهة لحماية تجارتهم، يرجون منها أن تبارك أعمالهم التجارية، وتأتي لهم بالربح الوفير، وكذلك كان لعرب الجاهلية في شبه الجزيرة تقاليد مماثلة، إذ كانوا ينذرون لآلهتهم النذور، ويطلبون منها أن تبارك قوافلهم التجارية، وتحفظها عند رحيلها، كما يقدمون لها القرابين عند عودتها سالمة، إعرابًا عن شكرهم لها إذا حفظتها من الأذى.

كما أن للجاهليين حاجات أخرى يتوخون أن تقضيها لهم آلهتهم؛ أن تمنحهم الصحة، وتقيهم من الأمراض، وتحفظ لهم أطفالهم، وأن توفقهم في أعمالهم وتوفر لهم أسباب الرزق والمعيشة. ولكي ترضى عنه الآلهة، وتحقق لهم هذه الأماني، كان عليهم أن يرضوها بالهدايا وهي على نوعين: هدايا تقدم بشروط وهي النذور، وتكون هذه النذور إما معنوية، كأن ينذر المرء للإله إن رزقه ولدًا أن يسميه على اسمه, أو يكرسه لخدمته. أو تكون مادية, كأن ينذر إن قضى له أمرًا أن يقدم له ضحية من حيوان أو مأكل أو مشرب، وفي أحيان نادرة أن يضحي له بأحد أولاده إن رزقه عددا معينا منهم. وكان من نذورهم أن أحدهم ينذر إذا بلغت إبله كذا عددًا، أن يذبح من كل عشرة منها رأسا لآلهته في شهر رجب، والذبيحة تسمى حينئذ "الرجبية أو العتيرة" .

وقد يقدم للآلهة هدايا دون أن يربط تحقيقها بأي شرط، بل يكون ذلك لاسترضائها؛ كأن يقدموا لها طيوبا كالبخور والصموغ يحرقونها عندها، أو يقدموا لها سيوفا وقلائد وثيابا نفيسة أو حليا يعلقونها عليها, أو يضعوها في حفرة أو مكان خصص لذلك، كالحفرة التي كانت لصنم "اللات" "الغبغب".

أما الضحايا الحيوانية التي يقدمونها لها، فكانوا يذبحونها على مذابح وضعت أمام الصنم أو داخل بيته، وتكون من الحجر المنحوت أو غير المنحوت. وقد تؤخذ كمية من دمها فيلطخ بها الصنم أو تلطخ بها جدران الكعبة، إذا كان الصنم الذي قدمت له فيها. وقد حرم الإسلام تلطيخ الكعبة بالدم, وهذه العملية تسمى نسكا، والذبيحة نسيكة، وكلمة منسك معناها "دم مهرق".

ومن الآية الكريمة: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} .

فهم أنهم كانوا يعرفون الله إلى جانب الأصنام التي عبدوها، فينذرون له ولها من زروعهم ومواشيهم, لكنهم كانوا يؤثرونها عليه، فيعطونها ما جعلوه من نصيب الله. ويذكر ابن الكلبي مثالا على ذلك، أنه كان لخولان صنم يسمى عميانُس "يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسمًا بينه وبين الله "عز وجل". فما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله تركوه له" .

وفي "المحبر" لابن حبيب "ص٣٣١-٣٣٢": "أن أهل المدر والحرث كانوا إذا حرثوا أو غرسوا غرسًا، خطوا في وسطه خطا ينصفه إلى نصفين، وقالوا: ما دون هذا الخط للآلهة، وما ذرأه لله. فإذا سقط ثمر من القسم الذي جعلوه لله في القسم الذي جعلوه لآلهتهم أبقوه، وإن سقط ثمر من القسم الذي جعلوه لآلهتهم في القسم الذي جعلوه لله ردوه ... وكذلك إذا تسربت المياه من حصة الآلهة إلى حصة الله ردوها، أما إذا كان العكس فلا يردونها" .

وقد يلجأ البدو من الجاهليين إلى نذر نذور من الإبل تترك سائبة لا يستفيد منها أحد، كما جاء في الآية الكريمة: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ}.

وتفسير هذه الأسماء: أن الجاهليين كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن، آخرها ذكر، بحروا أذنها، أي شقوها، وخلوا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحَمَّل، فهي "بحيرة". وكان الرجل إذا مرض يقول: إن شفيت فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإذا ولدتهما معا قالوا: وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح الذكر، وتسمى هي وَصِيلة. وإذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن, حرَّموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى, وقالوا: قد حمى ظهره فهو حام, فلما جاء الإسلام منع هذه العادات.

وقيل في تفسيرها آراء أخرى، إذ يقول بعضهم: إن السائبة الناقة إذا ولدت عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، فتُسَيَّب لا يركب ظهرها ولا يُجَزُّ وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف. أما إذا أنتجت بعد ذلك أنثى، شقت أذن هذه, وأخلي سبيلها مع أمها، ويجري عليها التحريم الذي يطبق على أمها وتسمى "بحيرة". والوصيلة: الشاة إذا أتأمت "ولدت توأمًا" عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن، ليس بينها ذكر، فيقولون: قد وصلت. وكل ما ولدت بعد ذلك يكون للذكور منهم دون إناثهم، إلا أن يموت من مواليدها شيء، عندئذ يشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم . وقد

ندد القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}

البعث والحساب بعد الموت:

ليس باستطاعتنا معرفة ما إذا كان الجاهليون يعتقدون بالبعث بعد الموت أو بعدمه، إلا من خلال أقوال شعرائهم، ومن القليل الذي رواه الأخباريون عن تقاليدهم، ومن بعض الآيات القرآنية التي تعرضت لهذا الأمر وهي قليلة. وقد ناقض الشعراء بعضهم بعضا في ذلك: منهم من أنكر البعث، ومنهم من آمن به. وربما كان السبب في ذلك تأثر القائلين بالبعث بالأفكار التوحيدية التي تسربت إلى شبه جزيرة العرب. ومعنى ذلك أن الأصل هو نكران البعث، وأن أغلب الجاهليين كان على هذا الاعتقاد، وقد دهشوا من قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– بالبعث والحساب، كما جاء في التنزيل الحكيم: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} ، {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} ، أو كما يقول شاعر جاهلي:

حياة ثم موت ثم نشر ... حديث خرافة يا أم عمرو

ومن الشعر الذي ينبئ باعتقادهم أن الموت نهاية حياة الإنسان، قول شداد بن الأسود يرثي قومه من قتلى بدر، مستغربًا فكرة البعث التي بشر بها الرسول:

يخبرنا الرسول بأنْ سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

غير أن الأخباريين رووا لنا أن فريقا من الجاهليين كانوا يؤمنون بالبعث والحشر بالأجساد، ويستشهدون على ذلك بالتقليد الجاهلي الذي يقال له "البلية"، ويقصدون بذلك عقل ناقة أو جمل عند قبر ميت ليحشر وهو راكب عليها، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعًا وعطشًا . ويروى أن من تقاليد الجاهلية أن يعكسوا رأس الناقة أو الجمل إلى مؤخرة، ويأخذون ولية –أي: سرجا– فيشدون وسطه، ويقلدون عنقه، ويتركونه كذلك حتى يموت عند القبر. إذ كان بعضهم يوصي بأن يدفنوا معه ناقته كي لا يسير إلى المحشر راجلا, فيفعلون ذلك، كما قال عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه:

ابني, زودني إذا فارقتني ... في القبر راحلة برحل فاتر

للبعث أركبها إذا قيل: اظعنوا ... مستوثقين معًا لحشر الحاشر

ومما ينبئ بالاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب، قول خزيمة بن الأشيم يوصي ابنه:

يا سعد إما أهلكنَّ فإنني ... أوصيك –إن أخا الوصاة الأقرب–

لا تتركن أباك يعثر راجلا ... في الحشر يصرع لليدين وينكب

واحمل أباك على بعير صالح ... وتقي الخطية, إنه هو أقرب

ولعل لي مما تركت مطية ... في الحشر أركبها إذا قيل: اركبوا

وقول زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يوخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

المحاضرة الرابعة...الفصل الثاني..... تاريخ العرب قبل الاسلام..... أ.د. عباس فضل حسين

الحياة الاجتماعية عند العرب.... القسم الثاني

الإرث:

وأسباب الميراث: النسب والتبني والموالاة.

ويراعى في الوراثة من النسب، درجة القرابة. أي: صلة الرحم حسب درجاتها ومقدار التحامها بالشخص المتوفى، فتأتي البنوة أولًا، فالأبوة، فالأخوة، ثم العمومة. وقد قدمت البنوة أولًا؛ لأنها ألصق القرابات بالمتوفى، لذلك تقدم على كل قرابة أخرى.

والقاعدة العامة في الميراث عند الجاهليين هو أن يكون الإرث خاصًّا بالذكور الكبار دون الإناث، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف، أي: المحارب. "كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الصغار من الغلمان. لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال"؛ "لأن أهل الجاهلية، كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته بعده، ممن كان لا يلاقي العدو ولا يقاتل في الحروب من صغار ولده ولا النساء منهم، وكانوا يخصون بذلك المقاتلة دون الذرية.

وقد جاء في الأخبار ما يجعل المرأة في ضمن تركة المتوفى، وذلك إذا لم تكن أم ولد. ويكون من حق الابن البكر التزوج بها، وإذا لم تكن له نفس بها، انتقل حقه فيها إلى الولد الثاني، وإذا لم يرغب فيها انتقل حقه إلى بقية الورثة بحسب قربهم من الميت وحقهم في الميراث. ومن حق الولد البكر أيضًا مع المرأة من التزوج إلا بعد إرضائه، وكذلك من حق بقية الورثة المطالبة بهذا الحق إذا صارت زوج المتوفى المذكور من حقهم؛ لأنها من تركة ميتهم، والتركة هي تركتهم وملكهم، ولا يجوز لأحد مجادلتهم في هذا الحق.

والأخبار متضاربة في موضوع إرث المرأة والزوجة في الجاهلية، وأكثرها أنها لا ترث أصلًا. غير أن هناك روايات يفهم منها أن من الجاهليات من ورثن أزواجهن وذوي قرباهن، وأن عادة حرمان النساء الإرث لم تكن سنة عامة عند جميع القبائل . ولكن كانت عند قبائل دون قبائل. وما ورد في الأخبار يخص على الأكثر أهل الحجاز.

العصبة:

ويرث العصبة. وهم أقرباء الميت من الرجال، وهم مقدمون على الأخوات في الإرث. فإذا توفي الرجل، ولم يكن له من الذكور من يرثه ولا أب، يصرف إرثه إلى إخوته أو عصبته، إن لم يكن له إخوة، ولا يدفع إلى الأخوات. فلما جاء الإسلام، جعل للبنات والنساء حقًّا في الميراث، ويسمى هذا الإرث "إرث الكلالة" .

وقيل: العصبة: هم الذين يرثون الرجل عن كلالة من غير والد ولا ولد. وهم الأقارب من جهة الأب، وعصبة الرجل: أولياؤه الذكور من ورثته. فالأب طرف والابن طرف، والعم جانب والأخ جانب. والجمع العصبات .

وقد قال "ابن الأثير" في تعريف "الكلالة": الأب والابن طرفان للرجل

فإذا مات ولم يخلفهما، فقد مات عن ذهاب طرفيه، فسمي ذهاب الطرفين: كلالة. وقيل: ما لم يكن من النسب لحًّا فهو "كلالة". والعرب تقول: لم يرثه كلالة، أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق. وهم يفتخرون بوراثة قرب؛ لأنها إنما جاءت عن نسب قريب وعن أب، وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل:

وما سودتني عامر من كلالةٍ ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

وكانوا إذا قالوا: "هو ابن عم كلالة"، قصدوا بعيد النسب، وإن أرادوا القرب قالوا: هو ابن عم دنية .

فالكلالة معروفة في الجاهلية فهذّبها الإسلام ونزل النص عليها وفي تعيينها في القرآن .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن "الكلالة" من لا ولد له ولا والد. وقيل ما لم يكن من النسب لحًّا فهو كلالة. وقالوا: هو ابن عم الكلالة وابن عم كلالة. وقال بعضهم: إذا لم يكن ابن العم لحًّا، وكان رجلًا من العشيرة قالوا: هو ابن عمي الكلالة، وابن عم كلالة. وهذا يدل على أن العصبة وإن بعدوا كلالة. أو الكلالة من تكلل نسبه بنسبك كابن العم وشبهه. ويقال: هو مصدر من تكلله النسب، أي: تطرفه كأنه أخذ أحد طرفيه من جهة الولد والوالد، وليس له منهما أحد، فسمي بالمصدر، أو هي الأخوة للأم. تقول: لم يرثه كلالة, أي: لم يرثه عن عرض بل عن قرب.

وقد ذكرت الكلالة في موضعين من القرآن الكريم: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ} . و {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ} . فجعل الكلالة هنا الأخت للأب والأم والأخوة للأب والأم. فجعل للأخت الواحدة نصف ما ترك الميت وللأختين الثلثين وللإخوة والأخوات جميع المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين. وجعل للأخ والأخت من الأم في الآية الأولى.

الثلث لكل واحد منهما السدس. فبين بسياق الآيتين أن الكلالة تشتمل على الإخوة للأم مرة، ومرة على الإخوة والأخوات للأم والأب. ودلّ قول الشاعر: أن الأب ليس بكلالة، وأن سائر الأولياء من العصبة بعد الولد كلالة: وهو قوله:

فإن أبا المرء أحمى له ... ومولى الكلالة لا يغضب

أراد أن أبا المرء أغضب له إذا ظلم. وموالي الكلالة وهم الأخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غضب الأب، أو الكلالة بنو العم الأباعد، أو الكلالة من القرابة ما خلا الوالد والولد. أو هي من العصبة من ورث منه الإخوة للأم. وقد لخص بعضهم آراء العلماء في الكلالة في أقوال سبعة.

إرث النساء:

وهناك رواية تذكر أن أول من جعل للبنات نصيبًا في الإرث من الجاهليين هو "ذو المجاسد" عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر، ورّث ماله لولده في الجاهلية، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، فوافق حكمه حكم الإسلام .

ويذكر علماء الأخبار أن رجلًا من الأنصار مات قبل نزول آية المواريث، وترك أربع بنات، فأخذ بنو عمه ماله كله. فجاءت امرأته إلى النبي تشتكي مما فعله بنو عم المتوفى ومن سوء حالها وعدم تمكنها من إعالة بناتها، فنزل الوحي {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ}

م نزلت آية الميراث: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} . وبذلك انتفت سنة الجاهليين في عدم توريث البنات.

وقد نزلت الآيتان من أجل أن أهل الجاهلية كانوا يورثون الذكور دون الإناث. فكان "النساء لا يرثن في الجاهلية من الآباء، وكان الكبير يرث ولا يرث الصغير، وإن كان ذكرًا". وقد ذكر بعض العلماء أن آية: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ} ، "نزلت في أم كحة وابنة كحة وثعلبة وأوس بن سويد، وهم من الأنصار. كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها.

فقالت: يا رسول الله توفي زوجي وتركني وابنته، فلم نورث! فقال عم ولدها: يا رسول الله لا تركب فرسًا، ولا تحمل كلًّا ولا تنكأ عدوًّا يكسب عليها، ولا تكتسب. فنزلت للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون. وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قل منه أو كثر، نصيبًا مفروضًا" .

وذكروا أن نزول الآية: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} ، إنما كان "لأن أهل الجاهلية كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته بعده ممن كان لا يلاقي العدو ولا يقاتل في الحروب من صغار ولده ولا للنساء منهم. وكانوا يخصون بذلك المقاتلة دون الذرية، فأخبر الله جل ثناؤه أن ما خلّفه الميت بين من سُمي وفرض له ميراثًا في هذه الآية. وفي آخر هذه السورة فقال: في صغار ولد الميت وكبارهم وإناثهم لهم ميراث أبيهم، إذا لم يكن له وارث غيرهم للذكر مثل حظ الانثيين" . وذكر أنه "لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها مما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم، وقالوا: تعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة، اسكتوا عن هذا الحديث، لعلّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ينساه أو نقول له فيغيره, فقال بعضهم: يا رسول الله أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس.

ميراث السائبة:

والسائبة العبد الذي يقول له سيده: لا ولاء لأحد عليك، أو أنت سائبة. يريد بذلك عتقه, وأن لا ولاء لأحد عليه. وقد يقول له: أعتقتك سائبة، أو أنت حر سائبة، فإذا مات فترك مالًا، ولم يدع وارثًا، فإن أهل الجاهلية كانوا يسيبون، وأن أهل الإسلام لا يسيبون،حرم الهجين من حق الإرث في الغالب. كذلك "السائبة"، وهم الرقيق الذي اعتق بغير ولاء.

المحاضرة السابعة: الكورس الثاني: تاريخ العرب قبل الاسلام: أ.د.عباس فضل حسين

الحياة الدينية عند العرب قبل الاسلام (القسم الثاني):

الاديان الخارجية:

١-الديانة اليهودية:

وجد اليهود قبل الإسلام في كامل بلاد اليمن ويثرب وتيماء وخيبر و دوس و اليمامة و نجران وفي دومة الجندل والبحرين وفي مناطق أخرى متفرقة. وقد ورد اسم تيماء في العهد القديم، في سفر إشعياء، وكانت اليهودية الديانة التوحدية السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وينحدر يهود الجزيرة العربية من ثلاثة مجموعات: يهود يعرفون انفسهم انهم ينحدرون من بني اسرائيل كيهود بني النضير في يثرب ،يهود من قبائل بني اسماعيل كيهود غطفان، يهود ينحدرون من الحميريين والقبائل السبئية اليمنية.

يعتقد ان التأثير اليهودي في اليمن قديم جداً فالإله إيل مقة (إيل الحافظ) الذي عبدة السبئيين منذ القرن الثامن قبل الميلاد هو نتيجة التأثير اليهودي, إيل هو الله بالعبرية ويظهر في أسماء السبئيون بكثرة مثل وهب إيل وشرح إيل وهي شراحيل وشرحبيل (شرحب إيل) وكربئيل والتي تعني القريب من إيل (الله) و"إيل شرح" وتعني "نصر إيل" أو " إيل المتلألئ" ويظهر في أسماء الإسرائيليين مثل صامويل وهي صامو إيل وميكائيل وجبرائيل واسرائيل, يذكر القرآن وكذالك التوراة ان النبي سليمان ارسل الى ملكة سبأ يدعوها للتوحيد.

أعتنق الحميريين الديانة اليهودية و الحميريين قبائل سبئية تقطن في إب -تعز- ريمة - ذمار وعاصمتهم ظفار, كان الحميريين يطلقون على إيل (الله) ايضا اسم رحمن وتشير اليه النقوش بانة (رب السموات والأرض), والرحمن وهو من اسماء الله الحسنى حسب الدين الإسلامي , وقد اكتشف في ظفار عاصمة الحميريين كتابات باللغة العبرية يسجل فيها شكرهم لاسرائيل،ومن اشهر ملوك حمير الملك يوسف أسأر يثأر الحميري وكان يلقب بملك كل الشعوب يتضح من اسمه انه كان يهوديا توحدت تحت امرته كبرى قبائل اليمن همدان ومذحج وكندة ومراد واعرابهم وقد الحق الملك الحميري يوسف هزيمة نكراء في الغزاة الأحباش خلفت ١٢ الف قتيلاً و ١١ الف اسيراً في ظفار والمخا ونجران.

وكان في يثرب ١٠ قبائل تدين باليهودية وكانوا يؤمنون بنبي اخر الزمان، بعد مجيء النبي محمد(ص) أسلمت ٧ قبائل كانت تدين باليهودية وهي بني عوف وبني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وبقيت ٣ قبائل على الديانة اليهودية وهي بني قينقاع وبني النضير وقريظة، وقد أسلم قسم من قبائل قينقاع ونضير وقريظة لكن غالبيتهم لم يعتنقوا غير الديانة اليهودية.

واكثر المؤرخين اتفقوا أن قبيلة بني قينقاع في يثرب هم بالفعل من بني اسرائيل, وجود بني قينقاع كان قديم في يثرب وكانوا يتحدثون اللغة العربية وفي صلاتهم يقرؤن التورا ة بالعبرية، وكانوا يعملون صناعيين وتجار .ومزارعين. وكانت صلاتهم فيها ركوع وسجود تختلف عن صلاة اليهود الحاليين

تنحدر قبيلة النضير وقبيلة قريظة من الكاهنين وهم من ذرية هارون بن عمران من سبط لاوي وقريظة اسم اعجمي غير شائع بين العرب ويعتقد انهم كانوا نازحين من جراء الاضطهاد الروماني, في الفترة ما بين عامي ٧٠ م. و ١٣٥ م يعتقد انهم من الناجين من دمار أورشليم على يد تيطوس أو الذين تم إجلاؤهم على يد الامبراطور هادريان, وحين انتقلوا إلى الحِجاز في شبه الجزيرة العربية، فقد جاءوا على يهود سبقوهم (بنو قينُقاع), ويهود بني قينقاع أصلهم موغل في القدم،بيثرِب ويعود لزمان الكلدانيين، ويرى المؤرخ دوزي بأن أول هجرة لليهود إلى الحجاز كانت لأفراد من سبط شمعون.

ويذكر ابن خلدون أن سبط يهوذا نزل خيبر منذ أيام النبي داود ، ويذكر دوزي بأن ذرية شفطيا بن مهالئيل من سبط يهوذا نزلوا خيبر أيام السبي البابلي ، ويذكر الحلبي بأن في يهود خيبر جماعة تنسب إلى الكوهنيم ويذكر بعض المؤرخون أن يهود خيبر ليسوا من بني إسرائيل، بل هم قبيلة بنو خيبر من العماليق ومن قبيلة قيدار من بني اسماعيل دانوا باليهودية بعامل الاحتكاك التجاري, وذكر القيداريين في التوراة والنصوص الآشورية وكانوا ينتشرون على رقعة جغرافية شاسعة من سيناء الى صحراء الشام الى دومة الجندل.

ظهر من التوراة أن القيداريين كانوا أعرابًا يعيشون في الخيام عيشة أهل البداوة، وقد وصفت خيامهم بأنها خيام "سود "أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام قيدار، كشقق سليمان

يهود خيبر

كانت قبيلة بنو خيبر تنسب الى خيبر بن مهلهل بن عوص بن عمليق، وكانت منازلهم أرض خيبر من الحجاز، وبه سميت البلدة المعروفة ، وقيل خيبر بلسان بني إسرائيل تعني الحصن وبها سميت البلدة.

يهود فدك

تقع واحة فدك في منطقة حائل وقد كان سكانها من قبيلة عبس الغطفانية يهود الديانة اشتهرت فدك بزراعة القمح و التمور. أرسل علي بن أبي طالب(عليه السلام) لفدك وتم مصالحتهم على دفع الجزية وقد اسلم معظمهم .

يهود وادى القرى:

وادي القرى، واد كبير بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة لهذا سُمي «وادي القُرى» وكان سكانه من قبيلة بني عذرة يهود الديانة حاربوا المسلمين في غزوة الأحزاب ثم صالحوهم على دفع الجزية .

يهود بنى الديان:

بنو الديان هم قبيلة تنسب الى بنو الحارث بن كعب من مذحج كانت تقطن في نجران وكانت تدين باليهودية والديان هي تسمية عبرية، وكان لهم الرئاسة بنجران وكان الملك بنجران اسمه عبد المدان بن الديان قبل البعثة إلى يزيد بن عبد المدان وقد وفد أخوه على النبي صلى الله عليه وسلم .

ذكرت التوراة دومة (دومة الجندل) وذكر في التوراة ان دومة احد ابناء اسماعيل الاثنى عشر، كان يهود دومة الجندل ينتمون لقبائل النضريين والوائليين وكندة وكلب

القبائل العربية التي اعتنقت اليهودية

غطفان – كندة – بنو عوف – بنو الحارث – بنو جشم – بنو ساعدة – بنى ثعلبة – بنى النجار – الأوس – بنو الشطيبة

ذكر ابن قتيبة في حديثه عن أديان العرب في الجاهلية: أن اليهودية كانت في قريش وبني عتيبه وبني الحارث بن كعب وعيال وايلة وبعض قضاعة. وذكر نفس الأمر ابن حزم الأندلسي الظاهري في جمهرة أنساب العرب عند حديثة عن نفس الموضوع، وبالمثل ياقوت الحموي في معجمه.

ما صاعد البغدادي الأندلسي، صاحب المصنفات، والذي كان من المقربين من محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، فقد ذكر صاعد مجموعة من القبائل التي تسربت إليها اليهودية مثل حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة. وذكرت مصادر أخرى أن اليهودية وجدت في بعض الأوس من قبائل الأنصار، وبني نمير وبعض غسان وبعض جذام. بل أن بعض المصادر تذكر أن الآية القرآنية البقرة ٢٥٦، نزلت بسبب أن بعض الأنصار هودوا أولادهم قبل الإسلام وعندما جاء الإسلام أرادوا أن يقسروا أبناءهم على اعتناق الإسلام، فنزلت تلك الآية الكريمة التي تحرم الإكراه في الدين.(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ , فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [سورة البقرة : ٢٥٦]

بواسطة وبعض المؤرخين يعتقِد أن يهود العربية جميعاً أصلُهم إسماعيلي مُعلّلين ذلِك بان يهود الجزيرة العربية لا يفترقون عن بقية القبائل العربية في العادات والتقاليد في شيء، حتى أشعارهم لا تتبدى بها إلا الطبيعة العربية الخالصة، ويضرِبون المثل على ذلك بشعر السموأل بن عادياء، فالسموأل يذكر في لاميته المعروفة إنه من بني

الديان، وقد ذكر القلقشندي في نهاية الأرب نسب بني الديان كالتالي

بنو الديان – بفتح الدال المهملة وتشديد الياء المثناة تحت ونون في الآخرة بطن من بني الحارث بن كعب من القحطانية وهم بنو الديان واسمه يزيد بن قطن بن زيادة الحارث بن كعب بن الحارث بن كعب والحارث قد تقدم نسبه في الألف واللام مع الحاء.

قال في العبر: وكان لهم الرئاسة بنجران من اليمن والملك على العرب بها وكان الملك منهم في عبد المدان بن الديان وانتهى قبل البعثة إلى يزيد بن عبد المدان ووفد أخوه على النبي صلى الله عليه وسلم على يد خالد بن الوليد.

قال ابن سعيد: ولم يزل الملك بنجران في بني عبد المدان ثم في بني أبي الجود منهم ثم انتقل إلى الأعاجم الآن.،وقال أبو عبيدة: ومن بني عبد المدان هؤلاء الربيع بن زياد أمير خراسان في زمن معاوية وشداد بن الحارث الذي يقول فيه الشاعر: يا ليتنا عند شدادٍ فينجزنا ويذهب الفقر عنا سيبة الغدق.

وتشير بعض الدراسات الجادة (مثل: التوراة جاءت من جزيرة العرب/ كمال الصليبي، جغرافية التوراة – مصر وبنو إسرائيل في عسير/ زياد منى، تاريخ سوريا القديم/ أحمد داوود) إلى أن اليهودية هي إحدى الديانات العربية، التي نشأت أصلا في غرب الجزيرة العربية.

أما النظرية التقليدية القديمة، التي تفترض أن التوراة نشأت في الأردن بين قوم يهوذا، فترى أن اليهودية قد وصلت الجزيرة العربية عن طريق أحد الوسائل التالية أو بعضها معا أو كلها مجتمعة:

أولا: يحتمل عبر عامل الاحتكاك التجاري مع يهود بني اسرائيل وبلاد الشام

ثانيا: أو/ ونتيجة نزوح بعض قبائل بني اسرائيل إلى الجزيرة العربية أثناء فترة حكم الرومان لفلسطين، خاصة مع تعدد ثورات بني اسرائيل وقمعها على يد الرومان وتدمير المعبد وفرض ضرائب خاصة على بني اسرائيل، مما ربما حدا ببعضهم للفرار بعيدا عن الرومان فذهب بعضهم ليستقر في الجزيرة العربية، وهناك بحكم عامل القرابة العرقية بين بني اسرائيل وبني اسماعيل وبحكم عامل الاحتكاك بين دين توحيدي له كتاب وعقيدة واضحة مترابطة وفقه متين، وبين أديان أرضية لا تملك أيا من هذا، أن يتغلب الدين التوحيدي على الأرضي.

إن بني إسرائيل الوارد ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم هم بإجماع أهل الاختصاص من نسل يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم الخليل، عليهم السلام جميعا. وإبراهيم هو أبو الإسرائيليين والاسماعيليين من القيداريين، الذين تنتمي قبيلة قريش إليهم. موطن العرب الاسماعيليين هو غرب شبه الجزيرة العربية، فيما يعرف بالحجاز وتهامة، حيث

.عاش إبراهيم الخليل، في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد وقام ببناء الكعبة مع ولده إسماعيل

يبدو أن شبه الجزيرة العربية قد عاشت في هذه الحقبة التاريخية بالذات عصرها الذهبي، حيث كانت تحتضن أهم الطرق التجارية العالمية البرية والبحرية. كان الخليج العربي في الشرق والبحر الأحمر في الغرب والبحر العربي في جنوب الجزيرة العربية والموانيء والثغور البحرية العربية المطلة عليها تغص بالسفن، التي تنقل البضائع والتجارة العالمية آنذاك بين حوض البحر الأبيض المتوسط الخاضع للسيادة العربية الكاملة، الأشورية والبابلية والفينيقية والمصرية وبين موانيء الهند والصين. وفي موازاة هذا الممر المائي كانت هناك خطوط برية للقوافل تربط بلاد الشام والعراق ومصر عبر نجد والحجاز باليمن وعمان. في ظل هذا الانتعاش الاقتصادي، الذي شهدته الجزيرة العربية في هذه الحقبة، استقر البدو والرعاة وتطورت الزراعة وبنيت السدود. كذلك كثرت الأسواق وازدهرت المدن والثغور وأصلحت الطرق وشيدت المعابد. استمر هذا العصر الذهبي في جزيرة العرب أكثر من ألف عام. هذا العصر تمجده التوراة كثيرا وتخلده بالمزامير ويشير إليه القرآن الكريم في قصص عاد وثمود وإرم وفرعون ومدين وسبأ. كذلك الأساطير العربية التي ربما تقوم مقام الذاكرة التي ترصد ما خفي من التاريخ، تتحدث عن عصر غابر تتزاحم فيه الجنان، التي تتدفق فيها العيون وتظللها الأشجار أو تفيض بالأنهار، التي "يسيل فيها الحليب والعسل .

واصلت الديانة اليهودية انتشارها واعتنقها كثير من القبائل العربية الأخرى، فوصلت أولا إلى يثرب ثم اليمن، وبلغ انتشارها ذروته في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، أي بعد مضي أكثر من ثلاثة قرون على أسر البابليين لكهنة بني إسرائيل في غرب الجزيرة العربية وقبل ظهور النصرانية والإسلام كانت اليهودية دينا سائدا في البلاد العربية بين جميع شعوبها وعند ظهور الإسلام كان كثير من قبائل الجزيرة العربية وحواضرها تدين باليهودية، وكانت مدن تيماء وخيبر ويثرب ونجران مراكز يهودية معروفة. كذلك كان الشاعر العربي الجاهلي السموأل بن عريض بن عادياء الأزدي، من بطون سبأ، الذي يضرب به المثل في الوفاء عند العرب، يهودي الديانة ويسكن في خيبر القريبة من يثرب.

واختلف يهود الجزيرة العربية عن بقية يهود الشرق العربي القديم وحوض البحر المتوسط، في إنهم اقتصروا على التاناخ، أي العهد القديم، ولم يأخذوا بالتلمود، سواء البابلي أو الأورشليمي، رغم أن التلمودين المذكورين تم الانتهاء منهما قبل ظهور الإسلام بوقت طويل يكفي لوصولها إليهم، خاصة إن سكان الجزيرة العربية لم يكونوا معزولين عن العالم، نتيجة مرور طرق التجارة العالمية بأرضهم وفي البحار المحيطة بجزيرتهم. لهذا فمن

الممكن أن نعدهم أقرب لليهودية في صورتها الأولى منهم لليهودية الحديثة التي يعتنقها أغلب يهود اليوم والتي تقوم على التاناخ، أي العهد القديم، مع التلمود. وأقرب الطوائف اليهودية الحالية إلى يهود الجزيرة العربية الأقدمين، هي طائفة اليهود القراؤون. أما حاليا فإن يهود الجزيرة العربية في اليمن والبحرين من اليهود الربانيين الذين يأخذون بالتلمود مع التاناخ. ويلاحظ أن يهود أثيوبيا المعروفين بالفلاشا، أيضا لا يأخذون بالتلمود وإلى .اليوم، ولا شك في أن اليهودية انتقلت لأثيوبيا قادمة من اليمن.

واسلمت الكثير ممن يهود قبائل الجزيرة العربية، مثل قبائل حمير و الحارث بن كعب وكنانة وكندة واسد وغطفان وغيرهم وشاركت تلك القبائل بشكل فعال في حركة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وفي الدولة الأموية ومن الدولة العباسية،وأما في جنوب الجزيرة العربية فقد ظل في اليمن وجود الديانة اليهودية متواصلا بلا انقطاع لليوم، وإن تقلص كثير بالهجرة لخارج اليمن. كما لا تزال هناك جاليات يهودية صغيرة في البحرين والكويت وعمان.

٢-الديانة النصرانية:

لقي انتشار المسيحية في الجزيرة العربية صعوبات جمة في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، لمعارضة الوثنيين من جهة وعلى رأسهم أباطرة روما، والعبرانيين (اليهود) من جهة أخرى، وقد ساح أحد معلمي الإسكندرية واسمه «أوريجان» واعظاً ومبشراً، وكان من جملة من وعظهم أحد أمراء العرب. ونتيجة إصدار مرسوم إمبراطوري من قسطنطين الكبير (عام ٣١٣) استتب الأمن والسلام للمسيحية، وانتشرت بين العرب الغساسنة في بلاد الشام وفي الشمال الشرقي من الجزيرة العربية، وتحول الكثير من عرب الحيرة إلى المسيحية.

في القرنين الرابع والخامس للميلاد امتدت جذور المسيحية إلى أقصى جنوبي غرب الجزيرة، إلى اليمن، ونجح تيوفل الهندي أن يُنَصِّر رئيس القبيلة على الطريقة الآريوسية. واستطاع الرهبان تنصير الكثير من القبائل العربية البدوية، بالإضافة إلى دور رهبان جبل سيناء وما قاموا به من تبشير عدد من القبائل العربية. والناسك «سمعان العمودي» ناسك حلب نصر الكثيرين من أهل حلب.

وبدأت المسيحية تتسرب من الشمال والجنوب الغربي إلى أواسط الجزيرة العربية عن طريق المبشرين والتجار النصارى. وفي منتصف القرن السادس كانت مدينة يثرب ومكة يسكنها بعض المسيحيين، وكان في مدينة الطائف نفر من الموالي النصارى منهم «عداس» النينوي الأصل، والذي كان مملوكاً لعتبة بن ربيعة، أما اليمامة والتي عدها ياقوت الحموي من نجد، فقد دخلتها المسيحية ووصلت إلى حكامها، وهكذا انتقل الإيمان بالمسيحية إلى جزيرة العرب. ويخبرنا ابن هشام: أن عاقب نجران في منتصف القرن السادس الميلادي هو

«عبدالمسيح» رجل من كندة ، وسيد نجران «الأيهم»، والأسقف هو «ابن حارث» أحد بني بكر بن وائل ، كانوا من أعلام المسيحية.

كان لوجود المسيحيين والاتصال بالعرب ما ترك بصماته في عرب الجاهلية، في الفكر واللغة والعقيدة وفي الخلفية الاجتماعية والفنية أيضاً. وسوف نلقي مزيداً من الضوء على حكام الممالك العربية وأعلامها المسيحيين في شمال الجزيرة العربية ووسطها في تلك الفترة خلال القرون: الرابع والخامس والسادس الميلادية ودورهم الديني والسياسي والاجتماعي.

الأديرة وانتشار المسيحية في الجزيرة العربية

لعبت الأديرة دوراً مهماً في تعريف التجار العرب والأعراب بالمسيحية، وفي نشر المسيحية والتعريف بها، حيث وجد التجار في الأديرة ملاجئ يرتاحون فيها، وما ذكر عنهم أنهم كانوا يأخذون المصابيح بأيديهم لهداية القوافل في ظلمات الليل . وأصبحت الحركة الرهبانية أهم الأسباب والعوامل التي «حملت المسيحية إلى الجزيرة العربية بل ومكة ذاتها» وكانت الأديرة بيوت العبادة والانقطاع للتعبد، ولقد انتشرت في مواطن قصية من البوادي، ونشطت في نشر الدعوة، ونجد لها ذكراً في الحجاز ونجد والجزيرة العربية وشرقيها، وذكر بن قتيبة الدينوري: «أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعضهم قضاعة» .

ونجد بعض المفكرين يتحدثون عن دور الأديرة في نشر المسيحية بين العرب: «كان لا بد لكل آتٍ من الشام أو راجع منها أن يمر بها لبعض الوقت، يقضيه بضيافتهم في جو من التعبئة النفسية والتثقيف النصراني (...) ولا يسعنا إلاّ الاعتراف بأنه كان للرهبان فضل كبير بتحويل أولئك الشباب عن عبادة الأصنام إلى عبادة قوة أخرى.

المسيحية في وسط الجزيرة العربية وشمالها

دخلت المسيحية وسط الجزيرة العربية، قبل القرن السادس، كما تدل على ذلك الأبنية التي بناها النصارى هناك. وقد كان لبني المرار الكنديين سيطرة على مناطق وسط الجزيرة العربية أي نجد واليمامة. وقد ساهم هؤلاء الكنديون في نشر المسيحية بعد اعتناقهم إياها. ولعل نقش دير هند الكبرى الذي بنته هند بنت الحارث الكندية (أم عمرو بن هند) أكبر دليل على انتشار المسيحية بين عرب كندة، حيث كانت تفخر بكونها «أمة المسيح وأم عبده». وقد تنصرت كذلك بطون من قبائل طي وغطفان وحنيفة وغيرهم. وكانت المسيحية قد دخلت اليمامة من الشمال عبر نجد، ولكن لم يقم أي تنظيم كنسي بين عرب نجد واليمامة.

.

ملوك كندة المسيحيون في نجد بين ٤٢٥–٥٢٨

قامت مملكة كندة في نجد وكانت مستعمرة سبئية، وكانوا وثنيين وأكبر آلهتهم الإله «كاهل» وكان جزء منهم في جيش يوسف أسأر الحِميَري خلال حملات الأخير ضد المسيحيين في اليمن في القرن السادس الميلادي.

قامت مملكة كِندّة في نجد وبادية الحجاز وانتزعت ملك البحرين من المناذرة في ما عُرف بالعصر الجاهلي، يعود ذكرها إلى القرن الثاني ق.م على أقل تقدير، ولعبت دوراً مفصلياً في تاريخ الجزيرة العربية وخصوصاً في اليمن وعبر العصور التي تلته. ذكرتهم نصوص المسند باسم «كندت» و«آل ثور» وأقاموا أول مملكة لهم في قرية الفاو، فأقامت كندة مملكة تابعة لمملكة سبأ في وسط الجزيرة العربية.

ويتضح من المعلومات المتوافرة عن القبائل العربية بنجد أن بني آكل المرار الكنديين النصارى، قاموا بدور تبشيري مهم بوسط شبه الجزيرة العربية وشمالها، خلال فترة سيطرتهم على هذه المناطق من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس. ومن شواهد تنصر بني آكل المرار الكتابة التي وضعتها هند الكبرى بنت الحارث الكندية في صدر ديرها؛ حيث تفتخر بكونها أمة المسيح وأم عبده (عمرو بن هند) وبنت عبيدة (الحارث بن عمرو بن حجر، ملوك كندة) .

المسيحية في طي

تشهد المصادر العربية على تنصر أحياء من طي طبقاً لما ذكره اليعقوبي في تاريخه إذ قال: تنصرت من أحياء العرب طي . كما أوضح الجاحظ في رسالته الرد على النصارى قائلاً: «كانت النصرانية غالبة على ملوك العرب وقبائلها (...) وطي في قبائل كثيرة أحياء معروفة» .

وكان عدي بن حاتم سيد طي من جملة الداخلين في المسيحية، وهذا لا يعني أن المسيحية كانت غالبة في جبلي أجأ وسلمى، إذ كان الطائيون في هذين الجبلين معروفين بعبادتهم للصنم الفلس .

المسيحية في اليمامة

عدها ياقوت الحموي من نجد وسماها جواً، ويرى دوشاسن أن الحملات التبشيرية إلى نجد وصلت في فترة متأخرة ليست قبل القرن السادس . والوجود المسيحي في اليمامة دخلها انطلاقاً من الشمال، مروراً بنجد لصعوبة التنقل بين السواحل الشرقية لوجود حواجز طبيعية تتمثل في عروق صخرية تتخللها كثبان رملية جرداء، تجعل التنقل بين الجهتين صعباً للغاية .

وقام الكنديون بدور المبشرين للديانة المسيحية باليمامة، حتى دخلتها النصرانية ، ووصلت إلى حكّامها، ونستدل من شعر للأعشى يمدح فيه حاكمها (هوذة بن علي) الذي منّ على الشاعر ففك وثاق قوم من تميم يوم الفصح تقرباً لإلهه.

ونجد أن انتشار المسيحية في وسط الجزيرة العربية كان عن طريق اعتناء كندة واهتمامهم بنشر المسيحية داخل بلادهم، وأن المذهب الذي تم نشره هو النسطورية طبقاً لما جاء على لسان الهاشمي في رسالته إلى عبدالمسيح بن إسحق الكندي، التي أشار فيها إلى عراقة نصرانية كندة. هذه المعتقدات التي انتقلت من الكنيسة النسطورية العراقية والكنائس السورية اليعقوبية والملكانية بواسطة أساقفة الخيام أو أساقفة المضارب الذين وجدوا من مدن شمال الحجاز ووسطه بيئات آمنة لنشر الطقوس المسيحية بين القبائل العربية الوثنية .

المسيحية في الحجاز

تؤكد المصادر الإسلامية انتشار المسيحية في قلب الجزيرة بيد تلميذ المسيح برثلماوس، أو ابن ثلماء كما يسميه البعض. يقول ابن خلدون: إن برثلماوس بُعث إلى الحجاز، وفي السيرة لابن هشام: «قال ابن إسحق: وكان من بعث عيسى ابن مريم (عليه السلام) من الحواريين والأتباع... وابن ثلماء إلى الأعرابية، وهي أرض الحجاز». وعن المقريزي، أن متَّى العشار: «سار إلى فلسطين، وصور، وصيدا، وبصرى» .

ورد في كتاب أعمال الرسل أنه في يوم العنصرة كان يوجد في مدينة أورشليم عرب... ، وهؤلاء العرب كانوا إما يهودا أو مهتدين جدداً من أصل عربي. وانتشرت المسيحية في شرق الحجاز وهضبة نجد، في دومة الجندل، ومعان، وتيماء، وتبوك، وفي كل وادي القرى بين الشام والمدينة، المنطقة التي سكنتها قبائل قضاعة وكان فيها قوم من الرهبان ذكرهم الشاعر جفر بن سراقة:

وقد نشر المسيحية في بادئ الأمر مسيحيون غير عرب قدموا من بلاد ما بين النهرين والشام، ثم قامت بعض قبائل العرب المبشرين بالمساهمة في نشر المسيحية في وسط الجزيرة وشمالها مثل بني آكل المرار من قبيلة كندة.

ندرك أن التبشير المسيحي في الحجاز كان غائباً. وأن المسيحيين هناك كانوا من الأجانب، أما مسيحيو أهل البلاد فكانوا حالات نادرة، وكان وجود بعض المسيحيين من بني كلب في تبوك. وكانت إشارات القرآن الكريم إلى النصارى، إشارات عامة تتحدث عن طبيعة المسيح والمسيحية لا عن نصارى يثرب بالذات. ومما يدل على الحضور الضعيف للنصارى في الحجاز أن أهل السير لم يشيروا إلى مقاومة نصارى يثرب للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كما فعل اليهود. وعلى الرغم من وجود الرهبان والأديرة في وادي القرى وعلى طول الطرق المؤدية إلى الشام، ظل الحجاز خالياً من أي حضور لنظام ديني مسيحي ولأسقفيات. وهكذا على الرغم من الحضور المسيحي واليهودي في الجزيرة العربية، يرى جون سبنسر ترمنغهام أن الوثنية ظلت هي المعتقد الغالب على السكان هناك .

وتطبعت المسيحية في الحجاز بطبيعة البادية، وأصبح للعرب أساقفة يرحلون معهم سموهم «أساقفة المضارب». واشترك بعضهم بالمجامع الكنسية ووقعوا على أعمالها بهذه الألقاب «فلان أسقف أهل الوبر»، و«فلان أسقف القبائل الشرقية المتحالفة». وقد ذكر المؤرخ سوزمنوس منذ القرن الرابع «أن في بعض قرى العرب أساقفة» .

ونجد بمحيط مدن يثرب وخيبر والطائف وفدك وتيماء، وعلى طول الطريق التجاري المؤدي إلى الشام رهباناً نصارى وأديرة، وبرز من بينهم رهبان بني عذرة، وعلى الرغم من ذلك فإن المسيحية لم تكن ممثلة تمثيلاً مهماً من حيث العدد ومن حيث التنظيم .

هكذا أصبحت النصرانية معروفة، قبل دخول الإسلام، في كل جزيرة العرب، وكان أمراؤهم يحكمون مواضع كثيرة من أرض الحجاز ، ويذكر ابن هشام أن زعيم تميم واسمه الزبرقان بن بدر كان يتفاخر بكثرة بناء قبيلته للكنائس. ومن تميم أيضاً أسقف مسيحي يدعى محمد بن سفيان بن مجاشع، هو أحد الثلاثة الذين سمّوا محمداً قبل مولد الرسول العربي، وتقول المصادر الإسلامية: إن تسميتهم جاءت بناءً على نبوءة أحد الرهبان بمبعث رسول الإسلام .

المسيحية في مكة

كان هناك تجار مسيحيون يترددون على حوانيت مكة وتهامة، وعدد من العبيد وبائعي النبيذ يسكنون في مكة بطريقة مؤقتة، أو يمرون في عاصمة تهامة، أو جاؤوا للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة، وكان بعضهم على علم بالقراءة والكتابة، وقاموا بتنصير بعض من أهل مكة، ولقد كانت مكة عند ظهور الإسلام تحتوي على عدد كبير من العبيد، من جملتهم الأحباش النصارى .

أقر هنري لامنس في بحثه عن جذور المسيحية في مكة، بأن العدد الكبير للمسيحيين فيها ليسوا سوى أجانب من عرب الحيرة ونجران وأحباش وعبيد أفارقة . أما المسيحيون من أهالي مكة فهم حالات نادرة على الرغم من إشارة اليعقوبي إلى وجود النصرانية بين قريش إذ قال: «أما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش» ولكنه لا يذكر سوى اثنين فقط من القريشيين هما: ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث .

وورد في الأخبار أن بعض الرهبان والشمامسة جاءت إلى مكة. وقد كان بينهم من يقوم بالتطبيب .

من مشاهير العرب المسيحيين في أواخر العصر الجاهلي وبداية ظهور الإسلام «قس بن ساعدة»، الذي يعد من أشهر الخطباء في زمانه، والذي كان يعظ في سوق عكاظ قرب مكة .

هبت على مكة رياح فكرية من الشام تحمل الديانة المسيحية، التي انتشرت في أنحاء مكة، حتى إنها استطاعت أن تصل إلى جوف الكعبة ذاتها ، بعد أن اعتنقها بعض من بطون قريش ، وورقة هذا كان ابن عم السيدة

خديجة (رضى الله عنها) زوجة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد أصبح ورقة قساً ثم أسقفاً على شيعة النصارى .

ويذكر أن أهل مكة لما جددوا بناء الكعبة، رسموا على جدرانها صور الملائكة، والأنبياء، مع صور المسيح وأمه. وعند فتح مكّة، أمر سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بطمس تلك الصور، لكنه وضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه وقال: «امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي.

المسيحية في يثرب

وجد في يثرب جماعات مسيحية نزحت إليها إما للتجارة أو للتبشير، أو جماعات من الرقيق والموالي يقومون بخدمة ساداتهم، وهذا مما يفهم من قول الشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي (صلى الله عليه وسلم):

وتوثق الكنيسة النسطورية أنهم أقاموا مطراناً في يثرب وبنوا فيها ثلاث كنائس بأسماء الأنبياء (إبراهيم الخليل وموسى الكليم وأيوب الصديق)، وكان الكثير من قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب مسيحيين ينتسبون إلى الحارث بن ثعلبة من بني غسان.

المسيحية في دومة الجندل

تذكر المصادر الإسلامية أن الأكيدر بن عبدالملك السكوني الكندي ملك دومة الجندل كان نصرانياً، وأغلبية سكان دومة الجندل أهلها من بني السكون ومن بني كلب يدينون بالنصرانية وينتمون إلى قبائل قيدار الإسماعيلية وقبيلة سبأ وقبيلة كلب من قبائل قضاعة وهي من أثبت القبائل النصرانية، وكان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) قد تصالح معها على الجزية بعد أن فتحها خالد بن الوليد..

المسيحية في أيله (العقبة)

وكان لمدينة أيله (العقبة) «آخر بلاد الحجاز» شمالاً أسقف اسمه يوحنا بن رؤبة، لقب بأسقف أيله . وكانت أيله نصرانية، ويذكر أن «يوحنا بن رؤبة كان أسقف أيله وأنه قدم لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو في تبوك فصالحه على أن لكل حالم بها ديناراً في السنة» .

ونذكر من بين أعلام وملوك ورؤساء القبائل العرب المسيحيين:

أكيدر دومة الجندل: تذكر أمهات الكتب الإسلامية أن الأكيدر ملك دومة الجندل كان نصرانياً، ومعظم سكان دومة الجندل ينتمون إلى قبائل قيدار الإسماعيلية وقبيلة سبأ وقبيلة كلب من قضاعة . كان عليها أسقف. قال ابن هشام في حديثه عن غزوة تبوك: «ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى

أكيدر دومة. وهو أكيدر بن عبدالملك. رجل من كندة، وكان ملكاً عليها، وكان نصرانياً» ، وكان النبي قد تصالح معه على الجزية بعد أن فتحها خالد .

هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني: كان على النصرانية وهو من سادات بنى شيبان ومات على هذا الدين، أحد الشجعان الفصحاء في أواخر القرن الجاهلي، كان سيد بني شيبان. قيل: أدرك هانئ الإسلام ومات بالكوفة، ولكن لم يصح ذلك، قال المصرفي: (هو) «جاهلي لم يدرك الإسلام، وإنما المتوفى بالكوفة هانئ بن العروة» .

وذكر الأصفهاني في كتابه «الأغاني» أنه حدث في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقع فيه القتال بين العرب والفرس في العراق وانتصر فيه العرب. وكان سببه أن كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقد أوغر صدره عليه زيد بن عدي العباديّ لأنه قتل أباه عدي بن زيد، فلجأ النعمان إلى هانئ بن مسعود الشيباني فاستودعه أهله وماله وسلاحه، ثم عاد فاستسلم لكسرى، فسجنه ثم قتله. وأرسل كسرى إلى هانئ بن مسعود يطلب إليه تسليمه وديعة النعمان، فأبى هانئ دفعها إليه دفعاً للمذمة، فغضب كسرى على بني شيبان وعزم على استئصالهم، فجهّز لذلك جيشاً ضخماً من الأساورة الفرس يقودهم الهامرز وجلابزين، ومن قبائل العرب الموالية له، من تغلب والنمر بن قاسط وقضاعة وإياد ، وولي قيادة هذه القبائل إياس بن قبيصة الطائي، وبعث معهم كتيبتيه الشهباء والدوسر . فلما بلغ النبأ بني شيبان استجاروا بقبائل بكر بن وائل، فوافتهم طوائف منهم، واستشاروا في أمرهم حنظلة بن سيّار العجلي، واستقر رأيهم على البروز إلى بطحاء ذي قار، وهو ماء لبكر بن وائل قريب من موضع الكوفة .

كليب بن ربيعة التغلبي: ولد عام ٤٤٠، وتوفي عام ٤٩٤ حسب الكتب التاريخية، وهو شقيق المهلهل عدي بن ربيعة التغلبي (الزير سالم)، وأول من ملك قومه تغلب وبكر أبناء وائل وبعضاً من قبائل ربيعة من العدنانيين، ولقب بملك العرب ولفظ «الملك» لم يكن معروفاً بالعرب إلا قليلاً، وبعهده استطاعت العرب العدنانية حكم مناطقها في الجزيرة العربية، بعيداً عن السيطرة القحطانية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية.

تزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان كليب من خيرة فرسان بلاد العرب وكان ذكياً وقوياً، واستطاع النهوض بقبائل معد التي تعود لعدنان أو العرب العدنانية، وهي القبائل الأكبر من عدنان. ذلك بعد أن سيطرت القبائل القحطانية على العرب سنين عديدة، وبعد هزيمة مذحج القحطانية من قبل قبائل معد بقيادة كليب استطاعت معد مقاسمة السيطرة على بعض أجزاء الجزيرة. وحين فض كليب جموع مذحج في خزاز –وهو اسم لجبل ما زال يعرف باسم خزاز في نجد– وهزمهم فاجتمعت عليه معد كلها، وجعلوا له قسم الملك وتاجه

وطاعته، ثم بغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معدّ له، وكان ينزل القوم منازلهم ويرحلهم، فضرب به المثل في العز فقيل: أعز من كليب وائل. وكانت ديانته المسيحية.

حاتم الطائي: هو حاتم بن عبدالله بن سعد بن طي، يقال (أجود من حاتم)، حيث اشتهر بالجود والكرم، كما عرف حاتم بشعره البليغ والمتقن ، ولد حاتم الطائي وتوفي في الفترة التي سبقت انتشار الدين الإسلامي، فيعتقد أنه يعتنق الديانة المسيحية، وقد أعلن أبناؤه عدي وسفانة إسلامهما .

الثابت أنّ حاتم الطائي لم يسلم، وذلك استدلالاً لحديث الرسول مع سفانة ابنة حاتم الطائي، حيث روى عديّ بن حاتم عن الرسول (عليه الصلاة والسلام)، حيث قال: يا رسولَ اللهِ إنَّ أبي كان يصِلُ الرَّحِمَ وكان يفعَلُ ويفعَلُ قال: إنَّ أباك أراد أمرًا فأدرَكه –يعني الذِّكْرَ.

استقر حاتم الطائي في بلاد الجبلين أجا وسلمى، وهذه البلاد تسمى في الوقت الحاضر بمنطقة حائل، الموجودة في الجهة الشمالية من المملكة العربية السعودية، ويوجد له في هذه المنطقة العديد من البقايا التي تعود للقصر الخاص به، وللقبر الذي دفن فيه، بالإضافة إلى موقدته المشهورة في منطقة توران.

حيث ذُكِرَ أنّه توفي عام ثمانية للهجرة ولكنه قول غير دقيق؛ أمّا الرأي الأقرب إلى الصواب فهو أنّ حاتم عاش حتّى ولادة رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) وتوفي قبل البعثة النبويّة الشريفة؛ أي قبل عام ٦١٠ للميلاد، ودفن بحائل .

الحارث بن كلدة (طبيب العرب): كان من الطائف وسافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس ، وتمرن هناك وعرف الداء والدواء ، وبقي أيام رسول اللَّه (صلى الله علية وسلم) وأيام أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان (رضي اللَّه عنهم) وكان طبيب العرب.

يروى عن سعد بن أبي وقاص (رضي اللَّه عنه) أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول اللَّه (صلى الله عليه وسلم) فقال: ادعوا له الحارث بن كلدة، فإنه رجل يتطبب، فلما عاده الحارث نظر إليه وقال: ليس عليه بأس، اتخذوا له فريقة بشيء من تمر عجوة وحلبة يطبخان فتحسّاها فبرئ . وكانت للحارث معالجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة. والحارث بن كلدة الثقفي له العديد من الكتب منها: كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان، كانت وفاة الحارث بن كلدة بسبب السم، وأقرب ما جاء في سبب وفاته أنه مات مسموماً ، فقد روى ابن جرير الطبري والحاكم وابن سعد في سبب وفاة أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، أهدي لأبي بكر طعام مسموم فأكل منه هو والحارث بن كلدة فماتا بعد سنة بسببه.

٣- الديانة المجوسية:

كانت عبادة النار المعروفة بالمجوسية من بين العبادات التي اعتنقتها بعض القبائل العربية ومنهم زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة، ومنهم أيضا قوم الاقرع بن حابس وأبو الأسود، جد وكيع بن حسان . وقد انتقلت عبادة النار من بلاد الفرس الى حليفتهم الحيرة، التي تقع في شرق بلاد العرب، ذلك ان فريقا من المؤمنين بعبادة النار انتقلوا الى الحيرة ومارسوا طقوسهم في عبادتها، فلما راي أهلها نارا تعظم وهم عاكفون على عبادتها سألوهم عن خبرها، ووجه الحكمة في عبادتها، فاخبروهم بأشياء اجتذبت نفوسهم الى عبادتها، وانها واسطة بين الله وبين الله وبين خلقه وانها من جنس الالهة النورية .

ولما كانت مملكة الحيرة على اتصال دائم بباقي انحاء جزيرة العرب من خلال القوافل التجارية وعقد الأسواق والروابط والتحالفات، فقد عرفت هذه العبادة طريقها الى جهات متفرقة من بلاد العرب، فضلا عن الجاليات الفارسية المجوسية التي اقامت في المدن العربية الكبرى وكانت تمثل حكوماتها لدى الملوك والامراء وسادة القبائل العربية. فكان في اليمن طائفة من المجوس اشتركت الى جانب أهلها في طرد الحبش منها، كما كان في حضرموت والجهات الشرقية من الجزيرة جماعات اخ منهم.

كان المؤمنون بعبادة النار من العرب يرون فيها قدرة فريدة تأثرت بها حياتهم ومعيشتهم، ولعل اقربها الانتفاع بها في طهي طعامهم والتدفئة في ليالي الشتاء القارسة التي يتصف بها الجو القاري لباديتهم، كما استخدموها في انارة طريقهم في اسفارهم الطويلة في رحلتي الشتاء والصيف، وفي مواسم الحج. ذكر ان قصي بن كلاب كان يوقد النار على المزدلفة حتى يراها من دفع عن عرفة . وقد صار للنار شان كبير في تحالفاتهم وروابطهم فاذا عقد حلفا بين قبيلتين احضروا نار التحالف واتفقوا على اليمين، ثم حلفوا على النار والقوا عليها ملحا وكبريتا.

وكانت تلك النار معروفة في اليمن وهي مستعرة دائما ولها سدنة يقومون بأخذ اليمين ويسمون تلك النار ((هوله)) و((المهولة)) . وذلك لقدسيتها ومكانتها في اعتقادهم، يقول ابن الاثير: ((وكانت لهم (اهل اليمن) نار تحكم بينهم فيما يزعمون تاكل الظالم ولا تضر المظلوم)) . وكذلك كانت تلك النار مهابة في نفوسهم لا يحلف بها اهل الباطل لخشيتهم من فتكها بهم، ومن ناحية أخرى كانوا يشعلون ((نار الاستمطار)) عندما يحيق بهم الخطر نتيجة الجدب والجفاف. الذي كثيرا ما كان يصيبهم، فيشعلونها ويستغيثون بها لينزل الغيث.

كذلك استعملوا النار في اتقاء شر قوم يخشون باسهم فكانوا يوقدون النار في اثرهم ليتحول شرهم عنهم. ويحيق المكر السيء باهله، اعتقادا منهم بقدراتها الخارقة. كما كان ايقاد نار الغدر ونار السلامة من بين الطقوس الدينية التي عرفت في جزيرة العرب، فنار الغدر كانت توقد بمني أيام الحج على احد الاخشبين، جبلي مكة – ابي قبيس والاحمر – فاذا استعرت، صاح موقدها: هذه غدرة فلان ليحذره الناس وليعلموا ان فلانا قد غدر

بجاره، وذلك لان الغدر كان من اقبح الرذائل عند العرب ويعد من صفات الذل والعار والاثم في الدين. واما نار السلامة فكانت توقد للقادم من سفره عند عودته سالما غانما .

وفضلا عن ذلك كان هناك النيران التي توقد من اجل الاهلاك فمنها نار الطرد ونار السلم، فنار الطرد توقد للدعاء على شخص لا يراد عودته، فيشعلونها ويقولون: ((ابعده الله واسحقه، واوقد نارا في اثره))، اما نار السلم فكانت توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط، ولمن عضه الكلب لكي لا ينام الشخص فيشتد به الامر ويؤدي الى الهلاك .

وكانت الزندقة من بين الديانات التي اعتنقها بعض العرب ووجدت لها اتباعا في قريش، الذين اخذوها من الحيرة المجوسية، والزنادقة هم القائلون ببقاء الدهر ولا يؤمنون بالأخرة ولا بوحدانية الله عز وجل، ويسخرون من الاعتقاد في البعث بعد الموت ويرون استحالته وليس ادل على وجود هذه الطائفة في بلاد العرب من ان أشار اليها القران الكريم في قوله تعالى: { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية: ٢٤] .

والاصل في الزندقة عند الساسانيين الخروج والانشقاق على الديانة المزدكية وتعاليم مزدك، غير انها اطلقت فيما بعد على الشعوبيين الذين كانوا مجوسا او من اصل مجوسي فاسلموا وكانوا يبطنون غير ما يعلنون، وقد عرفوا بالموالي الحمر في العصر العباسي.

المحاضرة التاسعة:
جوانب من الحياة الاقتصادية للعرب قبل الاسلام..... أ.د. عباس فضل حسين

ما كان للعرب صناعةٌ سوى ما كانت تغزل نساؤهم، وما كانُوا يحيكونه ويدبغونه في اليمن، والحيرة، ومشارف الشام، وتناثرت بقاعٌ متفرقة يشتغل أهلُها بالزِّراعة، أمَّا الرَّعي فكان مهنة منتشرة-على شقائها-لقلةِ الكلأ ونُدرةِ العشب، وانصرف العَرَبُ إلى التِّجارةِ، فكانت أكبرَ وسيلةٍ للتكسب والرِّزقِ، وشهدت أرضُ الجزيرة رحلاتهم الدَّائبةَ شمالاً وجنوبًا، صيفًا وشتاءً، إلى الشام و كعكاظ، اليمن، ترويجاً لتجارتهم المهمة، التي كانُوا يعتمدُون عليها، ويُقيمون لها الأسواقَ الشَّهيرةَ: وذي المجاز، ومجنة، وغيرها, إلا أن تجارتهم هذه، وأسواقهم تلك ،كانت تتهددها حروبُهم الدَّائمةُ، ومعاركهم الشرسة، وقبائل متناثرة في الصحراء، لا تعرف لها حرفةً سوى قطع طريق القوافل ونهبها، لذا فإنَّ تجارتهم الخافتة ما كادت تضيء إلا في الأشهر الحرم، وكان أهلُ الحجاز-العرب واليهود- يتعاطون الرِّبا، ويبالغون فيه مبالغة شديدة، ولا يعتبرونه غُبناً أو منقصة خُلُقٍ, إنما يرونه تجارةً محضةً، فقد سرت فيهم سريانَ الحياةِ الطبيعيةِ.
أمَّا الأحوالُ الاقتصاديةُ في شبه جزيرة العرب، فقد كانتِ البادية تعتمد على الاقتصاد الرعوي، فالقبائل العربية تستقر في الأماكن التي يتوفر فيها الماء وتصلح لرعي الإبل والأغنام والماعز. وعندما يشح الماء فإنها تضطر للانتقال مما يجعلها في حروب مع بعضها للحصول على المورد الأفضل. وتوجد في شبه جزيرة العرب واحات زراعية متناثرة يستقر فيها السكان لكنها عرضة لغزو البدو لها. ويقوم في المدن نشاط تجاري وزراعي وصناعي، وقد يغلب عليها نوع من هذه النشاطات، فمكة كان يغلب عليها النشاط التجاري لأنها تقع بواد غير ذي زرع ، وتتحكم بطرق التجارة بين اليمن والشام حيث تمر القوافل محملة بالتوابل والبخور والعطور، وقد استفادت مكة من مكانة الكعبة الدينية عند العرب في حماية قوافلها التجارية وعقد\"الإيلاف\"مع القبائل التي تجتاز ديارها، واشتهرت برحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن.
أما المدينة-وكانت تعرف قبل الإسلام بيثرب-فكان يغلب عليها الاقتصاد الزراعي حيث اشتهرت ببساتين النخيل والأعناب والفواكه الأخرى والحبوب و الخضروات .أما الطائف فقد غلبت عليها الزراعة وخاصة بساتين الأعناب والفواكه و الخضروات، وكذلك الصيد حيث تتوافر فيها الحيوانات البرية كالبقر الوحشي والحمار الوحشي والغزلان والظباء والأرانب. وأما اليمامة فاشتهرت بزراعة القمح الذي كان يزيد عن حاجاتها فتصدر منه إلى الحجاز. وأما اليمن ففيها زراعة واسعة ومناطق رعوية طبيعية إضافة إلى قيامها بالنشاط التجاري الكبير بنقل التوابل والبخور والعطور, والأبنوس, والعاج, والحرير, من الهند, إلى بلاد العرب, والشام. وكانت السواحل الشرقية لشبه جزيرة العرب تربط تجارة الصين والهند بالهلال الخصيب (العراق وسوريا).وكانت شبه جزيرة العرب تستورد الدقيق والزيت والأقمشة من الشام، كما تستورد التمور

والأُدم من العراق. وقد ساعدت أسواق العرب في الجاهلية على نشاط التبادل التجاري، واشتهرت منها أسواق عكاظ, ومجنَّة, وذي المجاز, ودومة الجندل, ونطاة-بخيبر-وبدر, وحباشة. واستعمل العرب الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي في التبادل التجاري ،كما استعملوا المكاييل والموازين ومقاييس الطول في عمليات البيع والشراء. أما الصناعة في شبه الجزيرة العربية، فقد اشتهرت اليمن بصناعة البرود اليمانية. وعُرفت المدينة بصياغة الحلي الذهبية والفضية وصناعة السيوف والرماح والقسي والنبال والدروع والحراب ،كما قامت في المدن العربية حرف التجارة, والحدادة, والصياغة, والدباغة، والغزل, والنسيج، والخياطة، والصباغة. ولكن معظم الحرفيين كانوا من الموالي والعبيد ولم يكونوا عرباً. وقد شاع التعامل بالربا في مكة والطائف ويثرب ونجران، ومارسه اليهود وانتقل منهم إلى العرب، وكان على نوعين: ربا النسيئة، وهو زيادة المبلغ على المدين مقابل تأجيل الدفع. وربا الفضل وهو الزيادة التي تترتب على بيع العينات المتماثلة بسبب اختلاف جودتها. وكانَ الرِّبا يُؤخذ أضعافاً مضاعفة، وقد حَرَّمَهُ الإسلامُ بنوعيه ،قال-تعالى-{وأحَلَّ اللهُ البيعَ وحرَّم الرِّبا }البقرة ٢٧٥.وكان العرب يعرفون أنواعاً من المعاملات المالية كالقراض, والمضاربة, والرهن، وكان الغرر يحيط بكثير من عقود البيع والشراء كالمنابذة, والملامسة, والنجش, وبيع الحاضر للبادي. وكذلك كان الاحتكار يدخل في معاملاتهم التجارية، كما تفرض °عليها المكوس الباطلة. وقد حرَّم الإسلامُ البيوعَ التي فيها غَرَرٌ أو ضَرَرٌ كَمَا حَرَّمَ الرِّبا والاحتكارَ تحقيقاً للعدلِ بينَ النَّاسِ .فَعَاشَ النَّاسُ في خيرٍ, ورَفَاهِيةٍ, لما تمسكوا بهدي الإسلامِ في سياستِهم واقتصادِهم، وأصابهم الضَّنكُ والضِّيقُ لمَّا تنكبوا الصِّراطَ المستقيمَ

فيغلب عليها نستنتج مما سبق أن بلاد العرب بأقسامها الآنفة الذكر لم يكن فيها اقتصاد ذو قيمة تُذكَرُ أنها بَوَادٍ, صحراويَّةٌ، إلا ما كان من بلاد اليمن فقد كانت بلاداً خِصبةً في الجملةِ, ولاسيما أيام سد مأرب حيثُ ازدهرتِ الزِّراعةُ والفِلاحةُ عامة بصورةٍ, تدعُو إلى العجب، وقد ذكرها في القرآن الكريم إذ قال-تعالى-:{ لقد كان لسبأٍ, في مسكنهم آية ..... } سبأ، الآية:١٥. فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله فسلبهم الله-تعالى-ما أعطاهم فخرب سدهم، وأحدبت أرضهم، ورحل عنها أكثرها فالتحق بعضهم بالعراق, وبعضهم بيثرب ومنهم الأوس والخزرج, وآخرون بالشمال والشام. ومع هذا فقد وجدت في اليمن صناعات فاخرة في وقتها كصناعة الكتان, والسلاح من سيوف وحراب ودروع وغيرها. هذا بالنسبة إلى أهل اليمن، أما القبائل العدنانية فكان جلها يعيش في الصحراء ينتجع الكلأ والعشب لماشيته ويعيش على ألبانها ولحومها إلا ما كان من قبائل قريش القاطنين بالحرم فإنهم يعيشون على رحلتي الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام، وقد امتن الله تعالى ذلك عليهم في قوله : { لإيلاف قريش ... } فكانوا في رغد من العيش، على خلاف غيرهم ، فإنهم كانوا يعيشون على شظف العيش وضيقه، وما كان لقريش من سعة الرزق إنما كان لها من أجل حماها للحرم وتقديسها له، كما هو كرامة الله لأرحام وأصلاب ينتقل فيها رسول الله-صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلم.

لكن الأمر يختلف بالنسبة للحضر؛ ذلك أن التجارة هي التي حظيت بالاهتمام في المجتمعات الحضرية، فأقبل القوم عليها إقبالًا شديدًا إلى درجة أن المؤرخ اليوناني "سترابون" الذي اهتم بأحوال العرب في الجاهلية، كان يرى أن كل عربي فيها تاجر أو دليل . ويقول "درمنجهايم": إن العرب كانوا الرواد الأوائل للتجارة العالمية، ولم يكن باستطاعة الرومان القدماء الاستغناء عنهم في هذا الميدان. وبلغ من أهمية التجارة لديهم أن الملوك والزعماء كانوا أحيانا تجارًا، فملوك المناذرة كانوا يرسلون اللطائم "القوافل التجارية" إلى أسواق الحجاز في كل عام، كما كان ولاة الأمر في تدمر قد مارسوا التجارة، وكذلك علية قريش ورؤساؤها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التجارة كانت العامل المهم في نشوء دول الشمال العربي. وكان أثرها كبيرًا على أوضاع دول الجنوب العربي، من حيث تذبذب عواصمها، وانتقالها تبعا لانتقال الأهمية التجارية من مكان إلى آخر، حتى إن سقوط بعض الدول ونشوء غيرها، سواء في الجنوب أو في الشمال، كان على الغالب مبنيا على أساس ازدهار التجارة في الدولة الجديدة الناشئة، وانحطاط التجارة لدى الدولة الزائلة؛ بسبب تحول الطرق التجارية عنها، وانحيازها إلى الدولة الناشئة.

وفضلا عن ذلك، فإن العامل التجاري قد كيَّف سياسة الدول الأجنبية المحيطة بشبه جزيرة العرب، وحدد موقفها تجاه بعض الدول التي قامت فيها، إذا طمعت فيها كل ن بيزنطة والحبشة وفارس الساسانية، وصممت إما على انتزاع مقاليد التجارة من يدها، بالسيطرة على المسالك التجارية المهمة التي تصلها بالشرق الأقصى، أو باختلالها. والواقع أن بعض أطراف شبه الجزيرة قد رزحت تحت الاحتلال الحبشي، أو تحت احتلال دولة الفرس الساسانية.

تجارة مكة:

يقول "درمنجهايم": إن الازدهار التجاري الذي تصيبه شبه جزيرة العرب بعامة ومكة بخاصة، كان مرتهنًا بطريق الهند، فبحسب أن يمر الطريق إلى الهند من الشمال، عبر وادي الرافدين، فارس، أفغانستان، أو من الجنوب والغرب، عبر شبه جزيرة العرب والخليج العربي واليمن، يكون العرب إما فقراء أو أغنياء.

والواقع أن مكة قد استفادت من وقوعها على طريق الهند، ذلك أن القوافل التجارية الآتية من اليمن ببضائع الهند والذاهبة إليها، كانت تمر فيها بوصفها محطة تجارية لا بد لها من النزول فيها. كما أعان على ازدهار مكة وارتقائها، من محطة تجارية إلى مدينة عامرة، تدهور العلاقات بين حكام فارس وحكام بلاد الشام البيزنطيين، ونشوب حروب طويلة بين الطرفين في القرنين اللذين سبقا ظهور الإسلام، مما أدى إلى تعطيل التجارة بين بلاد الشام والهند عبر إيران وأفغانستان، وإلى انتقال النشاط التجاري إلى شبه جزيرة العرب، وبخاصة ساحلها الغربي الواقع على البحر الأحمر، فاتجه المكيون إلى التجارة وانصرفوا إليها بكليتهم، لا سيما وأن سقوط اليمن في أيدي الأحباش قد أدى إلى خروج مقاليد التجارة من أيدي اليمنيين، وانتقالها بطبيعة الحال إلى أيدي المكيين،

فعوضتهم التجارة ما حرمتهم الطبيعة من موارد الزراعة؛ بسبب كون الحجاز إقليمًا يسوده الجفاف والفقر في النبات.

أسهم المكيون بالإضافة إلى نشاطهم التجاري الداخلي، في التجارة العالمية، فتاجروا مع مصر والحبشة، عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء الشعيبة الذي كان ميناء لمكة في لعهد الجاهلي ، ومع اليمن لا سيما بعد أن نظم هاشم بن عبد مناف رحلتي الشتاء والصيف، الأولى إلى اليمن والثانية إلى الشام، فجعلهما منتظمتين. وكان لقريش عداهما رحلات تجارية تسير في أوقات مختلفة غير معينة، فأرسل المكيون قوافلهم إلى أسواق الحيرة، كما أرسلوها إلى الشام، يحملون إليها بضائع الهند من مجوهرات وتوابل وأفاوية وأقمشة نادرة، وبضائع الصين من ملابس حريرية مترفة للأباطرة والرهبان ورجال البلاط ومن عطور, وبضائع شرقي إفريقيا من ريش نعام وعاج ومسحوق الذهب وصموغ للكنائس، علاوة على صادرات الجنوب العربي من بخور ولبان ومر وجلود ومعادن ثمينة وعطور ، ويعودون منها بالحبوب والزيوت والخمور، والمنسوجات القطنية والكتانية والحريرية، وحتى بالأسلحة التي كانت بيزنطة تفرض الحظر على تصديرها، فيلجأ العرب إلى تهريبها. وكان ارتحال القوافل أو قدومها يثير ضجة عظيمة في مكة، فما أن يعلن عن قدوم إحداها حتى يهب سكانها في شبه هيجان، ويستقبلوها بالدفوف والهتافات .

لم تكن تجارة قريش ضيقة المجال، بل كانت عظيمة الاتساع، ولم تكن قوافلها ملك أفراد، بل كانت تعبيرا عن آمال مدينة بأسرها، تحمل أموالا لأهل مكة جميعا، منهم من يسافر معها، ومنهم من يستأجر رجالًا يقومون بهذه المهمة، ويسهم الجميع في رأس مالها. وقد تبلغ قيمة أسهم أحدهم كأبي أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية، وهو من أبرز أثرياء مكة، ثلاثين ألف دينار، وقد لا يتجاوز سهم أحد الفقراء منهم نصف دينار. ويصل عدد الإبل السائرة فيها إلى أكثر من ١٥٠٠ بعير شاهد "إسترابون" إحداها فقال: إنها أشبه بجيش سائر، إذ يرافقها حراس يتراوح عددهم بين ٢٠٠-٣٠٠ مسلح.

والواقع أن تجارة قريش كانت تسير بقوافل لضمان حماية الأموال، إذ يرافقها رؤساء وحراس وأدلاء يقل عددهم أو يكثر، بحسب قلة الأموال الثمينة التي تحملها أو كثرتها ويختار الأدلاء من القبائل التي تمر القافلة في أراضيها؛ لأنهم أعلم بطرقها من غيرهم، وأكثر خبرة بمواطن الماء والكلأ، وأكثر علما بمكامن الخطر الذي قد تتعرض له القافلة، كوجود عوارض طبيعية، يمكن أن يتخذها اللصوص وقطاع الطرق كمائن للإغارة عليها.

كما يحرص المكيون أن يكون رؤساء القوافل وحراسها من الشجعان القادرين على تأمين حمايتها. ويعقدون الاتفاقات مع رؤساء القبائل التي تمر القوافل في أراضيهم، ويدفعون لهؤلاء الرؤساء إتاوات وهدايا كي يسمحوا لها بالمرور, ويتعهدوا بحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق، حتى إذا تعرض للقافلة أحد من هؤلاء بسوء، كان من واجب الرئيس المتعاقد معه، والذي يقع الاعتداء في

منطقته، أن يتعقب المعتدين ويؤدبهم، وأن يعيد الأشياء المنهوبة إلى أصحابها، وكان التجار يضيفون مبالغ هذه الإتاوات والهدايا إلى أسعار مبيع البضائع، الأمر الذي يجعلها غالية الثمن.
وكثيرا ما كان أصحاب البضائع يلجئون إلى الوسائل المعنوية لحماية تجارتهم، مثل تقديم الهدايا والقرابين للآلهة عند مغادرة قوافلهم أو عند عودتها، وقد اتخذ بعض الأقوام كالأنباط والتدمريين إلهًا خاصًّا لحماية القوافل: "ذو الشرى" عند الأنباط و"ساعي القوم" أي حامي القوافل عند التدمريين.
ويعقد القائمون على الحكم العهود والمواثيق مع رؤساء وحكام الدول المحيطة بهم، التي تقصدها قوافلهم، وهي التي تخولهم حق المرور في أراضيهم والاتجار فيها، وتوفير الأمان لها وحسن الجوار. وهذا هو الإيلاف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم: {لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} ، أشبه شيء بالاتفاقات التجارية التي تعقد بين الدول في أيامنا الحاضرة، ووفقا لهذه العهود يتاح للتجار القرشيين التنقل في البلاد التي تعقد معها دون أن يعترضهم أحد، كما يتاح لأي دولة منها إذا شاءت أن تراقب الوافدين إليها. فالقوافل العربية التي كانت تقصد الشام كانت تتسوق من أسواق عينتها الحكومة البيزنطية لتحصِّل منها الضرائب، ولتراقب الوافدين الأجانب إلى بلادها.
قد اعتمد الروم البيزنطيون على تجارة مكة في كثير من شئونهم ووسائل ترفهم، لا سيما الحصول على الأقمشة الحريرية المزركشة الموشاة، ولم يكن بوسعهم الاستغناء عما يأتونهم به. وقد ذكر بعض مؤرخي الغرب أنه كان للبيزنطيين بيوت تجارية في مكة، يستخدمونها للشئون التجارية وللتجسس على أحوال العرب .
وتقاسم بنو عبد مناف النشاط التجاري في مختلف البلدان المجاورة، فكان هاشم الذي يروى أنه قد حصل على عهد أمان من القيصر البيزنطي لتجار مكة، يذهب إلى الشام، وعبد شمس الذي حصل على عهد مماثل إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكل منهما حصل على عهد "إيلاف" من كل من ملكي اليمن وفارس .
وقد نشطت التجارة في عهد عبد المطلب بن هاشم، وازدهرت مكة وأصبحت مركزًا للصيرفة، كما يقول المستشرق "أوليري" ويمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التي يُتَّجر بها مع بلاد بعيدة، وكانت عمليات الشحن والتفريغ للتجارة الدولية تتم في مكة، ويجري فيها التأمين على التجارة عند نقلها من مكة إلى مختلف الجهات عبر طرق محفوفة بالمخاطر . وقامت طبقة من الصيارفة، يؤمنون للتجار عملات الدول الأجنبية التي يتعامل معها القرشيون.
ومثلما كان لبيزنطة وفارس، وربما للحبشة أيضا، ممثلون تجاريون في قلب مكة، كان لمكة أيضا وكلاء تجاريون في أماكن مختلفة مثل غزة والشام ونجران. كما كان يأتي إلى مكة تجار أجانب من روم وفرس وغيرهم سكنوا فيها، وخالطوا أهلها وتحالفوا مع أثريائها، وأقام بعضهم فيها لقاء جزية سنوية يدفعونها لهم؛ لتأمين حمايتهم ولحفظ أموالهم وتجارتهم، وقد اتخذ بعض التجار الأجانب مستودعات فيها لخزن بضائعهم التي يأتون بها كالقمح والزيت والزيتون والخمور.

ومما يدل على اهتمام الحجازيين بالتجارة كثرة الكلمات والعبارات المجازية التي وردت في القرآن الكريم، سواء فيما يتعلق بالتجارة مثل: الحساب والميزان والقسط والمثقال والذرة والقرض والربا والدينار والدرهم ... إلخ, أو فيما يخاطب التنزيل الحكيم قريشًا باللغة التي تفهمها وهي التجارة، من ذلك الآيات الكريمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} ، و {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين} ، {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَة}. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة مماثلة.

وحتى نساؤهم قد اشتغلن في التجارة، واشتهرت منهن عديدات مثل: خديجة بنت خويلد التي كانت تستأجر الرجال للذهاب بعروضها التجارية إلى الشمال، وهند بنت عبد المطلب، والحنظلية أم أبي جهل التي كانت تتاجر بالعطور، تستوردها من اليمن.

يقول "درمنجهايم": إن القرشيين قد تميزوا عن العرب جميعًا بحسن تذوقهم للعمل التجاري، فدعموا عملياتهم التجارية بتنظيم مالي ومصرفي مدهش، واستعملوا عملات مختلفة منها الدينار البيزنطي، الذي كان له المقام الأول في شبه الجزيرة، ومنها عملات يونانية أو فارسية "الدرهم الفضي الفارسي"، أو حميرية كما كان لهم موازين عامة، ويعتقد بأنهم استعملوا الميزان ذا الكفتين كما يستدل من بعض الآيات الكريمة، ومكاييل "صاع، مد، ربع صاع" أشار إليها القرآن الكريم. وكان لهم موازين خاصة دقيقة يزنون بها.

لسبائك الذهبية الخام، ومكاييل خاصة يكيلون بها مساحيق الذهب. وقد عمد التجار المكيون إلى استعمال دفاتر حسابات تولوا مسكها، كما استعملوا أختامًا وأساليب معقدة، ورموزًا في الكتابة كانت تثير تهكم البدو لجهلهم بها .

لم يكن التجار القرشيون يجمدون أموالهم الفائضة، بل كانوا يوظفونها في مشاريع استثمارية خارج الحجاز. فقد كان آل أبي ربيعة يشغِّلون أنوالًا لنسج الحرير في اليمن، وكان لأبي أحيحة الثري الكبير أموال موظفة في مشروعات زراعية في الطائف، ولأبي سفيان أملاك وولايات تجارية في شرق الأردن وفلسطين، ولعقبة بن أبي معيط مركز تجاري في مدينة صفورية بفلسطين.

ومن الدراسات التي قام بها بعض المستشرقين يستدل على أن تجار مكة كانوا يراعون بعض المعاملات التجارية المالية، ويذكر الباحثون بعض الطرق التي كانوا يتبعونها، مثل طريقة عقد القرض، وطريقة الشراكة والمضاربة، إذ كانت تكتب بها صكوك، فيقدم امرؤ مالًا ويأخذ ربحًا، فيصبح شريكًا مضاربًا، دون أن يشترك في العمل.

وثمة طريقة للمضاربة هي أشبه بالميسر، وكانت تؤدي في كثير من الأحيان إلى الإفلاس والفقر، كأن يضارب التاجر على أسعار البضائع الأجنبية قبل ورودها، أو على قدوم القوافل في مواعيدها أو متأخرة، أو يبيعون ويشترون الثمار قبل نضجها وقطافها. وكثيرًا ما كان الفقراء أو البدو البسطاء ضحية أساليب الغش التي يلجأ إليها التجار من ذوي الضمائر الفاسدة، أو الصيارفة الجشعون الذين

كانوا يقرضون المال بفائدة فاحشة تزيد على ٥٠ في المائة أو حتى مائة في المائة، أو السماسرة والوسطاء المريبون الذين يبتغون جمع الأموال دونما حاجة إلى رأس مال ، كما كانوا فريسة للمزورين الذين يكتبون بالقروض المؤداة إلى المدين مستندات يسجلون فيها ضعف المبلغ الذي يؤدونه له، والذين كانوا يستعملون أساليب لا حصر لها في الخداع والغش، فيحصلون على فوائد القروض مضاعفة، وتضاعف كلما تأخر المدين عن أداء الدين السابق، وهو الذي عبر عنه التنزيل الحكيم باسم "الربا" وحرمه

وقد وجد في مكة أثرياء كبار نعموا بالحياة الدنيا وغرقوا في الترف، مثل عبد الله بن جدعان، الذي لم يكن يشرب إلا بكأس من الذهب فعرف باسم "حاسي الذهب", والوليد بن المغيرة المخزومي، وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال، وأبو أحيحة الذي أورث بناته أموالًا طائلة، فأصبحن من أغنى أغنياء مكة، وعبد المطلب بن هاشم الذي بلغ ثمن الحلل التي كُفِّن بها ألف مثقال من الذهب، وطرح على جثمانه المسك حتى غمره .

ومن التجارة التي راجت في مكة تجارة الرقيق، فأصبحت أكبر سوق لها. كما اصطبغت مكة بصبغة دولية؛ لكثرة ما كان يرتادها من غرباء جاءوا من أمم ومن أصقاع مختلفة، وأصبحت تعج بهم عجًّا، بينهم فرس وروم وأحباش وزنوج، كما كان منهم النصارى واليهود، يشكلون جاليات جاء أفرادها للتجارة أو للعمل اليدوي في البناء والزراعة والصناعة، أو جاء بعضهم هربا من الاضطهادات الدينية في بلادهم الأصلية، مثل المسيحيين واليهود، وهذا ما يفسر لنا ما دخل لغة قريش من ألفاظ رومية أو فارسية أو حبشية أوغيرها.

أسواق العرب:

كان للعرب أسواق تجارية عامة، يقصدها الناس من شتى أنحاء شبه الجزيرة للبيع والشراء. وقد اختيرت لها الأماكن المناسبة، من حيث الاتساع والقرب من المدن المتحضرة وتوفر الماء. وهي تكون عادة محاذية للسواحل، حيث المنخفضات التي تتجمع فيها السيول الهابطة من المرتفعات المجاورة، أو مجاورة للوديان التي تتوفر فيها الينابيع، أو متمركزة في واحات هي في الوقت نفسه محطات للتزود بالغذاء والماء، ومراكز تجارية ترتادها القوافل للبيع والشراء والراحة. ولم يكن عرب شبه الجزيرة فقط هم الذين يقصدون هذه الأسواق، بل كان يأتيها تجار من خارج البلاد. فقد كان الروم مثلا يتوغلون إلى مسافات بعيدة في أراضي العرب الشاسعة للبيع والشراء.

من هذه الأسواق ما هو دائم، ومنها ما هو موسمي موقت، يعقد في شهر معين من السنة، ومنها ما هو عام يرتاده العرب من شتى أنحاء شبه الجزيرة، أو ما هو محلي يتم فيه التبادل بين التجار والبدو المجاورين. ومع أن هذه الأسواق أقيمت لغاية أساسية هي التجارة وتبادل السلع المختلفة من طعام وشراب وثياب وسلاح وخيل وإبل، غير أنها لم تكن تقتصر على هذا الأمر، بل كان الشعراء والخطباء والمبشرون الدينيون من مسيحيين وغيرهم, يقصدونها للمباراة في الشعر والخطابة وبث الدعوات الدينية. ومما يروى أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يخرج إلى هذه الأسواق، ويعرض دينه على القبائل العربية التي ترتادها لهدايتهم. وربما جاء أحدهم ليبحث عن غريم، أو عن عبد هرب من داره، أو عن دابة سرقت له ، أو يسعى في فداء أسير من ذويه.

وفي هذه الأسواق، لا سيما في سوق عكاظ، كان العقلاء ينتهزون فرصة التقاء الزعماء من شتى القبائل؛ ليوفقوا بين المتخاصمين منهم والمتنازعين، وليصلحوا بين قبيلة وأخرى تقتتلان، وتحل المشاكل الموجبة للنزاع من دفع ديات، أو وفاء بالتزامات، أو دفع ديون. كما تعقد فيها عهود الجوار والمحالفات، وتعلن فيها القرارات التي تتخذها القبائل لخلع السفهاء من أفرادها.

وكانت الأسواق منتشرة في جميع أنحاء شبه جزيرة العرب, وموزعة على أيام السنة كلها بوجه التقريب. يقول القلقشندي : "كان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها سائر قبائل العرب من بَعُدَ منهم ومن قَرُبَ، فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء، فيعشرهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب، فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر. ثم ينتقلون إلى سوق هجر، من البحرين، في شهر ربيع الآخر فتقوم أسواقهم بها. وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم، ثم يرتحلون نحو عمان بالبحرين، فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون عدن من اليمن أيضًا، فيشترون منه اللطائم وأنواعالطيب، ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها إلى صنعاء، ثم تقوم أسواقهم بها، ويجلبون منها الخرز والأدم والبرود، وكانت تجلب إليها من معافر، ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار ويتحاجون، ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم، وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التميمي، ثم يقيمون بعرفة ويقضون مناسك الحج، ويرجعون إلى أوطانهم".

إن أشهر أسواق شرقي شبه الجزيرة العربية: سوق "المشقَّر" بالبحرين قرب هجر، وكان يرتادها ساكنو الجهات الشرقية والغربية من شبه الجزيرة, كما يرتادها تجار الهند وفارس. ويرتاد هؤلاء سوقًا أخرى في

البحرين هي سوق هجر. وفي عمان وجد سوقان إحداهما سوق "دبا" وكانت مقصد الصينيين والهنود إلى جانب من يقصدها من سكان شبه الجزيرة، والأخرى سوق "صحار".
واشتهر في جنوبي شبه الجزيرة العربية: سوق "الشحر" في المهرة، وسوق "عدن" وسوق "الرابية" بحضرموت وسوق "صنعاء" في اليمن. وفي شمالي شبه الجزيرة سوق "دومة الجندل" وتقع على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريبًا، وبالقرب من جبلي طيء "أجأ وسلمى"، وكان يتنافس على رئاستها كل من أكيدر العبادي من السكون، وقنافة من بني كلب أيهما كانت له الغلبة عشَّر السوق. وأكيدر هو صاحب حصن دومة الجندل الشهير, وقد دهمه خالد بن الوليد بمناسبة وقعة تبوك، وتغلب عليه فأسلم بعدئذٍ. كان البيع يجري في هذه السوق بطريقة "بيع الحصاة" ولم يكن أحد ممن يرتاد السوق يشتري أو يبيع حتى يبيع "الأكيدر"، ملك السوق، كل شيء يريد بيعه، ثم يشرع في استيفاء المكس على بيوع رواد السوق .
أما غربي شبه الجزيرة، ولا سيما الحجاز، فقد حفل بكثير من الأسواق، وكان السبب في كثرتها أولًا: وجود الكعبة كمركز ديني يستقطب الوافدين إليه لإقامة الشعائر الدينية، وبالمناسبة للقيام بالأعمال التجارية في أسواق أقيمت لمد الحجاج بما يحتاجون إليه. ثانيًا: وقوع حواضره المهمة على المسالك التجارية المارة من الجنوب إلى الشمال. ثالثًا: لأن المنطقة متعددة الفعاليات، ففيها تجارة قريش المزدهرة، وبعض الواحات والحرات التي يتعاطى أهلها الزراعة، وتكثر فيها الغلات، وتقوم فيها بعض الصناعات، كما في يثرب وفدك وتيماء وغيرها من الحرات التي سكنها اليهود. وقد اشتهر هؤلاء بصناعات كثيرة، نقلوها إلى هذه الجهات، مما جعل في المنطقة حركة مبادلات تجارية نشيطة.

سوق عكاظ:

ومن أشهر أسواق غربي شبه الجزيرة العربية سوق عكاظ التي عرفت بأهميتها التجارية العظيمة، إلى جانب أهميتها من الناحيتين الاجتماعية والأدبية. ففيها تباع أفخر الملابس وأطيب الخمور وأشهر أنواع الأسلحة، ويرد إليها من اليمن البرود الموشاة وأحسن أنواع الطيوب، ومن الشام الزيوت والزبيب والخمور، ويباع فيها الحرير والأحذية وشتى الأدوات المعدنية ويعرض فيها الرقيق.
وقد يأتي إليها غازٍ بما سلب من أسلحة خصم قتله في غارة، فيرى ذوو المقتول سلاح قتيلهم، فيترصدون بائعه، حتى إذا ظفروا به خارج السوق ثأروا منه لدم قريبهم. وكان من عادة فرسان العرب المبرزين أن يأتوا السوق ملثمين؛ كي لا ينكشف أمرهم، ويتعرف عليهم ذوو الثارات عندهم، فيذهبوا ضحية الثأر.
وسوق عكاظ معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية، ولحل بعض مشاكلهم السياسية، إذ كان يتم فيها التحكيم بين القبائل المتحاربة، ويتبادل الفرقاء المتخاصمون ديات قتلاهم. ومن كان له إتاوة على قوم نزل على عكاظ فجاءوه بها، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في السوق، ليعلم عامة الناس بذلك, والقبيلة التي تريد خلع أحد السفهاء من أفرادها، ينادي مناديها بذلك فيها, وإذا أراد أحد أن يلحق آخر بنسبه أعلن ذلك. وفي السوق تعقد معاهدات الصلح والسلام، ويتفق المتخاصمون على دفع الديات. فالسوق كانت بمثابة جريدة من الجرائد الدورية والرسمية، أو بالأحرى وسيلة من وسائل الإعلام العامة.
وإلى جانب كون سوق عكاظ معرضًا من معارض التجارة، وندوة من ندواتالسياسة والاجتماع، فهي معرض من معارض الأدب والخطابة، إذ تعقد فيها حلقات الأدب والشعر، ويتناشد الشعراء قصائدهم، يحكم فيها أخصائيون يكونون في الغالب من فطاحل شعراء الجاهلية. ففي الروايات أن نابغة بني ذبيان كانت تضرب له قبة من أدم أحمر اللون في سوق عكاظ، يجتمع إليه فيها الشعراء، ويستمع إلى ما ينشدونه من قصائد، فيعطي رأيه فيها. ولعل ما عرف باسم المعلقات هو مما كان يعجب به هذا الشاعر الكبير، وهذا يتم في كل موسم من مواسم السوق. ومعلقات الشعراء الجاهليين كثيرة، وهي من عيون الشعر في الجاهلية ولعل تسميتها جاءت من

تشبهها، لجودتها، بالقلائد التي تعلق في نحور الغانيات. ولم يكن أقل من ذلك شأن الخطباء والوعاظ، إذ يحتشد الناس حول أحدهم وتشخص إليه الأبصار، فيطلع عليهم بخطبة كخطبة قس بن ساعدة الإيادي التي يقول فيها: "أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات ... إلخ" وهي معروفة .

وكان إلى جانب سوق عكاظ أسواق أخرى أقل أهمية، مثل "مجنة" و"ذي مجاز"، وهي قريبة من مكة. وفي يثرب وحولها قامت بعض الأسواق مثل سوق بني قينقاع في يثرب نفسها، حيث كان العرب يبتاعون مصنوعات اليهود الذهبية والمعدنية وغيرها، وقد اشتهر بنو قينقاع بالصياغة. كما وجد في يثرب سوق يقيمها النصارى من سكانها تسمى "سوق النبط" والمعتقد أن نبط الشام كانوا ينزلون فيها للاتجار بالحبوب، كما قام خارج يثرب وإلى مسافة غير بعيدة منها سوق بدر، حيث وقعت الموقعة الشهيرة في الإسلام بين الرسول وكفار قريش، وهو موضع توفر فيه الماء.

حماية التجارة في الأسواق:

تعارف العرب على تقاليد يلتزمون بها في أمور تجارتهم، ومواسم حجهم إلى الكعبة. وهي تقضي بتحريم القتال خلال أربعة أشهر في السنة سموها الأشهر الحرم، ثلاثة منها متتابعة هي: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، وشهر واحد منفرد هو رجب الفرد أو رجب الأصم، وربما كان السبب في تسميته "الأصم" كونه لا تسمع فيه قعقعة السلاح.

وكان من أعظم العار عندهم، أن يخرق أحدهم حرمة هذه الأشهر، فيسفك فيها دمًا، حتى تنقضي تمامًا، وحتى يغادر الناس المكان الحرام، أي الكعبة وما يجاورها من أماكن محدودة المعالم، والحرب محرمة فيها طوال أيام السنة، فإذا لقي المرء قاتل أبيه ما وسعه التعرض له بسوء فيها. ولذا سمى العرب الحروب التي جرت بين كنانة وقيس عيلان في عكاظ باسم "حروب الفجار" لأنهم اقتتلوا في الأشهر الحرم، وامتدت اشتباكاتهم حتى الأماكن المقدسة.

والسبب الذي حمل العرب على اتباع هذه التقاليد، هو حرصهم على توفير جو من السلام والطمأنينة خلال مواسمهم الدينية التي يشترك الناس والقبائل من أرجاء شبه الجزيرة العربية كافة فيها. وقد حرصوا على جعل أكبر أسواقهم تقام في الأشهر الحرم؛ لتوفير جو السلام والهدوء للتجارة أيضا. فكانت سوق حُباشة وسوق صحار في رجب، وسوق حضرموت في ذي القعدة، وأسواق عكاظ ومجنة وذي مجاز في ذي الحجة١، بحيث لا ينتهي بيعهم وشراؤهم من سوق عكاظ حتى ينصرفوا إلى السوق التي تعقد بعدها، ويستمر تنقلهم على هذا المنوال طوال أيام السنة تقريبًا، كما تقدم معنا في أول هذا الفصل.

كما أن من الأسواق ما كانت تقام في غير الأشهر الحرم، الأمر الذي أوجب أن يكون قدوم الناس إليها بعروضهم التجارية بخفارة، ورجوعهم منها بخفارة؛ خوفًا على هذه العروض من أن تكون نهبًا مقسمًا للصوص وقطاع الطرق. فتجارة العرب كانت أروج ما يكون حيث يستتب الأمن، ويعم الهدوء، وتعم الثقة. وقد تميزت مكة وما يجاورها من مناطق بهذه الميزة لمجاورتها الكعبة، فغنيت وازدهرت من التجارة، وفرضت نفوذها الأدبي على القبائل العربية كافة.

بيد أن رعاية التقاليد الآنفة الذكر ليست بالشيء المطرد على إطلاقه، بل قد يحدث أن بعض القبائل لا تعرف لهذه الحرمات حقًّا، فتسفك الدم ولو في الشهر الحرام وفي البلد الحرام , أو أن طالب ثأر لا يملك أعصابه حينما يشاهد قاتل أخيه أو أبيه فيقتله، الأمر الذي حمل القوم على التفكير في توفير الحماية لهذه الأسواق. وقد أُطلق على من يقومون بهذه المهمة اسم "الذادة المُحرِمين" بينما أُطلق على الذين يهتكون حرمة التقاليد المتعارف عليها اسم "المُحِلين".

ويشرف على مهمة الذود عن "التحريم" الملوك، إذا كانت الأسواق تعقد في أرض مملكة، أو رؤساء القبائل الذين تقوم الأسواق في جوارهم. والرئيس الذي يحمي السوق يلقب باسم "ملك السوق" وربما تنافس رئيسا قبيلتين مجاورتين على ملكية السوق، فيجري الاتفاق بينهما على التناوب في القيام بهذه المهمة. وتتجلى سيادة الرئيس بأخذ العشر من التجار عما يباع، ويطلق عليه اسم "المكس" وكان يقال للعشار: صاحب المكس . وربما اعتبر بعضهم المكوس بمثابة غرامات.

ايام العرب:

عرفت الحروب والمناوشات التي وقعت بين القبائل بعضها مع بعض، أو بين ملوك اليمن والقبائل أو بين الفرس والعرب أو بين الملوك العرب والقبائل بـ"الأيام" وبـ"أيام العرب" . وهذه الأيام تؤلف – في الواقع– القسط الأكبر من علم الأخباريين بتأريخ الجاهلية، ومادتها القصص الذي تناقله الناس عمن شهدوها، وحفظوه في صدورهم، إلى أن كان التدوين فدوِّن. وهو مادة محبوبة تناولها الناس في الجاهلية والإسلام بلذة وشوق، فكانت هي والشعر الجاهلي من أهم المجالس. "قيل لبعض أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كنا نتناشد الشعر، ونتحدث بأخبار جاهليتنا" ، وأهم أخبار الجاهلية هي هذه الأيام.

ومادة هذه الأيام عربية خالصة، يتخللها شعر قيل بالمناسبة في تلك الأيام في الفخر والحماسة وفي هجاء الخصم والانتقاص منه. والفضل هو لهذا الشعر في حفظ أخبار تلك الأيام، وصيانتها من النسيان، لاضطرار الراوي والسامع إلى الاطلاع على المناسبة التي قيلت فيها تلك الأشعار. وعلى هذه المادة العربية اعتماد المؤرخ في تدوين تأريخ العرب في الجاهلية، وتتبع التطورات السياسية التي حدثت قبيل الإسلام.

وفي شعر المخضرمين وشعر الشعراء الإسلاميين الذين نبغوا في العهد الأموي مادة تفيدنا في الوقوف على خبر تلك الأيام، فقد حفظ تفاخر الشعراء بقبائلهم ومهاجاة بعضهم لبعض آثار تلك الأيام، فدونت في شعر الهجاء والتباهي والتفاخر، وزاد بذلك علمنا الذي أخذناه من أخبار الأيام ومن الشعر الجاهلي الذي أشير فيه إليها.

وموضوع كموضوع الأيام، لا بد أن يُقبل العلماء عليه إقبالًا كبيرًا، وهذا ما وقع، فألف فيه جماعة، منهم "أبو عبيدة" المتوفى سنة "٢١٠" أو "٢١١" للهجرة، وأدخله قوم في مؤلفاتهم، فأفردوا له بابًا أو أبوابًا، ولكنا لا نملك حتى اليوم كتابًا قديمًا قائمًا بذاته في الأيام. وكل ما نملكه هو هذه

الأبواب الداخلة قد أشار "ابن النديم" وغيره إلى أسماء مؤلفين ألفوا كتبًا في أيام العرب . منهم من ألف عنها كلها، ومنهم من ألف عن بعضها. ومنهم من ألف في أيام قبائل معينة. لكنها لم تطبع، ولعل من بينها من قد يطبع في المستقبل. وقد ورد أن "أبا الفرج الأصبهاني" قد استقصى أيام العرب في كتاب أفرده لذلك، فكانت أيامه ألفًا وسبعمائة يوم .

ولكن هذه الأيام غير منسقة وياللأسف، ولا مبوبة على حسب ترتيب الوقوع، وتسلسل الزمن. ثم إن من الصعب استخراج مستند منها يمكن الاعتماد عليه في تصنيف هذه الأيام، وتنظيمها على أساس تأريخي، مع أنها مادة المؤرخ الذي يريد كتابة تأريخ جزيرة العرب قبل الإسلام ودراسة التطور السياسي فيها. وقد حاول المستشرقون تنسيقها وترتيبها على أساس تواريخ الوقوع، فلم يفلحوا إلى الآن في الوصول إلى نتيجة مرضية. ولو كانت لدينا معارف عن أحوال من أسهم فيها وأجج نارها ومن قال شعرًا فيها ، تنير لنا السبيل لتثبيت التأريخ وضبط السنين، لصار في إمكاننا ضبطها وتعيين تواريخها استنادًا إلى هذا المروي عن أولئك. ولكن ما نعرفه عن هؤلاء الرجال، وهم أبطالها وأصحابها، ولا يقل غموضًا وإبهامًا من حيث التواريخ والسنين عن غموض تواريخ تلك الأيام وإبهامها، ولذلك فكل ما يقال عن تواريخ الأيام وترتيبها والسنين التي وقعت فيها، هو حدس وتخمين. وسيبقى الحال على ذلك، حتى تتهيأ مادة جديدة كنصوص جاهلية مدونة أو موارد أخرى قد تتعرض لتلك الأيام بتأريخها أو بتأريخ من اشترك فيها على وجه مضبوط صحيح. وعندئذ يكون في الإمكان تدوينها على نحو علمي يشرح لنا تطور الحوادث عند العرب قبيل الإسلام.

ولوجود مجال واسع للعب العاطفة في أخبار الأيام، تجب دراسة الروايات على حذر، والتفتيش –على قدر الإمكان– عن روايات متعددة عن اليوم الواحد والعادة أن يُعَنْون اليوم باسم الموضع الذي حدثت فيه المعركة، أو بالشيء البارز في تلك الحرب، أو باسم القبائل التي اشتركت فيه. ومن هذه الأيام ما وقع بين قبائل قحطانية، ومنها ما وقع بين قبائل عدنانية، ومنها ما وقع بين قبائل قحطانية وقبائل يرجع النسابون نسبها إلى مضر وربيعة، وإلى معد، وإلى عدنان، فهي أيام

وقعت إذن بين جماعتين هما في عرف النسابين من جدَّين، هما: قحطان وعدنان. وهما جدًّا كل العرب الأحياء.

ومن الأيام التي وقعت بين القبائل القحطانية: يوم البردان، ويوم الكُلاب الأول وعين أباغ ويوم حليمة ويوم اليحاميم، وأيام الأوس والخزرج. وأما أيام القحطانيين والعدنانيين. فمنها: يوم البيضاء، ويوم طخفة, ويوم أوارة الأول، ويوم أوارة الثاني، ويوم السلان، ويوم خزار ويوم حجر، ويوم الكلاب الثاني، ويوم فيف الريح، ويوم ظهر الدهناء .

وأما الأيام التي وقعت بين القبائل العدنانية، فمنها ما وقع بين قبائل ربيعة فيما بينها، ومنها ما وقع بين ربيعة وتميم، ومنها ما وقع بين قبائل قيس فيما بينها، ومنها ما وقع بين قيس وكنانة، ومنها ما وقع بين قيس وتميم، ومنها أيام ضبة وغيرهم،وهناك أيام وقعت بين العرب والفرس مثل يوم الصفقة ويوم ذي قار.

والأيام بين ما يسمى بالقبائل العدنانية أكثر بكثير من الأيام التي وقعت بين القبائل القحطانية، وسبب ذلك هو أنها أكثر بداوة وأعرابية من القبائل الثانية، وأن من طبع البداوة: الفردية والخصومة والتنازع والتحاسد، بسبب ضيق العيش وقلة المال وتحول القبائل من مكان إلى مكان وراء الماء والكلأ. لذلك قل اجتماع العدنانيين تحت رئاسة رئيس واحد، وتقاتلوا وتخاصموا، وفضلوا الخضوع لحكم رئيس بعيد عنهم على الخضوع لرئيس منهم؛ لأن النفسية الأعرابية ترى في خضوع أعرابي لأعرابي من جنسه استكانة ومذلة. أما خضوعها لحكم غريب عنها فليس فيه شيء من ذلك، ولهذا خضعت لملوك المناذرة أو الغساسنة أو لكندة أو للتبابعة، ونفرت من الخضوع لرئيس عدناني لعقدة التنافس والتناحر بين ذوي القربى.

والقبائل العدنانية، قبائل خشنة شديدة المراس، القتال عندها طبيعة، ولو اتحدت وجمعت كلمتها ووحدت أمرها، لكانت قوة لا تغلب، ولكنها، وهي على هذه الصفة من التخاذل والتنافر، صارت خاضعة لحكم القحطانيين، وأخصهم التبابعة على ما يذكره الرواة. فكانوا يعينون عليهم حكامًا وينصبون عليهم أمراء منهم، بل يذكر أهل الأخبار أن العدنانيين كانوا يذهبون هم أنفسهم إلى

أولئك التبابعة أحيانًا يطلبون منهم تنصيب شخص منهم، أو تعيين أمير عليهم من أصحاب المنزلة والمكانة؛ لأنهم سئموا من التقاتل والتشاحن، بقوا على ذلك دهرًا حتى سئموا حكم التبابعة والقحطانيين لهم، فثاروا عليهم كما يذكر أهل الأخبار.

أساليب القتال:

١- كان أسلوب القتال لدى عرب البادية بدائيًّا، فهم يخرجون للقتال على غير تعبئة, وعلى النظام الذي يراه شيخ القبيلة، وكانوا في العادة يغيرون

بغتة، ثم يفرون إلى البادية عند مطاردتهم.

٢- أما عرب المدن: فقد عرفوا نظام التعبئة, وتقسيم الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين.

٣- وكانت المعركة في العادة تبدأ بطلب المبارة من أحد الطرفين جريًا على عادتهم، وذلك بأن يخرج بين الفريقين فارس مشهور، فيطلب أن يخرج لمبارزته فارس آخر في مثل سنه ومركزه في قومه، وكان الغرض من تلك المبارزة إظهار المهارة الفردية، والقوة البدنية، ويقوي به قلوب الأصحاب، ثم إنها بما يحدث فيها من قتل متتابع، تثير في الفرسان شهوة الانتقام، والأخذ بالثأر، فتجيش نفوسهم للقتال، فيندفعون إليه بكل قوة.

٤- وفي بعض الأحيان كان يحدث التفاهم بين قائدي الجيشين، على أن المبارزة تحسم النزاع، وتحقن دماء الناس، وعلى أن يكسب القضية من يفوز فيها, وقد تعاهد على ذلك الحارث والمنذر يوم "عين أباغ" .

٥- وإذا لم يتم الاتفاق على حسم النزاع بالمبارزة، كان الذي يحدث بعدها أن يتراشق الفريقان بالنبال، وكان هذا السلاح قليلًا بين العرب، فإذا كانوا يحاربون من هم أمهر منهم في استعمال القوس، فإنهم كانوا يبادرون بالهجوم عليه، حتى لا يعرضوا أنفسهم للنبال القاتلة، يَصُبُّها عليهم رماة الفرس من التوابيت الخشبية التي على ظهور الفيلة، ويرون في شَنِّ الهجوم الخاطف دهشة العدو؛ لأنه يكون في العادة هجومًا عنيفًا قاسيًا.. وقد ظهر هذا الأسلوب مثلًا في معركة ذي قار, فقد قال "حنظلة بن

ثعلبة" لقومه: "إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء".
فإذا أفلح هجومهم هذا، وإلّا تراجعوا قليلًا، ليعيدوا تنظيم صفوفهم ثم يعاودوا الهجوم، وهذا الأسلوب يُسَمَّى عندهم: "الكَرُّ والفَرُّ" وكثيرًا ما كانوا يوصون أنفسهم بإتقان الكَرَّةِ بعد الفَرَّةِ.
يقول ابن خلدون: "وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين؛ نوع بالزحف صفوفًا, ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف: فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر: فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب".. "ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب، ضرب المصافِّ وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم، فيتخذونها ملجأً للخيالة من كرهم وفرهم، يطلبون به ثبات المقاتلة، ليكون أدوم للحرب، وأقرب إلى الغلب".
٦- والعربي عند الالتحام مدفوع بطلب الثأر، فسيفه في يده يضرب به القريب، ورمحه تحت إبطه يطعن به البعيد، وهو خلال المعركة يطلب فارسًا بعينه؛ إن كان له ثأر عنده، وإلّا يطلب فارسًا في مثل مركزه وسنه، فكانت الحرب عندهم حرب فرد لفرد، وفرس لفرس، والغرض منها: إظهار البطولة الفردية، وكانت تنتهي معاركهم -وبخاصة البدو- بتدخل فريق ثالث للصلح ، على أن تدفع القبيلة التي قلت خسائرها، الدية عن العدد الزائد من قتلى أعدائها، أما معارك الحضر: فكانت تنتهي بسلب الغنائم وجمع السبايا، وتفريقها على المقاتلين، وتتبع المنهزمين واحتلال ديارهم, أو إخضاعهم لسلطانهم؛ بحيث يكونون في قبضتهم.

المحاضرة الحادية عشرة.... تاريخ العرب قبل الاسلام.... أ.د.عباس فضل حسين

الحياة الفكرية للعرب قبل الاسلام...

قد يتبادر إلى الذهن أن عرب الجاهلية كانوا أمة منعزلة عن العالم؛ بسبب الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب, التي تحيط بها الصحارى والبحار من جميع الجهات. غير أن الدراسات الحديثة قد كشفت عن خطأ هذا الاعتقاد، وأثبتت أن العرب لم يكونوا في منأى عن الحضارات الكبرى التي جاورتهم ، بل اتصلوا بها وتفاعلوا معها. وكانت صلة الوصل بينهم وبينها، أولًا التجارة، ثم المدنيات العربية التي اضطلعت بها بعض الإمارات العربية المتاخمة لحدود بيزنطة وفارس، كدول الأنباط والغساسنة والمناذرة، أو بواسطة الجاليات المسيحية واليهودية التي استقرت في بعض المدن الحجازية، كيثرب ومكة ونجران.

فقد كان لوقوع مكة والمدينة على طرق القوافل التجارية أثر كبير في ازدياد أهميتهما وارتقائهما فكريا وحضاريا؛ ذلك أن أهلهما قد احتكوا بالأمم المجاورة، واعتنق بعضهم الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية، وأصبح بعضهم يعرفون القراءة والكتابة وتقدموا فكريًّا. وعلى رأي بعض المستشرقين أن بعض أجزاء شبه جزيرة العرب قد تفاعلت مع مظاهر الحضارة الهللينية، وأن كثيرا من الأفكار، ومن نتاج الثقافات اليونانية والرومانية، ومن العقائد المسيحية والمزدكية قد اختلطت وامتزجت فيها. وهكذا لم يبق العرب سادرين في عزلتهم, بل أخذوا بنصيب من يقظة عارمة، زاد في وضوح معالمها وقوعهم في أطراف المدنيات الكبرى . ومن الجدير بالذكر أن من أهم النتائج الفكرية التي أسفرت عنها رحلات المكيين إلى الحيرة أنهم قد نقلوا منها حروف الهجاء، الأمر الذي استتبع نشوء الخط المعروف باسم الخط الكوفي.

يقارن الجاحظ بين العرب وغيرهم من الأمم فيقول: "بأنه وإن عرف عن الهند واليونان وفارس تطرقهم إلى صنوف من العلم والفلسفة والمنطق والخطابة، إنما لم يتصفوا بالبيان وزلاقة اللسان وانثيال البديهة، بل كان ما خرج عنهم، إنما هو عن "طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة" بينما "كل شيء للعرب، إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام ليس فيه معاناة ولا مكابدة" وأنهم بالرغم من كونهم أميين، كانوا مطبوعين لا يتكلفون، "تأتيهم المعاني إرسالًا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالًا" وأن كل ما خلفوه من شعر أو نثر لشاهد صادق على الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم أن يجاريه" .

ويقول أحمد أمين: "إن العربي الجاهلي عصبي المزاج سريع الغضب، والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء. وفي الحق: إن العربي ذكي، يظهر ذكاؤه في لغته, فكثيرا ما يعتمد على اللمحة الدالة، والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديهته، فما هو إلا أن يفاجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب" .

مما تقدم تتضح لنا الخطوط الأساسية لمميزات الفكر العربي في الجاهلية. فالعربي الجاهلي لم يمارس العلم، ولم تكن له فلسفة ولا منطق، إنما تميزت ثقافته بالفنون الأدبية من خطابة ونثر وأمثال وشعر، تنثال عليه المعاني انثيالًا دون تكلف. فالسليقة الشعرية فيه طبع أصيل، وقد فطر على البديهة والارتجال والإلهام. وهو ذكي سريع الخاطر يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة.

إن هذه الثقافة لمما يتفق مع بداوة العيش، وهي طور مر العرب فيه. والبداوة كما قال ابن خلدون في حديثه عن العرب "جيل في الخلقة طبيعي" مثلهم كمثل غيرهم من الأمم المتبدية، كالبربر والترك والأكراد، وهي حالة اجتماعية تمر فيها الأمم في طور نشوئها وارتقائها.

غير أن حالتهم الفكرية كانت من التقدم النسبي بحيث إن الدين الإسلامي بما انبثق عنه من نظم انقلابية ثورية، قد لقي استجابة منهم، فنفذ إلى قلوبهم ونقلهم بأيسر وجه إلى ميادين الحضارة، إذ تفهموا علوم اليونان والسريان وغيرهم، وتمثلوها وصهروها في بوتقة العروبة، وأقاموا على أسسها صروح حضارتهم العربية الإسلامية، التي استتمت جميع مقومات العبقرية والإلهام، وسحرت الكتاب والمستشرقين، فأفاضوا في وصفها، وتعمقوا في دراستها.

وبالرغم مما انطوى عليه العهد الجاهلي من عبادة للأوثان، ومن اعتقادات وطقوس اجتماعية بدائية جلها خرافي، فليس من العدل أن ترتسم عنه في الأذهان صورة سيئة ومشوهة، بحيث نتصوره وكأنه عهد ظلم وقاتم. ذلك أننا لو أمعنا النظر فيما اتصل بنا من ترك الجاهلية في الأدب والشعر والنثر والخطابة والأمثال والحكم، لرأينا أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن شعب بلغ درجة كافية من التطور الفكري، وأن اللغة التي صيغ بها، لم تكن لتبلغ ما بلغته من كمال التركيب، والغنى بالمفردات، والدقة في التعبير، والبلاغة والمقدرة على أداء المعاني، لو لم يكن قد مضى على تطورها آنذاك قرون عديدة لا ندرك مداها. فقد قطعت شوطًا بعيدًا في التكامل والاستقرار ، وبلغت في عبقرية التعبير عن المعاني بألفاظ وتراكيب توافق الجرس والحركة والإيقاع شأوًا بعيدًا ، وأوفت على الكمال حتى أصبحت أتم اللغات السامية صرفا ونحوا وبلاغة٤.

فالشعر الجاهلي بما اشتمل عليه من رائع الوصف وجمال الصور ونبل الأخلاق والمشاعر، وما يخلب اللب من فن الإيقاع٥ لدليل ساطع على أن قائليه قد وُهبوا قسطاً وفيرًا من رهافة الإحساس ورقة الشعور، وبرهنوا عن تقديم فني مرموق، وذوق أدبي مصقول. وعلى العموم, إننا نجد في الأدب الجاهلي شعرًا كان أو نثرًا، من المثل العليا والآراء في الحياة، ما يجعله أدبا إنسانيا خصبا وغزيرا .

يقول الشاعر سليمان العيسى في حديث له في مجلة الموقف العربي :

"إننا لا ندري من أية غاية مجهولة موغلة في القدم انحدرت إلينا القصيدة العربية بشكلها الذي نعرفه جميعًا. كل ما تعلمناه في المدارس وسمعناه من أساتذتنا، أن أقدم ما وصلنا من تراثنا الشعري هو الشعر الجاهلي، وعلى رأس الشعر الجاهلي هذه القصائد الساحرة: المعلقات.

والشعر الجاهلي يرجع إلى الوراء، فإذا هو لا يتعدى مائة وخمسين سنة قبل الإسلام. والمعلقات تحوم حول الإسلام، ومن أصحابها من أدرك الدعوة الجديدة وآمن بها، ومنهم من مات قبل الدعوة بقليل.

وتلقي بنظرك إلى هذه المعلقات، إلى هذه الأشكال التقليدية الأولى، فإذا أنت أمام شعر قد بلغ الذروة؛ ذروة في اللغة، وذروة في الخيال والفكر، وذروة في الموسيقى، وذروة في نضج التجربة وأصالة التعبير، أفيعقل أن يكون مثل هذا النضج الفني بداية؟ أفيمكن أن يكون القطرات الأولى التي تألف منها نهر الشعر العربي؟.

إني لأرى، ويشاركني في هذا الرأي كثيرون، أن منابع الشعر ما تزال أقوى وأغنى من مصبه حتى الآن، وأن شعرنا الجاهلي ما يزال النموذج الرائع الجدير بأن نعود إليه، وأن نغترف منه، وأن نتتلمذ عليه إذا أردنا أن نكون كتابًا أو شعراء مجيدين".

ثم ينتهي إلى القول: "إن تاريخ القصيدة العربية قديم قديم، ما أحسب إلا أن البحث الجدي سيبلغ جذوره، ويكشفها في يوم من الأيام". والواقع كما يقول سليمان العيسى، إن تاريخ القصيدة العربية قديم، وهو أقدم بكثير من التاريخ الذي حدده لقدمه "١٥٠ سنة قبل الهجرة". فلكي تبلغ اللغة العربية والشعر العربي الكمال والروعة للذين بلغاهما عند ظهور الإسلام، وكي يتجلى رونق اللغة العربية بأجمل وأروع ما يمكن أن يتجلى به في القرآن الكريم، لا بد أن يكون قد مضى على تدرجهما في الرقي أضعاف أضعاف هذه المدة.

والعصر الجاهلي بما اتصف به من تفتح الخصائص القومية، ذلك التفتح الذي يتجلى في تكامل اللغة العربية، أحرى بأن نعتبره عصرًا من العصور المرموقة للعروبة. وليس في هذه النظرة أي "تناقض، ولا هي تعليل لتعصب العرب لجنسهم" كما يزعم المستشرق الفرنسي كلود كاهن . وبالإضافة إلى ذلك، وكما يقول كلود كاهن،

لا بد لنا من الوقوف على التقاليد الجاهلية كي نفهم النصوص الإسلامية المقدسة، ولندرك إدراكًا كاملًا التشريع الإسلامي سواء من حيث نقضه لتلك التقاليد، أو إقراره لبعضها.

ومن التراث الأدبي الجاهلي كان الشعر يؤلف الكثرة المطلقة، فأكثر ما بلغنا منهم الشعر وأقله النثر . وكان للشعر والشعراء مكانة عظيمة في المجتمع الجاهلي، وبوسع الشاعر أن يرفع من شأن الذليل والوضيع إذا مدحه، أو أن يذل الرفيع والعزيز إذا هجاه . وكان لظهور الشاعر في المجتمع الجاهلي أهمية عظيمة, إذ تقام الأفراح في القبيلة وتجري الاحتفالات وتنحر الذبائح، وتأتي الوفود لتهنئ القبيلة التي نبغ فيها الشاعر. والشاعر يدافع عن قبيلته بشعره كما يدافع الفارس عنها بسيفه٤. والشعر كما قيل عن حق ديوان العرب، يستطيع الباحث الاستعانة به؛ ليجلو الكثير من نواحي المجتمع العربي الجاهلي، ومن أخلاق الجاهليين وعاداتهم وتقاليدهم. كل ما كان للجاهليين من آراء ومذاهب وميول قد عبروا عنها بالشعر، ففي الشعر كانت تنطلق نفوسهم على سجيتها، وتكشف عما تحب وتكره. وفي الشعر يعظمون القوة، ويمجدون الشجاعة والبطولة، بينما كرسوا النثر للخطب والوصايا، والأقاصيص والأمثال والحكم، وفيه كانت تتجلى آراؤهم ومناهج تفكيرهم.

معارف العرب:

صحيح أن العرب كانوا يؤمنون ببعض المعتقدات الخرافية، وكثير منها مقتبس من غيرهم، وما ذلك إلا لعجز عقولهم عن تكوين نظرة شاملة عن الكون واتساق حوادثه، وهذا ناتج عن طبيعة بيئتهم التي لم تهيئ لهم الاستقرار المادي والنفسي؛ ليتمكنوا من التفكير السليم والملاحظة الدقيقة الهادئة، والنظر في حوادث الكون، وربط النتائج بالأسباب، وتعليلها تعليلا منطقيا صحيحا، فآمنوا بوجود الجن والأرواح الخفية، وكونها العلل التي تجلب الأمراض والشرور، غير أنهم مع ذلك قد عرفوا صنوفا من الثقافة, تتناسب مع ما هيأه لهم مجتمعهم البدوي من فرصة النظر في الكون. فما كان منه متعلقا بالعلم والفلسفة، فقد كان مبنيًّا على التجربة القاصرة. ولذلك لا نستطيع أن نقول: إنه كان لديهم علوم، بل معارف اقتضتها ظروف حياتهم اليومية.

فإذا نظروا في السماء ورصدوا النجوم؛ فلكي تهديهم في أسفارهم، ويستدلوا بها على المواقع والمسالك التي يريدون سلوكها. ومع ذلك فقد هداهم نظرهم إلى معرفة مواقع الكواكب، وتنقلها في بروجها بين فصل وآخر من فصول السنة، وميزوا السيارة من الثابتة منها.

وقد ركزوا اهتمامهم على القمر الذي يهتدي به السارون، واستعملوا كالبابليين السنة القمرية والشهر القمري والتقسيم الأسبوعي للشهر. ولكنهم لما أدركوا عدم انطباق السنة القمرية على السنة الشمسية، وتتابع الفصول سنة بعد أخرى، لجئوا إلى ما يسمى بالنسيء –أي إضافة شهر إلى السنة القمرية كل ثلاث سنوات كي توافق السنة الشمسية– وقد أعطوا بعض الكواكب أسماء لا تزال معروفة حتى الآن مثل: عطارد، سهيل، العيوق،لدبران، الزهرة، الثريا، المجرة، الفرقدان، السماكان، الشعريان. وسموا أولادهم بأسماء بعضها مثل: سهيل، هلال، الزبرقان .

ومما يلاحظ أن معلومات العرب الجاهليين الفلكية عملية، ولا تعتمد على المسلمات العلمية والحساب، وكانت تتناقل بالرواية وتحفظ بالمران والمخالطة، ولم يُعن أحد بتدوينها أو التأليف فيها. ويظهر أن بعض معلوماتهم الفلكية قد تسربت إليهم من جيرانهم البابليين والكلدانيين في العراق.

أما الطب، فبالرغم من أنه كان يعتمد في كثير من الأحيان على التعاويذ والرقى والعزائم وطرد الجن من جسم المريض، أو بعبارة موجزة على الشعوذة، فإنهم قد اعتمدوا أيضا على التجربة. فقد عرفوا التداوي بالحشائش، واستعملوا البتر لمداواة الأعضاء الفاسدة في الجسم، والكي والحجامة ومداواة العيون وغير ذلك. كما كان لهم أطباء تعلموا في فارس أو بلاد الروم, فالحارث بن كلدة تعلم في فارس وتمرن فيها، وعرف تشخيص الداء ووصف الدواء. ونشأ ابنه النضر طبيبًا كأبيه، وهو الذي أمر الرسول بقتله، وكان قريبا له "ابن خالته"؛ لأنه حارب الدعوة الجديدة حربًا شعواء، وكان كثير الأذى للرسول.

ومارسوا العرافة، والعراف يشبه الكاهن في ادعائه معرفة الغيب، وكان مثله يطبب الناس روحيا ونفسيا بما هو أقرب إلى الشعوذة. وقد اشتهر من الكهنة والعرافين عدد من الرجال والنساء.

كما مارسوا القيافة، وهي تتبع الأثر على الرمال, ومعرفة بصمات الأقدام، وتمييزها عن بعضها، ولو تزاحمت وتراكمت. ولا يخفى ما لهذه المعرفة من أثر في الصحراء، حيث تقضي الحاجة الماسة بتتبع آثار اللصوص والفارين والشاردين والقوافل. ونبغوا في الفراسة وهي معرفة انتماء الأشخاص بمجرد التفرس في وجوههم, أو معرفة القرابة بين شخص وآخر بمجرد ملاحظة وجوههم وبعض أعضائهم. ومارسوا الريافة، وهي معرفة استنباط الماء من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده, فيعرف بعده وقربه بشم التراب، أو برائحة بعض النباتات فيه.

وعرف عرب الجاهلية حركات الأنواء، وأحوال الجو، والاستدلال منها على تقلبات الطقس. وكانوا يستدلون على هطول المطر قبل نزوله بلون الغيوم, وعرفوا المسالك والاتجاهات، وهي نوع من المعارف الجغرافية تفيدهم في الأسفار، يهديهم إلى ذلك مسامتة الكواكب الثابتة ومنازل القمر، إذ لكل كوكب سمت يهتدى به .

غير أن ملاحظاتهم كانت مبنية على تجربة ناقصة، قد تصيب حينا وتخطئ أحيانا، إنما لم تخلُ من ذكاء ونباهة في كثير من الأحيان.

المرحلة الاولى.. مادة: علم النفس ... مدرس المادة : د. رشا جميل

م// علم النفس التربوي

يعد التعلم من اولى مجالات علم النفس التي اهتم العلماء بدراستها نظرياً وتجريبياً ، اذ أن معظم التجارب التي اجريت في علم النفس بدءا من القرن التاسع عشر انصبت على التعليم ، اذ حاول علماء النفس تفسير عملية التعلم والوصول الى نظرية مقنعة عن كيفية حدوث التعلم . لذلك يعد علم النفس التربوي من اكثر فروع علم النفس تطورا وانتشارا في العالم لما له من اهمية نظرية وتطبيقية في العملية التربوية وفي مجالات التعلم والتعليم بهدف تحسين العملية التربوية وفهم سلوك المتعلم وتقديم المعرفة له ، وتنمية شخصيته من مختلف الجوانب ليكون معلماً ناجحاً وقادراً على الاستفادة من الخبرات التعليمية بأقصى طاقة ممكنة له . كما ينظر البعض الى علم النفس التربوي بانه الفرع الوسيط بين التربية وعلم النفس لاهتمامه بالجوانب التربوية في الميدان التربوي واعتماده على القوانين والمفاهيم النفسية في مجال علم النفس .

م// تعريف علم النفس التربوي

س// ذكرت تعاريف عدة لعلم النفس التربوي. فماهي ؟

ج// – انه ذلك العلم الذي يدرس عمليات التعلم والمعرفة والقياس والسلوك الاجتماعي والنمو الانساني والتكيف الشخصي .

- انه ميدان من ميادين علم النفس الذي يدرس سلوك الانسان في المواقف التربوية من خلال تزويدنا بالمعلومات والمبادئ والمفاهيم التي تساعد في فهم عملية التعلم والتعليم .
- هو التعليم الذي يدرس التعلم والتعليم والمدرسة وما يرتبط بها من عمليات باستخدام مفاهيم ومبادئ علم النفس .
- هو الدراسة العلمية للسلوك الانساني في المواقف التربوية اي انه العلم الذي يربط علم النفس بالتربية .
- هو احد فروع علم النفس النظرية والتطبيقية التي تعنى بعملية التعلم والتعليم .

س// ما الفرق بين كلمة التعلم و التعليم ؟

ج// التعلم : هو تغير نسبي في سلوك الانسان ناتج عن تغيرات في ظروف البيئة المحيطة ليست بفعل النضج والمرض كتعلم الكتابة او نطق كلمة جديدة او تعلم ركوب الدراجات الهوائية . فهنا التعلم يأتي من قبل المتعلم .

التعليم : هو عملية منظمة تحدث داخل الصف بهدف احداث تغيرات هادفة وموجهة في سلوك المتعلم ، كتعلم الاطفال الجمع والطرح او استنتاج العبر من قصة تاريخية معينة في درس التاريخ وهنا يأتي من المعلم .

عملية التعلم : يتناول دراسة سيكولوجية التعلم وطبيعته ونظرياته واشكاله وشروطه والعوامل المؤثرة فيه والعوامل التي تساعد على سرعة التعلم ، فالتدريس الجيد يتطلب فهما جيدا لكيفية حدوث التعلم وطرائقه والظروف التي تضمن حدوث التعلم الفعال يعني حدوث تغيرات فعالة في السلوك الانساني وفق شروط بيئية فعالة وموجهة بشكل جيد .

س// ما اهمية علم النفس التربوي ؟

ج//

١. تزويد المعلم بالمبادئ والاسس والنظريات التي تفسر وتتحكم بعملية التعلم والتعليم من اجل فهمها وتطبيقها في غرفة الصف وحل المشكلات التي تواجه المعلم او المتعلم .
٢. استبعاد كل ما هو غير صحيح حول عملية التعلم والتعليم والتي تعتمد على الملاحظات الغير دقيقة وخاصة التي تعتمد على الخبرات الشخصية والاحكام الذاتية .
٣. الاستفادة من المبادئ والمفاهيم والنظريات النفسية في مجالات النمو والدافعية والذكاء والذاكرة والتفكير وحل المشكلات لفهم عمليات التعلم والتعليم وتوجيهها وتقديم التطبيقات التربوية الصعبة في هذه المجالات .

س// ما علاقة علم النفس التربوي بفروع علم النفس الاخرى ؟

ج// علم النفس يهتم بدراسة السلوك الانساني في جميع مجالات حياة الانسان، بينما يهتم علم النفس التربوي بسلوك الانسان في المواقف التربوية فقط . فعلم النفس التربوي يستفيد من النظريات والمبادئ المتوافرة في فروع علم النفس الاخرى ، كعلم نفس النمو وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس المعرفي وعلم النفس الارشادي وغيرها فقد تنبه المختصين في علم النفس التربوي الى ضرورة فهم السلوك التربوي في اطار نمائي اجتماعي ومعرفي وارشادي . كذلك فان فروع علم النفس الاخرى تستفيد من المبادئ والمفاهيم الواردة في علم النفس التربوي وخصوصا في مجالات الدافعية والذكاء والتفكير وحل المشكلات وغيرها في تفسير وتوجيه السلوك الانساني في هذه المجالات المختلفة .

س// ما هو الاطار العام لعلم النفس التربوي ؟

ج// أن الموضوع العام لعلم النفس التربوي هو الدراسة العلمية والعملية للنمو التربوي فالمدرسة هي التي تمارس مهمتها في النمو التربوي على ضوء فلسفة ما وبطريقة ما فالمدرسة مؤسسة اجتماعية اصطنعها المجتمع لممارسة عمليات النمو التربوي عند الناشئة في مرحلة زمنية معينة ، عن طريق التأثير المنظم في سلوك هؤلاء الناشئة فالمدرسة اذن وحدة من الوحدات الاجتماعية التي تعمل في هذا المجتمع ، ولأجله فالمجتمع له اهدافه كما تتمثل في فلسفته الاجتماعية الاقتصادية التي تحدد كل المنظمات الاجتماعية التي تخدمه ولذلك فأن المدرسة تستمد اهدافها العامة من هذا المجتمع وتنشئ لنا ما يسمى بالأهداف التربوية ومن هنا يبدأ عمل علم النفس التربوي حيث يقوم بترجمة هذه الاهداف التربوية العامة والخاصة الى اسلوب المقومات السلوكية وبذلك ينقل عالم النفس التربوي الاهداف التربوية الى السلطات التربوية المهنية والتعليمية المسؤولة عن تربية الناشئة في اسلوب ما يعدل من السلوك وما يكتب في عادات ومهارات حتى يمكن لهذه السلطات من ممارسة واجباتها بطريقة واضحة وصريحة وحتى تستمر عملية تقويم المرحلة بطريقة موضوعية بعيدة عن التحيز .

فالنمو التربوي يشمل كل النواحي التي تعني بها المدرسة فهي لا تقتصر على اكتساب المعارف وتحصيل المعلومات واستذكار الدروس ، فأن علم النفس التربوي يعالج طرق تنمية هذه المعارف والوسائل التي تساعد الطفل على التحصيل واكتساب هذه المهارات المعرفية ، ألا أن وظيفة المدرسة اوسع من ذلك فهي تعنى بالصحة العامة والنمو الجسمي السليم وتنمية قبوله واستعداداته وقدح قدراته العقلية والمهنية وتنمية الميول

الاجتماعية التي تساعد على فهم علاقاته بغيره ، وتعديل طرق قضاء وقت فراغه وان دراسة النمو التربوي يجب ان يشمل كل هذه الصفات .

س// اذكر مجالات علم النفس التربوي ؟

ج// يدرس علم النفس التربوي كل ما يدخل في اطار عملية النمو التربوي ، ويمكن أن نحصر الموضوعات التي يدرسها هذا العلم في مجموعتين من العوامل اللتان تحددان ميدان علم النفس التربوي وبالتالي تحددان القضايا والمشكلات التي يهتم بها المشتغل في هذا الميدان . وهما :

أ- **المجموعة الاولى :**

١. التعلم : طبيعته واشكاله وشروطه والعوامل المؤثرة في نتائجه المختلفة .
٢. نمو المتعلم وعلاقته بتعليمه وتخطيط تعليمه .
٣. الشخصية : ابعادها وعواملها وتطورها بشكل خاص لدى المتعلم .
٤. القياس والتقويم وبشكل خاص ما تعلق منه بقياس وتقويم نواتج التعلم وعملية التعليم .

ب- **المجموعة الثانية :** فهي تلك العوامل التي تؤثر بشكل مباشر او غير مباشر في فاعلية التعلم والتعليم في غرفة الصف وبالتالي لابد للمشتغل في علم النفس التربوي ودارس هذا المقرر أن يلم بها بشكل مباشر او بآخر ومن هذه العوامل :

١. الارشاد التربوي وسيكولوجية المدرسة .
٢. تحليل التفاعل الاجتماعي في الصف وديناميات الجماعة .
٣. التربية الخاصة للأطفال المتميزين سواء كانوا متفوقين أو متخلفين .
٤. النظام المدرسي وتأثيره على التعلم الصفي .

س// أن لعلم النفس التربوي ضرورة كبيرة لكل المعلمين في الحقل التربوي . لماذا ؟

ج// وذلك لما يأتي :

١. التعرف على طبيعة الطفل والمتعلم بوجه عام في جميع مراحل النمو التي يمر بها .
٢. الالمام بالأسس النظرية ووسائل التعلم والتعليم حتى يمكن ان تقوم العملية التعليمية على اساس سليم .
٣. التدريب على الاساليب الدقيقة بقياس القدرات والتحصيل في الموضوعات المدرسية بدلا من الاعتماد على الملاحظات العابرة والتي توصل الى استنتاجات غير صحيحة غالباً .
٤. لكي يساعد على فهم افضل لتكيف الاطفال والمتعلمين والعمل على تفادي سوء التكيف .
٥. لفهم الطرائق والاساليب العلمية المستخدمة التي تعين على تحقيق الظروف التربوية والوصول الى النتائج المرجية .
٦. لمعرفة الدوافع والاتجاهات واهميتها في عمل المعلم .
٧. لمعرفة الفروق الفردية بين المتعلمين واسبابها وكيفية التعامل معها .
٨. خلق بيئة صفية مفضلة واثر المناخ الصفي في التعلم .
٩. لمعرفة اساليب التقويم وكيفية استخدام الاختبارات والمقاييس في التعليم .

المحاضرة الثانية

علاقة علم النفس التربوى بعلم النفس العام

ان علم النفس العام يجمع حصيلة عملية كبيرة من الحقائق والمفاهيم والمبادئ والنظريات التي تساعد في حل المشكلات العملية التي تتعرض لها المجتمعات، لكن علم النفس التربوي ليس مهتما بكل أنواع السلوك التي يدرسها علم النفس العام ولا بكل المشكلات التي تواجهها المجتمعات بل هو مهتم وبشكل أساسي بالسلوك في المواقف التربوية، أي بالسلوك في مواقف التعلم والتعليم الصفية وبالمشكلات التي تواجه المتعلم والمعلم في غرفة الصف وبذا يمكن التنويه بما يلي :

1- يهتم علم النفس التربوي بشكل أساسي بالسلوك الإنساني في المواقف التربوية الصعبة منها بشكل خاص وبذا يمكن لهذا العلم ان يستفيد من علم النفس العام مادام الأخير يدرس سلوك التعلم والتعليم كواحد من أنماط السلوك التي يدرسها إذ يمكن لدراسة التعلم عند الحيوانات ان تقدم إسهامات كبيرة في فهم التعلم الإنساني.

2- يتشابه علم النفس التربوي مع علم النفس العام في طريقة البحث وهي الطريقة العلمية وفي الأهداف، وهي الفهم والضبط والتنبؤ.

3- ان علم النفس التربوي هو تجريب للتطبيق بطريقة علمية منظمة كما انه يسعى إلى اكتشاف مبادئ ونظريات حول السلوك الإنساني في المواقف التربوية التي لا يقع ضمن اهتمامات علم النفس العام، ولذا فعلم النفس التربوي ليس علما تطبيقيا فحسب بل هو علم نظري أيضا وان كان التطبيق هو احد أهم أهدافه.

علاقة علم النفس التربوى بالتربية :

حينما نشأ علم النفس وشرعت قضاياه في ان تأخذ صورة عامة وجدت التربية لها مسافة إلى تطبيق هذه المبادئ السيكولوجية في مختلف نواحي النشاط المدرسي ثم اتسع الأمر حتى أصبح اعتماد النظريات التربوية على الحقائق السيكولوجية أمرا لابد منه، وأصبحنا نرى الكثير من النظريات التربوية مصبوغة بصبغ سيكولوجية بيان الإهتمام بالمظهر النفسي في مشكلات العمل المدرسي وتحديد السيكولوجية التي تحسن من العمل المدرسي والتي تساعد على تحقيق الأهداف التربوية، هذا الإهتمام هو الذي أسهم بقسط كبير في تحديد موضوع علم النفس التربوي.

وان علم النفس التربوي ما هو إلا تطبيق للمبادئ الرئيسية في علم النفس العام على مشكلات التربية والتعليم.

المعلم وعلم النفس التربوى :

منذ ان وجدت المدرسة والتعليم فالمعلم يقدم خدمة إنسانية ومهنية لامته من خلال مساعدة التلاميذ على اكتساب المعارف والمثل العليا وتذوق معنى الحرية والمسؤولية، ومن خلال تمكينهم من اكتساب الأخلاق الفاضلة ومهارات التفكير الثاقب والتفكير الاستدلالي وتحقيق النمو الجسمي والعقلي والوجداني، أي تحقيق النمو الشامل المتكامل في جميع جوانب شخصية التلاميذ، وان مستقبل الأمة ومصيرها يكتبان في أيدي أولئك الذين يربون أجيالها الناشئة ومن هنا كانت مكانة المعلم بين الأمم مكانة رفيعة جدا ولعل ارفع ما وصلت إليه هذه المكانة هو ما تجده الثقافة العربية الإسلامية حيث يزخر تاريخنا العربي بأسماء تركت بصماتها على التاريخ التربوي والتراث الإنساني، ودفعت بالمفكرين

الأوربيين المحدثين الاعتراف بتراثنا وعمق تأثيره على الحضارة الإنسانية ومن أولئك المربين، المربي العربي الكبير الذي ركز اهتمامه في المعلم وفن التعليم إلا هو بدر الدين ابن جماعة (636هـ- 733هـ).

لقد أكد ابن جماعة على أن المعلم عامل أساسي في نجاح العملية التعليمية وانه من أهم عناصر التعليم حيث يرى ان التعليم لا يتم بغير معلم وان عناصر التعليم تفقد اهتمامها إذا لم يتوفر المعلّم الصالح الذي ينفث فيها روحه لتصبح ذات أثر وقيمة.

ومن هنا كان اهتمامه باختيار المعلم وتحديد عناصر كفايته وتعيين مسؤولياته وأهم الصفات الواجب توفرها فيه وبيان أهم وظائفه المتمثلة عنده في تنمية عقول المتعلمين وخلقهم ومهاراتهم واكتسابهم المعارف والآداب المختلفة.

خصائص شخصية المعلم المرغوب فيها :

للمعلم منزلة كبيرة في كافة الدول أيا كانت أنظمتها التعليمية، وعند كافة أفراد المجتمعات على اختلاف طبقاتهم الأكاديمية أو الإجتماعية أو اتجاهاتهم الفكرية فالمعلم هو الشخص المسؤول الذي يؤتمن على أهم ما يملكه المجتمع أو الأفراد من ثروة ونقصد بهذه الثروة فلذات الأكباد، وتكمن أهمية المعلم في كونه الشخص الذي يعتمد عليه في رعاية هذه الثروة واستثمارها الاستثمار الأمثل الذي يخدم أهداف المجتمع وطموحاته، فهو يقوم بعملية التعليم، ويرعى تربية الأبناء، ويلاحظ نموهم في شتى المجالات. ما يؤدي

وقد دعا ذلك بعضهم إلى تسمية مهنة المعلم بالمهنة الأم، وذلك لأنها مهنة سابقة وأساس لتمكين الأفراد من الالتحاق بأي مهنة أخرى، فالمهندس والطيار والمحامي وغيرهم لابد ان يتلقوا دراسات في تخصصاتهم المهنية المختلفة، أو في الجامعة بشتى كلياتها وتخصصاتها، وبقدر الإهتمام والتطور الذي يلحق بعمل المعلم بقدر هذا العمل إلى نمو الطلاب في المدرسة وتطورهم، فالأطباء والمحامون والمهندسون وغيرهم من فئات المجتمع يتأثرون بمستوى مهاراتهم الأكاديمية، وخلفياتهم المعرفية وسلوكياتهم الأخلاقية إلى حدٍ كبير بسلوك معلميهم، وما يبذله هؤلاء المعلمين من جهد طوال سنوات التعليم.

ولا شك ان المخترعين وكبار العلماء وعظماء الساسة في تاريخ العالم الحديث والقديم قد عاشوا خبرات تربوية ورها لهم معلمون أكفاء طوال مراحل تعليمهم؛ الأمر الذي أثر في صقل تفكيرهم، وبناء شخصياتهم على نحو مكنهم من التميز وجعلهم صناعاً لأهم الاكتشافات أو القرارات المؤثرة في حياة البشرية، كما مكن أممهم من الاضطلاع بمهمة الصدارة والقيادة بين الأمم الأخرى.

ومن الأهمية ان نعرف الصفات التي ينبغي توافرها في المعلم الجيد ومن هذه الصفات ما هو فطري يتعلق بذات المعلم وخصائصه الطبيعية، ومنها ما هو مكتسب يتعلق بما تعلمه خلال مراحل إعداده وعمله المهني من صفات عقدية وأكاديمية ومهنية.

فهذه الصفات تساعده على محاولة تعديل سلوكه، والتكيف من أجل اكتساب تلك الصفات المرغوبة، والتي تنسجم مع مهام المهنة ومكانتها، والتي تحسن من صورته أمام الآخرين، ولذا سوف نقدم أهم الصفات والخصائص المهنية للمعلم وكما يلي :

أولا- الخصائص الجسمية :

1- ان يكون المعلم سليم الصحة الجسمية وخاليا من الضعف والأمراض.

2- ان يكون خاليا من العاهات والعيوب الشائعة كالصم، وحبسة اللسان لان هذه العاهات تجعله مقصرا في عمله ويضعه موضع السخرية بالنسبة للتلاميذ.

3- ان يكون في فياض النشاط.

4- ان يكون حسن الزي، نظيفا منظما، وان يكون نموذجا لتلاميذه.

ثانيا- الخصائص العقلية :

1- الذكاء : فالمعلم لابد ان يصل إلى مستوى خاص في التحصيل العلمي، وهو مستوى لا يمكن بلوغه في المواد المدرسية المختلفة بدون الذكاء.

2- إلمامه بمادته وبما يجد فيها من نظريات، فضعف المعلم في مادته يجعله يقصر في تحصيل التلاميذ لها، ويعرضهم للخطأ فيها ثم ان هذا الضعف يزعزع ثقة التلاميذ فيه.

3- إلمام المعلم بنفسية التلاميذ وعقليتهم وميولهم واستعدادهم ومراحل نموهم ومعرفة الفروق بين التلاميذ.

4- إلمام المعلم بقواعد التدريس المناسبة للتلاميذ وللمادة.

5- ان يكون لديه استعداد وميول لمهنة التعليم.

6- ان يكون كثير الاطلاع ميالا لإنماء معارفه، ويجب ان يكون المعلم على صلة بالجديد من الآراء التربوية السيكولوجية التي تتصل بمهنة التعليم.

7- ان يكون ملما بعلم الأخلاق والسياسة وذلك لان المعلم يخدم المجتمع ويعد الطفل ليكون عضواً فيه.

ثالثا- الخصائص الخلقية والنفسية :

1- العطف واللين مع التلاميذ فلا يكون قاسيا عليهم؛ فينفرهم ويفقد لجوءهم إليه، واستفادتهم منه والتفاهم الروحي حولهم، ولا يكون عطوفا لدرجة الضعف فيطمعهم فيه ويفقد احترامهم له، ومحافظتهم على النظام.

2- ان يكون صبورا وذا قدرة عالية على التحمل.

3- الحزم والكياسة، فلا يكون ضيق الخلق، قليل التصرف، سريع الغضب.

4- ان يكون مخلصا في عمله جادا في محبته له.

5- ان يكون طبيعيا في سلوكه مع تلاميذه وزملاءه، غير متكلف سواء.

6- ان يكون محترما لدينه وتقاليده الإجتماعية لأنه نائبا عن المجتمع في إعداد الصغار.

7- ان لا يكون متزمتا انفعاليا، أي ان لا يثور لأتفه الأسباب.

8- ان يكون خاليا من الأمراض النفسية والعقلية.

رابعا- الخصائص الإجتماعية :

1- ان يكون نموذجا صالحا للأخلاق الكريمة.

2- ان يشعر بما يشعر به سكان القرية أو المدينة من مشكلات اقتصادية وإدارية ويسعى معهم في حلها.

3- ان يساعد الآباء في توجيه أولادهم الدراسي والمهني.

4- ان يكون رسول خير بين الأفراد المتخاصمين وان يصلح بينهم.

5- ان يسهل على أولياء الأمور الاتصال بالمدرسة ومعرفة حالة التلميذ ودرجة تقدمه، وان يتصل بأولياء أمور التلاميذ لمساعدتهم في المشكلات الإجتماعية التي تؤثر في تقدم التلاميذ.

6- تأسيس بعض الجمعيات الثقافية والتعاونية أو الاشتراك في تأسيسها.

المعلم بين التنظير والممارسة :

هل المعلم مطبوع أم مصنوع ؟ يذهب بعض المربين إلى ان التدريس فن لا يمكن اكتسابه بممارسته والتدريب عليه، بل ولا يمكن دراسته بطريقة موضوعية علمية، وقد أكد على ذلك وليم جيمس (1899)، إذ قال ان التعليم ينبغي ان يكون دائما فناً أكثر مما هو علم، وأيمانه على أن علم النفس والتعليم فن، والعلوم لا تولد فنونا بطريقة مباشرة، إذ لابد من وجود وسيط قوامه عقل خلاق ليقوم بعملية الممارسة التعليمية عن طريق الابتكار، وان فن التعليم في قاعة الدرس يتطور من خلال الملاحظة الملموسة المقرونة بالتعاطف والفهم، إذ ان فن التعليم وعلم النفس يعدان توأمان متطابقان متوافقان وكذلك متلازمان متناسبان لا يخضع احدهما للآخر.

أما الرأي الذي اعتمده عام النفس التربوي ثورندايك والذي أكد على أن نجاح مهمته تقاس بارتكازها واستقرارها على حقائق ومبادئ علمية وبهذا فان التعليم مهنة مدعاة إلى التحسين فيها نحو الأفضل من خلال تجنب المواقف والمعلومات الخاطئة، الانفتاح الذهني وإتباع الطرائق العلمية.

علم النفس
المرحلة الاولى
د . رشا جميل

المحاضرة الثالثة : الدافعية في التعلم

معنى الدافعية

❖ الدافعية مصطلح عام يستخدم للدلالة على العلاقة الديناميكية بين الكائن الحي وبيئته ولا يتضمن هذا المصطلح اي اشارت الى نشاط من نوع خاص او نموذج سلوكي معين فنحن لا نستطيع ان نحدد النمط السلوكي المعين الدال على الدافعية العامة ، فالدافعية مفهوم عام يستدل عليه من سلوك الكائنات الحية في المواقف المختلفة ، وتعرف الدافعية بانها الحالات الداخلية والخارجية للعضوية التي تحرك السلوك وتوجهه نحو تحقيق هدف معين وتحافظ على استمراريته حتى يتحقق ذلك الهدف ، وعرفت الدافعية بانها حالة من التوتر تثير السلوك وتواصله حتى يخفف هذا التوتر او يزيل فيستعيد الكائن الحي توازنه .

الدافعية

وعرف ايضاً بان الدافعية هي الطاقة الحيوية الكامنة او الاستعداد البدني او النفسي الذي يثير في الفرد سلوكاً مستمراً متواصلا موجها نحو تحقيق اشباع الحاجة واعادة التوازن .

دور الدافعية في التعلم

❖ ان الدافعية في التعلم هي حالة داخلية عند المتعلم تدفعه الى الانتباه للموقف التعليمي والاقبال عليه بنشاط موجه والاستمرار في هذا حتى يتحقق التعلم ، وان الاستثارة لوحدها لا تحدث التعلم الا اننا نستطيع ان نقول ان التعلم لا يحدث بدون الاستثارة والنشاط . ولذا فأن مفهوم الدافعية للتعلم يجب ان يشمل العناصر التالية : ـ

١. الانتباه الى بعض العناصر المهمة في الموقف التعليمي .

٢- القيام بنشاط موجه نحو هذه العناصر .

٣- الاستمرار في هذا النشاط والمحافظة عليه فترة كافية من الزمن .

٤- تحقيق هدف التعلم .

وبذلك تكون المهمات الدافعية الملقاة على عاتق المدرسة والمعلم بشكل خاص هي المهمات التالية :

١- توفير الظروف التي تساعد على اثارة اهتمام التلاميذ بموضوع التعلم وحصر انتباههم فيه .

٢- توفير الظروف المناسبة للمحافظة على هذا الاهتمام والانتباه المتمركز نحو نشاطات التعلم والتعليم المرتبط بموضوع التعلم .

٣- توفير الظروف المناسبة لتشجيع اسهام التلاميذ الفعال في تحقيق الهدف .

٤- اثابة وتشجيع هذا الاسهام في النشاطات الموجهة نحو تحقيق الهدف .

العوامل التي تؤدي الى النفور المدرسي

- ❖ – عدم اتساع فرص التلاميذ للتعبير عن افكارهم ومشاعرهم بحرية وطمأنينة .
- ❖ ـ اللجوء الى النشاطات الروتينية المتكررة التي تقود الى الرتابة والملل والتي تخفف من درجة النشاط والاستثارة العامة للطلبة .
- ❖ ـ تقليص النشاط الممتع بسبب طبيعة تنظيم اليوم المدرسي على شكل حصص محددة .
- ❖ ـ عدم المساواة في توزيع المكافأة والجوائز على التلاميذ واعطائها للسلوكيات المتميزة فقط
- ❖ خلق جو من التباعد والنفور بين المدرسة والتلاميذ .
- ❖ ـ المطالب المتناقضة المطالب بها المتعلم .

اهمية دراسة الدافعية

- انها تمثل القوة التي تحرك وتستثير الطالب لكي يؤدي العمل المدرسي .
- انها تمثل عاملاً مهماً يتفاعل مع محددات الطالب ليؤثر على السلوك الادائي الذي يبديه الطالب في الصف .
- انها تمثل قوة الحماس او الرغبة لقيام الطالب بمهمة الدرس ومقدار الجهد الذي يبذله ودرجة مثابرته واستمراره في الاداء العملي .

طبيعة الدافعية : أن مصطلح الدافعية مشتق من اللفظ اللاتيني (موفر) الذي تعني عملية احداث حركة ، وهذا اللفظ يشير الى استثارة نوع واحد من الحركة وهو السلوك ، ويصعب ملاحظة وقياس الدافع بصورة مباشرة ، لذا يمكن معرفة هذا المصطلح من خلال مسارين اساسية هما : -

١. **الدافع كمفهوم** : هو احد المفاهيم النفسية ذات خصائص خلافية في دراسة علم النفس فهو مفهوم يتردد تحت تسميات عديدة منها (دافع ، غريزة ، باعث ، حافز ، أرادة ، دوافع فطرية) ، لكن مصطلح دافع اكثر استخدام وشيوعاً فقد عرض شنايدر تفسير الدافعية من خلال تحديده نماذج اساسية وهي :-

أ- الشخص بصفته حيوان فأن الناس يمتلكون دافع فطري هادف نحو البقاء .

ب- الشخص بصفته باحث عن اللذة فأن الناس يمتلكون اهتمام فطري نحو اللذة وتجنب الألم .

ت- الشخص بصفته مادة في المجال الفيزيائي فأن الناس يستطيعون تحليل التأثيرات أو القوى المتنافسة والمؤثرة في حياتهم بنفس الطريقة التي تتحرك فيها الاجسام المادية في المجال الفيزيائي مثل الدافع الاجتماعي يدفع الانسان للاختلاط بالأخرين .

ث- الشخص بصفته عالم فأن الناس يسلكون في الحياة ويتعاملون مع مواقفها على وفق فهم وتفسير الظواهر والتحكم بها ووعي كما في قوله تعالى " **علم الانسان ما لم يعلم** " .

٢. **الدافع كتكوين فرضي** : يتضح من خلال وظيفتين :-

أ- وظيفة تنشيطية او تحريكية ، اساسها بايلوجي لذا فأن اتجاهات الناس مختلفة بسبب دوافع نفسية كامنة.

ب- وظيفة توجيهية او تنظيمية ، ويعرف الدافع لتكوين فرضي ، بأنه عملية استثارة وتحريك وتنشيط وتوجيه وتنظيم السلوك نحو تحقيق هدف .

س// ماهي الوظائف التعليمية للدافعية التي حددها (ديسكو) ؟

ج// الوظائف هي : -

١. **الوظيفة الاستثارية** : - من وجهة النظر لعلم النفس التي تتبنى نظرية التعلم بان الدافع لا يسبب السلوك وانما يستثير الفرد للقيام بسلوك وان درجة الاستثارة والنشاط العام للفرد على علاقة مباشرة بالتعلم وان توسط الدرجة من الاستثارة تؤدي الى افضل تعلم ممكن وان نقص الاستثارة يؤدي الى الملل وزيادة الاستثارة يؤدي الى النشاط والاهتمام الا أن الزيادة الكبيرة نسبياً يؤدي الى زيادة الاضطراب والقلق .

٢. **الوظيفة التوقعية** :- التوقع اعتقاد مؤقت بأن ناتج معين سيتبع سلوك محدد لكن ليست بالضرورة ان يرتبط الناتج مع المتوقع لذلك يوجد احياناً تباين بين الناتج الفعلي والتوقع وان الوظيفة التوقعية للدافع تتطلب من المدرس ان يوضح للطالب ما يمكن عمله بعد ان ينهي موضوعاً أو وحدة دراسية معينة وهذا له علاقة بالأهداف التعليمية .

- **كما وجد أن العوامل الأتية على علاقة مباشرة بتحديد مستوى الطموحات :-**

١. خبرات النجاح والفشل .
٢. طبيعة المادة الدراسية فمستوى الطموحات في مادة ما قد يختلف من مادة الى أخرى .
٣. بعض العوامل الشخصية مثل دافع الانجاز والميول فمستوى الطموح العالي متوقع من شخص بدافع انجاز عالي أو ميول ايجابية نحو مادة دراسية .
٤. بعض العوامل الانفعالية كعدم الطمأنينة وعدم الشعور بالأمان قد تدفع الفرد الى وضع اهداف عالية جدا أعلى مستوى من قدراته من اجل كسب الشعبية .
٥. ضغط الجماعة او الجماعات التي ينتمي أليها الفرد وخاصة الأسرة وجماعة الرفاق .

٣- الوظيفة الباعثة للدافع : البواعث عبارة عن اشياء تثير السلوك وتحركه نحو غاية ما عندما تقترب من مثيرات معينة وتحدد الوظيفة الباعثة عندما يكافئ المدرس تحصيل الطالب بالطريقة التي يشجع فيها جهود الطالب المبذولة في اتقانه المادة العلمية المقررة ، وتعني الوظيفة الباعثة ، المتغيرات البيئية التي لها تأثير ديناميكي مكتسب والتي تمثل انماط واساليب متعددة كالمدح او التشجيع والذم او التأنيب وكذلك تضم المنافسة والتعاون وان تقديم المدح والتشجيع او الذم والتأنيب يعد وسيلة باعثة وتعد التغذية الراجعة باعثاً له اهمية في التعلم ، ويقصد بها تعريف الطلبة على نتائج اختبارهم لكي يتعرفوا على الاجابات الصحيحة والخاطئة وان الملاحظات المرافقة للدرجة اكثر تأثيراً من مجرد وضع درجة من دون ملاحظات .

٤- الوظيفة العقابية (التهذيبية) : تتحدد باستخدام المدرس الثواب والعقاب حيث وضع (ثورندايك) قانونه الشهير (الأثر) الذي يعني أن الفرد يميل الى تكرار السلوك الذي يصاحبه أو يتبعه ثواب وينزع الى ترك السلوك الذي يصاحبه أو يتبعه عقاب فالاستجابة الناجحة في موقف معين تقترن بحالة من الرضا والارتياح والسرور وهذا بين المثير والاستجابة الناجحة وبما يؤدي الى تثبيت هذه الاستجابة وتذكرها في حين أن عدم الرضا وعدم الارتياح التي تنجم عن فشل استجابة معينة تقلل من احتمال حدوث هذه الاستجابة مرة اخرى .

استراتيجية استثارة دافعية الطلبة نحو التعلم :-

- **حدد (كلاوسماير) و (كودين) السبل أو الطرق التي يمكن اتباعها في ايجاد دافعية للتعلم :**

١. مناقشة مفردات المادة الدراسية المقررة والكتب والمصادر التي يمكن الاعتماد عليها والانشطة التي لابد من ممارستها .
٢. تنظيم الموقف التعليمي وبما يحقق اشباع حاجات الطلبة .
٣. استخدام انماط واساليب متعددة لأجل الباعثية للتعلم .
٤. خلق منافسة جماعية في الدرس بين الطلبة .

٥. تحقيق تعلم فعال ومنظم من خلال تحقيق تفاعل اجتماعي مع الطلبة .

تصـنيف الـدافعـية :-

١. **اثارة داخلية** : تعني تلك الاثارة التي توجد داخل النشاط او العمل او الموضوع التي تجذب المتعلم نحوها وتشده اليها فيشعر بالرغبة في اداء العمل والاثابة والتعزيز اصل النشاط في العمل .
٢. **اثارة خارجية** : تلك الاثارة الموجودة خارج العمل والنشاط او الموضوع ولا علاقة تربطهما به ألا من حيث الهدف او الطريقة ويتخذ المدرس الاثارة الخارجية بشكل معززات أو جوائز أو درجات مادية ومعنوية .

نـظـريات الدافعيــة في التــعلم : -

١. **نظرية الحاجات (موراي) :** تعتمد على الحاجات الانسانية في تفسير الدافعية واكد على ثلاث حاجات في تفسير الدافعية في المجال التربوي مثل الحاجة الى الانجاز – الحاجة الى الانتماء – الحاجة الى السيطرة ، ويرى أن هناك حاجات متعددة تؤدي الى التوازن الفسيولوجي لدى الانسان واطلق عليها الحاجات الفسيولوجية واعتبرها ليست فعالة في العالم المتحضر وحددها بـ(١٢) حاجة والى جانبها حاجات اخرى ذات مصدر نفسي سماها الحاجات النفسية وحددها بـ(٢٠) حاجة ، ومن اهم محاور الحاجات هي : -

أ- الحاجات التي تؤثر في عادات العمل والنظام مثل الترتيب والنظام والبناء والتركيب والمحافظة والامتلاك والاحتفاظ والاستبقاء والمعرفة واللعب والعرض .

ب- الحاجات الخاصة بالعلاقات مع الناس وتقسم الى :

- الحاجة الى التفوق بين الناس مثل التسلط والرفض والعدوان والاستقلال الذاتي والمخالفة والتناقض .
- الحاجة الى التقريب بين الناس مثل الانتماء والاحترام ومراعاة الاخرين وطلب العون والمساعدة .
- الحاجات التي تؤثر في مستوى الاداء مثل التفوق والتحصيل والثناء والمدح وتجنب الفشل والاستعراض والحفاظ على السمعة وتجنب فقدان الاحترام .

٢. **نظرية التنظيم الهرمي (ماسلو) :** تعتبر نظرية ابراهام ماسلو من نظريات الدافعية الزائدة يؤكد فيها ضرورة النظر الى الفرد ككل مركب ، وان أي سلوك مدفوع يمكن أن يشبع حاجات كثيرة في نفس الوقت وقد فسر الدافعية وفق مفهوم التصاعد الهرمي او السيطرة على الحاجات وان اشباع الحاجات ذات سلم هرمي يتم اشباع حاجات اكثر غلبة وسيطرة وان الحاجة التي لا تشبع لا تعتبر حاجة بعد ، فالشخص في نظره محكوم بما يصوره ويحتاج أليه وليس بإشباع حاجاته وقد حدد ماسلو نظام الحاجات الهرمي كما يلي :-

أ- **المستوى الاول** : الحاجات الجسمية الفسيولوجية وهي اكثر الحاجات اساسية وتتمثل في السعي الى الطعام والهواء وطلب الراحة والنوم وتقع هذه الحاجات في قاعدة الهرم ويشترك فيها كل الكائنات الحية .

ب- **المستوى الثاني** : حاجات الأمن وتتمثل في تجنب الاخطار الخارجية او أي شيء قد يؤذي الفرد .

ت- **المستوى الثالث** : حاجات الحب وتتمثل في الحصول على الحب والعطف والعناية والاهتمام .

ث- **المستوى الرابع** : حاجات التقدير والاحترام وهي الحاجات التي ترتبط بإقامة علاقات متطابقة مع الذات ومع الأخرين وتتمثل في أن يكون الفرد متمتعاً بالتقبل والتقدير الشخصي ويحظى باحترام الذات وان يتجنب الرفض أو النبذ .

ج- **المستوى الخامس** : الحاجات المعرفية ، وهي الحاجات التي ترتبط بالمعرفة والفهم والاستكشاف .

ح- **المستوى السادس** : الحاجات الجمالية ، وهي الحاجات التي ترتبط بالإحساس بالجمال والخيال والتناسق والنظام.

خ- **المستوى السابع** : الحاجة الى تحقيق الذات ، وترتبط بالتحصيل والانجاز والتعبير عن الذات والقيام بأفعال مفيدة ذات قيمة للآخرين وان يحقق امكاناته عن طريق ترجمتها الى حقيقة واقعية وتتمثل في القدرة على العطاء والمبادرة والعمل الحر ، وتقع أعلى قمة الهرم .

٣. <u>نظريات العزو :</u> وتشمل :-

أ- **نظرية روتر** : تصنف الدافعية وفق سببين هما :

- سبب داخلي : تعني مصطلح (موقع الضبط) والتي في ضوئها يرجع الافراد اسباب نجاحهم في الحياة أو فشلهم الى اسباب يتحملون مسؤوليتها ، وهؤلاء هم الذين يكون موقع الضبط لديهم داخلياً
- سبب خارجي : ان الذين يرجعون اسباب نجاحهم في الحياة أو فشلهم الى اسباب خارجية فيبحثون عن تفسيرات خارج انفسهم ، وهؤلاء هم الذين يكون موقع الضبط لديهم خارجياً .

ب- **نظرية هايدر** : ترى أن السلوك لا يكون مدفوعاً بقوى داخلية أو خارجية ما لم يكن الانسان يقصد الوصول الى هدف معين .

ت-**نظرية فينر** : يرى أن الناس يعزون نجاحهم أو فشلهم الى اسباب داخلية أو خارجية ثم يقسم هذه الاسباب الى مجالات منفصلة فقد يعزو الفرد نجاحه أو فشله الى قدرته أو مجهوده أو الاثنين معاً وبهذا يكون سبب السلوك خاضع لنوع من المسؤولية الشخصية أي ذات موقع (ضبط داخلي) ، اما موقع الضبط الخارجي ينسب الشخص نجاحه أو فشله الى عوامل ليس مسئولاً عنها وبالتالي لا يتحكم فيها مثل الحظ او صعوبة المهمة .

التعلم ومنحنيات التعلم

التعلم :

يعتبر التعلم من المفاهيم الأساسية لعلم النفس وليس من السهل وضع تعريف محدد لمفهوم التعلم ويكمن ذلك في اننا لا نستطيع ان نلاحظ عملية التعلم . ويمكن ان يعرف التعلم بأنه تغيير وتعديل في السلوك ثابت نسبيا" وناتج عن التدريب والتعلم يكون تعلما" حينما لا يكون ناتجا" بفعل او تأثير عوامل مثل النمو او النضج . ويعرف التعلم بانه : (تعديل في السلوك او تغير في الأداء نتيجة الخبرة او التدريب) . كما عرفه عثمان وانور الشرقاوي بانه : (عملية تغيير شبه دائم في سلوك الفرد نسبياً نتيجة الممارسة ويظهر في تغير الأداء لدى الكائن الحي) .

ويتمثل التعلم في ان هناك مجموعة من المعارف والمهارات تقدم للمتعلم ويبذل المتعلم جهدا" بهدف تعلمها او اكتسابها ويتحدد اكتسابها بمدى الفرق بين حالة الابتداء في الموقف وحالة الانتهاء منه فاذا زاد هذا الفرق في الأداء تضمن ذلك حصول تعلم ، لذا يقاس التعلم بوحدة الأداء ، والأداء هو السلوك الظاهر الذي يتم فيه قياسه لتحديد درجة التعلم .

ونلاحظ من خلال التعاريف السابقة ان التعلم عبارة عن عملية تغيير او تعديل في السلوك نتيجة اكتساب خبرة ولكي يتبع هذا التعديل في السلوك يجب ان يقوم المتعلم بنشاط معين ويتحكم في توجيه واثارة مجموعة العناصر والقوى الموجودة في البيئة الخارجية بالإضافة الى تحريك مجموع الدوافع والاتجاهات والميول المزود بها .

خصائص التعلم :

١. التعلم عملية تحدث نتيجة تفاعل الفرد مع البيئة .
٢. التعلم عملية تشمل كافة السلوكيات والخبرات المرغوبة والغير مرغوبة .
٣. التعلم عملية تراكمية تدريجية .
٤. التعلم عملية تتم بصورة مقصودة او غير مقصودة.
٥. التعلم عملية شاملة متعددة المظاهر فهي تتضمن المظاهر العقلية والانفعالية والأخلاقية والاجتماعية والحركية واللغوية .
٦. التعلم شبه دائم وثابت نسبياً اي ان التغيير في السلوك يجب ان يتكرر ظهوره في المواقف المتعددة .

شروط التعلم الجيد :

تحدث عملية التعلم نتيجة لتفاعل الفرد مع بيئته واكتسابه انماط سلوكية جديدة تساعده على التكيف مع البيئة وبناء على هذا فالتعلم لا يحدث صدفة لكنه يخضع لشروط معينة ومعرفتها تساعد المتعلم على اكتساب خبرات جديدة كما تساعد المعلم على اداء رسالته التربوية بصورة فعالة وتؤدي ثمارها بشكل جيد ، واهم الشروط اللازمة لتحقيق تعلم جيد : الدافعية ، النضج ، الممارسة.

١. **الدافعية** : ان وجود الدافعية عند الفرد شيء اساسي في عملية التعلم ولا يمكن ان تتم بدونه لذلك وضعت التربية الحديثة نصب اعينها ناحية أساسية المتمثلة في ضرورة استثارة دوافع المتعلمين نحو المواقف التعليمية عن طريق احتواء الدروس على خبرات تثير دوافع التلاميذ وتشبع حاجاتهم ورغباتهم فكلما كان الدافع لدى الكائن الحي قوياً كان رغبت الكائن الحي نحو النشاط المؤدي الى التعلم قوياً ، فالدافعية يقصد بها رغبة الفرد في التعلم حيث الفرد المتعلم يتعلم اذا كانت له الرغبة في التعلم والقدرة عليه واتيحت له الفرصة وقدم له الإرشاد المناسب.
٢. **الممارسة** : تعتبر الممارسة شرطاً هاماً للتعلم فهي تعني تكرار اسلوب النشاط مع توجيه معزز فلا يمكن الحكم على حدوث التعلم الا بالممارسة ولا يمكن الحكم على ان التعلم قد تم الا اذا تكرر الموقف وظهر التحسن في الإداء ، كما تعد الممارسة

عملية مهمة في تعلم المواد المعرفية بالمدرسة حينما يتيح المعلم لتلاميذه ممارسة المادة المتعلمة عن طريق الأسئلة والمناقشة تحت اشرافه وتوجيهه وارشاده فهو يتعامل مع افراد وصلوا الى مستوى معين من النضج الذي يعتبر ضرورياً لفهم عملية التعلم

٣. **النضج** : يتمثل في عملية النمو التي تلازم الكائن الحي في مظاهره المختلفة ويشمل النمو الجسمي والحركي والعقلي والانفعالي ونمو الجهاز العصبي واللغوي ولذلك يعتبر عاملاً اساسياً مؤثراً في عملية التعلم حيث هذا الاخير لا يتحقق الا اذا كان الفرد على مستوى من النضج يمكنه القيام بالنشاط اللازم للتعلم وقد يكون عقلياً او انفعالياً او اجتماعياً حسب نوع النضج الذي يتطلبه التعلم المراد تحققه ، كما يقصد بالنضج التغيرات الداخلية في الفرد التي تؤدي الى تكوينه العضوي ، اخيراً نستخلص ان الدافعية قوة داخلية تحرك المتعلم ليؤدي نشاط معين ولتحقيق ذلك يجب الاعتماد على الممارسة المعززة بمثيرات وان يكون المتعلم كامل النضج جسمياً وعقلياً ، ويعتبر كل من الدافع والنضج شرطان اساسيين في عملية التعلم وتظهر اهميتهما في العمل الممارس من طرف المتعلم والمعلم.

التعلم يغير في : –

أ- **الأداء:** نال التعلم عناية كبيرة في معامل علم النفس وبالتالي نشأت الحاجة الى تعريف متفق مع الأغراض التجريبية ولنضرب مثال لذلك اذا اردنا ان نعلم فأراً الخروج من صندوق على شكل متاهة فحبسناه فيه وهو في حالة جوع فأن الحيوان سيبذل اقصى جهد للوصول الى الطعام الخارجي لحاجته الشديدة اليه ويجب ان نتذكر ان الفأر لم يسبق له ان مر في خبرته بمثل هذا الموقف الذي يتعلق بالخروج من المتاهة ، وبتكرار هذه العملية عدة مرات مع تكرار نفس الشروط يمكن ان نقيس مدى التغير الذي يحدث في سلوك الحيوان في اكتساب طريقة الخروج من المتاهة.

اذن فالتعلم عبارة عن تغيير في الأداء نتيجة الممارسة وهذا التعريف مفيد لانه ييسر لنا قياس التعلم الحادث لدى الكائن الحي اثناء التجربة عن طريق قياس الزمن الذي يستغرقه الحيوان في الخروج من المتاهة فاذا نقص الزمن في كل محاولة عن السابقة وثبت اخيرا عند حد معين استطعنا ان نجزم ان ثمة تغيرا في اداء الكائن الحي ، وهذا التغيير يخضع لعوامل الممارسة لان ثمة تغييرات في الأداء تخضع لعوامل التعب مثالا او تعاطي المخدرات او شرب المسكرات او لعوامل النضج وهذه كلها تغييرات في سلوك الكائن الحي لا نستطيع ان نسميها تعلماً .

ب- **التنظيم الانفعالي** :التغير في التنظيم الانفعالي يأخذ اكثر من مظهر منها العادة الانفعالية كما يتمثل في العواطف والميول السائدة ومنها السلوك المرضي العصابي كنمط للهروب من المواقف كالتوقعية في الحياة ومنها اكتساب الاتجاهات والقيم ولا شك ان هذا النوع من التغير يعتبر المسؤول الأول عن تنوع اهداف السلوك البشري وينير لنا السبيل امام مدى القدرة التي نزود بها لتحديد اتجاهات الناشئة ودوافعهم في مستقبل ايامهم .

ت- **العادات الانفعالية** : العادات الانفعالية تتحكم كثيرا في سلوك الافراد واحياناً تسمى الميول السائدة وكثيرا ما نصادف افراداً في حياتنا اليومية موجهين في سلوكهم بميل سائد كالميل نحو جمع المال او الميل نحو التظاهر والمفاخرة والميل نحو اكتساب العلم وما الى ذلك ، اما فيما يتعلق بالأطفال فيجب ان نشير الى ان الميول السائدة تؤثر في سلوكهم من ناحيتين: –

١. وجود ميول غير صحيحة سائدة عند الطفل كالميل للمغامرة صورة مختلفة او الميل للتظاهر والمفاخرة الذي يضطر الطفل احياناً الى الكذب والسرقة والأساليب الأخرى من السلوك الجنائي .

٢. عدم وجود ميول سائدة إطلاقا لدى الطفل وكثيرا ما نقابل هذا النوع من الأطفال وهو يتميز باتجاه محايد نحو كل شيء فلا يهتم بأي شيء فقد يكذب ويسرق فلا يهتم إطلاقا وذلك لان الطفل عديم الميل السائد غالباً ما يكون سهل الانقياد الى الجناح او السلوك غير الاجتماعي ، اما الطفل الذي يحب صديقا له او يعجب بأمه او يشعر بأعجاب عميق لمدرسه فان احتمال انحداره

لأساليب السلوك غير الاجتماعي بعيدة وذلك لان هذه المشاعر ستقف حائلا دونه واساليب السلوك غير الاجتماعي لأنه ان فعل شيئا من ذلك سيؤذي ضمناً او صراحة موضوع عاطفته او موضوع ميوله السائدة .

ث- **الاتجاهات والقيم** : الاتجاه هو استجابة قبول او رفض لفكرة او لموضوع او لموقف بيد ان هذه الاتجاهات الجزئية تتجه نحو البلورة في سلوكنا الاجتماعي وبالتالي يصل الفرد الى مستويات او معايير للسلوك فيقرر بنفسه نوع الفرد الذي يود ان يكون عليه في المستقبل ويتأكد بنفسه من أي الأشياء والأمور وهو الذي يستحق الاهتمام والانتباه وهكذا يصل الفرد عن طريق تحديد مستوياته الى تكوين مثله العليا ، وحينما تعمم هذه المستويات والمثل العليا وتأخذ اطار معينا تصبح قيمه الأمر الذي يجعل من القيم نوعا من المعايير الاجتماعية تتأثر بالمستويات المختلفة التي يكونها الفرد نتيجة احتكاكه بمواقف خارجية معينة ونتيجة لخضوعه لعملية تعلم مباشر او غير مباشر من البيئة التي ينمو فيها سواء اكانت هذه البيئة الأسرة او الشارع او المدرسة او الأصدقاء او غير ذلك من المؤثرات الأخرى التي قد تؤثر عليه في حياته وفي تكوينه . والاتجاهات تعمل كموجهات للسلوك ودوافع له والعناية بتكوينها يتعلق الى حد كبير بالحفاظ على تراث الأمة والحضارة فالاتجاه ازاء الاستعمار والاتجاه ازاء الحرب والسلم والاتجاه ازاء حرية المرأة وحقوق الأنسان والاتجاه ازاء التنمية كل هذه الموضوعات يجب ان توجه العناية الى اكتسابها والتعديل فيها .

ج- **التنظيم المعرفي** :لعل هذا النوع من التغير هو الأكثر شيوعا لدى المختصين بالتربية والتعليم فكثير منا لازال يتصور ان غزارة المادة وكثرة المعلومات عند الطالب هي الآمور التي تساعده على النجاح في الحياة ولذلك يجب ان نشير الى ان اكتساب المعلومات لا يمثل الا جانباً واحداً من جوانب التغيير في التنظيم المعرفي اذ يوجد بجانبه اكتساب المهارات المختلفة واكتساب طريقة التفكير.

التعلم واكتساب اللغة :

من اهم مظاهر النمو النفسي التي شغلت الباحثين نمو الكلام واكتساب اللغة لان الكلام هو الوسيلة التي يتصل بها الأنسان ببيئته فيعبر عن افكاره ورغباته وميوله كما انها وسيلة لفهم البيئة الخارجية ونلاحظ ان اللغة ظاهرة تميز الأنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى وثمة فرق بين اللغة والكلام اذ يقصد باللغة جميع وسائل الاتصال التي يرمز بها الأنسان للتعبير عن افكاره ومشاعره فهي تشمل لغة الكتابة ، اي لغة الرسم والأشكال والصور ولغة الحديث التي يستعمل فيها الأنسان الأصوات المحددة المتصلة أي الكلمات للتعبير عن افكاره ومشاعره . ويلاحظ ان الطفل يبدأ في وضع لغته الخاصة به قبل ان يكتسب اساليب تعبير المجتمع اللغوية ويتعلم الطفل الكلام عن طريق اخراج اصوات من عنده تقارب تلك الكلمات التي يسمعها ممن حوله ولا يرث الطفل فيما نعلم أي تنظيم عصبي يرشده بدقة عن أي العضلات يجب استعمالها لإخراج صوت معين .

التعلم واكتساب المهارات الحركية :

ان اول مظاهر التعلم هو التغير في السلوك الحركي ولعل ذلك يرجع الى ان اول ما يطرأ على الطفل من تغيرات يتعلق بهذه التنظيمات السلوكية فالمشي مثال سلوك حركي والأنسان يولد مزودا بالقدرة على المشي وان كان يتأخر ظهورها الى حوالي عام بعد الميلاد ولكن نحن نتعلم طريقة المشي فاذا نظرنا الى مجموعة من الناس تسير في طريق عام لدهشنا من الأنماط المختلفة التي يتبعها افراد مختلفون في ادائهم لذات الوظيفة وطريقة تناول الطعام سلوكي حركي ، والكتابة سلوك حركي ان انماط التعلم العليا في السلوك الحركي تكمن في المهارات الحركية التي تميز الأفراد المحترفين للمهن الفنية والصناعية المختلفة ولا شك اننا الأن في امس الحاجة لدراسات تفصيلية للعادات الحركية في الصناعات المختلفة وخاصة في الصناعات الثقيلة ، وقد دخلنا في طور حضارة صناعية يتميز بالإنتاج المبدع .

فالمهارة اذن نتيجة لعملية التعلم وهي من السهولة والدقة في اجراء عمل من الأعمال وعملية اكتساب المهارات ما هي الا فصل متدرج لأجزاء المجال وتخضع لقوانين التعلم .

منحنيات التعلم

مفهوم المنحنيات :هي دراسة التغيرات الكمية التي تطرأ على الإنسان ، فالتغيرات الكمية هي مقدار التحسن لأداء المهارة وهي تعبير عن التحسن في الأداء نتيجة العملية التعليمية ، وتعرف كمية التحسن من خلال المنحنى فعندما يقوم اللاعب أو المتعلم بمحاولات عديدة سوف يرسم خطا بيانيا في كمية التحسن أو مقدار التحسن أي مقدار الممارسة التي تمثل عدد المحاولات ، فيمكن أن يرسم بمنحنى منحدر أو منحنى متصاعد ، المنحنى المنحدر يظهر الزمن والمنحنى المتصاعد يظهر عدد المحاولات لنوعية الانجاز المحقق بالنسبة للتعلم .

ويرى عالم النفس وجيه : بأن المنحنى هو تصوير شكلي للمحاولات والانجاز وهو مؤشر للتقدم الحاصل بين محاولة وأخرى للفرد

- **من أين نبدأ بتأشير المنحنى:**

نبدأ بتأشير المنحنى من أول وحدة تدريبية أو من أول مجموعة الوحدات التدريبية حيث أن التقاء الخط العمودي والأفقي في نقطة الصفر ، يبدأ المنحنى عند أول وحدة تعليمية أو تدريبية يؤشر لها مقدار مهما كانت قيمته ، اما في حالات قياس المنحنى في جهاز قياس القوة – الزمن ، فيبدأ المنحنى من الصفر، ولابد أن تتوفر في كل منحنى ثلاثة عوامل وهي بداية المنحنى ووسط المنحنى ونهاية المنحنى .

أنواع المنحنيات:

أن للمنحنيات أنواع عدة وهي كما يأتي:

١. منحنيات التعلم: هي كمية أو مقدار التحسن في التعلم التي تطرأ على الفرد المتعلم وهي أيضا عبارة عن رسوم بيانية لتسجيل عملية التعلم.

٢. منحنيات القوة والزمن: هي مؤشر بياني لقياس مقدار او كمية القوة المبذولة والزمن المستغرق بواسطة منصة خاصة لهذا الغرض تسمى منصة (فورست بلات فروم)

٣. منحنيات النمو والتطور: منحنى التطور هو منحنى وهمي يؤشر لنا مدى الانحدار أو الصعود ، والمؤشر هو نقطة بيانية لمعدل وسطي لمجموعة من الأفراد متجانسين في العمل والجنس ، وقد تزيد أو تنقص عن الحقيقة ، فالنمو هو عملية متتابعة في التغييرات الوظيفية والتكوينية ، اما التطور يتابع هذا النمو عن طريق المعدل الوسطي لإيجاد مؤشر لذلك التطور من مرحلة إلى أخرى وفي كل مرحلة عمرية ، بحيث تكون هذه المنحنيات تقويمية . وان هذه المنحنيات والمؤشرات تظهر عند أيجاد اختبار وقياس لهما ، وهناك الكثير من النماذج نستطيع تأشيرها في النمو والتطور كالقياسات الانثربومترية أو قياسات الصفات البدنية أو الحركية أو الوظيفية .

أنواع منحنيات التعلم :

هناك أنواع من المنحنيات للتعلم يمكن للمدرب أو المعلم استخدامها وهي :

١. منحنى النجاح : وهو الذي يبين مقدار النجاح أو مقدار زيادة التحصيل في أثناء التعليم مثلا يمكن للمدرب الرياضي تسجيل المقدار الذي حققه الفرد عند تعلم مهارة حركية معينة مثل التصويب على الهدف في كرة القدم أو في كرة اليد أو التصويب على السلة .

٢. منحنى الخطأ : وهو المنحنى الذي يبين عدد الأخطاء التي يرتكبها المتعلم أثناء أدائه لمهارة معينة ، فيقوم المدرب بتسجيل عدد الأخطاء وكلما تقدم المتعلم بالمهارة كلما تحسن مستوى أدائه وقلت أخطائه .

٣. منحنى الزمن : في هذا النوع من المنحنيات يظهر مقدار التحسن في الأداء خلال المواقف التعليمية من خلال نقص الزمن الذي يستغرقه الفرد عند أداء مهارة حركية معينة خلال القياس .

- **أشكال منحنيات التعلم :**

توجد أشكال عدة لمنحنيات التعلم وهي :

١. منحنيات التعلم السلبية (ذات البداية السريعة) : أن هذا النوع من منحنيات التعلم يظهر تحسن واضح وسريع في المراحل الأولى من التعلم فبذلك فأن هذه المنحنيات تسمى احيانا منحنيات البداية السريعة ٠

ويعزى هذا التحسن أو التطور السريع إلى أسباب عدة ومنها ما يأتي :

أ- عندما تكون عند اللاعب أو المتعلم خبرة سابقة

ب- عندما لا يعرف اللاعب أو المتعلم تفاصيل الحركة

ت- الاستعداد العالي والتحسن للأداء

ث- عندما يقوم اللاعب أو المتعلم بالموقف التعليمي الذي يكون موقفا سهلا ويدرك أجزاء هذا الموقف والعلاقة بسهولة

نلاحظ في هذا المنحنى أن التحسن يكون كبير في بداية التعلم ، ثم يزداد التحسن بعد ذلك ببطء مثلا النقص في الوقت الذي تأخذه المحاولات بعد أداء المحاولة الأولى لقطع مسافة معينة حيث يزداد التحسن ببطء في المحاولات المتأخرة .

٢. منحنيات التعلم الايجابية (ذات البداية البطيئة) : هو منحنى يكون التعلم في بدايته ضعيف ، ولكن يتحسن بعد ذلك بمرور المواقف التعليمية بسبب أن هذه المواقف التعليمية اما أن تكون صعبة أو لا يوجد تجارب سابقة لدى الرياضي لهذا على المدرب أن ينتظر إلى انتهاء الوحدات التعليمية أو التدريبية بالبرنامج لمعرفة ايهما أحسن وبخاصة أذا كان المدرب لديه مجموعة أفراد أو فريقا لان هناك فروق فردية بين المتعلمين، كما يمكن أن يعزى السبب لحدوث هذا المنحنى لوجود نقص في حماس ودافعية اللاعب أو المتعلم نحو الأداء .

٣. المنحنى المستقيم (الخطي) : وهو منحنى على شكل خط مستقيم ويعني تحسن متدرج في التعلم .

٤. المنحنى النموذجي (المثالي) (حرفs) : هذا المنحنى يشير إلى تعجيل ايجابي ثم إلى تعجيل خطي ثم إلى تعجيل سلبي إذ يحتوي على منحنيات عدة في وقت واحد ، ويقترب هذا المنحنى إلى الحرف اللاتيني s هذا الشكل يرسم عندما يكون المتعلم دون سابق خبرة ويأخذ زمنا طويلا لان المهارات بالنسبة له صعبة ثم تزداد درجة التعلم بالتدريج ثم يبدأ بالنقصان ويستمر بالتعلم بسبب استجابته إلى المهارات التي تعلمها ،ان هذا الشكل يرسم لرياضي المستويات العليا ولفترة تدريبية طويلة جدا تقدر بالسنوات .

٥. المنحنى الفردي والجمعي للتعلم: يقسم الى :-

أ. المنحنى الفردي للتعلم : وهو المنحنى الذي يعبر عن التغيير في الأداء للفرد الواحد في موقف تعليمي معين ونلاحظ انه في منحنى تعلم الناشئين ظهور بعض الذبذبات في المنحنى وهذا يعود إلى عوامل الصدفة التي لم يستطيع المتعلم السيطرة عليها ومن تلك العوامل التشتت وتذبذب الدافعية مما يؤثر على نشاط الفرد المتعلم أثناء التجربة.

ب. المنحنى الجمعي : وهو من أبسط الطرق التي تستعمل في تكوين المنحنى الجمعي طريقة متوسط المحاولات المتماثلة بالنسبة لأفراد مختلفين وهذه الطريقة تستعمل في حالة تساوي العدد الكلي للمحاولات بالنسبة لجميع الافراد .

أهمية المنحنيات:

للمنحنيات أهمية كبيرة وهي على ما يأتي :

١. طريقة موضوعية للحكم على الشيء

٢. تظهر مستوى اللاعب او المتعلم
٣. تظهر مستوى عملية التدريب أو عملية التعلم
٤. تظهر مستوى الوسائل التعليمية
٥. الكشف عن الخطأ
٦. التنبؤ
٧. تساعد المدرب أو المدرس على تسجيل جميع النتائج في سجلات خاصة لكل لاعب أو المتعلم من خلالها يعرف الأسباب التي أدت إلى هبوط المستوى .
٨. تمد المدرب او المدرس بالمعلومات الضرورية لاختيار الطرائق أو الأساليب والوسائل المستخدمة في عملية التدريب أو عملية التعلم لتطوير الانجاز أو الأداء .

العوامل المؤثرة في منحنيات التعلم :

توجد بعض العوامل التي تؤثر في منحنيات التعلم وهي على الوجه الآتي:

١. استيعاب اللاعب او المتعلم
٢. مقدار التدريب أو التعلم
٣. طريقة أو أسلوب التدريب أو التعلم
٤. قدرات اللاعب أو المتعلم
٥. مبدأ الاستعداد
٦. التجارب السابقة للاعب أو المتعلم

❖ **هضبة التعلم الحركي:**

يظهر لنا في بعض الأحيان من خلال رسم منحنى التعلم فترة لا يطرأ فيها تحسن ظاهر على مستوى الأداء بالرغم من استمرار الممارسة والتدريب ، ويبقى مقياس التعلم ثابت دون تغيير ولعدة محاولات وقد يستمر عدة وحدات تدريبية حيث نطلق على هذه الفترة (بهضبة التعلم) ، أي الثبات أو الاستقرار في منحنى التعلم ، أن هذا الاستقرار يمثل ثبات كاذب وموقف يتبعه تصاعد تدريجي بالمستوى ، إذن هضبات التعلم ليس من الظواهر الحتمية في منحنى التعلم .

أسباب ظهور الهضبة : –

أن ظهور الهضبة يعود إلى عدة أسباب ومنها ما يأتي: –

١. ظهور حالة التعب المؤقت لدى المتعلم
٢. ضعف الدافعية نتيجة الفشل المتكرر والخوف
٣. التركيز على بعض المؤشرات الخاطئة التي يكتسبها بشكل غير مقصود أثناء التعلم
٤. ضعف في البرنامج التعليمي
٥. عدم الاتقان والثبات في المستوى
٦. ضعف طريقة الانتقال من مرحلة تعليمية إلى أخرى ومن مستوى بسيط إلى أصعب
٧. قد تمثل الهضبة النهاية التي يستطيع الفرد الوصول اليها ، أي أقصى مستوى يصل اليه المتعلم وهذا ما يسمى بالحد الفسيولوجي ، وقد تمثل هذه الهضبة في كثير من الأحوال الحد الفسيولوجي وهو عبارة عن ظاهرة من الهضاب يمر بها اللاعب أو المتعلم في حالة ثبات في المستوى فيتوقف عن التطور أو التحسن ، إلا أن يختار طريقة أو أسلوبا أخر من التدريب أو التعلم ، ويمثل هذا الحد اشد فترة في عملية التدريب أو عملية التعلم وهي فترة خطيرة لأنها تسبب فقدان الرغبة والدافعية والحماس لدى اللاعب أو المتعلم ، وان الحد الفسيولوجي هو أعلى حد يصل اليه اللاعب أو المتعلم ولا يستطيع أن يتقدم فيه ثم يبدأ بالهبوط

بمستوى أداءه وهنالك ظاهرة عادة تسمى ظاهرة الذبذبات (هضبة الذبذبات) التي ترسم في معظم منحنيات التعلم وهذه الذبذبات تمثل بعض التغيرات الدقيقة في النواحي الجسمية الفسلجية لدى اللاعب او المتعلم (كالدورة الشهرية عند المرأة) واذا كانت هذه التغيرات الدقيقة معروفه يكون هنالك مجال امام المدرب او المدرس لتجاوزها لكن الأخطر أذا لم تكن معروفة .

كيف يمكن اختراق هضبة التعلم :

أن تعلم المهارات الرياضية يتم عن طريق التكرار والتصحيح وهذا يفيد التعلم بصورة عامة ، وان المتعلم يصل إلى سقف التعلم حيث يحدث ثبات في الأداء ويكون التطور والتحسن صفرا ، أن الوصول إلى هذا الحد يسمى هضبة التعلم ،وان الأفراد يختلفون في هضبة التعلم ويعود ذلك إلى القابليات والفروق الفردية ٠ والسؤال هنا هل يقف المدرب أو المربي عند هذا الحد ؟ وكيف يمكن من اجتياز هضبة التعلم ؟

لو أخذنا المنظور الداخلي للتعلم الحركي لوجدنا أن المتعلم يعد برنامج حركي للتحرك ويقوم بتكراره وتصحيحه لغرض زيادة الدقة في الأداء مما يؤدي إلى زيادة الانجاز ويصل البرنامج الحركي إلى درجة الثبات والآلية في التنفيذ ، أن الثبات يعني أن التحسن يكون صفرا ، فإذا أردنا أن نجتاز هضبة التعلم فيستحسن أيجاد طرق جديدة للتمرين على تطوير البرنامج الحركي للمهارة ان تطوير البرنامج الحركي يكون عن طريق تعريضه إلى متطلبات جديدة وصعبة حتى يتم التكيف مع الوضع الجديد ، أن احدي الطرق لتطوير البرنامج الحركي لمهارة معينة هي أداؤها في ظروف جديدة ، ومثال على ذلك أذا أردنا تطوير دقة التهديف بكرة القدم بالرجل المفضلة نجعله يتدرب بالتهديف بالرجل غير المفضلة ٠ أن هذا التدريب يعني أن البرنامج يجب أن ينفذ ولكن بقدم لم تتعود على ذلك ، ويحاول المتعلم التكرار والتصحيح لتنفيذ التهديف بالقدم غير المفضلة أن هذا يعني إننا وضعنا متطلبات جديدة للبرنامج الحركي ومطلوب منه التكيف لذلك ٠ ومتى ما تكيف وتطور التهديف بالرجل غير المفضلة وعاد اللاعب إلى الرجل المفضلة سيجد أن التهديف بالرجل المفضلة قد تطور نظرا لتطور دقة البرنامج الحركي ، وخلاصة القول أذا أردنا اختراق هضبة التعلم فيجب أن نغير التدريب ، وأحدى طرق التدريب هي استخدام الجزء الأخر من الجسم والذي لم يتعود على تنفيذ تلك المهارة.

الـتذكر :

تعريف التذكر : يعني التعرف والاسترجاع والتذكر بمعناه العام استرجاع ما سبق ان تعلمناه واحتفظنا به فإذا تذكرت اسم صديق هذا يعني انني تعلمت هذا الاسم من زمن مضى واحتفظت به طول هذه الفترة التي انتهت بتذكري اياه فكان التذكر يتضمن التعلم والاكتساب ، كما يتضمن الوعي والاحتفاظ .

- **هناك طريقتان للتذكر همـــــا :-**

١. **الاسترجاع** : يعني استحضار الماضي في صورة الفاظ او معاني او حركات او صورة ذهنية مثل استرجاع بيتاً من قصيدة او منظر من رحلة قمنا بها او حادثة وقعت لنا منذ زمن بعيد ، كما نتذكر طريقة ركوب الدراجة الهوائية او سياقة سيارة . اذن الاسترجاع هو تذكر شيء غير ماثل امام الحواس .

٢. **التعرف** : يعني شعور الفرد ان ما يدركه الان هو جزء من خبراته السابقة وانه معروف ومألوف لديه وليس شيئا غريبا عنه او جديدا عليه ، وقد يحدث الاسترجاع دون تعرف فقد اعجز عن استرجاع اسم او قصيدة او تاريخ لكن استطيع التعرف عليها متى عرضت عليه اذن التعرف هو تذكر شيء ماثل امام الحواس ، فأن عملية **التذكر تحوي اربع مراحل للتذكر هي** : -

أ- التعلم (الحفظ) .

ب- الاحتفاظ (الوعي) .

ت- الاسترجاع .

ث- التعرف .

العوامل المساعدة على الاسترجاع أو التذكر وتقسم الى :-

١. العوامل الذاتية المساعدة على الاسترجاع (قوانين التداعي الأولية) :- وتشمل :-

أ- **الاسترخاء وعدم بذل جهد** : احيانا يصعب على الشخص تذكر اسم ما فأنه بعد فترة يتذكر الاسم أي أن التوتر والضغط النفسي لا يؤدي الى زيادة التذكر مثل الطالب عند ساعة الامتحان يرتبك وقد يؤدي هذا الى عدم تذكر المعلومات والارقام بنفس المستوى بعد خروجه من الامتحان .

ب- **التهيؤ الذهني** : هو استعداد الفرد وتأهبه للقيام بنشاط معين ذهنياً كان أم حركيا مثل نسيان الطالب مفردات او معلومات بعد الامتحان في المواد الدراسية اكثر من نسيانها قبل الامتحان وهو في حالة تهيؤ شديد لاسترجاع المعلومات مثال عرضت صورة على ثلاث مجاميع من الاشخاص ،

وطلب من المجموعة (أ) تذكر الشكل والمجموعة (ب) تذكر الالوان والمجموعة (ج) تذكر الشكل والالوان فقد تفوقت المجموعة (ج) على الكل .

ت- **حاجات الفرد وميوله ورغباته** : عند تعلق حاجات الفرد بشيء معين يسهل تذكره فالفرد الجائع يتذكر اصناف الطعام ومذاقه والصائم في رمضان يتذكر برودة الماء اكثر من الشخص المكتفي من حيث الطعام والشراب .

ث- **انفعالات الفرد** : انفعال الفرد اثناء الحادث او الموقف قد تترك اثار نفسية لا ينساها .

٢. العوامل الموضوعية المساعدة على الاسترجاع (قوانين التداعي الثانوية) ومنها :-

أ- **التكرار** : تكرار رؤيتك لشخص او سماعك لأغنية يسهل استرجاعها اذا تكرر عدة مرات اما اذا كان مرة واحدة غير كافي لتذكرها بدقة .

ب- **الحداثة** : الامور او الاشياء او الاشخاص التي تعرفت عليها او التقيت بها حديثا تكون اسهل تذكرا من غيرها أي من اشياء سابقة مثل تذكر أخر محاضرة او اخر مرة التقيت بها بصديقك .

ت- **الحدة او الاولوية** : الاحداث التي نلتقي بها لأول مرة تكون اسهل تذكرا من غيرها مثل تذكر اول يوم دخلت به الكلية او اول انطباع عن شخص ما او اول محاضرة في مادة جديدة .

ث- **الشدة** : الاشياء او الحوادث العنيفة التي يكون لها وقع شديد في النفس او التي تثير انفعالات شديدة تكون اسهل استرجاعا من غيرها مثل دعوة الى حفلة او اجريت لك عملية جراحية او حادثة معينة سواء كانت حزينة او سارة .

ج- **استكمال الملابسات** : تعني وجود الفرد في نفس المجال الذي اكتسب فيه الذكرى يساعده على الاسترجاع مثل قد يصعب على طالب ان يتذكر ابيات شعرية حفظها او تعرف عليها سابقا امام جمهور من الناس وقد دلت التجارب على ان اداء الطلاب للامتحان يكون احسن حين يجري في نفس المكان الذي تلقوا فيه دروسهم .

<u>انواع الذاكرة</u> : ان الذاكرة بوصفها عملية عقلية مركبة يمكن تصنيفها الى انواع هي :-

١. **وفقا للنشاط النفسي** : وتشمل :-

أ- **ذاكرة حسية** : هي الذاكرة المتعلقة بما هو موجود في الطبيعة او البيئة المحيطة للشخص من خلال اعضاء الحس او الحواس الخمسة والمادة التي تحفظ في الذاكرة الحسية تشبه الصورة التي تبقى في مخيلة الشخص بعد النظر اليها فهذه المادة او المعلومات تختفي في اقل من الثانية الا اذا تم نقلها الى جهاز الذاكرة قصيرة المدى وبصورة سريعة .

ب- **الذاكرة اللفظية المنطقية** : تعني ان الفكرة لا توجد بدون اللغة وانما تتجسد الفكرة من كلمة او رمز لتعبر عن معاني الاشياء ويكون صاحبها متمكن من حفظ الكلمات والالفاظ وغيرها .

ت- **الذاكرة الحركية** : تعتبر ذات اهمية خاصة في التدريب على الالعاب الرياضية وفي بعض الاعمال تستلزم عادات حركية مثل التمثيل الصامت او لعبة الشطرنج او حل الكلمات المتقاطعة .

ث- **الذاكرة الانفعالية** : تتمثل في حالات انفعالية مقترنة بمواقف سابقة مثل شعور الفرد بالخوف ازاء مثيرات معينة سابقة تذكره بخبرة مؤلمة عاشها في موقف سابق وتكون حالة سلبية وعكسها شعور الفرد بالارتياح ازاء مثيرات معينة تدعى انفعالات ايجابية .

٢. **وفقا لأهداف النشاط : وتقسم الى نوعين :-**

- **الذاكرة الارادية** : يقوم الطالب بحفظ واستيعاب المعلومات عن قصد لكي يتذكرها جيدا في مواقف اخرى مثلا عند الامتحان يتذكر موضوعات معينة لها ارتباط بأهداف السؤال .
- **الذاكرة اللاإرادية** : قد نتذكر اشياء او مواقف لا علاقة لها مع بعضها ولا توجد اهداف محددة توجه العمليات العقلية المتضمنة من الذاكرة وجهة معينة في هذا النوع يقفز الى الوعي نماذج لإحداث او ظواهر او اشخاص بدون قصد .

٣. **وفقا لاستمرارية الاحتفاظ بمادة الذاكرة : وتقسم الى نوعين :-**

أ- **الذاكرة قصيرة المدى** : تعني عبارة عن خزن المعلومات او استبقائها لفترة وجيزة وقد اثبتت التجارب الفسيولوجية ان الذاكرة القصيرة يبلغ مداها نصف ساعة تقريبا او اقل من ذلك عادة لمدة (١٥) ثانية او نصف ساعة ، وتعتبر الذاكرة قصيرة المدى مركز تنفيذي من خلال دخول المعلومات اليها من الذاكرة الحسية وخروجها الى الذاكرة بعيدة المدى وبهذا فهي تؤدي وظيفة التخزين بالنسبة للمعلومات .

ب- **الذاكرة بعيدة المدى** : أن المخزن القصير المدى هو المسؤول عن استرجاع كلا من الذكريات طويلة المدى والقصيرة المدى وان المخزن طويل المدى يخزن المعاني والافكار لأيام واشهر وسنين بل العمر كله والبحث عن استرجاع كل من الذكريات طويلة المدى في الذاكرة الطويلة يكون سريعا دون جهد وخاصة اذا استعملت اما اذا اهملت ولم تستعمل قبل الاوان فان البحث عن المعلومات يكون عملية شاقة ومضيعة للوقت وان أي مادة مخزونة في المدى الطويل يمكن تنشيطها ونقلها الى المخزن القصير المدى .

نظريات تفسير الذاكرة :

- **النظرية الفسيولوجية** : وتقسم الى :-

أ- **النظرية التشريحية :** ان كثرة تنبيه مناطق معينة من القشرة المخية أي ان كثرة المثيرات البيئية والثقافية تؤدي الى زيادة سمك القشرة المخية والعكس عند قلة المثيرات البيئية والمنبهات ، وقد وجد ان عدد النهايات العصبية والعقد الاشتباكية في القشرة المخية يزداد بتقدم العمر ونمو الخبرة وتؤدي زيادة القشرة المخية الى زيادة العقد الاشتباكية او حجمها او تركيبها الكيماوي مما يؤدي الى سهولة مرور الاشارات العصبية ، وقد

اجريت دراسة على منطقة من المخ تسمى (المنطقة المفسرة) انها اذا نبهت كهربائيا فأنها تستطيع استدعاء سلسلة من الخبرات السابقة لدى الفرد فهي اشبه بشريط تسجيل سينمائي متحرك داخل المخ بالصوت والصورة والافكار نفسها .

ب- **النظرية الكيماوية :** وجد ان المعلومات التي تثبت في الذاكرة لا يمكن محوها من الجهاز العصبي سواء بالرجات الكهربائية او التخدير الطويل او تخفيض درجة حرارة الدماغ لفترة طويلة .

ت- **نظرية الدوائر العصبية : هناك** من يرى ان التأثيرات الحسية الواردة للمخ تولد نمطا من النبضات العصبية في دوائر عصبية مكونة من عدة عصيبات تحتفظ بهذا النمط من الفعالية لفترة طويلة وكلما نبهت هذه الدوائر العصبية بمنبه يرتبط مع الفكرة المخزونة برباط وظيفي تزايدت فعاليتها لحد يوصلها الى مناطق القشرة المخية الاخرى فتصل لدرجة الوعي فيتذكرها الشخص .

العوامل المؤثرة في الذاكرة : تتأثر بعوامل داخلية متعددة اهمها :

١. **المستوى العمري** : وجدت الدراسات التي اجريت في هذا الميدان ان النمو السريع لقدرة التذكر بين سن (٢٠-١٠) سنة وقمة القدرة عن عمر (٢٠) سنة ثم تأخذ بالتدهور ببطء حتى سنة (٤٥) سنة رغم ان ذلك يتعلق بنوع المهمة او العمل او المهنة التي يمارسها الفرد .
٢. **نوع المادة المراد تذكرها** : ان المعلومات ذات المعنى هي التي يتم خزنها في الذاكرة البعيدة المدى هي اسهل استرجاع من المعلومات التي تخزن في الذاكرة قصيرة المدى والمادة ذات المعنى اسهل تذكر من مادة عديمة المعنى .
٣. **طرق تعلم المادة** : هناك طرق متعددة يستخدمها المتعلم لأجل اتقان وخزن المادة لفترة اطول ثم سهولة استرجاعها وقت الطلب وتتوقف على نوع المادة ومستواها العلمي فهناك طريقة كلية تعني حفظ المادة ككل دون تجزئة المادة الى اجزاء ومحاولة اتقان وحفظ كل جزء وقد يلجأ المتعلم الى التسميع اولا خاصة عندما تكون المادة طويلة .
٤. **الفروق الفردية** : ان المتعلمين ذوي القدرة او المستوى العقلي الجيد والذاكرة الفعالة هم اكثر حفظا من غيرهم والمتعلمين ذوي التعلم السريع اكثر تذكرا من ذوي التعلم البطيء .
٥. **الجنس (ذكر ، انثى)** : تؤكد الدراسات لا توجد فروق فردية بين البنيين والبنات والبنين مع بعضهم والبنات مع بعضهن ، لكن المعروف ان البنات يتفوقن في عملية خزن المعلومات اللغوية واستعادتها وتفوق البنين في خزن المعلومات الرياضية والميكانيكية .

طرق او سبل تحسين الذاكرة : هي :-

أ- **الاستظهار الجيد** : يستفاد المتعلم كثيرا من قضاء اكثر الوقت في الاستظهار ومراجعة المادة وفهمها ويحتاج الى وقت اطول ، اما القراءة المجردة فلا تحتاج الى وقت طويل .

ب- **التنظيم الجيد :** يلاقي المتعلم صعوبة في استرجاع المادة والتعرف عليها في حالة جمعه للمعلومات في الذاكرة البعيدة المدى دون ان يعتني بتنظيمها اما عند تنظيمه للمادة فان ذلك يحقق ربطا بين المعلومات الجديدة التي تم اكتسابها سابقا ، فالتنظيم يعني البدء من السهل الى الصعب ومن الصعب الى الاصعب ومن الجزيئات الى الكليات مثال : تسلسل محتوى المادة الدراسية في فصول والاطلاع ودراسة فصل بعد الاخرى يعني تنظيم المادة الدراسية حسب اهميتها بالنسبة للمتعلم .

ت- **استخدام حيل الذاكرة** : تعني وسيلة المتعلم من اجل تنظيم_المعلومات التي يستظهرها والتي تنتج له الربط بين المعلومات الغير المرتبطة ليحصل على مجموعة معلومات مترابطة ذات معنى وهذه الطريقة يلجأ أليها المتعلم لتحقيق حفظ جيد من امثلة ذلك ربط اسم شخص جديد بشخص قريب عليك يسهل استرجاعه .

ث- **احترام زمن التعلم :** توزيع زمن الدراسة على شكل فترات زمنية محددة يسهل عملية استيعاب المادة وتحليلها وفهمها كذلك اتباع المتعلم ممارسة تحضير يومي مستمر يحقق له اتقان المادة واتقان التعلم مما يسهل استرجاع المادة اثناء الامتحان .

ج- **التسميع :** ان قراءة المادة مرات عديدة لا يحقق نفعا اذا لم يصاحبها استرجاع المادة مع التركيز على النقاط المهمة .

المحاضرةالسابعة . . علمالنفس . د . رشاجميل / ٢١ شباط ٢٠٢٢

م// النســــــــــيان

تعريفه : هو فقدان طبيعي جزئي او كلي مؤقت او دائم لما نكتسبه من ذكريات ومعلومات ومهارات حركية فهو عجز عن الاسترجاع او التعرف او عمل شيء .

هناك نوعين من النسيان :

١. طبيعي : يحدث عند معظم الناس وقد يكون السبب وجود اكثر من فكرة يفكر بها الشخص او المطلوب منه انجاز عدد من الاعمال خلال فترة من الوقت .
٢. مرضي : الشخص يفقد ذاكرته على فجأة عقب اصابة او صدمة دماغية او انفعالية او فقدان الذاكرة تدريجياً كما في بعض الامراض العقلية .

نظريات تفسير النسيان :

١. **نظرية الترك او التأكل** : ترى أن الخبرات والذكريات تضعف وتضمر نتيجة عدم استعمالها .
٢. **نظرية تغير الأثر** : أن ذاكرة الفرد تميل الى أن تغير ما سبق أن رآه الفرد بأساليب معينة وان كل تغيير يقوم به الفرد لما سبق أن رآه يعتمد على احدى المبادئ التالية كما اكدته نظرية الكشتالت : –
   أ– الاغلاق : الميل الى اغلاق شكل مفتوح مثل الهلال والمربع ذي ثلاث اضلاع .
   ب– الشكل الحسن : الميل الى كمال الشكل كالمربع الناقص .
   ت– التناسب : الميل الى توازن الشكل عمود مائل من بين مجموعة اعمدة .
٣. **نظرية فشل الاسترجاع** : يظهر النسيان بسبب فشل معين قد يطرأ على الميكانزمات المسؤولة عن عملية التذكر وغالباً ما تفشل هذه الميكانزمات .
٤. **نظرية الكبت** : أن نسيان المواعيد والتواريخ والاسماء والاحداث قد ينتج من رغبات مكبوتة ويرى (فرويد) اننا ننسى عن طريق الكبت مثل لا نريد تذكر ما هو ذو صبغة وجدانية مؤلمة خاصة الذي يجرح كبريائنا فقد ننسى اسم شخص لأننا نكرهه او نخاف منه ونادراً ما ننسى اسم شخص نحبه او رقم تلفونه .
٥. **نظرية التداخل او التعطيل** : هناك تعطيل رجعي (تداخل قبلي) أي الشخص أن أتم حفظ موضوع معين كقصيدة مثلاً ثم شرع بعد ذلك مباشرة ودون أن يأخذ فترة راحة في حفظ مادة أخرى كقائمة من الارقام فان نسبة ما ينساه من الشعر تكون اكبر بكثير منها لو كان استراح فترة حفظه الشعر ، وهناك تعطيل بعدي (تداخل بعدي) يعني أن التعلم السابق قد يعطل التعلم اللاحق فتعلم السباحة قد يعطل تعلم كرة القدم ، مثال : اذا اعطينا شخص رقم هاتف ثم رددنا عليه رقم أخر فأنه لا يستطيع تذكر الرقم الاول ، اما اذا اعطيناه رقم ورددنا عليه بعض الاحرف فان تذكره للرقم يكون اسهل .

٦. **نظرية التأكل في الذاكرة الايقونية :** وتسمى بالذاكرة الحسية وان جزء كبير من المعلومات فيها يختفي مع مرور الوقت ولكن يمكن حفظ المعلومات مؤقتاً على الاقل اذ انتبه المتعلم الى المعلومات وحاول فهم معناها أذ ان الانتباه الى المعلومات والحقائق التي يستلمها الفرد من البيئة المؤثرة فيه ومحاولته فهم تلك المعلومات يؤدي بها الى الانتقال اوتوماتيكياً الى الذاكرة ذات المدى القصير وقد اطلق على هذا النوع من الانتقال بـ(الاسترجاع من الذاكرة الحسية) .

٧. **التأكل في الذاكرة القصيرة المدى :** دلت الابحاث أن المادة تختفي عادة في الجهاز قصير المدى في حوالي (٢٠-١٥) ثانية ، وهذا الاختفاء يعرف بالتأكل نتيجة مرور الزمن لذا فان الطالب الذي يكتب الملاحظات عن المحاضرة ويناقش ما جاء بها في ذهنه بشكل فعال يكون قد استعاد المعلومات عدة مرات في الذاكرة القصيرة المدى ويمكن من خلال ذلك وضع جزء من المعلومات في الذاكرة البعيدة المدى وخلال (١٨) ثانية تفقد فرصة انتقال المعلومات من الذاكرة القصيرة الى البعيدة بسبب التأكل او عدم الاستخدام او المراجعة مثال : اذا اعطينا عدد من الافراد مجموعة من الاحرف ثم عدة ارقام وذلك لمنعهم من حفظ مجموعات الحروف وبعد مرور (١٥) ثانية نطلب ان يتوقفوا عن العد بالنسبة للأرقام ، وان يستدعوا الحروف هنا احتمال استدعاء مجموعة من الاحرف لكن بعد (١٨) ثانية لا يمكن استدعاء الاحرف لان الحفظ يهبط سريعاً .

٨. **نظرية النسيان عن دافع :** استنتج كثير من علماء النفس ان الكثير من النسيان قد يكون راجعاً الى محددات دافعية فالذكريات التي تسبب ألم نفسي ومعاناة نحاول دائماً نسيانها ، وهذه النظرية تعتبر الكبت اكثر الموضوعات تأثيراً على دافعية انخفاض التذكر ، وهناك من يعتبر أن النسيان بالكبت يمكن اعتباره نسيان بالتداخل بين رغبتين شعورية ولا شعورية والتي تظهر في فلتات اللسان أو زلات القلم ومنهم من يرى ان النسيان بالكبت يعتبر عجزاً عن الاسترجاع وليس قصوراً او ضعفاً في الاحتفاظ .

****

نظريات التعلم وقوانينه

اولا : نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ

ترتبط هذه النظرية ارتباطاً وثيقاً باسم الرائد السيكولوجي ادوارد لي ثورنديك Edward Thorndike L اهتم بقياس الذكاء ثم بدراسة الحيوان ويعتبر اول من ادخل الحيوان الى المختبر النفسي وادخاله الصناديق المحيرة التي استخدمها في تجاربه على القطط والكلاب لدراسة التعلم والذكاء وهو يعتبر اعظم المنظرين في مجال التعلم على الاطلاق أعماله الرائدة في مجال التجريب والتنظير والتطبيق التربوي والذكاء وانتقال اثر التعلم وهو اول من شغل كرسي استاذية علم النفس التربوي في تاريخ علم النفس وكان هذا اعظم تقدير لرجل نذر حياته العلمية كلها لحل مشكلات التربية من وجهة نظر علم النفس.

لم يكن ثورندايك Thorendikيهتم بالبعد الاجتماعي في علم النفس التربوي ، وذلك على النقيض من زملائه الاخرين الذين كان يلتقي معهم في الكثير من الآراء ، فقد كان يعد التعلم باعتباره خبرة فردية خاصة او عملية تغير عضوي داخلية تحدث في الجهاز العصبي لكل كائن على حدة ، وان ما يهم المعلم داخل الصف الدراسي هو الارتباط بين المثير والاستجابة ، ولا يهتم بالتفاعل بين التلاميذ عندما ينظر اليهم كوحدة اجتماعية .

التجربة :-

قام العالم الأمريكي ثورنديك بوضع قط جائع في قفص ، يفتح بالضغط على خشبة ثم تحريك مزلاج ، ووضع قطعة لحم خارج القفص ، فرأى أن القط يبدأ في حالة تهيج عنيف حتى يقع جزء من جسمه على الخشبة ويحرك المزلاج فيخرج من القفص ، وقد قام ثورنديك بحساب الزمن اللازم لخروج القط من القفص في كل مرة يعيد فيها التجربة ، وعدد المحاولات التي يقوم بها ، فوجد أنها تتناقص ولكن بشكل غير منتظم .

عناصر الموقف التعليمي :

١. لاستجابة :لأن التعلم هنا يتلخص في تعلم استجابة جديدة مناسبة للموقف .
٢. لمنبه : وهو جزء من الموقف التعليمي الذي ترتبط به الاستجابة .
٣. الدافعية
٤. المكافأة

شكل ثورنديك نظريته في قالب فسيولوجي فرأى : أن التعلم الإنساني والحيواني يتلخص في تكوين روابط في الجهاز العصبي بين الأعصاب الحسية التي تثار بالمثيرات وبين الأعصاب الحركية التي تحرك العضلات فتؤدي إلى الاستجابة الحركية.

لكن ثبت من خلال التجارب خطأ هذه النظرية ، فالتعلم بالمحاولة والخطأ لا يخلو من التنظيم والملاحظة ويمكن تعريفه : بأنه نوع من التعلم يستجيب فيه الفرد للمعالم العامة للموقف بمحاولات كثيرة منوعة ثم تزول الاستجابات الفاشلة تدريجيا وتثبت الاستجابات الناجحة حتى يقع على الحل .

يشيع التعلم بالمحاولة والخطأ :-

- ندما يكون الفرد في موقف تعوزه فيه الخبرة أو المهارة أو الذكاء
- عند الحيوانات الدنيا
- عند الأطفال
- عند تعلم المهارات

ان طريقة ثورندايك كانت تقوم على المشاهدة وحل المشكلات وذلك على النحو التالي :

١- وضع العضوية (المتعلم) في موقف يتطلب حل مشكلة .

٢- ترتيب توجهات الإنسان او الحيوان .

٣- اختيار الاستجابة الصحيحة من بين عدة خيارات .

٤- مراقبة سلوك الإنسان او الحيوان .

٥- تسجيل هذا السلوك في صورة كمية .

وقد كان ثورندايك من اوائل علماء النفس الذين حاولوا تفسير التعلم بحدوث ارتباطات تصل او تربط بين المثيرات والاستجابات ويرى ان اكثر اشكال العلم تميزا عند الإنسان والحيوان على حد سواء هو التعلم بالمحاولة والخطأ ويتضح هذا النوع من التعلم عندما يواجه المتعلم وضعاً مشكلا يجب حله والتغلب عليه للوصول الى الهدف .

المبادئ العامة للتعلم بالمحاولة والخطأ :-

١ ـ التكرار: يحدث التعلم بالمحاولة والخطأ بعد مدة طويلة من المحاولات والتدريب في الموقف الجديد والتكرار مهم للتخلص من الاستجابات الخاطئة وتثبيت الاستجابات الصحيحة.

٢ ـ التدعيم: في التعلم بالمحاولة والخطأ أهمية المكافأة في تعلم الاستجابة الصحيحة، فالمكافأة تعمل على تدعيم الاستجابة الصحيحة.

٣ـ الانطفاء: إذا تعلم أحد عن طريق المحاولة والخطأ استجابة ما ، لأنها كانت تؤدي إلى الحصول على المكافأة، فإن امتناع الحصول على المكافأة بعد ذلك مدة طويلة يؤدي إلى ضعف الاستجابة وزوالها بالتدريج وهذا هو مبدأ الانطفاء.

٤ ـ الاسترجاع التلقائي: إن الاستجابة التي تنطفئ لعدم تدعيمها مدة طويلة .

٥ ـ التعميم: إن الاستجابات التي يتعلمها الفرد في مواقف معينة تميل إلى الظهور في المواقف الجديدة المتشابهة للمواقف السابقة التي حدث فيها التعلم، فإذا تعلم فرد أن يقود سيارة معينة ، فأن الاستجابات التي تعلمها تتحول إلى جميع أنواع السيارات يساعد على حل المسائل الهندسية الأخرى المتشابهة، وهذا هو مبدأ التعميم.

٦ـ التمييز: إذا فشلت الاستجابة المعممة في حل المشكلة في الموقف الجديد ، فبينما ظلت مدعمة في الموقف السابق الذي حدث فيه التعلم فإن ذلك يؤدي إلى التمييز بين الموقف الجديد والموقف القديم وتعلم الاستجابة الملائمة لكل موقف ، وهذا هو مبدأ التمييز.

٧ ـ العلاقات الزمنية: إن للعلاقات الزمنية أهمية كبيرة أيضاً في التعلم بالمحاولة والخطأ. فكلما كانت الفترة الزمنية بين الاستجابة وبين حدوث المكافأة قصيرة كان التعلم أسرع، وإذا طالت الفترة الزمنية ضعف التعلم.

الفروض التي تقوم عليها النظرية :-

١ ـ يتعلم الكائن الحي حل الموقف المشكل عن طريق المحاولة والخطأ .

٢ ـ يحدث التعلم بالمحاولة والخطأ بصورة تدريجية مع تكرار المحاولات ويقاس بتناقص زمن المحاولات او عدد الاخطاء .

٣ ـ تكون الاستجابات الاولى للحل القائم على المحاولة والخطأ عشوائية ثم تتحول تدريجيا الى قصدية عن طريق الاختيار والربط .

٤ ـ يعمل التعزيز على تقوية الروابط العصبية (الوصلات العصبية) بين المثير والاستجابة المعززة .

٥ ـ يعمل التكرار على تقوية الروابط العصبية بين المثير والاستجابة كما يؤدي الاهمال الى ضعف هذه الروابط

٦ ـ قوة الاستجابة دالة لكل من نمط المثيرات ودرجة استعداد او تهيؤ الكائن الحي والتفاعل بينها

٧ ـ تعتمد الفعالية النسبية للمعززات على اهميتها النسبية للكائن الحي وليس على نوعها او حجمها او توقيتها

<u>اساسيات النظرية :-</u>

١ـ استخدم ثورندايك المثير غير الشرطي كمعزز كما في تجارب الاشتراط البسيط ، لكنه في تجاربه يقدمه بعد أداء الاستجابة الصحيحة ، وقد استخدم مثير الطعام كمعزز موجب ، كما استخدم مثير الصدمة كمعزز سالب ويمكن أن يكون المعزز أو المثير غير الشرطي أي حدث أو شيء يعمل على زيادة احتمال حدوث الاستجابة.

٢ـ البيئة التي يوجد فيها الموقف التعليمي وما فيها من عناصر تؤدي دور المثير الشرطي وربما يكون أحدها بمثابة الماعة ينشأ عنها الاستجابة تسمى بالمثير المميز لأن إتمام الاستجابة يتوقف أساسا على الكائن الحي ، ويؤدي المثير الشرطي دور المساعدة للكائن الحي في توجهه نحو الحصول على التعزيز المثير غير الشرطي أو عدم إمكان ذلك.

٣ـ تكون الاستجابة غير الشرطية غير محددة و ليس من الضروري أن تكون الاستجابة غير الشرطية لمثير الطعام (المثير المعزز) هي جذب الخيط أو شد السقاطة .. الخ فبينما يكون جرى الحيوان الواضح بمثابة استجابة غير شرطية لمثير الصدمة ، فإن استجابات أخرى تظهر وبالتالي فإن المثير غير الشرطي يعمل على إنشاء الاستجابة غير الشرطية ولكن ليس من الضروري أن تكون هذه الاستجابة هي استجابة الأداء المطلوب تحققه .

٤ـ الاستجابة الشرطية التي تنشأ عن وجود مثير يسبق المثير المعزز، والاستجابة الشرطية غالبا ما تكون إرادية حركية تشبه سلوك جذب الخيط ونادرا ما تشبه الاستجابة غير الشرطية، وقد تكتسب هذه الاستجابة الناشئة قوتها خلال التعزيز السالب أو التعزيز الموجب

٥ـ المثير الخارجي له استجابة مفضلة أكثر احتمالاً من غيرها في الحدوث إذا أثر على الكائن الحي المثير الخاص .

٦ـ أن العامل الأساسي في الاشتراط هو أن سلوك الحيوان هو الذي يحدد النتيجة.

٧ـ إن الأحداث التي تتم في الموقف ليست مستقلة عن سلوكه، كما يحدث في الاشتراط عند بافلوف .

٨ ـ بعد أن يقوم الحيوان بعدة محاولات ، يصل إلى الاستجابة الناجحة التي يتم تعلمها ، لأنها الاستجابة التي تؤدي إلى الحصول على التعزيز

٩ـ تصبح هذه الاستجابة أكثر تكرارا ، أو أكثر احتمالا في المحاولات التالية من الاستجابات الأخرى الفاشلة التي تؤدي إلى حل المشكلة والحصول على التعزيز، وتمثل هذه العملية الجانب التعليمي في الأداء .

١٠ـ إذا لم تؤد الاستجابة إلى الحصول على المكافأة ، فإن سلوك الحيوان يضعف ويأخذ في التناقص تدريجياً ، وهو ما يشار إليه بالانطفاء كما يحدث في تجارب الاشتراط البسيط .

١١ـ أن الارتباط بين المثير والاستجابة يقوى بالتمرين وليس في ضوء التكرار .

قوانين التعلم عند ثورندايك : –

١–**قانون الأثر** : عندما تتكون رابطة قابلة للتعديل بين مثير واستجابة وتكون هذه الرابطة مصحوبة او متبوعة بحالة من الرضى والارتياح فأنها تكون قوية اما اذا كانت هذه الرابطة مصحوبة او متبوعة بحالة من الضيق او الانزعاج فأنها تضعف . ويقصد ثورندايك ان العامل الرئيس في تفسير عملية التعلم هو المكافاة وقد عدل ثورندايك في كتاباته الأخيرة قانون الأثر بحيث اقتصر على الأثر الطيب الذي يؤدي الى الرضا والارتياح وذكر ان حالة عدم الارتياح الناشئة عن العقاب ليس من الضروري ان تضعف هذه الروابط و بهذا التعديل اصبح قانون الأثر من القوانين الرئيسة في التعلم الإنساني .

- **يعمل قانون الأثر في اتجاهين:**

أ –(التعزيز الإيجابي Positive reinforcement) ومعناه أن الأثر الإيجابي الناشئ عن الاستجابة على نحو ما يزيد من احتمالات حدوث الاستجابة في المواقف اللاحقة المشابهة .

ب –(التعزيز السلبي negative reinforcement) ومعناه أن الأثر السلبي الناشئ عن الاستجابة على نحو ما يزيد من احتمالات عدم حدوث الاستجابة في المواقف اللاحقة المشابهة .

ج– العقاب لا يؤدي بالضرورة إلى إضعاف الارتباط بين المثير والاستجابة .

٢–**قانون التدريب** : ان تكرار عملية الربط بين المثير المحدد والاستجابة المحددة يؤدي الى تثبيت الرابطة وتقويتها وبالتالي الى تعلم اكثر رسوخا في اذهان الطلبة ويمكن صياغة هذا القانون على النحو التالي:–

– اذا تكونت رابطة قابلة للتعديل بين مثير واستجابة وكانت العوامل الأخرى متعادلة فان التكرار يزيد هذه الرابطة قوة . ويرى ثورندايك ان لهذا القانون شقين هم :

أ– **قانون الاستعمال:** الذي يشير الى ان الارتباطات تقوى عن طريق التكرار والممارسة .

ب– **قانون الإهمال:** يتضمن ان الرابطة بين المثير والاستجابة تضعف وتنسى عن طريق اهمالها .

والفرضية في هذا القانون" انها اذا ما تكررت الرابطة المتعلمة بين المثير والاستجابة لعدد كبير من المرات فانه يتم تعلمها وقد ضمن هذا القانون في صورته المبدئية ان تكرار الصواب يساوي في تعلمه تكرار الخطأ "لذلك قام ثورندايك بتعديله بعد عام ١٩٣٠ حيث اقتصر على انه ":اذا تكررت رابطة بين مثير واستجابة واتبعت بتوجيه وارشاد فانه يتم تعلمها " .

٣- **قانون الاستعداد او التهيؤ** : اقترح ثورندايك قانون الاستعداد كمبدأ إضافي ويصف الأسس الفسيولوجية لقانون الأثر فهو يحدد الظروف التي يميل فيها المتعلم الى الشعور بالرضى او الضيق ويعتقد ثورندايك ان الربط يتم بطريقة افضل واسهل اذا كان هناك استعداد لدى المتعلم للقيام بالربط بين المثير والاستجابة المعنية ويفسر الاستعداد لدى المتعلم القيام بالربط بين المثير والاستجابة المعنية يبين ثورندايك وفق هذا القانون معنى الارتياح او الضيق .

- **<u>ولتطبيق هذه الظروف في موقف تعلم نأخذ التزلج مثال عنه نجد أنه :-</u>**

١ـ عندما يكون الصبي راغباً ومستعداً من المنزل لتعلم التزلج ، فإن المساحة الكبيرة وقلة المتزلجين تسهل له تحقيق رغبته (تعلم التزلج) فيشعر بالرضا والارتياح .

٢ـ أما إذا كان راغباً ومستعداً من المنزل لتعلم التزلج ، ثم تفاجأ بصغر المكان نسبياً وازدحامه بالمتزلجين ، فذلك يسبب له الضيق وعدم الرضا بسبب عدم تحقق الرغبة (تعلم التزلج) .

٣ـ أما إذا لم يكن الصبي مستعداً للتزلج بسبب إرهاق أو مرض ، وأجبر على التزلج مع البقية ، فإنه وإن أحسن التزلج لن يشعر بالراحة والرضا بسبب عدم استعداده وتهيئه .

يريد ثورندايك أن يشير من خلال قانون الاستعداد أن حالتي الرضا والإحباط تتوقفان على الحالة الاستعدادية للعضوية ذاتها ، في حال تسهيل أداء استجابة معينة أو إعاقتها .

٤- **قانون التكرار** : رأى ثورنديك في البداية أن التكرار يؤدي لتقوية روابط الاستجابات الصحيحة ويضعف روابط الاستجابات الخطئة.

لكن الملاحظ أن الحيوان يكرر الاستجابات الخاطئة أكثر من الاستجابات الصحيحة ، ومع ذلك فالاستجابات الصحيحة هي التي تثبت في النهاية.

وبذلك وصل إلى أن التكرار وحده لا يكفي وصاغ قانونه الجديد .

٥- **قانون التعرف Stimulus Identifiability**: يسهل على المتعلم ربط وضع مثيري معين باستجابة معينة إذا تمكن المتعلم من التعرف على الوضع وتميزه نتيجة مروره بخبراته السابقة. ويرى ثورندايك انه إذا كانت عناصر الموقف الجديد معروفة ، فان ذلك يسهل التكيف للموقف أكثر مما لو كانت العناصر غير معروفة، فمثلا يسهل على المتعلم حل مسألة حسابية إذا تعرف المتعلم على الأرقام والرموز المستعملة فيها. التركيز يكون على الخبرة .

٦- **قانون الانتماء** : يرى ثورندايك وفقاً لهذا القانون أن الرابطة تقوي بين المثير والاستجابة الصحيحة، كلما كانت الاستجابة الصحيحة أكثر انتماء إلى الموقف، ولهذا تجد الفرد يسارع إلى الرد على من يحييه بانحناء

رأسه إلى أسفل، بانحناء مماثل من جانبه لرأسه وليس بالاستجابة الكلامية التي هي أقل انتماء أو أكثر بعداً عن الموقف المثير، ويكون الأثر المترتب على الاستجابة أقوى، كلما كان ينتمي إلى الارتباط الذي يقويه، وهكذا فإن إثابة العطشان بالماء تجعل استجابته أقوى مما لو كانت إثابته بالنقود.

٧- **قانون تنوع الاستجابة (الاستجابة المتعددة) law of multiple response:** يشير هذا القانون إلى قدرة المتعلم على أداء استجابات متعددة أو متنوعة للوصول إلى الاستجابة الصحيحة المؤدية إلى الرضا والارتياح، فعندما يواجه المتعلم مشكلة ما، يقوم بعدد من الاستجابات المتنوعة بغية الوصول إلى الحل الصحيح. ولدى ظهور الاستجابة الصحيحة عن طريق الصدفة، يتم تعزيزها وإثباتها. مثال: ضاع دفتر الواجبات الخاصة بالتلميذ فكيف سيستطيع أداء الواجبات للغد؟

مثال: طالب اضاع دفتر واجباته ماذا يفعل ؟ إما أن يتصل بزميله و يعرف منه الواجبات المطلوبة. أو يحاول تذكر ما كتب في دفتر الواجبات و ينجز ما تمكن من تذكره. أو يذهب إلى المدرسة في الغد و يقدم عذره للمعلم. فإذا نجح في اختيار ما هو مناسب بحيث يحل المشكلة ويؤدي إلى الراحة و السرور فقد حدث هنا تعلم.

٨- **قانون الاستجابة الملائمة او المماثلة(التعميم):** بشير هذا القانون إلى قدرة المتعلم على الاستفادة من تعلمه السابق، وذلك بمقارنة الأوضاع التعلمية الجديدة بالأوضاع السابقة التي تم تعلمها، للوقوف على أوجه الشبه بينها، الأمر الذي يمكنه من الاستجابة للوضع الجديد.

مثال: أضاع تلميذ دفتر الواجبات فاتصل على زميله لمعرفة الواجبات المطلوبة و في يوم آخر نسي تدوين بعض الواجبات في الدفتر في هذه الحالة سيتذكر ما حصل معه في الموقف السابق و المشابه أو القريب من الموقف الحالي فبالتالي سيقوم بسلوك مشابه وهو الاتصال على زميله ومعرفة الواجب المطلوب.

٩- **قانون الانتقال الارتباطي law of associative shifting:** يشير هذا القانون إلى إمكانية ارتباط أية استجابة تم تعلمها في حضور حادث أو مثير ما، إلى مثير أو حادث آخر يدركه المتعلم، إذا تمكن من الاحتفاظ بهذه الاستجابة رغم التغيرات التي تطرأ على الوضع المثيري الذي ارتبطت به. ويقترب هذا القانون من مفهوم الاستجابات الشرطية.

١٠- **قانون الاستقطاب Associative Polarity:** تسير الارتباطات في الاتجاه الذي كانت قد تكونت فيه بطريقة أيسر من سيرها في الاتجاه المعاكس، فإذا تعلم الفرد قائمة مفردات عربية انجليزية فان الاستجابة للكلمة العربية بما يقابلها بالإنجليزية يكون أكثر سهولة من الاستجابة العكسية.

١١- **قانون انتشار الاثر The spread of effect :** يرى ثورندايك أن أثر الإثابة لا يقتصر على الربط فقط، وإنما يمتد إلى الروابط المجاورة التي تتكون قبل إثابة الرابطة وبعد إثابتها. وعلى سبيل المثال فإذا عزز المعلم أثناء التعليم كلمة في ما بين الكلمات ، فان التعزيز ينتقل إلى الكلمة السابقة واللاحقة في السلسلة أي أن الثواب يؤثر أيضا في الارتباطات المجاورة له .

١٢- **قانون قوة العناصر :** يشير هذا القانون إلى قدرة المتعلم على الاستجابة على نحو انتقائي، بحيث يستجيب للعناصر الأكثر شيوعاً وقوة وأهمية في التعلم. وهذا يعني أن المتعلم يستطيع اختيار المكونات الأساسية في الوضع المشكل وبناء استجاباته في ضوئها، وإهمال المكونات أو العناصر الأقل أهمية .

مثال :عندما يرى طالب أداوت الرسم بالفحم ، سينتقي ويختار قلم الفحم والتباشير واللباد ومساحة الفحم فيركز استخدامه ومحاولاته على هذه العناصر ، ولكنه سيُهمل باقي العناصر كاستخدام المنديل والإصبع في توزيع الظل .

١٣- **قانون الاتجاه أو المنظومة law of set or attitude** : يشير هذا القانون إلى تأثر التعلم باتجاهات المتعلم، لأن الاستجابات محددة جزئياً بخصائص التكيف التي يمتاز بها الأفراد الناشئون في بيئة أو ثقافة معينة. يتعلق هذا القانون بمفهوم مستوى الطموح .

ومن التطبيقات التربوية لنظرية ثورندايك :

١- على المعلم ان يأخذ بنظر الاعتبار ظروف الموقف التعليمي الذي يوجد فيه الطالب .

٢- ان يضع المعلم في اعتباره الاستجابة المرغوب ربطها بهذا الموقف .

٣- الأخذ بعين الاعتبار ان تكوين الروابط لا يحدث بمعجزة لأنه يحتاج الى جهد والى فترة يمارس فيها المتعلم هذه الاستجابة مرات عديدة.

٤- على المعلم تجنب تكوين الروابط الضعيفة وتجنب تكوين اكثر من رابطة في الوقت الواحد والعمل كذلك على تقوية الارتباط بين الاستجابة والموقف .

٥- تصميم مواقف التعلم على نحو يجعلها مشابهة لمواقف الحياة ذاتها .

٦- التركيز على التعلم القائم على الأداء وليس القائم على الإلقاء .

٧- الاهتمام بالتدرج في عملية التعلم من السهل الى الصعب ومن الوحدات البسيطة الى الأكثر تعقيدا .

ثانياً : التعلم الشرطي الاجرائي :

تجربة صندوق سكنر:

قام العالم الأمريكي سكنر بوضع فأر جائع في صندوق زجاجي فيه قضيب معدني ، عند الضغط عليه في كل مرة ينزل قطعة من الطعام ، وعندما بدأ الفأر يستكشف المكان وضغط بغير قصد على القضيب فنزلت له قطعة الطعام ،وتكررت العملية عدة مرات وبعدها تعلم أن ضغط القضيب ينتج عنه إنزال الطعام (ثواب) .

- **مقارنة بين التعلم الإجرائي والتعلم الكلاسيكي :**
- **الشبه :** كليهما يؤدي إلى اكتساب استجابة شرطية **و** كليهما يتضمن التدعيم .
- **الاختلاف :**

١. يؤدي إلى تغيير المثير الذي يثير استجابة معينة .

٢. التدعيم يحدث قبل الاستجابة الشرطية .

٣. لاستجابة الشرطية المكتسبة ليست إجرائية أي ليس لها دور في الوصول إلى الهدف ، وهي نفس الاستجابة الأصلية .

٤. غالبا ما تكون الاستجابة الشرطية استجابة لا إرادية:-

أ- يؤدي إلى اختيار استجابة لحل مشكلة من بين الاستجابات الممكنة وغير المناسبة للحل .

ب- التدعيم يحدث بعد الاستجابة الشرطية .

ت- لاستجابة الشرطية المكتسبة إجرائية تختلف عن الاستجابة الأصلية وتؤدي إلى الهدف .

ث- لاستجابة الشرطية المكتسبة تكون إرادية .

- يمكن القول أن التعلم عن طريق المحاولة والخطأ ما هو إلا تعلم شرطي إجرائي .

ثالثاً – نظرية الأشراط الكلاسيكي :

بدأت دراسة الأشراط الكلاسيكي على يدي عالم البيولوجي الروسي **ايفان بافلوف** الذي نال جائزة نوبل نتيجة أبحاثه على عمليات الهضم ، فعندما كان بافلوف يدرس سيلان اللعاب عند الكلاب لاحظ أن الكلب يسيل لعابه ليس فقط لمجرد وضع الطعام في فمه انما لمجرد رؤية طبق الطعام أيضاً وقد أثار ذلك اهتمام بافلوف فحاول أن يدرس إمكانية تعليم الكلب لان يسيل لعابه نتيجة عوامل أخرى من مثل رؤية ضوء أو سماع نغمة صوتية ، وما شابه قام بافلوف بأجراء عملية جراحية بسيطة لكلب فتح بوساطتها ثقباً في خده وادخل فيه أنبوبة زجاجية تصل ما بين احدى فتحات الغدة اللعابية وبين وعاء تتجمع فيه قطرات اللعاب التي يفرزها الكلب. وبعد انتهاء هذه العملية قام بافلوف بتقديم مثير صناعي (محايد) مثل صوت الجرس فلم تحدث أية استجابة نحو هذا المثير (لم تحدث استجابة افراز اللعاب) . بعد ثوان قليلة من سماع صوت الجرس قدم له الطعام وسجل جهاز جمع اللعاب الكمية المسالة وبعد عدد من المزاوجات بين المثير الصنعي والطبيعي وجد بافلوف أن المثير الشرطي اصبح وحده يستثير سيلان اللعاب في غياب المثير الطبيعي. وبعد ذلك أعاد بافلوف هذه التجربة فلاحظ تكرار حدوثها. وقد فسر بافلوف هذه الظاهرة بأن الكلب تعلم توقع تقديم الطعام وأن الجرس قد اكتسب القدرة على اسالة اللعاب وقد أطلق على هذا الاكتشاف الجديد اسم الفعل (المنعكس الشرطي) ، (يبين لنا كيفية حدوث الاستجابة) .

نماذج الاستجابة الشرطية : ادت دراسات وابحاث تجريبية في مجال الاشتراط الكلاسيكي او الاشتراط البسيط الى وجود نماذج من الاستجابات الشرطية ، ان العلاقة الزمنية بين تقديم المثير الشرطي وتقديم المثير غير الشرطي هي المحك الرئيسي والعامل المشترك بين هذه النماذج جميعاً وهي كالآتي :

– **النموذج الأول الاشتراط المتزامن:** ويتم فيها تقديم المثير الشرطي في نفس الوقت الذي يقدم فيه المثير غير الشرطي، هو المثير الطبيعي ، أي يقدم الجرس مع الطعام وفي هذا الموقف يحدث تداخل بين كلا المثيرين لأنه لا يتاح للكلب الوقت للتعرف على المثير الشرطي في وجود المثير الطبيعي لان الاستجابة التي أتت في إسالة اللعاب جاءت من الطعام وليس من الجرس .

–**النموذج الثاني الاشتراط الرجعي او البعدي** : هنا يتم تقديم المثير الشرطي للكلب بعد تقديم المثير غير الشرطي الطبيعي ، أي يتم تقديم الطعام اولاً ثم تقديم الجرس ثانياً ومن ثم فإن التعلم خلال هذا الموقف يكون ضعيفاً نتيجة لوجود تداخل بين كلا المثيرين وبهذا يعتبر ايضاً هذا النوع من الأشراط غير مجدي .

–**النموذج الثالث الاشتراط المرجأ:** والذي يقدم فيه المثير الشرطي قبل تقديم المثير غير الشرطي، أي تقديم المثير الشرطي (الجرس) قبل تقديم الطعام بوقت قصير(بضع ثواني او اجزاء من الثانية) والذي يستمر حتى تقديم المثير غير الشرطي و بهذا يتضح لنا وجود تداخل بين كلا المثيرين ويعتبر هذا النوع من الأشراط من أفضل الأساليب التي استخدمها بافلوف، والتي أعطت أفضل النتائج عن الأشراط الكلاسيكي.

- **النموذج الرابع اشتراط الأثر:** الذي يقدم فيه المثير الشرطي ويتم سحبه قبل تقديم المثير الغير شرطي وبالتالي توجد فترة زمنية بين تقديم المثيرين اطول مما توجد في نموذج الأشراط المرجئ ويفترض في هذا النموذج ان المثير الشرطي يترك اثراً في الذاكرة يستمر حتى بعد استبعاد المثير الشرطي ويؤدي الى ارتباطه بالمثير الطبيعي .
- **النموذج الخامس الاشتراط الزمني:** والذي يقدم فيه المثير الطبيعي الغير شرطي بمفرده ويطلق عليه الاشتراط الزمني حيث يتكرر تقديم المثير الطبيعي على فترات زمنية ثابتة ، ويبدو ان الكائن الحي يتعامل مع هذه الفترات الزمنية كما لو كانت مثيراً شرطياً الامر الذي يجعله يأتي باستجابات شرطية وفقاً لهذه الفترات الزمنية الثابتة .

التطبيقات التربوية لنظرية بافلوف:

١- ضرورة حصر مشتتات الانتباه في غرفة الصف فقد تبين ان الأشراط يحصل بشكل ايسر حين يقدم المثير الشرطي وغير الشرطي في موقف لا تكثر فيه المثيرات المحايدة الى لا علاقة لها بالموقف التعليمي .
٢- ضرورة ربط تعلم التلاميذ بدوافعهم من جهة وتعزيز العمل التعلمي من جهة اخرى لان غياب المثير غير الشرطي يؤدي الى انطفاء الاستجابة المتعلمة.
٣- تعتبر عملية التعميم والتمييز من العمليات المهمة التي يمكن الاستفادة منها في تفسير كثير من مظاهر التعلم الإنساني وان التمييز بين الوحدات غير المتشابهة واختلاف الاستجابات لتباين المثيرات يعتبر من الأساليب المهمة في تعلم الحقائق والمعارف او المفاهيم والمبادئ في اية مناهج دراسية .
٤- يمكن الاستفادة من افكار بافلوف عن انطفاء الاستجابة في ابطال العادات السيئة التي تظهر عند التلاميذ اثناء القراءة والكتابة.
٥- يعتبر التعزيز الخارجي كذلك من المبادئ الأساسية التي يعتمد عليها الأن في التعلم .
٦- تعديل السلوك لاسيما في المجال الانفعالي والقاء الضوء على طرق اكتساب العادات وعملية التطبيع الثقافي لشخصية الإنسان ويستخدم الإجراء الاشتراطي في كثير من عمليات المعالجة السلوكية للانحرافات التي تصدر عن االفراد.

رابعاً – نظرية الجشطالت :-

نشأت نظرية الجشطالت في ألمانيا حوالي ١٩١٢م ممثلة في مذهب الفكر السيكولوجي الذي كان يعرف باسم (علم النفس الجشطالت) على يد رائدها **ماكس فرتهيمر** الذي كان له دراسات كثيرة في الإدراك وأوضح قانون الامتلاء الذي يشتمل على التشابه والتقارب والإغلاق ، واهتم بدراسة التعلم عند الأنسان وتطبيقاته في مجال التربية ، كما اعترض على فكرة تحليل السلوك إلى وحداته ومكوناته الأساسية وقال أن هذا التحليل يجعل السلوك يفقد معناه ، بينما يرجع الفضل في انتشار أفكار هذه المدرسة إلى كل من كوهلر (١٨٨٧-١٩٦٧) و كوفكا (١٨٨٦-١٩٤١) ؛ حيث قام الأول بإجراء تجارب عديد على القرود وانتهى بتوضيح مبدأ التعلم بالاستبصار و تنظيم الخبرات السابقة بدلاً من التعلم بالمحاولة والخطأ.

تجربة كوهلر على الشمبانزي :

وضع كوهلر الشمبانزي في حظيرة في سقفها ثمرات الموز وبها عدة صناديق فارغة حاول الشمبانزي في البداية القفز نحو الموز لكنه لم يصل إليه واستمر في محاولاته المتخبطة عندها اهتدى فجأة إلى وضع الصندوق تحت

مكان الموز والصعود إليه ولكنه لم يفلح أيضا وبعد عدة محاولات أخرى توصل إلى وضع عدة صناديق فوق بعضها والصعود عليها وأخيرا ظفر بالموز . وأجرى كوهلر تجربة أخرى وضع فيها الشمبانزي في قفص خارجه موز لا يستطيع تناوله بذراعه وفي القفص قصبتين لا تكفي إحداهما للوصول إلى الموز ولكن إذا أدخلت في بعضهما تمكن الشمبانزي من جذب الموز وقد قام الشمبانزي في البداية بعدة محاولات عشوائية وفي النهاية اهتدى لإدخال القصبتين في بعضهما وحصل على الموز .

المفاهيم الأساسية لنظرية الجشطالت :-

١- مفهوم الجشطالت : الصيغة او الشكل او النموذج او الهيئة او الكل المنظم الذي يتعالى على مجموع الأجزاء فالجشطالت كل مترابط الأجزاء وهو نظام تكون فيه الأجزاء المكونة له مترابطة فيما بينها وكذلك فيما بينها وبين الكل ذاته لكل جزء فيه مكانة ودور ووظيفة التي تطلبها طبيعة الكل .

٢- البنية : وهي القاعدة الأصل في كل جشطلت، وهي تتشكل من العناصر المترتبة بقوانين داخلية تحكمها ديناميكا ووظيفيا بحيث أن كل تغير في عنصر معين يؤدي إلى التأثير على البينة ككل، وعلى أشكال اشتغالها.

٣- الاستبصار : و هو لحظة الإدراك المتدبر التحليلي الذي يصل بالمتعلم إلى اكتساب الفهم، أي فهم مختلف أبعاد الجشطلت، أو الموقف الإشكالي موضوع التعلم، و ضبط ترابط أجزائه و أشكاله و صيغ اشتغاله الوظيفي

٤- التنظيم : إن سيكولوجيا التعلم الجشطلتية تحدد سيرورة التعلم في عملية الكشف عن الصيغ التنظيمية التي تحكم بنية الجشطلت فإذا كان مجال الموقف التعلمي يحمل قاعدة بنية تنظيمية تحدد مفاصله ، فإن هذه المبادئ المنظمة له تصبح الحقل المباشر لفعل التعلم .

٥- اعادة التنظيم : ينبني التعلم على اعادة الهيكلة والتنظيم نحو تجاوز اشكال الغموض والتناقضات ليحل محلها الاستبصار والفهم الحقيقي .

٦- الانتقال : لا يمكن التحقق حسب المدرسة الجشطلتية، من حصول التعلم، إلا بشرط تعميمه على مواقف متشابهة في البنية الأصلية، ومختلفة في أشكال التمظهر. إن التعلم يعني قدرة المتعلم على نقل لحظة استبصاره إلى مواقف متنوعة ذات صلة بالمشكلة الأصلية " فالاستبصار الحقيقي هو الذي ينتقل إلى المجالات المرتبطة و الملائمة" .

٧- الدافعية الأصيلة: ترى المدرسة الجشطلتية أن تعزيز التعلم ينبغي أن يكون دافعا داخليا، أي نابعاً من الذات فالمتعلم الذي ينتصر على موقف إشكالي، و يفك مختلف أبعاد بنيته و مبادئ انتظامها و يحقق فهم المعنى الحقيقي أي الاستبصار بالموقف يسعد بلذة باطنية و بسعادة تجاوزه للغموض، و هذا ما يشكل عامل تعزيز داخلي فعال و دائم للتعلم .

٨- الفهم والمعنى: إن تحقيق التعلم يقتضي الفهم العميق للعناصر و الخصائص و بالتالي الكشف عن المعنى الذي تنتظم فيه هذه المحددات ومن ثم فسياق التعلم يساوي الانتقال من وضعية تكون فيها عناصرها و خصائصها لا معنى لها، أي غامضة أو متناقضة إلى وضعية تصبح فيها العلاقات الوظيفية بين الأجزاء ذات

معنى، أي قابلة للفهم، فالفهم إذن هو كشف استبصاري لمعنى الجشطلت، أي تحليل انتظام عناصر و مكونات الحقل الإشكالي، و الانتقال بها من وضعية الا معنى إلى وضعية المعنى على مستوى إدراك المتعلم .

التطبيقات التربوية لنظرية الجشطلت :-

١- يجب أن يكون تأكيد المعلم الأساسي على الطريقة الصحيحة للإجابة وليس على الإجابة الصحيحة في حد ذاتها، وذلك لتنمية الفهم والاستبصار بالقواعد والمبادئ المسؤولة عن الحل مما يزيد فرص انتقالها إلى مشكلات أخرى .

٢- التأكيد على المعنى والفهم، فيجب ربط الأجزاء دائما بالكل فتكتسب المغزى، فمثال تكتسب الأسماء والأحداث التاريخية أكبر مغزى لها عند ربطها بالأحداث الجارية أو بشيء أو بشخص هام بالنسبة للطالب .

٣- إظهار المعلم البنية الداخلية للمادة التعليمية والجوانب الأساسية لها بحيث يحقق الظهور الإدراكي لها بالمقارنة بالجوانب الهامشية فيها، مع توضيح أوجه الشبه بين المادة المتعلمة الحالية وما سبق أن تعلمه الطالب مما يساعد على إدراكها بشكل جيد.

٤- تنظيم مادة التعلم في نمط قابل للإدراك مع الاستخدام الفعال للخبرة السابقة، كيف تتلاءم الأجزاء مع النمط ككل .

٥- تدريب الطلاب على عزل أنفسهم إدراكيا عن العناصر والمواد والظروف التي تتداخل مع ما يحاولون حله من المشكلات .

نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ ثورندايك

الدكتوره
رشا جميل علوان

- لم يكن ثورندايك Thorendikيهتم بالبعد الاجتماعي في علم النفس التربوي ، وذلك على النقيض من زملائه الاخرين الذين كان يلتقي معهم في الكثير من الاراء ، فقد كان يعدالتعلم باعتباره خبرة فردية خاصة او عملية تغير عضوي داخلية تحدث في الجهاز العصبي لكل كائن على حدة ، وان ما يهم المعلم داخل الصف الدراسي هو الارتباط بين المثير والاستجابة ، ولايهتم بالتفاعل بين التلاميذ عندما ينظر اليهم كوحدة اجتماعية .

المبادئ العامة للتعلم بالمحاولة والخطأ:

- ١ ــ التكرار: يحدث التعلم بالمحاولة والخطأ بعد مدة طويلة من المحاولات والتدريب في الموقف الجديد والتكرار مهم للتخلص من الاستجابات الخاطئة وتثبيت الاستجابات الصحيحة.
- ٢ ــ التدعيم: في التعلم بالمحاولة والخطأ أهمية المكافأة في تعلم الاستجابة الصحيحة، فالمكافأة تعمل على تدعيم الاستجابة الصحيحة.
- ٣ــ الانطفاء: إذا تعلم أحد عن طريق المحاولة والخطأ استجابة ما ، لأنها كانت تؤدي إلى الحصول على المكافأة، فإن امتناع الحصول على المكافأة بعد ذلك مدة طويلة يؤدي إلى ضعف الاستجابة وزوالها بالتدريج وهذا هو مبدأ الانطفاء.
- ٤ ــ الاسترجاع التلقائي: إن الاستجابة التي تنطفئ لعدم تدعيمها مدة طويلة ، يمكن أن تعود إلى

- ٥ ــ التعميم: إن الاستجابات التي يتعلمها الفرد في مواقف معينة تميل إلى الظهور في المواقف الجديدة المتشابهة للمواقف السابقة التي حدث فيها التعلم، فإذا تعلم فرد أن يقود سيارة معينة ، فأن الاستجابات التي تعلمها تتحول إلى جميع أنواع السيارات يساعد على حل المسائل الهندسية الأخرى المتشابهة، وهذا هو مبدأ التعميم.
- ٦ــ التمييز: إذا فشلت الاستجابة المعممة في حل المشكلة في الموقف الجديد ، فبينما ظلت مدعمة في الموقف السابق الذي حدث فيه التعلم فإن ذلك يؤدي إلى التمييز بين الموقف الجديد والموقف القديم وتعلم الاستجابة الملائمة لكل موقف ، وهذا هو مبدأ التمييز.
- ٧ ــ العلاقات الزمنية: إن للعلاقات الزمنية أهمية كبيرة أيضاً في التعلم بالمحاولة والخطأ. فكلما كانت الفترة الزمنية بين الاستجابة وبين حدوث المكافأة قصيرة كان التعلم أسرع، وإذا طالت الفترة الزمنية ضعف التعلم.

الفروض التي تقوم عليها نظرية المحاولة والخطأ ثورندايك :

- ١ ــ يتعلم الكائن الحي حل الموقف المشكل عن طريق المحاولة والخطأ .
- ٢ ـ يحدث التعلم بالمحاولة والخطأ بصورة تدريجية مع تكرار المحاولات ويقاس بتناقص زمن المحاولات او عدد الاخطاء .
- ٣ ــ تكون الاستجابات الاولى للحل القائم على المحاولة والخطأ عشوائية ثم تتحول تدريجيا الى قصدية عن طريق الاختيار والربط .
- ٤ ــ يعمل التعزيز على تقوية الروابط العصبية (الوصلات العصبية) بين المثير والاستجابة المعززة .
- ٥ ــ يعمل التكرار على تقوية الروابط العصبية بين المثير والاستجابة كما يؤدي الاهمال الى ضعف هذه الروابط .
- ٦ ـ قوة الاستجابة دالة لكل من نمط المثيرات ودرجة استعداد او تهيؤ الكائن الحي والتفاعل بينها
- ٧ ــ تعتمد الفعالية النسبية للمعززات على اهميتها النسبية للكائن الحي وليس على نوعها او حجمها او توقيتها .

أساسيات النظرية :

- ١ـ استخدم ثورندايك المثير غير الشرطي كمعزز كما في تجارب الاشتراط البسيط ، لكنه في تجاربه يقدمه بعد أداء الاستجابة الصحيحة ، وقد استخدم مثير الطعام كمعزز موجب ، كما استخدم مثير الصدمة كمعزز سالب ، ويمكن أن يكون المعزز أو المثير غير الشرطي أي حدث أو شئ يعمل على زيادة احتمال حدوث الاستجابة.
- ٢ـ البيئة التي يوجد فيها الموقف التعليمي وما فيها من عناصر تؤدي دور المثير الشرطي وربما يكون أحدها بمثابة الماعة ينشأ عنها الاستجابة تسمى بالمثير المميز لأن إتمام الاستجابة يتوقف أساسا على الكائن الحي ، ويؤدي المثير الشرطي دور المساعدة للكائن الحي في توجهه نحو الحصول على التعزيز المثير غير الشرطي أو عدم إمكان ذلك.
- ٣ـ تكون الاستجابة غير الشرطية غير محددة وليس من الضروري أن تكون الاستجابة غير الشرطية لمثير الطعام (المثير المعزز) هي جذب الخيط أو شد السقاطة .. الخ فبينما يكون جرى الحيوان الواضح بمثابة استجابة غير شرطية لمثير الصدمة ، فإن استجابات أخرى تظهر وبالتالي فإن المثير غير الشرطي يعمل على إنشاء الاستجابة غير الشرطية ولكن ليس من الضروري أن تكون هذه الاستجابة هي استجابة الأداء المطلوب تحقيقه.

- ٤ـ الاستجابة الشرطية التي تنشأ عن وجود مثير يسبق المثير المعزز، والاستجابة الشرطية غالبا ما تكون إرادية حركية تشبه سلوك جذب الخيط ونادرا ما تشبه الاستجابة غير الشرطية، وقد تكتسب هذه الاستجابة الناشئة قوتها خلال التعزيز السالب أو التعزيز الموجب
- ٥ـ المثير الخارجي له استجابة مفضلة أكثر احتمالاً من غيرها في الحدوث إذا أثر على الكائن الحي المثير الخاص .
- ٦ـ أن العامل الأساسي في الاشتراط هوأن سلوك الحيوان هو الذي يحدد النتيجة
- ٧ـ إن الأحداث التي تتم في الموقف ليست مستقلة عن سلوكه، كما يحدث في الاشتراط عند بافلوف.

٨ ـ بعد أن يقوم الحيوان بعدة محاولات ، يصل إلى الاستجابة الناجحة التي يتم تعلمها ، لانها الاستجابة التي تؤدي إلى الحصول على التعزيز

- ٩ــ تصبح هذه الاستجابة أكثر تكرارا ، أو أكثر احتمالا في المحاولات التالية من الاستجابات الأخرى الفاشلة التي تؤدي إلى حل المشكلة والحصول على التعزيز،
- وتمثل هذه العملية الجانب التعليمي في الأداء
- ١٠ـ إذا لم تؤد الاستجابة إلى الحصول على المكافأة ، فإن سلوك الحيوان يضعف ويأخذ في التناقص تدريجيا ، وهو ما يشار إليه بالانطفاء كما يحدث في تجارب الاشتراط البسيط .
- ١١ـ أن الارتباط بين المثير والاستجابة يقوى بالتمرين وليس في ضوء التكرار

- ١٢ـ اشتقت قوانين رئيسية للتعلم من خلال تفسير الوقائع التجريبية وملاحظة سلوك الحيوان وهي:
- أ ــ الاستعداد أوالتهيوء Law of readinessويشير إلى العلاقة بين الحالة التي تكون عليها وحدة التوصيل العصبي لدى الكائن الحي من ناحية ونمط المثيرات التي تتفاعل معها من ناحية أخرى وعندما تكون وحدة التوصيل على استعداد فإن استثارتها بالمثيرات المناسبة
- يؤدي إلى شعور الكائن الحي بالرضا والارتياح ، وعندما لا تكون مهيئة فإن الضغط لإجبارهاعلى العمل باستخدام نمط قوي من المثيرات يضايق الكائن الحي، ويعتمد قانون الاستعدادعلى الخبرة Experienceأو النضج Maturation
- ب ـ التمرين أو الممارسة Practiceأو التكرار frequency ويتكون هذا القانون من شقين الاستعمال والإهمال ، وينص قانون الاستعمال على أنه إذا تساوت الظروف أوالعوامل الأخرى يؤدي تكرار التمرين إلى قوة الرابطة العصبية بين المثير والاستجابة ، وينص قانون الإهمال على أنه إذا تساوت الظروف أو العوامل الأخرى يؤدي الإهمال أو عدم تكرارالتمرين لفترة من الزمن إلى إضعاف الروابط العصبية بين المثيرات والاستجابات.

جـ ـ قانون الأثر Law of Effectويعتمد على مبدأ السرور والألم وينص على أنه عند تكوين رابطة أو ارتباط بين مثير ما واستجابة ما فإن الارتباط يقوى إذا كانت هذه الاستجابة مشبعة ويضعف إذا كانت هذه الاستجابة غير مشبعة ، وأن الارتياح يقوى ويدعم الروابط العصبية بين المثيروالاستجابة . أما عدم الارتياح فليس من الضروري أن يضعف هذه الروابط.

١٣ـ يعمل قانون الأثر في اتجاهين:

أ (التعزيز الإيجابي Positive reinforcement)ومعناه أن الأثر الإيجابي الناشئ عن الاستجابة على نحو ما يزيد من احتمالات حدوث الاستجابة في المواقف اللاحقة المشابهة

ب (التعزيز السلبي negative reinforcement)ومعناه أن الأثر السلبي الناشئ عن الاستجابة على نحو ما يزيد من احتمالات عدم حدوث الاستجابة في المواقف اللاحقة المشابهة

١٤ـــ العقاب لا يؤدي بالضرورة إلى إضعاف الارتباط بين المثير والاستجابة .

قانون الاستعداد :

- ١ــ إذا كانت الوحدة العصبية مستعدة للتوصيل أي لأداء سلوك ما ، فسيكون هذا الأداء مريحاً ومرضياً للكائن الحي.
- ٢ــ إذا كانت الوحدة العصبية مستعدة للتوصيل ، وحدث ما يحول دون ذلك ، فسيحدث الانزعاج أو عدم الرضا والضيق للكائن الحي .
- ٣ـ إذا كانت الوحدة العصبية غير مستعدة للتوصيل ، وكانت مكرهة ومجبرة عليه ، فسيحدث الانزعاج أو عدم الرضا والضيق للكائن الحي .

- **٢ــ قانون التدريب Law of Exercise:**
- مؤداه أن الاستخدام أو التدريب يقوي الارتباط بين المثير والاستجابة، إلا أن ثورندايك اشترط أن يصاحب التدريب حالة رضا أو ارتياح.ان تكرار عملية الربط بين المثيرالمحدد والاستجابة المحددة ، يؤدي الى تثبيت الرابطة وتقويتها وبالتالي الى تعلم ارسخ في اذهان الطلبة ، ويمكن صياغة القانون كالتالي : اذا تكونت رابطة قابلة للتعديل بين مثير واستجابة ، وكانت العوامل الاخرى متعادلة فان التكرار يزيد هذه الرابطة قوة .

- يرى ثورندايك ان للقانون شقين :
- قانون الاستعمال Law of Use والذي يؤكد ان الارتباطات تتقوى عن طريق التكرار والممارسة .
- قانون الاهمال والترك احيانا يسمى عدم الاستعمال Law of Disuse ويتضمن ان الرابطة بين المثير والاستجابة تضعف ، وتنسى عن طريق اهمالها .
- والفرضية في هذا القانون تتضمن : انه اذا ما تكررت الرابطة المتعلمة بين المثير والاستجابة لعدد كبير من المرات فانه يتم تعلمها ، وقد تضمن هذا القانون في صورته المبدئية : ان تكرار الصواب يساوي في تعلمه لتكرار الخطأ لذلك قام ثورندايك بتعديله بعد سنة ١٩٣٠ حيث اقتصر على المعنى الاتي : انه اذا ما تكررت رابطة بين مثير واستجابة ، واتبعت بتوجيه وارشاد فانه يتم تعلمها ،

- ولتطبيق هذه الظروف في موقف تعلم نأخذ التزلج مثال عنه نجد أنه :
- ١ــــ عندما يكون الصبي راغباً ومستعداً من المنزل لتعلم التزلج ، فإن المساحة الكبيرة وقلة المتزلجين تسهل له تحقيق رغبته (تعلم التزلج) فيشعر بالرضا والارتياح .
- ٢ــــ أما إذا كان راغباً ومستعداً من المنزل لتعلم التزلج ، ثم تفاجأ بصغر المكان نسبياً وازدحامه بالمتزلجين ، فذلك يسبب له الضيق وعدم الرضا بسبب عدم تحقق الرغبة (تعلم التزلج) .
- ٣ـ أما إذا لم يكن الصبي مستعداً للتزلج بسبب إرهاق أو مرض ، وأجبر على التزلج مع البقية ، فإنه وإن أحسن التزلج لن يشعر بالراحة والرضا بسبب عدم استعداده وتهيئه .
- يريد ثورندايك أن يشير من خلال قانون الاستعداد أن حالتي الرضا والإحباط تتوقفان على الحالة الاستعدادية للعضوية ذاتها ، في حال تسهيل أداء استجابة معينة أو إعاقتها .

- وبالإضافة إلى قوانين التعلم الرئيسة التي وضعها ثورندايك، فقد وضع أيضاً عدداً من القوانين الثانوية، يمكن تلخيصها فيما يلي:
- **١ - قانون الانتماء : Law of Belongingness** : يرى ثورندايك وفقاً لهذا القانون أن الرابطة تقوي بين المثير والاستجابة الصحيحة، كلما كانت الاستجابة الصحيحة أكثر انتماء إلى الموقف، ولهذا تجد الفرد يسارع إلى الرد على من يحييه بانحناء رأسه إلى أسفل، بإنحناء مماثل من جانبه لرأسه وليس بالاستجابة الكلامية التي هي أقل انتماء أو أكثر بعداً عن الموقف المثير، ويكون الأثر المترتب على الاستجابة أقوى، كلما كان ينتمي إلى الارتباط الذي يقويه، وهكذا فإن إثابة العطشان بالماء تجعل استجابته أقوى مما لو كانت إثابته بالنقود.

- **قانون الاستجابة المماثلة : law of response by analogy**
- بشير هذا القانون إلى قدرة المتعلم على الاستفادة من تعلمه السابق، وذلك بمقارنة الأوضاع التعلمية الجديدة بالأوضاع السابقة التي تم تعلمها، للوقوف على أوجه الشبه بينها، الأمر الذي يمكنه من الاستجابة للوضع الجديد.
- مثال: أضاع تلميذ دفتر الواجبات فاتصل على زميله لمعرفة الواجبات المطلوبة و في يوم آخر نسي تدوين بعض الواجبات في الدفتر في هذه الحالة سيتذكر ما حصل معه في الموقف السابق و المشابه أو القريب من الموقف الحالي فبالتالي سيقوم بسلوك مشابه وهو الاتصال على زميله ومعرفة الواجب المطلوب.

- **٦- قانون الانتقال الارتباطي: law of associative shifting**
- يشير هذا القانون إلى إمكانية ارتباط أية استجابة تم تعلمها في حضور حادث أو مثير ما، إلى مثير أو حادث آخر يدركه المتعلم، إذا تمكن من الاحتفاظ بهذه الاستجابة رغم التغيرات التي تطرأ على الوضع المثيري الذي ارتبطت به. ويقترب هذا القانون من مفهوم الاستجابات الشرطية.
- ٧- قانون الاستقطاب :Associative Polarityتسير الارتباطات في الاتجاه الذي كانت قد تكونت فيه بطريقة أيسر من سيرها في الاتجاه المعاكس، فإذا تعلم الفرد قائمة مفردات عربية انجليزية فان الاستجابة للكلمة العربية بما يقابلها بالانجليزية يكون أكثر سهولة من الاستجابة العكسية.

- **قانون انتشار الأثر :The spread of effect**
- يرى ثورندايك أن أثر الإثابة لا يقتصر على الربط فقط، وإنما يمتد إلى الروابط المجاورة التي تتكون قبل إثابة الرابطة وبعد إثابتها. وعلى سبيل المثال فإذا عزز المعلم أثناء التعليم كلمة في ما بين الكلمات ، فان التعزيز ينتقل إلى الكلمة السابقة واللاحقة في السلسلة أي أن الثواب يؤثر أيضا في الارتباطات المجاورة له
- **٩- قانون التعرف : Stimulus Identifiability**
- يسهل على المتعلم ربط وضع مثيري معين باستجابة معينة إذا تمكن المتعلم من التعرف على الوضع وتميزه نتيجة مروره بخبراته السابقة. ويرى ثورندايك انه إذا كانت عناصر الموقف الجديد معروفة ، فان ذلك يسهل التكيف للموقف أكثر مما لو كانت العناصر غير معروفة، فمثلا يسهل على المتعلم حل مسألة حسابية إذا تعرف المتعلم على الأرقام والرموز المستعملة فيها. التركيز يكون على الخبرة .

تفسير التعلم عند ثورندايك :

- ينتمي ثورندايك أصلا إلى المدرسة السلوكية ، ولذلك فهو يسلم بأن وحدة مثير استجابة هي الأساس في تفسير السلوك ، بمعنى أن حدوث الاستجابة يتوقف على المثير الذي يستدعيها فلكل مثير استجابة به تحدث عندما يظهر المثير المعين .
- ويرى ثورندايك أن الكائن الحي يولد وهو مزود بعدد غير محدود من الروابط التي تربط بين مثيرات معينة في البيئة وبين استجابات خاصة بها عند الكائن الحي ، وهذه الاستجابات تظهر أكثر من غيرها بالنسبة لهذه المتغيرات الخاصة المرتبطة بها ، وأن وظيفة التعلم هي جعل هذه الارتباطات تقوى أو تضعف بالنسبة لمواقف معينة ، فالقطة عندما توضع في القفص ويستثيرها الموقف الجديد ، تستجيب أولا بالاستجابات الموجودة ، عن طريق الخربشة أو عض القضبان أو محاولة إزالتها أو الإفلات من بينها أو نحو ذلك .

- يرى ثورندايك ان التعلم عند الحيوان وعند الإنسان ، هو التعلم بالمحاولة والخطأ، فحين يواجه المتعلم موقفاً مشكلاً ويريد أن يصل إلى هدف معين ، فإنه نتيجة لمحاولاته المتكررة يبقي استجابات معينة ويتخلص من أخرى ، وبفعل التعزيز تصبح الاستجابات الصحيحة أكثر تكراراً وأكثر احتمالاً للظهور في المحاولات التالية من الاستجابات الفاشلة التي لا تؤدي إلى حل المشكلة والحصول على التعزيز
- يرى أن الحركات التي تبقى ويحتفظ بها الحيوان ، هي التي تتكرر كثيراً ، وهي الحركات التي تؤدي إلى تحقيق الهدف ، في حين أن الحركات الفاشلة التي قام بها الحيوان لا تعود للظهور في سلوكه بعد أن عرف طريقة الاستجابة الصحيحة ، معنى ذلك انه كلما حدثت حركة فاشلة تعقبها حركة ناجحة ، ولكن كلما حدثت حركة ناجحة فإنها تؤدي إلى الهدف ولا تعقبها حركة فاشلة ، فالتعلم لا يتم عن طريق التفكير الصحيح المنتظم ولكن يتم التعلم بالتخبط أو المحاولة التي تؤدي إلى النجاح أو الفشل واهم حقيقة في ذلك ان الكائن الحي يتعلم بالعمل أي بالاستجابة النشطة ،

- **٢- قانون الاستجابة المتعددة law of multiple response:**
- يشير هذا القانون إلى قدرة المتعلم على أداء استجابات متعددة أو متنوعة للوصول إلى الاستجابة الصحيحة المؤدية إلى الرضا والارتياح، فعندما يواجه المتعلم مشكلة ما، يقوم بعدد من الاستجابات المتنوعة بغية الوصول إلى الحل الصحيح. ولدى ظهور الاستجابة الصحيحة عن طريق الصدفة، يتم تعزيزها وإثباتها. مثال: ضاع دفتر الواجبات الخاصة بالتلميذ فكيف سيستطيع أداء الواجبات للغد؟
- مثال : طالب اضاع دفتر واجباته ماذا يفعل ؟
- إما أن يتصل بزميله و يعرف منه الواجبات المطلوبة.
- أو يحاول تذكر ما كتب في دفتر الواجبات و ينجز ما تمكن من تذكره.
- أو يذهب إلى المدرسة في الغد و يقدم عذره للمعلم.
- فإذا نجح في اختيار ما هو مناسب بحيث يحل المشكلة ويؤدي إلى الراحة و السرور فقد حدث هنا تعلم.

- **قانون الاتجاه أو المنظومة law of set or attitude :**
- يشير هذا القانون إلى تأثر التعلم باتجاهات المتعلم، لأن الاستجابات محددة جزئياً بخصائص التكيف التي يمتاز بها الأفراد الناشئون في بيئة أو ثقافة معينة.
- يتعلق هذا القانون بمفهوم مستوى الطموح
- **قانون قوة العناصر law of prepotency of element:**
- يشير هذا القانون إلى قدرة المتعلم على الاستجابة على نحو انتقائي، بحيث يستجيب للعناصر الأكثر شيوعاً وقوة وأهمية في التعلم. وهذا يعني أن المتعلم يستطيع اختيار المكونات الأساسية في الوضع المشكل وبناء استجاباته في ضوئها، وإهمال المكونات أو العناصر الأقل أهمية
- مثال :عندما يرى طالب أداوت الرسم بالفحم ، سينتقي ويختار قلم الفحم والتباشير واللباد ومساحة الفحم فيركز استخدامه ومحاولاته على هذه العناصر ، ولكنه سيُهمل باقي العناصر كاستخدام المنديل والإصبع في توزيع الظل .

المحاضرة الحادية عشر .. تكملت نظرية سكنر (الاشراط الاجرائي)

نظرية الاشراط الاجرائي (سكنر):

نظرية(سكنر)

ارتبطت هذه النظرية بالعالم الامريكي سكنر (١٩٠٤-١٩٩١)الذي ميز بين السلوك الاستجابي وهو السلوك الذي تحكمه المثيرات السابقة، والسلوك الاجرائي وهو السلوك الذي تحكمه المثيرات اللاحقة فلم يركز سكنر على العلاقة بين المثير والاستجابة بحد ذاتها بل على نتائجها النفسية والمادية على الفرد ثم كيفية تعزيزها وهو ما يسمى بالاشراط الاجرائي تتلخص هذه النظرية بانه اذا كانت الاستجابة لها نتائج مفرحة كأن تعزز او تكافئ يزيد احتمال حدوثها اما اذا كانت الاستجابة لها نتائج مؤلمة كأن تعزز بشكل سلبي او تعاقب بطريقة ما يقل احتمال حدوثها٠

ويستند الاشراط الاجرائي على اعمال ثورندايك والتي تدور حول الاشراط الفعال الاجرائي ، ويتوجه الاشراط الاجرائي الى دراسة طرق واساليب التعلم مقارنة مع الكلاسيكي الذي يتوجه لدراسة ردود الفعل الارتكاسية حيث ارتبط اسم الاشراط الاجرائي باسم سكنر أما الاشراط الكلاسيكي فقد ارتبط باسم كل من بافلوف وواطسون ففي الوقت الذي يرى فيه ثورندايك بان التعلم الكلاسيكي والتعلم الاجرائي يشيران الى نفس عمليات التعلم يجد سكنر فروقا جوهرية ما بين المصطلحين حيث يشير الاشراط الاجرائي الى ذلك النمط من التعلم الذي تؤثر به المثيرات البعدية ولواحق السلوك.

أن ضوء الاشارة الضوئية الحمراء يشير الى ضرورة توقف السائق بانتظار ظهور الضوء الاخضر لاستئناف السير ولكن نجد عددا من السائقين قد لا يلتزمون بالتوقف عند ظهور الضوء الاحمر بالرغم من معرفتهم بضرورة التوقف الا ان ما قد يحدث بعد قيامهم بالسلوك (قطع الاشارة الضوئية الحمراء) يتحكم باحتمالية تكرار السلوك المقبل فالحوادث او الغرامات المالية التي يفرضها رجل الأمن على السائق المخالف بعد قيامه بالسلوك المخالف قد تعمل على التحكم باحتمالات حدوث السلوك بالمستقبل ، بعد اكثر وضوحا ظهور المثيرات القبلية المثيرة للسلوك قد لا تعمل بالضرورة الى ظهور السلوك وانما يتحكم بظهور السلوك او عدمه هو لواحق ذلك السلوك بما تشمله من لواحق معززة ومعاقبة ، ولاحقا تم استخدام مصطلح التحليل الوظيفي للسلوك للدلالة على اثر المثيرات البعدية (لواحق السلوك) ودورها في الأثر على احتمالية حدوث السلوك في المواقف المتشابهة مستقبلا٠

التعلم البرنامجي:

ساعدت المفاهيم التي وضعها سكنر في تطوير التعلمي البرنامجي ومن خصائص التعلم البرنامجي ما يلي:

١. تعرض المادة في خطوات صغيرة تتقدم بالتدريج نحو اهداف معرفية محددة .
٢. تتطلب هذه اللحظات الصغيرة من الدارس ان يحقق اجابات صحيحة ١٠٠% .
٣. تتبع الاستجابات على الفقرات التي تعرض للمتعلم بتعزيزات فورية وهذا شكل من اشكال التعزيز الايجابي.

٤. تستعمل التعليمات لتساعده على تحقيق وضمان الاجابات الصحيحة ويجيب المتعلم بحريته وبحسب سرعته الخاصة.
٥. لا يستعمل التعزيز السلبي او العقاب ويتم تصحيح الاخطاء فورا عندما ينتقل الطالب من فترة الى اخرى.

اما التعميمات العريضة التي وصفها سكنر للمعلمين:-

١. استعمال التعزيز الايجابي قدر الامكان بقدر كبير.
٢. ضبط المثيرات الصفية المنفره .
٣. تأكيد المعلم من تقديم التغذية الراجعة بصورها الثلاث :التعزيز الايجابي ، تجنب التعزيز السلبي، والعقاب وذلك بعد تحقيق الهدف المتعلق بالسلوك المراد تعلمه فورا دون ادنى تأخير او تخلل أي وقت بينهما.
٤. الحرص على حفظ التعاقب –خطوة خطوة– مع الاستجابات التي يجريها المتعلم وتقديم التغذية الراجعة في كل ما يتعلمه الطالب.
٥. نظرية(هل): نظرية (هل) في التعلم هي النظرية السلوكية الجديدة وتسمى بنظرية التعزيز ويطلق عليها بالنظرية الفرضية الاستدلالية اتبع (هل) المنهج التجريبي في نظريته اما كيفية حصول الحدث السلوكي وعوامله في نظريته فهي:

١. العوامل المستقلة او المؤثرة تشمل مجموعة المثيرات التي يخضع لها الفرد في وقت ما وهذه العوامل يمكن ملاحظتها مباشرة وقياسها .
٢. العوامل او المتغيرات المتوسطة تشمل عوامل فرضية لا نلاحظها مباشرة وانما نلاحظها عن طريق اثارها ونتائجها ومن الصعب قياسها .
٣. العوامل التابعة : وهي تشمل استجابات الكائن الحي ويمكن ملاحظتها وقياسها.

<u>وقد اورد العالم (هل) عددا من المصطلحات المستخدمة في نظريته وهي:</u>

١. جهد الاستجابة :وهي قوة الدافع الموجودة الكفيلة بتحريك العادة وهو عملية جهد ملاصقة لظهور الاستجابة ويدل على قوة ميل الاستجابة ويستدل عليه من الاستجابة نفسها ولكن ليس هي الاستجابة
٢. الحاجة: حالة لدى الكائن الحي تنشأ عن انحراف العوامل البيئية عن الشروط البيولوجية المثلى اللازمة لحفظ بقاء الكائن .
٣. الكف والانطفاء :حينما تحدث الاستجابة المكتسبة دون تعزيز فان قوة ميل هذه الاستجابة للإجراء يأخذ في التضاؤل تدريجيا وهذا ما يسمى بالانطفاء او النسيان يظهر في الفترة التي لا تمارس فيها الاستجابة ،اما التضاؤل او الانطفاء فانه يظهر حينما تمارس الاستجابة دون تعزيز .
٤. الاسترجاع التلقائي: اذا حدث انطفاء لاستجابة معينة فانه بعد فترة نجد اثار الانطفاء تأخذ بالزوال تدريجيا ويسمى مثل هذا الميل لظهور العادة المخبأة بعد فترة من الزمن لم تحدث اثناءها محاولات تعزيزية بالاسترجاع التلقائي.

مثال: ذلك / صياد سمك تيسر له مرة ان يصطاد كمية كبيرة من السمك في نهر دجلة في بقعة منه فانه سيتردد على هذه البقعة مرات متعددة ولكن اذا لم يحصل من هذه الزيارات المتكررة على نفس الكمية الاولى بل على كميات صغيرة لا تذكر فان هذه الزيارات ستأخذ في التضاؤل لأنه لم يحصل منها على غرضه وبالتالي حدث انطفاء في عادة المجيء الى هذه البقعة نظرا لأنها لم تصاحب مجالات تعزيز رغما عن تكرار السلوك ولكننا نجد ان اثار الانطفاء بعد فترة من الوقت تظهر في الزوال تدريجيا اذ يميل هذا الصياد بعد فترة من الزمن قد تكون طويلة او قصيرة الى العودة مرة اخرى الى نفس البقعة الاولى وفي هذه الحالة نقول ان الاستجابة التي انطفأت حدث لها استرجاع تلقائي .

٥. التصميم: من الممكن ان يحل المثير الشبيه محل المثير الاصلي ويسفر عن نفس الاستجابة .

٦. الدوافع: بدون وجود الدافع لا يمكن ان تتم الاستجابة لمثير ما حيث ان الدوافع تساعد على تحديد نوع المثيرات التي تؤثر في الكائن الحي .

التدعيم او الثواب: تعطى هذه النظرية اهمية كبرى للتدعيم او الثواب حيث انه يعمل على التخفيف من اثر المتغيرات التي تقع على الكائن الحي فالهرب من موقف فيه مثير يسبب للكائن الحي ضيقا يعتبر اثارة او تعزيزا يزيل الضيق الا ان الهرب يؤدي الى زوال تأثير المثير وبالتالي زوال الضيق ان الثواب او التعزيز يعمل على تخفيف اثر المثيرات المنفرة الا انه لا يعمل على تخفيف حدة الدافع نفسه فاذا رغب طفل معين في الحلوى التي اخفيت عنه وحاول الطفل البحث عنها حتى وصل اليها فالحلوى في هذه الحالة لا تعتبر حاجة .

ويفسر سكنر الاشراط الاجرائي على انه : الإجراء الذي يقوم به الكائن الحي تحت شروط معينه لتعلم نمط معين من السلوك المعزز أو المدعم . ويعتقد سكنر بأن الإشراط الإجرائي يفسر أكثر سلوك الإنسان تعقيداً، ويعتبرها إحدى طرق تعديل السلوك لتعليم وتدريب الأطفال المعاقين في المدارس والمعاهد ، ولمعالجة البالغين في المصحات العقلية .

وقد أطلق سكنر عدة مسميات على هذه النظرية (نظرية الاشراط الاجرائي) منها:

١- تعديل السلوك . ٣- هندسة البيئة .

٢- التعزيز الإيجابي . ٤ - الاشتراط الإجرائي أو التعليم الشرطي الوسيلي

افتراضات نظرية الاشراط الإجرائي :-

تقوم النظرية السلوكية كما طورها سكنر على الافتراضات التالية :

١- أن معظم السلوك الإنساني متعلم .

٢- يلعب التعزيز دور كبير في تحقيق التعلم المرغوب.

٣- يتضمن التعلم التغير والتعديل في خبرات المتعلم ونواتجه .

٤- يتم التعلم عند تجزئة الخبرة لمواقف سهلة قصيرة يستغرق تعلمها فترات زمنية قصيرة .وان السلوك الإنساني سلوك معقد ، وحتى يمكن فهمه لابد من تجزئته لأجزاء بسيطة .

٦- يمكن إخضاع السلوك الإنساني إلى عمليات الفهم والتفسير والضبط والتنبؤ .

٧- السلوك الخاضع للتعلم هو سلوك قابل للقياس والملاحظة .

٨- يتم تحديد السلوك المراد تعلمه تحديد دقيق وفق معايير.

الإجراءات التجريبية عند سكنر

قام سكنر بعمل تجارب على أنواع مختلفة من الكائنات الحية كالحمام والفئران والقرده والأسماك ثم انتهى بالتجريب على الإنسان مستخدماً جهازه المعروف بصندوق سكنر

صندوق سكنر

هو عبارة عن جهاز تم صناعته بناء على شكل وحجم ومواصفات الكائن الذي سيدخل فيه ، وتعتبر استجابات الكائن هي التي تؤدي للحصول على التعزيز، وتسمى هذه الإجراءات داخل الصندوق (بالإجراءات الحرة) لأن الكائن يقوم بها وفق ما يتناسب مع حجمه ووضعه ، للوصول إلى الهدف.

من تجارب سكنر

" **تجربة الحمامة** "

وضُعت حمامة داخل الصندوق في حالة جوع شديد ،فأخذت تتجول للبحث عن الطعام ، وفي أثناء ذلك ترفع رأسها لمستوى العلامة التي وضعت ، عندها يقوم سكنر بتعزيز السلوك بإسقاط القمح للحمامة . في المرة الأولى يكون رفع الرأس عفوياً ، وبالتعزيز يحدث التعلم .

"" **تجربة الفأر** "

وضع فأر في صندوق معتم في حالة جوع ، وكان بالصندوق رافعة عند ضغطها أو تحريكها يتم فتح مخزن الطعام ووضع مصباح إضاءة يلعب دور المثير الشرطى ، يقوم الفأر بإجراءات عشوائية قد تصيب إحداها فيضغط على الرافعة ويفتح مخزن الطعام وهكذا كل مرة ويحصل على التعزيز .

نتائج التجارب

١- أن هناك الكثير من أشكال السلوك تصدر عن الكائن الحي دون أن تكون مرتبطة بمثير محدد.

٢- أن السلوك محكوم بالظروف البيئية .

٣- يميل الكائن الحي في المستقبل إلى أن يكرر نفس العمل الذي قام به وقت التعزيز أو التدعيم .

هذا ويرى سكنر أن:

١- السلوك يتكون من وحدات سماها الاستجابات .

٢- والبيئة تتكون من وحدات سماها المثيرات .

يعتمد سكنر في نظريته (الاشراط الاجرائي) على : -

اولاً : المثير

المثير عند سكنر نوع من الأحداث البيئية لا يمكن تحديدها منفصلة عن أسلوب معين من أساليب النشاط للكائن الحي . وهو أنواع :-

١- **المثير المعزز**: يقصد به كل المثيرات الايجابية التي تلي حدوث السلوك (السلوك الإجرائي) وتعمل على تعزيز وتقوية ظهور الاستجابات وتكرار حدوث السلوك الإجرائي .

مثال : طلاب الصف الأول الابتدائي حضروا الأسبوع الأول كاملاً حيث كان يتم تعزيزهم بتكريمهم وإعطاءهم الهدايا لذلك استمر حضورهم اليومي ولم يتغيبوا .

٢- **المثير العقابي** : يقصد به كل أنواع العقاب من عقاب (لفظي أو جسدي) يلي حدوث السلوك الإجرائي ، وتعمل تلك المثيرات على إضعاف ظهور ذلك السلوك وعدم تكراره .

٣- **المثير الحيادي** : يقصد به المثيرات التي لا تؤدي إلى إضعاف ولا إلى تقوية السلوك الإجرائي.

ثانياً : تعلم السلوك الإجرائي :

وفقاً لسكنر فإن كل السلوك البشري تقريباً يقع تحت بندين أو نوعين من السلوك هما :

١- **السلوك الاستجابي** : يتكون من استجابات محددة تستثيرها مثيرات محددة .

مثال : استجابة إفراز اللعاب التي يستثيرها الطعام ، واستجابة حدقة العين التي تستثيرها كمية الضوء المؤثرة على شبكة العين .

٢- **السلوك الإجرائي** : كلمة إجرائي مشتقة من كون الفرد يقوم بعمل معين في البيئة من حوله والسلوك الإجرائي يتكون من الاستجابات التي تصدر تلقائياً عن الفرد دون أن تكون مرتبطة بمثيرات محددة .

مثال : الرد على الهاتف ، المشي ، الأكل ، الكلام ، العمل .

على اثر ذلك قرر سكنر أن السلوك الإستجابي لا يمثل إلا منزلة بسيطة جداً في السلوك الحيوي ، أما السلوك الإجرائي فيمثل منزلة كبيرة في السلوك الإنساني لان معظم السلوك البشري إجرائي ، لذلك اهتمت به الدراسات النفسية التربوية اهتماماً كبيراً .

ثالثاً : التعزيز

هي العملية التي تكسب المثير أو الحدث قوة تزيد من احتمالية تكرار السلوك الذي يليه ، وتعتبر شكل من أشكال المكافأة التي يحصل عليها الكائن نتيجة للسلوك المرغوب به ، ولا يمكننا الفصل بين المعززات الأولية والثانوية ، لان هناك علاقة بينهما ، فالمكافآت المالية تعد من المعززات الثانوية ، يتم بواسطتها حصول الفرد على مستلزماته وتلبية احتياجاته ، ومن بينها حاجاته الفسيولوجيه كالطعام والشراب والتي تعد من المعززات الأولية.

جداول التعزيز: يقصد بها الطريقة المتبعة في تقديم التعزيز، بعد القيام بالسلوك المطلوب وتقدم وفق خطة أو طريقة معينة ، وميز سكنر بين نوعين أساسين من التعزيز هما:-

التعزيز المستمر: وهو تعزيز الاستجابة في كل مرة تحدث فيها ولعل هذه الطريقة في التعزيز ابسط واسرع في بناء الاستجابة.

التعزيز المتقطع: ويقصد به تعزيز الاستجابة في بعض مرات حدوثها وليس في كلها حيث يمكن بلوغ هدف التعلم وذلك بتعزيز كل استجابتين متتاليتين أو استجابة من كل ثلاث استجابات أو أربع أو خمس .

فالتعزيز المستمر يعد ضرورياً في تعلم مهمة جديدة ، خاصة عند تعليم الأطفال المهارات والمعارف ، وأفضل طرق التعزيز هي التي تبدأ بالتعزيز المستمر ثم يتلوه التعزيز المتقطع الذي يعمل على المحافظة على سلوك المتعلم .

المفاهيم الأساسية لدى سكنر :

ساهمت مفاهيم سكنر في العلاج السلوكي كأحد أنواع العلاج النفسي لمشكلات الفرد، وهي قائمة على فرضية أن معظم أنواع السلوك غير السوي (المرضي) هو نتيجة لعملية تعلم خاطئة عززت ودعمت ، وبنفس المبادئ يمكن إطفائها أو تعديلها ، وعليه يمكن تعليم الفرد ذو المشكلات السلوكية المختلفة طرق إضعاف أو إزالة السلوك غير المرغوب فيه ، وتعزيز أو تقوية السلوك المرغوب فيه ، من أجل أن يكون الفرد قادرا على مواجهة مشاكله وتوتره .

أولى المفاهيم لدى سكنر :

- **الإرشاد النفسي**

إذا كانت نتائج السلوك للمتعلم غير مرضية وغير مقبولة فأننا نعدل منها عن طريق التعزيز أو العقاب. فالإرشاد يعني القيام بتعليم سلوكيات جديدة ومحو السلوكيات السابقة وإعادة التعلم من جديد.

- **الأنطفاء**

الانطفاء عند سكنر عكس التعزيز ، فهو يأتي عندما يتكرر السلوك أو الاستجابات ولا يقدم التعزيز وتكون النتيجة أن الاستجابة تتضاءل إلى أن تختفي في النهاية تماما. و يعتبر أسلوب فعال في التقليل من السلوك الغير مرغوب فيه و بصفة خاصة إذا صاحبه عملية تعزيز للسلوك المرغوب فيه .

- **العقاب**

العقاب إجراء سلوكي يستخدم بهدف خفض الأنماط السلوكية الغير مرغوبه. فهو الأثر الذي يعقب السلوك ويؤدي لإضعافه على عكس التعزيز الذي يزيد من احتمال ظهور السلوك . وللعقاب انواع :-

أنـواع العقاب	عقاب سلبي	عقاب إيجابي
مفهومه	هو عملية كف أو أضعاف بعض السلوكيات من اجل الحصول على الثواب أو المعززات .	هو تطبيق أو إضافة مثير غير مرغوب فيه على سلوك معين بهدف أضعافه أو كفه .
مـثال	الطفل الذي يكف عن إيذاء أخيه خوفاً من الحرمان من الثواب وهو مشاهدة الرسوم المتحركة.	عقاب الطفل بالضرب على سلوك سيئ صدر منه .

وكان سكنر يرفض العقاب ، لأنه بالرغم من أنه يمنع حدوث سلوك سلبي إلا أنه يكون سبباً لإثارة الغضب والعدوانية وفي النهاية التمرد والعصيان ، وبشكل عام يعتبر العقاب ضعيف ومؤقت التأثير ، ولهذا أقترح سكنر بدائل للعقاب مثل :

- تغيير الظروف المسببة للسلوك غير المرغوب فيه الذي يعاقب عليه ، مثل : إبعاد الأشياء القابلة للكسر عن متناول الطفل .
- ترك الطفل يمارس الاستجابة غير المرغوبة حتى يشعر بالسأم ويتجاهلها .
- إذا كان هذا السلوك متعلق بطبيعة مرحلة النمو فيمكن إهماله إلى أن يتخطى الطفل تلك المرحلة .

- **التشكيل**

إذا كان السلوك المراد تعليمه يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعلمه الطفل (كالقراءة . الكتابة) ، فإن تعلم مثل هذا السلوك بالأشراط الإجرائي يتم بتعزيز كل أداء يعتبر خطوة في الطريق إلى تعلم السلوك النهائي . فعندما يتعرف على الحروف يعزز ، و عندما يتعرف على الكلمات يعزز ، وعندما يفهم المعنى يعزز ، وهكذا حتى يصل إلى إتقان مهارة القراءة . و هكذا في الكتابة فإن الإمساك السليم بالقلم ، والخربشة ، ورسم خطوط منحنية ، وخطوط مستقيمة ، والرسم على السطر ، كلها خطوات في الطريق إلى تعلم الكتابة كل خطوة منها تعزز وهكذا يتشكل السلوك النهائي.

بنفس الطريقة يمكن تشكيل سلوك الأطفال مع الآخرين ، و تشكيل سلوكهم في الصف المدرسي .

- **التسلسل**

تقوم فكرة التسلسل في الاشراط الإجرائي على تجميع سلوكيات فرعية يمتلكها الطفل في شكل تتابعي بحيث تشكل في النهاية سلوكاً اكبر تعقيداً ، هذا ويتشابه التسلسل مع التشكيل في انه يعتمد على تجزئة السلوك حيث يتم التدريب على كل جزء من أجزاء السلوك النهائي باستخدام التعزيز و يعتبر التسلسل ذا أهمية في تعليم السلوكيات المركبة وخاصة للأطفال.

مثال : الطفل ذو الثلاث سنوات قادر على أداء السلوكيات الفرعية التالية : (فتح صنبور الماء في المغسلة ، الإمساك بالصابون ، غسل اليدين ، غسل الفم ، غسل الوجه ، تنشيف الوجه) . يُعلم الطفل على ترتيب هذه الأفعال بحيث تشكل سلسلة من أفعال متتالية تهيئ في مجموعها الطفل للذهاب إلى المدرسة مثلاً .

التعليم المبرمج :

يُعدٌّ التعليم المبرمج من التطبيقات التربوية الهامة التي أنتجتها نظرية التعلم الشرطي الإجرائي لسكنر ، حيث ساعده اهتمامه بظاهرة التعزيز الفوري في تطوير التعليم المبرمج . وتشير الدراسات التي أجريت إلى أن التعليم المبرمج يفوق في فاعليته التعليم التقليدي ، إذ فيها يتم تزويد المتعلم بنتيجة تعلمه اولاً ثم تزويده بالتعزيز فور ظهور استجابته الصحيحة ، وهذا يضمن استمرار تعلمه ودافعيته ، من هنا بدأت فكرة الآلات التعليمية وبرمجة المادة الدراسية وعرضها في آلات إلى برمجة الكتب أو عرض المادة على أفلام أو شريط تسجيل ، وقد اختبر الفكرة سكنر بالاشتراك مع زميله وكان برنامجاً خطياً تم تجريبه باستخدام الآلة وطور عدة مرات إلى أن تم الانتهاء وطبعه في كتاب .

مبادئ التعليم المبرمج :

١. تسلسل المادة التعليمية في خطوات متتاليه تعمل على استمرار نشاط المتعلم .
٢. تزويد المتعلم بالتغذية الراجعة في كل خطوة ليعرف نتيجة عمله .
٣. تزويد المتعلم بالتعزيز المناسب بعد كل استجابة .

٤. التأكيد على مبدأ التعلم التدريجي من البسيط للمركب ، ومن الاستجابات المألوفة إلى غير المألوفة حيث يرى أن السلوك المركب هو تكوينات للصيغ البسيطة من السلوك .

٥. توقف أي تعلم على نتائج المتعلم السابقة .

ايجابيات النظرية :

١. تدرس نظرية سكنر العمليات المعرفية بوصفها سلوكيات داخلية وهي تتعامل مع السلوك الإنساني بوصفه ظاهرة معقدة ، لذلك فان سكنر لا يرى في السلوك مجرد ارتباط بين مثير واستجابة ، إنما يرى أن الإنسان لا يتعلم استجابات محددة من خلال التعرض لمثيرات محددة كما عند ثورندايك – وإنما يتم التعلم لمجموعات من السلوك في مجموعة من المثيرات.

٢. ترجيح مبدأ التعزيز الايجابي على مفهوم العقاب أو التعزيز السلبي في التعلم الصحيح .

٣. الخطوات التي تتبعها النظرية السلوكية في تعديل السلوك واضحة و محددة و تتمثل في :

- تحديد السلوك المطلوب تعديله .
- تحديد الظروف التي يحدث فيها السلوك المضطرب .
- تحديد العوامل المسؤولة عن استمرار السلوك المضطرب .
- اختيار مجموعة سلوكيات يمكن تعديلها أو تغييرها وإعداد جدول لإعادة التعلم .

٤. المبادئ التي تقوم عليه نظرية سكنر واضحة و محددة : وهي تحليل السلوك المطلوب تعلمه ، و تعزيز الاستجابات باتجاه السلوك المطلوب تعلمه وفق جداول التعزيز التي قد وضعها . كما يرى أنه بالإمكان إطفاء السلوك و محوه بوقف التعزيز الايجابي .

٥. أسس سكنر التعليم المبرمج : وهو أسلوب من التعليم يعرض على الطالب فيه معلومات وأوامر منفصله ، وعلى الطالب أن يفهم المعروض الآتي قبل الانتقال إلى المرحلة التالية .

٦. النظرية مناسبة لتعليم وتدريب الأطفال المعاقين في المدارس و المعاهد ، ومعالجة البالغين في المصحات العقلية .

٧. كانت المدرسة السلوكية تحاول سحب سلوك الحيوان سحباً ميكانيكياً على سلوك الإنسان في بعض المجالات و ليس جميعها ولا أدل على ذلك من استدلال قابيل ابن آدم عليه السلام في دفن أخيه هابيل عليه السلام من خلال سلوك الغراب وفقاً للآية الكريمة { فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين } .

سلبيات النظرية :

١. النظرية غير صالحة لتفسير أو علاج كل أنواع الاضطرابات السلوكية ، كما أنها غير صالحة لتشكل إطارا عاماً يمكن من خلاله تفسير تكون شخصية الفرد ككل ، إذ أنها تهمل العناصر الذاتية في السلوك ، بالرغم من إسهامها في تعزيز الجانب الإرادي والمساهمة الذاتية الايجابية للفرد في تشكيل السلوك إلا أن هذا يظل محدوداً.

٢. معظم الدلائل العلمية و التجريبية في نظرية سكنر مبنية على الحيوان أكثر منها على الإنسان ، وفي الحقيقة لا يمكن اختزال سلوك الإنسان في مجرد مثير واستجابة ، إذ أن الإنسان يعمل تحت حزمة من المثيرات في آن واحد ، و سلوك الإنسان يختلف بما لديه من عمليات عقلية لا توجد لدى الحيوان ، إذن نجد أن النظرية كانت تتركز على العلاقة بين السلوك الإنساني ونتائجه من منطلق أن السلوك الإنساني يمكن تفسيره من خلال النتائج الإيجابية، أو السلبية لذلك السلوك.

التغذية الراجعة : تعرف بانها عملية تزويد الفرد بمعلومات او بيانات عن سير ادائه بشكل مستمر من اجل مساعدته في تعديل ذلك الاداء ان كان بحاجة الى تعديل او تثبيته اذا كان يسير في الاتجاه الصحيح . فعملية تزويد الفرد بالبيانات الضرورية عن سير ادائه تعد خطوة ارشادية تزيد من فعالية الاداء في المستقبل . ويفترض العلماء النفس ان للتغذية الراجعة ثلاث خصائص هي : تعزيزية ، دافعية ، موجهة ، وان دورها الوظيفي يرجع الى هذه الخصائص ويرى السلوكيون ان الخاصية التعزيزية تشكل محوراً رئيسياً في دورها الوظيفي .

وقد دعم سكنر هذه الاهمية بتركيزه على التغذية الراجعة الفورية وبناء عليه استعمل الحاسوب في التعلم الذاتي اما كونها موجهة فأنها تبين للمتعلم ادائه التي تم اتقانها فيثبتها او التي اخطأ فيها فيصححها وبذلك تزيد من تركيزه وانتباهه الى مواطن ضعفه بتلافي القصور لديه وبهذا فان التغذية الراجعة تسهم في مساعدة الطالب على تكرار السلوك الذي ادى الى نتائج مرغوبة .

من ابرز علمائها الدكتور نوربرت وينر مدرس الرياضيات الامريكي الذي وضع مصطلح التغذية الراجعة Feedback وذكره في كتابه سنة ١٩٤٨ ، ركز المصطلح على بداية الاهتمام في معرفة النتائج والتي تترتب عليها اثار كثيرة في انظمة التحكم وعلم الحاسوب وتنظيم المجتمع . يعتمد وينر على محرك السلوك للانتقال من وضع الى أخر . والمخطط التالي يوضح الانتقال :-

الوضع الراهن ← مرحلة الاختبار (المحفز) ← العمليات (داخلياً وخارجياً) ← خروج ← الوضع المفضل

ان تزويد المتعلم بالتغذية الراجعة بعد الاستجابة الخاطئة يعد اكثر اهمية من عملية تأكيد الصواب ففي حالة الاستجابة الصائبة لا يطلب من المتعلم ان يغير هيكلية الاستجابة ، اما في حالة الاستجابة الخاطئة فأمام الفرد مهمتان : الاولى : ازالة الاستجابة الخاطئة

ثانيا: استبدال الاستجابة الخاطئة بالاستجابة الصائبة فيقوم الفرد بحذفها والتعويض عنها بالصواب وبهذا يحافظ على صدق الهيكلية المعرفية .

اما من حيث انماط وصور التغذية الراجعة فهي متعددة ويمكن ان تكون غاية في البساطة من نوع (نعم) او (لا) فتسمى (اعلامية) ، او اكثر تعمقه كتقديم معلومات تصحيحية وتسمى (تصحيحية) وقد تكون من النمط الذي يضيف معلومات جديدة وتسمى (تفسيرية) ويمكن ان تتبع كل ما سبق بالمدح والثناء فتسمى (تعزيزية) ويمكن ان تزداد العملية تعمق وتوسعة لتقترب من العملية التدريسية وبذا تصبح خارجة عن مجال كونها عملية اخبارية تأكيدية او تصحيحية ويمكن ان تستخدم هذه الانماط الانواع النواتج المختلفة وليس هناك خصوصية في موضوع معين .

- **فوائد التغذية الراجعة البناءة**

١. تحسين الفاعلية .

٢. تساعد على تحقيق تقدم
٣. تدعم بناء الثقة
٤. تعطي تعلم نشط
٥. تساعد على بناء الخبرة
٦. تصنع المهارة اللاواعية

- **اقسام التغذية الراجعة**

أ- اذكر نقاطاً ايجابية ومشجعة
ب- حدد النقاط التي حكمت بانها تحتاج للتحسين
ت- اذكر نقاطاً ايجابية ومشجعة

- **آلية تقديم التغذية الراجعة الفعالة والتغذية الراجعة البناءة**

١. افتتح بذكر الايجابيات (احترم وتقبل الاخرين كما هم ، اشعر من تقدم له التغذية بانك تحبه وتعمل لمصلحته وتحترم ما قدمه)
٢. اذكر امور بحاجة لتحسين (حدد فرص التحسين بدقة ثم تحدث عن ما يجب تحسينه بشكل اجرائي محدد وواضح ، لا ما تريد تكرار حدوثه) .
٣. اختم بتأكيد على الايجابيات والتحسن (العقل يبني على آخر تجربة ، ولتسهيل التقبل لدى الاخر وتحفيزه للتحسين اكد على تطوره المطرد) .

- **كيف نقدم تغذية راجعة :-**

١. اتفق مع الشخص المقيم على نموذج التقييم للإداء وبنوده قبل البدء بالعملية .
٢. خذ الامر بجدية وسجل ما يحدث ولا تعتمد على الذاكرة .
٣. راقب بشكل دقيق ما يحدث وقم بتكوين وصف دقيق واجرائي لما يحدث .
٤. ابتسم بحب ولطف لكي تكون انطباعاً ايجابياً لدى المتلقي .
٥. لا تستخدم شعارات او جمل وصفية شعورية ولا تبالغ في تعظيم السلبية ولا تتحدث بفوقية .
٦. في البداية تحدث عن نفسك وليس عن الشخص ، وبين له اعجابك واساله اعجبك الموضوع وماذا تعلمت من هذه التجربة .
٧. ركز على صياغة الاسلوب وليس على السؤال .
٨. ركز على الحديث بطريقة اجرائية تساعد المتلقي على التعلم واوجد له بدائل واجراءات فعاله لتحسين الاداء .
٩. حفز المتلقي على تقبل النقد عند اعطاء التغذية الراجعة الفعالة واكد على اهمية التوقف عن التبرير .

- **أسس التغذية المرتدة (الراجعة) :**

من خلال المفهوم السابق للتغذية الراجعة بالإمكان حصر الأسس ، أو العناصر الأساس التي ترتكز عليها على النحو التالي:

١. النتائج : وتعني أن يكون الطالب قد حقق عملا ما .
٢. البيئة : وهو أن يحدث النتاج في بيئة تعكس معلومات في حجرة الدراسة . بمعنى يوجه المعلم الانتباه تجاه المعلومات المنعكسة
٣. التغذية الراجعة : وتعني المعلومات المرتبطة بهذه النتائج والتي يتم ارجاعها للطالب ، حيث تعمل كمعلومات يمكن استقبالها وفهمها.

٤. التأثير : ويقصد به أن يتم تفسير المعلومات واستخدامها أثناء قيام الطالب بالعمل على الناتج التالي.

و نحن نحتاج الى التغذية الراجعة في جميع أمور الحياة وليس في المجال التعليمي فقط، نحتاج إليها في البيت وأمور الأسرة وفي مكان العمل وبين الأصدقاء والزملاء فالمسلم مرآة أخيه المسلم، وهي تنبهنا إلى أمور قد نغفل عنها أو نعتقد أنها سليمة وصحيحة وهي عكس ذلك.

ونستنتج مما سبق أن التغذية الراجعة هي عبارة عن معلومات تقدم للطالب بعد أن يقوم بالعمل المكلف به .

مبادئ التغذية الراجعة

هناك مبادئ تتعلق بنجاح التغذية الراجعة ومستوى فعاليتها في مجال العملية التربوية :-

١. مبدأ الاستمرارية الذي يقضي بوجوب الاستمرار في تزويد الفرد بنتائج اعماله حتى يمكن ان يحقق تحسناً مستمراً في الاداء الذي يقوم به .
٢. مبدأ الفهم المشترك الذي يستلزم من جميع القائمين بتوفير التغذية الراجعة وتحليلها وتفسيرها فهماً مشتركاً للمعلومات التي توفرها الامر الذي يجعلهم قادرين على اعتماد التدابير العلاجية والارشادية الملائمة .
٣. مبدأ الغائية والذي يقضي بان التغذية الراجعة ليست هدف في حد ذاتها بل ان ورائها غرضاً ابعد منها ، هو استخدام المعلومات الناتجة عن التغذية الراجعة في اجراء التحسينات على العملية التعليمية بقصد مساعدة الافراد على المدى البعيد في الحصول على اقصى منفعة .

ان تقديم التغذية الراجعة المناسبة وفي الوقت المناسب يزيد من قدرة المتعلم على التعلم وحل المشكلات وصناعة القرارات ، وهنا نذكر بان الاعتقاد السائد فيما مضى والقاضي بإعطاء التغذية الراجعة مباشرة لتعطي افضل النتائج قد وجد ما يخالفه فقد ذهبت بعض الدراسات الى انه لا فرق بين اعطاء التغذية الراجعة مباشرة او بعد مضي فترة زمنية وقد بينت دراسات (بريل بل) افضلية التغذية الراجعة المؤجلة على الفورية بخاصة في المدى الطويل .

س/ متى تكون الجملة أو العبارة تغذية مرتدة (راجعة) ؟

التغذية الراجعة يجب أن تكون متعلقة بالعمل . فإذا أخبرنا شخص ما بأن العرب والمسلمين أصحاب حضارة ، فإننا نشعر بالرضا والسرور ، ولكنه عندما يذكر أننا لم نقم بأي عمل يترتب عليه انتماؤنا لتلك الحضارة ، فإن ذلك لا يشير بالضرورة إلى أن كل جملة تعزز ، أو تقلل من شأن الذات هي تغذية راجعة . بل إن التغذية الراجعة يجب أن ترتبط بعمل ما كما ذكرنا سابقا، كما يجب علينا الربط بين العمل وبين المعلومات المقدمة ، وعندئذ تكون تلك المعلومات التي نقدمها للآخرين تغذية راجعة .

ومما سبق يتأكد لنا أن التمييز بين التغذية الراجعة والجملة الإيجابية أو السلبية أمر مهم وضروري في حجرة الدراسة ، فالتغذية الراجعة تخبر الطالب عن عمل قام به ، أما الجملة الإيجابية فإنها يمكن أن تزيد من سروره ، ولكن لا يتوقع أن تحدث تغيراً في سلوكه .

- **ابعاد التغذية المرتدة :**

وضع الباحث **هولدنك** ١٩٧٠ Holding تصنيفاً لأنواع التغذية المرتدة وفق أبعاد ثنائية القطب وذلك على النحو الآتي : –

١. **تغذية راجعة حسب المصدر (داخلية . خارجية)** : تعتبر التغذية الراجعة من أهم العوامل التي تؤثر في المتعلم ، فهي تشير إلى مصدر المعلومات التي تتوافر للمتعلم حول طبيعة أدائه لمهارة ما ، فمصدر هذه المعلومات إما أن يكون داخلياً او خارجياً ، وتشير التغذية الراجعة الداخلية إلى المعلومات التي يكتسبها المتعلم من خلال استجابته لما يتعلمه وتصبح تلك المعلومات عوناً ، لتعلم او اداء مهارة لاحقة وهذا ما يعرف بالتغذية المرتدة الذاتية او الداخلية ، أما التغذية المرتدة الخارجية فتشير إلى المعلومات التي يحصل عليها المتعلم من مصدر خارجي وتظهر بشكل تعزيز لفظي يقدمه المدرس او في تنبيهات خارجية او على الة معينة .

٢. **التغذية الراجعة حسب زمن تقديمها (فورية . مؤجلة)** :فالتغذية الراجعة الفورية تتصل وتعقب السلوك الملاحظ مباشرة ، وتزود المتعلم بالمعلومات أو التوجيهات والإرشادات اللازمة لتعزيز السلوك أو تطويره أو تصحيحه وهي افضل من التغذية الراجعة المؤجلة .

أما التغذية الراجعة المؤجلة فهي التي تعطى للمتعلم بعد مرور فترة زمنية على إنجاز المهمة أو الأداء ، وقد تطول هذه الفترة أو تقصر حسب الظروف.

٣. **التغذية الراجعة حسب شكل معلوماتها (لفظية . مكتوبة)** : هناك تأكيد على تقديم تغذية مرتدة مكتوبة او لفظية اما الأكثر فائدة هي التي تكون مكتوبة ولفظية معاً خاصة لذي الاستجابات الخاطئة واكدت الدارسات ان تزويد المتعلم بتغذية مرتدة مكتوبة التي تتسم بتحديد حجم ومقدار الأخطاء ونوعها تكون اكثر فاعلية من وضع علامة صح او خطأ

٤. **التغذية الراجعة حسب التزامن مع الاستجابة (متلازمة . نهائية)** : تعني التغذية الراجعة التلازمية : المعلومات التي يقدمها المعلم للمتعلم مقترنة بالعمل ، وأثناء عملية التعلم أو التدريب ، وفي أثناء أدائها . قدُ في حين أن التغذية الراجعة النهائية تقدم بعد إنهاء المتعلم للاستجابة .

٥. **التغذية الراجعة (الإيجابية – السلبية) التغذية الراجعة الإيجابية** : هي المعلومات التي يتلقاها المتعلم حول إجابته الصحيحة ، وقد اكدت دراسة اندرسون وجماعته ١٩٧١ al.et.Anderson, ان اخبار المتعلم بأن اجابته صحيحة اي تقديم تغذية مرتدة ايجابية تزيد وتسهل من عملية استرجاعه لخبرته في المواقف الأخرى .

والتغذية الراجعة السلبية تعني : تلقي المتعلم لمعلومات حول استجابته الخاطئة ، وقد اكدت دراسة بارنجر وكهولسن ١٩٧٩ Gholson & Barrniger ان اخبار المتعلم بأن اجابته عن سؤال من اسئلة الامتحان غير صحيح اي تقديم تغذية مرتدة سلبية ربما يؤدي الى تحصيل دراسي افضل واسرع اضافة الى سعي المتعلم للبحث عن الإجابة الصحيحة مما يخلق مقاومة لعوامل النسيان.

- **نصائح لتقديم التغذية الراجعة الفعالة :–**

تعتمد النصائح على كلمة Feedback وهي كالاتي :–

F التأطير : التغذية الراجعة يجب ان تقدم بتأطير اي برواز تعلم ونصح وليس برواز نقد يؤدي الى نتيجة سلبية .

E الأدلة : يجب المجيء بأدلة تدعم حديثك .

E التأثير : كلما تتحدث عن نفسك وتجربتك سوف تكون اكثر صدقاً.

D التشخيص : نشخص الامور التي سوف تساعدنا في عملية التعلم او تحسين الاداء .

B ان نكون صادقين وبالغي الدقة : يجب ان نبتعد عن المبالغة في المدح او الذم .

A الاجراءات وليس التشخيص : يجب ان نعمل على تحسين الاجراءات وليس التشخيص لانه المشكلة في السلوك وليس مع الشخص.

C السرية : تقديم التغذية الراجعة بسرية مثل النصيحة التي تقدم بسرية بدون المجاهرة بها امام الناس .

K مراعاة الايجاز : وهو نوع من النقد البناء لكن باختصار اي لا تسهب في النصح واعطاء معلومات كثيرة غير مبررة .

- **احذر من تقديم التغذية الراجعة في الحالات التالية :-**

أ- نقص المعلومات عن سياق الكلام والتصرفات .

ب- التغذية الراجعة عن شيء لا يمكن للشخص ان يغيره .

ت- ضعف تقدير الذات لدى الشخص المتلقي .

ث- الهدف ليس بغرض التحسين .

ج- الظروف المحيطة غير دقيقة .

- **درجات استماع وتقبل الناس للتغذية الراجعة :** يتقبلها الناس بـ٤ مستويات هي :-

الاول : التجاهل

الثاني : التظاهر بالاستماع

الثالث : الاستماع الجزئي

الرابع : الاستماع بانتباه

- **ماهي معوقات الاستماع الفعال للتغذية الراجعة :**

١. التحدث والتبرير اثناء تلقي التغذية الراجعة .
٢. الافتراضات المسبقة في مقدمة التغذية الراجعة .
٣. العاطفة والحساسية المفرطة ونقص تقدير الذات وتعد استنقاص شخصي .
٤. التقييم السريع لما يقال وضعف التركيز على فرض التحسين .
٥. التفكير السريع في ما يقال وعدم الاستفادة القصوى منه في التحسين .

س/ ما اهمية التغذية الراجعة للمدرس والمتعلم

ت	المدرس	المتعلم
١	تقويم طرائق واساليب التعليم	تنشيط الدافعية والتحفيز لمعرفة نقاط الضعف وتجاوزها
٢	تقويم ذاتي لكفايات المدرس والتخطيط ، التنفيذ ، التقييم	تشجيع المتعلم على الاجتهاد والتركيز على نقاط القوة
٣	الوقوف على اداء المدرس وتحسين ادائه وتقدمه	تزويد المتعلم باستجاباته ومحاولة تدارك تعثراتها
٤	اختصار الوقت والجهد للتعلم	تعزيز ثقة المتعلم واستثارة دافعيته للتعلم والتحصيل

س/ اغراض التغذية الراجعة

ج// الجواب :

١. وقائية حين يتعلم المتعلم من اخطائه ويحاول عدم تكرارها .
٢. علاجية لأنها تبين مكامن الخطأ وبالتالي الاشتغال على تجاوزها ، كما تبين نقاط القوة لاستثمارها ونقاط الضعف لتجاوزها
٣. هدفها الاساس تجويد التعليم .

س// انواع التغذية الراجعة :

أ – المدة

- التغذية الراجعة الفورية : فورية لان المدرس يبنيها على سلوكيات المتعلمين الملاحظة والمباشرة ، ويتم بناء عليها تقديم المعلومات والتوجيهات الضرورية لتعزيز السلوك او تطويره او تصحيحه من خصائصها كونها مكتوبة او شفوية وبصورة فردية (وهي السائدة في الصفوف الدراسية) .
- التغذية الراجعة المؤجلة : ويقصد بها المعلومات التي يزود بها المدرس المتعلم بعد مرور مدة من الزمن على استكمال العمل والاداء وقد تطول هذه المدة او تقصر بحسب الظروف ومقتضى الحال .

ب- النوع

- التغذية الراجعة الصريحة : يقدم فيها المدرس للمتعلم اجاباته عن السؤال المطروح صحيحة او خطأ ثم يزوده الجواب الصحيح في حالة الاجابة الخطأ ومطالبته بإعادة كتابة الجواب الصحيح .
- التغذية الراجعة الغير صريحة : يقدم فيها المدرس للمتعلم اجابته عن السؤال المطروح صحيحة او خطأ ويطالبه مجددا بالإجابة عليه وبعد اعطاء وقت محدد يزوده المدرس بالإجابة الصحيحة .

ج- اخرى

- التغذية الراجعة الفردية : هي التي يزود بها المدرس كل متعلم بمفرده .
- التغذية الراجعة الجماعية : وهي الموجهة الى جماعة القسم او الصف .
- التغذية الراجعة المكتوبة : يتم تمريرها مكتوبة او عن طريق الكتابة .
- التغذية الراجعة الشفوية : يتم تمريرها شفهيا او شفوياً .

<u>وظائف التغذية الراجعة في العملية التعليمية :-</u>

أ- وظيفة تعزيزية : تحفز المعلم والمتعلم على العطاء لتصحيح مسار العملية التعليمية ، فان المعلومات التي تحملها التغذية الراجعة عن سلوك ما من شانها ان تؤدي الى تقوية هذا السلوك وتثبيته ان كان صحيحاً وتجعل احتمالية حدوثه اكثر احتمالاً في المستقبل ، فأعلام المتعلم بان استجابته صحيحة سوف يشبع دافعه الى تحسين الذات وتحسين ادائه ويزيد من حجم المادة التي يتذكرها لاحقاً.

ب- وظيفة تصحيحية : هي من اهم الوظائف التي تؤديها التغذية الراجعة ، فأعلام المتعلم بان الاجابة عن بند من بنود الاختبار غير صحيحة وبيان اسباب ذلك الخطأ وكيفية تصحيحه يسبب دوماً تحصيلاً اسرع ومقاومة اكبر للنسيان .

ت- وظيفة اعلامية : تزود التغذية الراجعة الفرد بمعلومات تمكنه من الحكم على مدى ملائمة استجاباته وتوجيهها نحو الاهداف المرغوبة فيها وترشده الى كيفية الوصول اليها من خلال تأكيد ما هو صحيح وتثبيته من جهة والكشف عن جوانب القصور ومواطن الخطأ من جهة اخرى .

ث- وظيفة توجيهية : ان القيام بعمليات التوجيه والضبط والتحكم للإنسان امر غير ممكن بدون الاعتماد على التغذية الراجعة .

ج- وظيفة تشويقية / دافعية : عندما تنظم التغذية الراجعة بصورة صحيحة فانها تساعد على النهوض بدافعية التعلم وتجعل جهود المتعلم اكثر حماسة من خلال ما تولده من انشطة جديدة موجهة ، اذ ان الفرد كلما اقترب من هدفه اكثر زاد من الجهود التي يبذلها وبالعكس .

اهداف التغذية الراجعة

١. انشاء استجابة او مجموعة استجابات واعطاءها وجهة معينة .
٢. اجراء مقارنة وتقويم نتائج هذه الاستجابات او الاستجابة الواحدة في ضوء الاهداف المحددة من قبل او المتوقعة بغية اتخاذ قرار بشأن صحتها او خطئها .
٣. استخدام معرفة النتائج في حال وقوع اخطاء في تنفيذ الاستجابة المتحققة لإعادة توجيه هذه الاستجابة وضبطها من جديد .
٤. استخدام معلومات التغذية الراجعة التي تشير الى صحة الاجابة من اجل تثبيتها وتعزيزها .

المحاضرة الثالثة عشر – نظرية اوزوبل (نموذج المعنى) التعلم ذو معنى ... مادة علم النفس .... مدرس المادة : د. رشا جميل

❖ **مقدمة**

وضع ديفيد أوزوبل نظريته التي تبحث في التعليم اللفظي ذي المعنى والتي شكلت اهتمام الباحثين في ميدان المناهج وطرق التدريس على مدار أكثر من عشرين عاماً ولا تزال ، وكانت الفكرة الرئيسية في نظريته هي مفهوم التعلم ذا المعنى والذي يتحقق عندما ترتبط المعلومات الجديدة بوعي وإدراك من المتعلم بالمفاهيم والمعرفة الموجودة لديه قبلاً وذلك بناء على مبدأ أوزوبل الموحد للتعليم.

ففي هذا الإطار فإن أوزوبل يعتقد أن إدراك المفاهيم والعلاقات المرتبطة بالمادة المتعلمة من قبل المتعلم والمتصلة ببنيته المعرفية من أكثر العوامل أهمية وتأثيراً في عملية التعلم كما أنه يجعل التعلم ذا معنى.

وقد طور أوزوبل هذه النظرية ونشرها في مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية فنشر في عام ١٩٥٩ كتاباً بعنوان " قراءات في التعلم المدرسي " ثم نشر في عام ١٩٦٣ كتاباً بعنوان " سيكولوجية التعلم اللفظي ذي المعنى " وهو تنظيم جديد لأفكاره كما نشر في عام ١٩٦٨ كتاب بعنوان " علم النفس التربوي وجهة نظر معرفية " وفي عام ١٩٦٩ نشر أوزوبل بالاشتراك مع روبنسون كتاباً يوضح طبيعة هذه النظرية بعنوان " التعلم المدرسي " وفيه أوضحا نوعين من التعلم هما التعلم الاستقبالي ذي المعنى والتعلم بالاكتشاف ذي المعنى ومع ذلك فقد شاعت هذه النظرية بين الباحثين ورجال التربية في أواخر السبعينات من هذا القرن.

* مبدأ أوزوبل الموحد للتعلم ١٩٦٨:

أنني إذا أردت أن اختصر كل علم النفس المعرفي في مبدأ واحد فأقول:

" إن أعظم عامل مؤثر في التعلم هو ما يعرفه المتعلم بالفعل فلنتحقق منه ولندرس له بناءاً على ذلك "

ومن خلال ما سبق يمكن أن نقول: أن هذه النظرية في التعلم تعتمد على أن للفرد تركيب عقلي من نوع ما للخبرات التعليمية وعندما يمر في خبرة جديدة فإن ذلك يساعد على دخول معلومات جديدة إلى الترتيب سالف الذكر ونتيجة ذلك فإن هذا التركيب يعاد تشكيله من جديد من خلال دمج المعلومات الجديدة لتصبح جزءاً لا يتجزأ منه وهكذا يكون التعلم سلسلة من إعادة التركيب العقلي ، يتغير مع كل تعلم جديد.

❖ **قدم اوزوبل تصنيف للتعليم على اربعة انماط على اساس بعدين هما :-**

البعد الأول : طريقة تقديم المعلومات بالاستقبال أو الاكتشاف .

البعد الثاني : طريقة المتعلم في ربط المعرفة الجديدة ببنيته المعرفية بالفهم أو الحفظ .

وذلك وفق المخطط التالي :-

		تقديم المعرفة	
		الاستقبـــــال	الاكتشـــــاف
نمط المتعلم في ربط المعرفة	الفهم وإدراك المعنى	* تعلم بالاستقبال قائم على المعنى : عندما تقدم المعرفة في صورة كاملة للمتعلم فيقوم بربط بنيته المعرفية بطريقة منظمة	* تعلم بالاكتشاف قائم على المعنى : يحدث عندما يصل المتعلم للمعرفة بنفسه ويعمل على ربط بنيته المعرفية بطريقة منظمة
	الحفـــــظ	* تعلم بالاستقبال قائم على الحفظ: ويحدث عندما تقدم المعرفة في صورة كلية للمتعلم فيحفظها دون ربط ببنيته المعرفية	* تعلم بالاكتشاف قائم على الحفظ: يحدث عندما يصل المتعلم بنفسه ولكن لا يربطها ببنيته وإنما يحفظها

❖ **ويعتمد التعلم ذو المعني على :**

١- طبيعة المادة التي يتعلمها الفرد.

٢- توافر محتوى مناسب في بنيته المعرفية.

أمثلة : ١- قوي – يعتمد عليه : زوج من الكلمات ، ترتبط كل كلمة فيه بالكلمة التالية وعلى التلميذ أن يستدعي الكلمة التالية عند عرض الكلمة الأولى عليه.

٢-إبراهيم عاطف ، اسم لشخص معين.

٣-تسلقت القطة شجرة البرقوق: جملة إثباتيه بسيطة (قضية)

٤-المثلث المتساوي الأضلاع له ثلاثة أضلاع متساوية ،(تعريف لمفهوم).

ويري اوزويل أن ثمة طريقتين يكتسب التلميذ بهما المعلومات :

التلقي : كما يحدث حين يقرا التلميذ كتابا ويتلقى من خلاله معلومات مترابطة تم تشكيلها ، أو كما يحدث حين يستمع إلى محاضره ذات أفكار مترابطة .

الاكتشاف : ويستخدم التلميذ هذه الطريقة حين يكون المعنى ناقصا أو غامضا ، فيقوم التلميذ بتحديد العلاقات بين المفاهيم واستخلاص المعاني.

❖ **يتعلم التلاميذ المواد اللفظية بطريقتين :-**

وإذا جمعنا بين التصنيفين السابقين يصبح لدينا أربعة أنواع من المادة التعليمية اللفظية لكل منها عملية تناسبه أو أنماط التعلم عند اوزوبل وهي كما يلي :-

١- **عملية تلقي(الاستقبالي) ذي المعنى** : وفيها يتلقى التلميذ المعلومات معدة ومرتبة منطقيا ، فيقوم بتحصيل معانيها وربطها .

بمعنى اخر : يحدث عندما يعرض المعلم المادة العلمية في صورتها النهائية بعد إعدادها وترتيبها منطقياً فيقوم المتعلم بتحصيل معاني هذه المادة وربطها أو دمجها بخبراته الراهنة وبنيته المعرفية

٢- **عملية تلقي(الاستقبالي) صم** : وبها يحصل التلميذ المعلومات في صيغة منتظمة تامة ، ويحفظها كما هي دون التأمل فيها أو ربطها بما لديه من رصيد من الخبرات .

بمعنى أخر :يتم هذا النوع من التعلم عندما يعرض المعلم على المتعلم المادة التعليمية أو المعلومات في صورتها النهائية فيقوم المتعلم باستظهارها أو حفظها كما هي دون محاولة ربطها بما لديه من خبرات أو دمجها ببنيته المعرفية .

٣- **عملية اكتشاف ذي مغزى** : وبها يكتشف التلميذ العلاقات بين المعلومات والبيانات المقدمة له ، وهو يستوعب خلال ذلك معاني هذه البيانات عن طريق ربط خبراته الجديدة بخبراته المعرفية السابقة .

بمعنى أخر : يحدث هذا النوع من التعلم عندما يقوم المتعلم باكتشاف المادة التعليمية المقدمة له وفحص المعلومات المتعلقة بها ثم ربط خبراته الجديدة المستخلصة من هذه الأفكار والمعلومات بخبراته السابقة ودمجها في بنيته المعرفية

٤- **عملية اكتشاف صم** : وفيها يقوم التلميذ بالبحث عن حل لمشكلة مطروحة عليه على نحو مستقل ، ولكنه يستوعب الحل دون أن يربطه بخبراته المعرفية الماضية .

بمعنى أخر: ويحدث هذا النوع من التعلم عندما يقوم المتعلم باكتشاف المعلومات المعروضة عليه (في المادة التعليمية) ومعالجتها بنفسه فيصل إلى حل للمشكلة أو فهم للمبدأ أو القاعدة أو تعميم للفكرة ثم يقوم بحفظ هذا الحل واستظهاره دون أن يربطه بالأفكار والخبرات المتوفرة في بنيته المعرفية.

❖ انواع التعلم عند اوزوبل

منظومة التعلم عند أوزوبل تعتمد على مستويين رئيسين هما:

المستوى الأول : يرتبط بأساليب تعلم الفرد وبالتحديد الأساليب أو الطرق التي يتم من خلالها تهيئة وإعداد المادة التعليمية المراد تعلماه أو عرضها على المتعلم في الموقف التعليمي وتتخذ هذه الأساليب شكلين الأول هو أسلوب (التعلم الاستقبالي) والشكل الثاني هو (التعلم الاكتشافي) .

والمستوى الثاني : يرتبط بكيفية تناول المتعلم ومعالجته للمادة التعليمية المعروضة عليه حتى تصبح مهيأة ومعدة للاستخدام أو الاستدعاء في الموقف التعليمي التالي فإذا قام المتعلم بالاحتفاظ بالمعلومات الجديدة للمادة التعليمية بواسطة دمجها أو ربطها ببنيته المعرفية وهي مجموعة من الحقائق والمعلومات والمعارف المنظمة التي تم تعلمها في مواقف تعليمية سابقة كما يعني اندماج وتكامل المعلومات الجديدة مع البيئة المعرفية للمتعلم وتكوين بنية معرفية جديدة فإن التعلم في هذه الحالة يعرف بالتعلم ذي المعنى أما إذا قام المتعلم باستظهار المادة التعليمية وتكرارها بدون فهم حتى يتم حفظها دون الاهتمام بإيجاد رابطة بينها وبين بنيته المعرفية فإن التعلم في هذه الحالة يعرف بالتعلم الصم وهنا لا يحدث أي تغيير في البنية المعرفية للمتعلم.

وتشير هذه المنظومة إلى أن التعلم قد يكون استقبالياً أو اكتشافياً وهذا يعتمد على أسلوب تقديم أو عرض المعلومات على المتعلم كما يمكن أن يكون صماً أو ذا معنى حسب طريقة معالجة المعلومات من قبل المتعلم وبذلك يتفاعل المستويان ليقدما أربعة أنماط من التعلم:

١. التعلم الاستقبالي ذو المعنى :

يحدث عندما يعرض المعلم المادة العلمية في صورتها النهائية بعد إعدادها وترتيبها منطقياً فيقوم المتعلم بتحصيل معاني هذه المادة وربطها أو دمجها بخبراته الراهنة وبنيته المعرفية.

٢. التعلم الاستقبالي الصم :

يتم هذا النوع من التعلم عندما يعرض المعلم على المتعلم المادة التعليمية أو المعلومات في صورتها النهائية فيقوم المتعلم باستظهارها أو حفظها كما هي دون محاولة ربطها بما لديه من خبرات أو دمجها ببنيته المعرفية

٣. التعلم الاكتشافي ذو المعنى :

يحدث هذا النوع من التعلم عندما يقوم المتعلم باكتشاف المادة التعليمية المقدمة له وفحص المعلومات المتعلقة بها ثم ربط خبراته الجديدة المستخلصة من هذه الأفكار والمعلومات بخبراته السابقة ودمجها في بنيته المعرفية.

٤. التعلم الاكتشافي الصم :

ويحدث هذا النوع من التعلم عندما يقوم المتعلم باكتشاف المعلومات المعروضة عليه (في المادة التعليمية) ومعالجتها بنفسه فيصل إلى حل للمشكلة أو فهم للمبدأ أو القاعدة أو تعميم للفكرة ثم يقوم بحفظ هذا الحل واستظهاره دون أن يربطه بالأفكار والخبرات المتوفرة في بنيته المعرفية.

❖ **المفاهيم الاساسية التي بنيت عليها نظرية اوزوبل**

١. البنية المعرفية:

هي إطار تنظيمي للمعرفة المتوفرة عند الفرد في الموقف الحالي وهذا الإطار يتألف من الحقائق والمفاهيم والمعلومات والتعميمات والنظريات والقضايا التي تعلمها الفرد ويمكن استدعائها واستخدامها في الموقف التعليم المناسب وهذا يعني أن الإطار التنظيمي الجيد للبنية المعرفية يتميز بالثبات والوضوح واليسر في المعالجة والعكس من ذلك يدعو لعدم ثبات المعلومات وعدم القدرة على استدعاء ومعالجة المعلومات أو الاحتفاظ بها مما يؤدي لإعاقة وتعطيل التعلم.

٢. المادة ذات المعنى:

تعتبر المادة التعليمية التي يتعرض لها الفرد مادة ذات معنى إذا ارتبطت ارتباطاً جوهرياً وغير عشوائياً ببنية الفرد المعرفية هذه العلاقة الارتباطية تؤدي طبقاً لنظرية أوزوبل إلى " تعلم ذات معنى " وفي المقابل فإن ارتباط المادة التعليمية ببنية الفرد المعرفية على نحو غير جوهري وعشوائي يؤدي إلى " تعلم صم " والقائم على الحفظ.

لذا نجد أن ارتباط المادة التعليمية بالمحتوى الفكري المعرفي للمتعلم ييسر ظهور معاني أو مفاهيم أو أفكار جديدة قد تستخدم في المواقف التعليمية الجديدة أو في حل المشكلات وهذا يحدث في ظل التعلم القائم على المعنى.

وعلى ذلك فالتعلم ذو المعنى يمتاز بعدة مزايا:

أ . يحتفظ به المخ لفترة طويلة.

ب . يزيد من كفاءة الفرد في تعلم المزيد من المعلومات الجديدة المرتبطة بالمفاهيم التي تكون البنية المعرفية للفرد

❖ **من اهم التطبيقات التربوية التي يمكن الاستفادة منها من نظرية اوزوبل في العملية التعليمية كالاتي : –**

- استراتيجيات تدرس حديثة في تدريس العلوم وقد كانت مبنية على نظرية أوزوبل للتمثيل المعرفي وتعرف باستراتيجيات " المعرفة الخارقة" .

١ـ خرائط المفاهيم

٢ـ شبكات المفاهيم

٣ ـ الرسوم التخطيطية ذات الشكل v

٤ـ الرسوم التخطيطية الدائرية للمفهوم

❖ **ويمكن تلخيص استخدام افكار اوزوبل في التعلم الصفي كالاتي :–**

١ـ استخدام المنظم المتقدم

أ ـ إعطاء قائمة من التعريفات للمفردات الاكثر اهمية والتي سيتم استخدامها في الدرس .

ب ـ صف باختيار المفاهيم الرئيسية التي تريد مناقشتها .

٢ ـ استخدام عدداً من الامثلة .

أ ـ أطلب إلى الطلبة أن يقدموا أمثلة عن موضوع التعلم بما يتعلق بمن حولهم .

ب ـ أعط أصنافاً متعددة من النباتات والحيوانات والتي تمت مناقشتها .

٣ـ ركز على التشابهات والاختلافات .

أ ـ اطلب الى الطلبة ان يعطوا طرقاً مختلفة لتضيف للأشياء التي تتشابه والاشياء التي تختلف فيها هذه الطرق .

ب ـ اطلب الى الطلبة ان يعطوك طريقة لكي يجعلوا العنكبوت مثلاً يلائم تصنيفاً آخر من الحشرات .

٤– أعرض المواد بطريقة منظمة :

أ ـ أستخدم أشكالاً بسيطة كلما أمكن ذلك

ب ـ ابدأ الدرس بفكرة عامة ، وأعط تلخيصاً جزئياً للنقاط الهامة أثناء وفي نهاية التلخيص العام

٥ ـ لا تشجع على تعلم المواد تعلماً آلياً ، وهي التي يمكن تعلمها أكثر بطريقة ذات معنى

أ ـ إذا أعطيت الطلبة مثالاً مأخوذاً من الكتاب ، فأطلب إليهم ان يعطوا أمثلة أخرى بلغتهم وبكلماتهم .

ب ـ اقترح النشاطات التي تضمن إعطاء الطلبة الفرص لشرح أفكارهم لبعضهم البعض بينما تقوم انت بالمراقبة والضبط

❖ **ايجابيات النظرية : –**

١ـ نظرية أوزوبل لم تعط أهميَّة لتعلم المهارات الحركيَّة وذلك لأن النظرية تقوم على التعلم المعرفي، وكون أوزوبل يعدُّ من أصحاب المدرسة المعرفيَّة.

٢ـ أقتصرت التضمينات التربويَّة لنظريَّة أوزوبل على التعلُّم اللغوي للأطفال الصِّغار عن طريق التعلم التلقائي، وذلك لأنَّ الأطفال في هذه السن لا يعتمدون في تعليمهم على الاكتشاف، لعدم وجود القدر الكافي من المعلومات لديهم .

٣ـ قسمت نظرية أوزوبل التعلُّم إلى نوعين، النوع الأول: تعلم بالتلقي والاستقبال، والنوع الثاني: التعلم بالاكتشاف، ولكنَّها أعطت الأولويَّة والاهتمام الشَّديد للتعلم بالتلقي، على الرغم من أن أوزوبل لا يقلل من أهمية التعلم بالاكتشاف، لكنَّه يؤكد أهميَّة التعلم بالتلقي ؛ لأنَّ التعلُّم بالاكتشاف ضروري لتنمية القدرة على حلِّ المشكلات، غير أنَّه يمكن أن يحدث التعلُّم ذو المعنى بدونه .

٤ـ اقتصرت التَّضمينات التربويَّة للنظرية على الطُّلبة الَّذين يستطيعون القراءة ، والذين لديْهِم قدر لا بأس به من المفاهيم الأساسيَّة في مجال الدِّراسة؛ لأنَّ التعلُّم بالاستقبال يعتمد على المعلومات الأوَّليَّة لدى الفرد.

٥ـ قد يتَّهم المتعلِّم في نموذج التعليم الاستقبال ذي المعنى بالسلبيَّة، لعدم مساهمَتِه في اكتشاف المادَّة التعليميَّة، واقتصار دوْرِه في الاستقبال والرَّبط بين الأفكار القديمة والحديثة.

٦ـ أنَّ تعليم المتعلمين المجرَّدات قبل المحسوسات قد لا يستوعِبها عقل المتعلم، لأنَّ تعليم المجرَّدات يحتاج لاستعداد من قبل المتعلم، وأن يكون ذهنه مستعدًّا لتعلُّم هذه المجرَّدات.

❖ **سلبيات النظرية :-**

١ـ نجد أنها قسمت التعلم ذي المعنى إلى نوعين : تعلم بالاستقبال وتعلم بالاكتشاف ولكنها أعطت أهمية كبرى للتعلم بالاستقبال وأغفلت التعلم بالاستكشاف.

٢ـ كما أنها ترفض مبدأ التعزيز على الرغم من أن رضا واستحسان الوالدين أو المعلمين أو الأفراد يشير إلى نوع من التعزيز كما أن حل المشكلة أو إتمام العمل التعليمي المطلوب تحقيقه والشعور بالرضا أو الاقتدار الذي يلي ذلك هو نوع من التعزيز .

٣ـ تركيزها على الناحية اللغوية في عرض الأفكار يجعلها تناسب التعليم الثانوي والجامعي أكثر من تعليم الأطفال لعدم وصولهم لمرحلة التجريد .

٤ـ تركيزها على المحتوى فالهدف من التربية عند أوزوبل كان هو تعليم المحتوى بما فيه من حقائق ومفاهيم ومعارف .

نظرية برونر (النموذج الإدراكي التكويني) التعلم بالاكتشاف

ولد "جيرو برونر" عام ١٩١٥ هو يعد واحدا من اعظم علماء النفس المعاصرين تخرج من جامعة هارفارد واسس فيها مركزا للدراسات المعرفية ويعد برونر من علماء النفس الذين يدعمون نظريات التعلم المعرفية ومع انه يتفق في هذا مع اوزوبل الا انه يختلف عنه في تأكيده على دور التغيرات النمائية في التعلم وتطبيقاتها في عملية التدريس ويبدي برونر اهتماما كبيرا بنمو القدرات المعرفية لدى الطفل وضرورة بناء المنهج المدرسي من حيث المحتوى وطريقته كي يلائم مع خصائص النمو حيث يرى ان كل من النضج والبيئة ذات تأثيرات جوهرية على النمو العقلي المعرفي للطفل بالإضافة الى بيئة التدريس وربما كان اهم ما يميز نظرية " برونر" انها اعطت وزنا اكبر لمسؤولية المدرس عن نواتج التعلم ومخرجاته في ظل هذه النظرية اكبر من مسؤولية الطالب او المتعلم ويتوقف فهمنا لنظرية " برونر" على فهمنا لثلاث قضايا هامة ترتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا وهذه القضايا تمثل المحاور الاساسية لنظرية . تأثر برونر بالنظرية المعرفية واهتمامه بعمليات التفكير والاستقصاء واعتبارها اهدافا تربوية اكثر اهمية من مجرد تجميع المعلومات . ويعد برونر عالم نفس تطويري اشتغل في علم الاجتماع وكان يركز على البيئة واثرها في النمو المعرفي للإفراد وركز على عملية تمثيل الخبرة وكيف يقدم المتعلمون الخبرة للمتعلمين ، كما حاول تقصي خصائص نمو الاطفال المعرفية لكن اهتمامه الرئيسي كان منصباً على الاساليب التي يقوم بها الافراد للاحتفاظ بالمعلومات ونقل الخبرات .

المحاور الاساسية للنظرية

المحور الاول : صيغ التعلم

يرى برونر ان النمو المعرفي هو بمثابة سلسلة من التغيرات النمائية المعرفية المتداخلة التي تكون مصحوبة بنوع من الاندماج غير المحسوس وبمعنى اخر هو عبارة عن سلسلة من النشاط العقلي المعرفي المتنامي والمتسق تسبقه فترات من التركيز وهذا النشاط المتنامي ينتظم حول ظهور قدرات معرفية ولا ينتقل الطفل من مستوى معرفي الى مستوى معرفي اخر قبل ان يسيطر على المستوى الذي يسبقه ويرى برونر ان هناك ثلاثة انماط للتعلم هي :-

١. **نمط التعلم بالعمل او بالنشاط :** ويقوم على العمل اي التعلم من خلال العمل او الممارسة او معالجة الاشياء وغالبا ما يستخدم مع صغار الاطفال حيث يتعلم من خلاله وهم في المرحلة الحسحركية مثل تعلم الرسم والسباحة ركوب الدراجة من خلال ممارسة الانشطة او تقليد ومحاكاة الاخرين.

٢. **نمط التعلم الايقوني او التصويري :** يقوم على استخدام التصوير او الصور في اكتساب المفاهيم وتتزايد اهميه نمط التعلم الصوري مع تزايد العمر حيث الحاجة الى تعلم المفاهيم التي لا يسهل تقديم نماذج تطبيقية لها فيتمكن المدرس من تدريس اي محتوى بتقديم صورة ورسوم مرتبطة بالموضوع تساعد الطلبة على تكوين صورة ذهنية او تصورات عقلية لما يراد تعلمه.

٣. **نمط التعلم الرمزي:** اي من خلال الكلمة المكتوبة او المنطوقة فاللغة تعتبر اهم واشمل وعاء ذات محتوى رمزي والتي تستخدم في عمليات تعلم الكبار وترفع من مستوى كفاءة التعلم المعرفي والتي من خلالها تكتسب المعرفة وتخزن وتسترجع ويحدث تواصل الافكار .

المحور الثاني : وظائف التصنيف

يؤكد برونر على اهمية التصنيف في النمو المعرفي ويمكن تعريف التصنيف بانه عملية احداث تنظيم وتكامل بين المعلومات الجديدة والمعلومات السابق تعلمها . والتصنيف او التبويب استراتيجية هامة وضرورية يتعامل من خلالها الفرد مع هذا الخضم الهائل من مختلف الاشياء والموضوعات والاحداث والانطباعات والاتجاهات والتي لا يمكن حصرها والتي يصعب معالجتها معرفيا دون تصنيف ، فالتصنيف يساعد في تبسيط البيئة واكتشاف المتماثلات واستخلاص المعاني المرتبطة بالمفاهيم المختلفة وتوضيح العلاقات بين الاشياء والاحداث والموضوعات في ضوء الاطار المرجعي الذي يتم التصنيف على ضوئه .

المحور الثالث : مبادئ التعليم

تمثل مبادئ التعليم المحور الثالث الذي يقيم عليه برونر نظريته وهي :-

أ- **مبدا الدافعية :** التعلم يعتمد على حالة الاستعداد لدى المتعلم واتجاهه نحو التعليم حيث يرى برونر انه يتعين على الطفل ان يكون لديه رغبة طبيعية في التعلم اي دافع وحب استطلاع كامن لديه نحو التعلم .

ب- **مبدا البنية المعرفية :** يقوم هذا المبدأ على ان فاعلية التعلم ترتبط بمدى دقة اختيارنا لنمط واسلوب التعليم الذي يناسب مستوى النمو المعرفي للمتعلم ومستوى ادراكه او فهمه لما يقدم اليه فيجب على المدرسين ايجاد علاقات ذات معنى بين المحتوى البناء المعرفي للمتعلم وبين ما يراد تعلمه اي ان التعلم السابق والتعلم الحالي .

ج- **مبدا التتابع :** يؤكد هذا المبدأ على ان ترتيب محتوى مواد التعلم يؤدي الى يسر وسهوله تعلمه فان التتابع ينبغي ان يكون قائما على اسس منطقية وعلمية ويجب على المدرسين ان يلاحظوا اثار تتابع عرض المادة العلمية وان يكون التتابع قائما على اسس منطقية وعلمية .

د- **مبدا التعزيز :** يشير هذا المبدأ الى ان تعزيز السلوك الصادر عن الطفل في الاتجاه المرغوب يزيد من احتمال تكرار ذلك السلوك عند تكرار الموقف وتستخدم المعززات داخل الفصل على اختلاف انواعها كالابتسامة المشجعة والتقدير المادي والمعنوي والدرجات ولوحات الشرف والتغذية المرتدة الى اخر الصور المختلفة .

التعلم بالاكتشاف عند " برونر"

يعرف برونر التعلم الاكتشافي بانه اعادة تنظيم محددات الموقف المشكل او موقف التعلم في صيغ او نماذج ادراكية او تعميمات او علاقات جديدة ويرتبط هذا النمط من التعلم بنمط التعلم الجشتلطي القائم على الاستبصار اي الادراك المفاجئ لعلاقات جديدة يكتشفها الفرد من العناصر او المحددات او المعطيات الواردة في الموقف المشكل او في موقف التعلم . وركز برونر على التعلم بالاكتشاف وعرفه بأنه ادراك العلاقة بين عناصر الموقف التعليمي والخروج بقوانين لمجموعة الامثلة والحقائق التي يقدمها المعلم للوصول الى عملية اكتشاف القوانين والقواعد .

ويرى "برونر" انه يمكن تعميم او تنظيم مواقف التعلم بطريقة تيسر عملية التعلم بالاكتشاف ويمكن ان يتحقق هذا اذا اتسم الموقف **المشكل او موقف التعلم بالخصائص التالية :-**

*عندما تكون الوسائل المتاحة بصورتها الراهنة لا تؤدي الى الغايات المرجوة او المستهدف تحقيقها ومن ثم تحتاج الى اعادة تنظيم

*عندما تفتقر بنية موقف التعلم او الموقف المشكل بصورتها الراهنة الى الاتساق او المنطقية ومن ثم تحتاج الى استحداث نماذج بنائية جديدة

*عندما تتناقض المعلومات المعروضة او تتعارض مع بعضها البعض او عندما يكون هناك نوع من عدم الانتظام في المواد المراد تعلمها حيث يخلق هذا لدى المتعلم مجالا للإحساس بالتنافر او عدم الاتساق او عدم التوازن المعرفي او التوتر ومن ثم يسعى الى اختزال التوتر واستعادة التوازن المعرفي

*عندما يستثير المعلم المتعلم لحل هذا التعارض او التناقض او عدم الاتساق وهذه الاستثارة العقلية تنشط ذهن المتعلم ويتحول من موقف المتلقي الى موقف المشارك ومن موقف السلبية الى موقف النشاط والايجابية فيسعى الى اعادة صياغة الموقف او تنظيمه

أسس النظرية

- يفترض برونر ان لكل فرد طاقة في التعلم وان تفكير الفرد ينمو من خلال تفاعله مع بيئته وانه يجب اثراء البيئة المحيطة بالفرد حتى يتمكن من استغلال وتنمية طاقته للتعلم وقدرته على التفكير .
- يعتقد برونر ان الاكتشاف يتم بثلاث مراحل تبدأ بالمستوى العياني العملي : حيث يحدث التعلم عن طريق الخبرة المباشرة للمتعلم مع المواد التعليمية الملموسة ثم تتدرج الى مستوى التعامل بالصور الذهنية وهو المستوى الايقوني ثم مستوى التعامل بالرموز المجردة حيث يستطيع المتعلم التعامل مع الرموز دون استخدام صور ذهنية للأشياء او الاشياء نفسها وهذا هو المستوى الرمزي .

قضايا التعلم عند برونر

١. التمثل : يشير الى العملية التي يستطيع الفرد من خلالها ان يدمج خبراته الجديدة بالقديمة . ومن الطرق المستخدمة في التمثل :- العمل والحركة ، الصور والخيالات ، الرموز .
٢. الدافعية : يرفض برونر الهدفية أي أن السلوك يتشكل من اجل الحصول التعزيز ويرى ان الهدف من التعلم هو التحكم في البيئة .
٣. الاستعداد :- يرى برونر انه لابد ان يعلم الطفل الاستعداد ولا ينتظر حتى يبدأ الطفل في التعلم .
٤. الذكاء : الذكاء عند برونر هو القدرة على التمثيل المجرد للخبرات والقدرة على نقل الخبرات الى مواقف الحياة .

هدف التدريس عند برونر : تعليم التلميذ كيف يكتشف .

المعايير الاساسية لنظرية برونر :

١. ان ينظم المحتوى بحيث تقدم المفاهيم والمبادئ بالتمثيلات العلمية الملموسة ، فالتمثيل بالنماذج والصور الذهنية ثم التمثيلات المجردة الرمزية .
٢. ان ينظم المحتوى العلمي بحيث تترابط مفاهيمه مع بعضها البعض كذلك مبادئه بشكل يسمح بأدراك الهيكل العام للمادة .
٣. ان ينظم المحتوى بحيث تقدم المفاهيم والمبادئ المرتبطة لهذه المفاهيم في صورة سلسلة متتالية من التعاريف والامثلة والتطبيقات المتصاعدة التجريد والتعميم .

المحاكاة التي يحكم بواسطتها على التعلم

أ- سرعة التعلم
ب- مقاومة النسيان
ت- امكانية نقل التعلم الى مواقف تعلم جديدة
ث- قدرة المتعلم على توليد فرضيات جديدة

التطبيقات التربوية لنظرية " برونر"

يرى برونر ان التطبيقات التربوية لنظريته تتمثل فيما يلي :-

١. ان امداد المتعلم بالقواعد والمبادئ التي يقوم عليها بناء وتركيب مادة التعلم يساعد المتعلم على تكوين التصنيفات النوعية لتلك المادة
٢. انه يمكن تعليم اي موضوع لأي طفل ويتوقف هذا على طريقة عرض الموضوع ومدى ملائمة اسلوب العرض لخصائص المتعلم وحيث ان النمو العقلي يسير من الحسي الى التمثيل الى التجريد يصبح من الضروري ان يتبع التدريس نفس النظام .
٣. يجب ان تتاح الفرصة للتلميذ للتدريب على اختبار صدق اكتشافاته ويعني هذا تشجيع التلاميذ على الاكتشاف .
٤. يجب على المعلم خلق مجال للتنافر وعدم الاتساق في عرض المادة العلمية حتى يستثير المتعلم لاكتشاف هذا التنافر او عدم الاتساق ومن ثم يكتسب المتعلم بهجة الاكتشاف .
٥. تدريب الطلاب على الحدس والتخمين واختبار البدائل .
٦. تنظيم المادة الدراسية من الابسط الى الاكثر تعقيداً .
٧. تنظيم المنهج بحيث يسهل تكوين الابنية المعرفية .
٨. استخدام الادوات السمعية والبصرية .

نظرية الارتقاء المعرفي او النمو او التطور المعرفي لـ(جان بياجيه)

جان بياجيه : ولد جان بياجيه في سويسرا عام ١٨٩٦ ، وكان في طفولته لامعاً ولديه رغبة في الاستطلاع ، وقد امتدت شهرته خارج سويسرا وعمل مع العالم النفسي (بينيه) في باريس على اختبار الذكاء للأطفال ، اهتم بالدراسات البايولوجية والتحليل النفسي وتطور الفكر والنمو لدى الاطفال واصبحت مدرسة جنيف الاوربية معروفة بـ بياجية واتجاهه المعرفي ، وقد كتب اول دراساته في عمر (١٣) سنة وتخرج عام (١٩١٥) من جامعة نيونشاتل في سويسرا وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الطبيعية في نفس الجامعة عام (١٩١٨) واستمر في ابحاثه الى نهاية حياته ، وقد امتازت بحوث بياجيه بالخصوبة العلمية والعمق التطبيقي ، فاغلب ابحاثه اثبتت جدواها تربوياً وخاصة فيما يتعلق بمرحلة الطفولة ولمختلف الفئات (الموهوبين، الطبيعيين، المتخلفين) .

تعتبر **نظرية بياجيه في الارتقاء المعرفي** ، نظرية شاملة عن طبيعة الذكاء البشري وتطوره ، اعتقد جان بياجيه أن لمرحلة الطفولة لشخص ما دوراً حيوياً وفاعلاً في تنمية الشخص ، وتُعرف فكرة بياجيه في الأصل على أنها نظرية المرحلة التنموية ، وتتعامل النظرية مع طبيعة المعرفة بحد ذاتها ، وكيف يتقدم البشر تدريجياً في اكتسابها وبنائها واستخدامها، كان التطور المعرفي بنظر بياجيه إعادة تنظيم تصاعدي للعمليات العقلية الناتجة عن النضج الحيوي والخبرات البيئية ، واعتقد أن الأطفال يؤسسون فهماً وإدراكاً حول العالم المحيط بهم كما يؤسسون خبراتٍ متباينةً بين ما يعرفونه أصلاً وما يكتشفونه في بيئتهم ، ثم يعدّلون أفكارهم وَفقاً لذلك ، وأيضاً فقد ادّعى بياجيه أن التطور المعرفي يكون في وسط الكائن البشري، وأن اللغة تتوقف على المعرفة ، وأن الفهم يُكتسب من خلال التطور المعرفي . تلقى عمل بياجيه المبكر على أكبر قدر من الاهتمام ، وقد شجع العديد من أولياء الأمور إلى توفير بيئة داعمة غنية لميل أطفالهم الطبيعي للنمو والتعلم ، عن طريق الفصول الدراسية المركزة للأطفال و"التعليم المفتوح "هي عبارة عن تطبيقات مباشرة في وجهات نظر بياجيه ، وعلى الرغم من نجاحه الكبير، فنظرية بياجيه كان لديها بعض القيود مثل نظريات أخرى، على سبيل المثال ، التطوير المستمر (الوقت الفرق) بالإضافة إلى المراحل الحادة التي عرّف بها بياجيه نفسه .

سمات نظرية بياجيه

- انها نظرية توليدية ، فالعمليات العقلية العليا تنجم عن آليات بيولوجية لها جذورها في نمو الجملة العصبية .
- انها نظرية نضجية ، فهو يعتقد ان عمليات تكوين المفهوم تتبع نمطاً واحداً ومن خلال مراحل واضحة في العمر.
- انها نظرية كثيرة الصلابة في تطوير المهارات التعليمية من الطفولة الى البلوغ .
- هي نظرية بنائية تفاعلية ، فالطفل عندما يتفاعل مع الاشياء ويبني علاقات داخلية من ذلك التفاعل.
- هي نظرية هرمية ، وذلك ان المراحل التي يقترحها يجب ان يمر بها الفرد على وفق ترتيب معين تمر به المرحلة تلي الاخرى.

مفاهيم رئيسية في نظرية بياجيه في التطور او الارتقاء المعرفي :

١. **البنية العقلية** : وهي **المخططات** التي تفسر ظهور اساليب سلوكية خاصة ، فهو يرى ان الكائن الحي ينمو معرفياً من بنى معينة ذات طبيعة بايولوجية وهذه البنى تتآزر مع بعضها لتكوين بنى جديدة بعد التفاعل مع البيئة ، وبهذا المعنى يمكن القول ان البنية تمثل حالة التفكير لدى الفرد في مرحلة من مراحل نموه.

٢. **الوظائف العقلية** : هي العمليات التي يلجأ أليها الفرد عند تفاعله مع مثيرات البيئة التي يتعامل معها وهي ثابتة لا تتغير وهي موروثه وقد حدد بياجيه الوظائف العقلية في عمليتين هما:-

❖ **التنظيم و التكيف**

ان كل عمل يجب ان ينظم ، وان مظهر قوة الفاعلية للتنظيم هو التكيف ، وقد خلص بياجيه الى ان الافعال المعرفية هي افعال تنظيم وتكييف للبيئة المدركة ، وان هاتان العمليتان غير منفصلتان عن بعضهما البعض فهما متكاملتان لإلية واحدة يشكل التنظيم الجانب الداخلي فهو يرى ان الانسان ينظم خبراته التي يتلقاها من البيئة ليجعلها في اطار ما لديه من تكوينات او ردود افعال

موروثة ويعيد تنظيمها مع بعضها حتى يكُون منها مخططات ، اما التكيف لديه فهو يحدث من نشاط الانسان لبناء او اعادة بناء ابنية عقلية جديدة واعادة صياغة الابنية القديمة التي تصدر عن نشاط معين . ويتطلب فهم عمليتي التنظيم والتكيف الفكري كما يراه بياجيه يجب علينا توضيح اربعة مفاهيم رئيسه هي : المخطط ، التمثل ، الموائمة ، التعادل .

*-**المخطط** : يتمثل بالفعل البسيط الذي يطوره الفرد خلال عملية نموه الى بناء عقلي معقد فمثلاً مخطط وضع الوليد لقنينة الحليب في فمه يتطور الى مخطط الامساك ومخطط الامساك يتطور الى مخطط النظر ومن ثم الى مخطط التفحص .

***- التمثل:** وتعني تجديد مدركات الفرد الجديدة الى خبرات مألوفة ، اي انها عملية معرفية تحول بواسطتها الاحداث والمواضيع المدركة الجديدة الى مخططات او نماذج سلوكية قائمة وتشبه عملية التمثل بعملية هضم الطعام فهذه العملية تمر بعمليات متصلة فكما الطعام يتغير في كل عملية كذلك هي العمليات المعرفية تتغير من البسيط الى المعقد .

***- الموائمة** : وهي عملية تعديل فكرة سابقة موجودة في ذهن الفرد ناتجة عن منبه ما، اي انها عملية تعديل وتكييف نموذج ما في الذهن طبقاً للخبرات الجديدة التي واجهت الفرد وعن طريق التمثل يكُون الطفل صورة للإعداد ويعدل بهذه الصورة عندما يتعرض للكسور والاعداد السالبة والحقيقية .

*-**التعادل:** ان لكل من عمليتي التمثل والموائمة الاهمية ذاتها فمثلاً لو ان شخصاً ما استطاع دوماً ان يتمثل المثيرات دون موائمتها فانه سيكون مخططات كبيرة جداً ، ولن يكون قادراً على ملاحظة الاختلافات بين الاشياء ، ومن جهة اخرى لو ان شخصاً اخذ يوائم دائما دون ان يتمثل فسيكون شخصاً يمتلك عدداً كبيراً من المخططات الصغيرة ذات القدرة الضئيلة على التعميم اي ان كل من الحالتين سيكون مدمراً لذلك تأتي الموازنة بين التمثل والموائمة اي انها تعادل ضروري لأي تفاعل بين الطفل والبيئة .

العوامل المؤثرة في النمو المعرفي : يرى بياجيه ان هناك عدداً من العوامل لها الاثر الفاعل في نمو الفرد المعرفي اوضحها بالاتي: -

١- النضج :

يعتقد بياجية ان النضج هو عامل من عوامل الارتقاء المعرفي وان النمو العصبي (نمو انسجة الدماغ) ونمو جهاز الغدد الصم يلعب دوراً واضحاً في هذا الارتقاء فكلما كان الطفل اكبر كلما يكون لديه ابنية عقلية اكثر ويستطيع ان يعمل اكثر وبطرق مختلفة وكذلك تكون لديه القابلية على التفكير بعمق اكثر.

٢- الخبرات الفيزياوية :

كلما كانت الخبرات الفيزياوية اكثر في بيئة الطفل كلما كان اكثر احتمالا لتطوير فهمة ، فالطفل يستخرج المعلومات الفيزياوية (المادية) بصورة مباشرة من خلال لعبه بالأشياء كالطين والازرار والرمل...الخ . وهذا الراي لبياجيه يدعم استعمال الوسائل التعليمية والتجريب والزيارات العلمية وغيرها من النشاطات بالتدريس لإغناء بيئة الطفل وبالتالي خبراته .

٣- الخبرات الاجتماعية :

هي تلك الخبرات التي تنجم عن التفاعل الاجتماعي بين الطفل واقرانه فالطفل يتعلم من زملائه اكثر مما يتعلم من المعلم لأنه لا يخجل منهم ، ولا يتردد في اعطاء رايه حتى وان كان غير متأكد من صحته او مهما كان رايه بسيطاً.

٤- الموازنة الذهنية :

التوازن الذهني يعتبر من العوامل الرئيسية في تحقيق النمو الذهني عند الطفل حيث يكون الطفل بالنسبة لهذا العامل اكثر ايجابية مما يكون عليه بالنسبة للعوامل السابقة ويقول بياجيه اذا كان النمو الذهني يعتمد على عوامل داخلية (النضج) وعوامل خارجية (فيزياوية ، اجتماعية) فان العوامل الخارجية توازن العوامل الداخلية وهو نوع من المزاوجة فيما بينها لتمثل بالذهن الى حالة من التوازن والاستقرار اي ان الموازنة هي نظام يتسم بالسيطرة الذاتية الداخلية يعمل لأجل التوفيق بين ادوار النضج والتفاعل الاجتماعي.

مراحل الارتقاء او النمو المعرفي من وجهة نظر بياجيه

لقد اوضح بياجيه ان الأبنية المعرفية تمر بأربعة مراحل مختلفة لتمثل كل منها شكلاً من اشكال التفكير او الذكاء وقد حدد اعماراً تقريبية نتيجة دراساته المتعددة ، وان هناك بعض الاعتبارات تميز هذه المراحل الاربعة هي:-

١. أن كل مرحلة تتألف من فترة تشكيل وفترة تحصيل ففي فترة التحصيل يحصل تنظيم للعمليات العقلية في المرحلة الحالية وانطلاقا لتشكيل المرحلة التي تليها.
٢. المراحل غير منفصلة بعضها عن البعض بل هي متداخلة عضوياً .
٣. ان ترتيب المراحل الاربعة ثابت لا يتغير ولكن سن التحصيل هو الذي يتغير الى حد ما حسب تأثير الدوافع والتدريب والعوامل الثقافية.
٤. المراحل تتمثل بقانون متكامل بمعنى ان الابنية السابقة تصبح جزا لا يتجزأ من الابنية اللاحقة اي ان المراحل اللاحقة تحوي السابقة لها.

ان بياجيه وصف المراحل على شكل فعاليات مستدلاً بذلك على العمر الزمني للطفل فالبعض قد لا يصلون الى المرحلة المعينة في الزمن المحدد والاخرين ربما يسبقون الاخرين ويصلون مبكراً ، وان الطفل لا يستطيع ان يكون جاهزاً للانتقال الى مستوى اعلى مالم تكون لديه كل فعاليات المستوى نفسه قد تطورت وان كل مستوى وصف بطريقتين الاولى على شكل عروض او اشياء يقوم بها الطفل ، والثانية على شكل ابنية داخل الدماغ مسؤولة عن هذه العروض ، وقد حدد بياجيه هذه المراحل كالاتي:-

١. **المرحلة الحسية الحركية من الميلاد الى الثانية من العمر:** تعامل الطفل في هذه المرحلة مع البيئة بحواسه وحركاته وتكون افعاله غير منتظمة في البداية ولكن عندما يكون لدى الطفل هدفاً يسعى لتحقيقه تتصف محاولاته بالذكاء رغم ان تحركاته هي عالمه وانه لا يستطيع ان يفكر ولكنه في مستوى اخر من هذه المرحلة يعكس احداث منطقية ولأنه لا يتكلم فان تطور تفكيره يكون قليلا وتتصف هذه المرحلة بالاتي:-

أ- التوجه بواسطة مثيرات البيئة .
ب- الحوادث هي التي تكون بعض الاشكال لدى الطفل .
ت- الادراك والتعرف على الاشياء حسي.
ث- في نهاية المرحلة تحدث قابلية الطفل للتمييز بين الاشياء.
ج- لا يستطيع الطفل التمكن من اللغة الا في نهاية المرحلة وهي مقتصرة على الاسماء.

يعتبر بياجيه ان الفترة منذ الميلاد الى اكتساب الطفل للغة بانها مرحلة تطور استثنائي للعقل ، فحين ولادة الطفل تكون فعالياته مقتصرة على الارتكاسات مثل المص والالتقاط والحركات الجسدية ، وتتحسن هذه الحركات من عمر شهر الى عمر اربعة اشهر وتتناسق ويكتشف الرضيع حلقات من الفعاليات يربط بينها ويعيدها ، ان هذه الحلقات المتتالية يسميها بياجيه (ردود الافعال الاولية الدائرية) ومن الشهر الرابع الى الشهر الثامن يبدا الطفل في توجيه فاعلياته نحو الاشياء الواقعة خارج حدسه وفي هذا توسع لمدى فاعليته ليناسق بين البصر والحركة الذي يمكنه من تغيير المهام ويوما بعد يوم ليصل بها الى المخططات التي سبق له ان تمثلها وهذا ما يسميه بياجيه بالاستجابات الدائرية الثانوية ، وابتداء من الشهر الثاني عشر وحتى الثامن عشر يصبح الطفل قادرا على اختراع طرق جديدة للتوصل الى اهدافه فهو يبدا بالتكيف مع الاوضاع الجديدة وذلك عن طريق تكييف المخططات الموجودة واجراء التجارب عليها وفي نهاية المرحلة الحسية الحركية يبدا الطفل بتمثيل عالمه عن طريق الصور العقلية والرموز واللغة التي تمكنه من تمثيل الاشياء ولو كانت غائبة وفي هذه المرحلة يصبح اللعب اهمية بالغة فاللعب بالنسبة لبياجيه يمكن الطفل من التمثل ثم التقليد .

٢- **مرحلة ما قبل العمليات التفكيرية من السنة ٢-٧ :** يتعامل الطفل مع البيئة بشكل غير مباشر ويستخدم الكلمات والرموز لتمثيل المؤثرات البيئية ويقلد الاحداث التي تمر عليه قبل ساعات ، كذلك يستطيع الطفل ان يتمثل الاشياء عقلياً ولكنه لا يستطيع حل المشكلات التي تبدو بسيطة للبالغين ، فالطفل هنا يكُون بعض المفاهيم لكنه لا يمارس التمثيلات العقلية فهو يقارن بين

الاشياء في المجال الخارجي ولا يعتمد النشاط العقلي الداخلي للقيام بهذه المقارنة ويستطيع التصنيف البسيط حسب مظهر واحد من (٢-٤) سنوات كمظهر الحجم مثلا ولكنه لا يكون علاقة بين الحجم والوزن فالمنطق يكون لديه باتجاه واحد ، فالطفل تغيب لديه هنا فكرة المعكوسة ، والوعي بثبات الخصائص اي الاحتفاظ ، ويبدا لديه الوعي بثبات الخصائص في الطور الثاني من هذه المرحلة ، وتقسم هذه المرحلة الى قسمين هما:-

أ- مرحلة ما قبل المفهومية من ٢-٤ سنة :

يكون الاطفال في هذه المرحلة غير قادرين على صياغة المفاهيم كما يصوغها الاطفال الاكبر سنا فهم لا يميلون الى الاستقراء او الاستنتاج لكنهم يستعملون المحاكات النقلية اي ان الاطفال يحاكون بالانتقال من حاله خاصة الى حالة خاصة اخرى من تكوين ما يسمى قبل المفهوم ، مثلا طفلة بعمر(٣,٥) سنة رأت امها تمشط شعرها فقالت : مما تمشط شعرها انها ذاهبة الى السوق ولما سألها ابوها لماذا قالت الطفلة ذلك تبين ان امها لمس مشطت شعرها وذهبت الى السوق وقد ربطت الطفلة بين الحدثين فنقلت حكمها من اليوم السابق الى هذا اليوم اي انها انتقلت من الخاص الى الخاص وتتصف هذه المرحلة بتقليد الاخرين والتمركز حول الذات .

ب - المرحلة الحدسية ٧-٤ سنة :

تكون نظرة الطفل في هذه المرحلة قاصرة ومركزة على بعد واحد للشيء واستبعاد الابعاد الاخرى وهو ما يسميه بياجيه بالتمركز وقد قام بياجيه بتجربة تدلل على التمركز بأخذ قطعتين من الطين بنفس الحجم وكورهما وعرضهما على طفل بعمر خمس سنوات فعرف الطفل انهما نفس الحجم ثم قام بتغيير شكل احدهما الى شكل قطعة سجق (نقانق) ووضعها بقرب القطعة الكروية ثم سال الطفل فيما اذا كان للقطعتين نفس الحجم فأجاب الطفل ان قطعة الطين التي بشكل السجق هي الاكبر معللا ذلك بانها اكثر طولا ويفسر بياجيه ذلك بان الاطفال بتركيزهم على وجه واحد من الوجوه في امر ما وتجاهلهم الوجوه الاخرى كونهم تنقصهم القدرة على الاحتفاظ بالكمية . ومما يميز هذه المرحلة هو ارتقاء اللغة وتطورها وان هذا الارتقاء الرمزي السريع للغة يشكل عاملا مهما في تغيير الارتقاء المفاهيمي السريع الذي يحصل خلال هذه المرحلة فاكتساب اللغة يؤثر بعمق الحياة الفكرية للطفل وهذا التأثير يتمحور بثلاث مجالات هي:-

١- امكانية التبادل اللفظي مع الاشخاص وتبشر ببداية النشأة الاجتماعية للأطفال.

٢- تبطن الكلمات ويعني بياجيه بذلك ان الطفل يختار دوافع المجتمع ويعتبرها دوافعه هو فيظهر تفكير الطفل مدعوما بلغة ونظام.

٣- تبطن الافعال والانشطة فيمثل الطفل نفسه حدسياً من خلال التجارب العقلية والصور بدلاً من ان يكون حسياً حركياً.

٣-مرحلة العمليات ألعيانية المحسوسة من٧-١١سنة :

ان الأطفال في هذه المرحلة يطورون ما يسميه بياجيه بالعمليات المنطقية ، اي انهم يطورون تلك العمليات الفكرية المنطقية التي يمكن تطبيقها في حل المسائل ألعيانية ، ان الاعمال التي يقوم بها الاطفال هنا تنتقل من الخارج الى الداخل ويتصف تفكير الطفل في هذه المرحلة بانه تفكير عمليات مادية لاعتماده على المجسمات والمحسوسات في التعامل مع الأشياء ، ان الطفل يبدأ يدرك أن التغيرات التي تحصل في الشكل لا تؤثر على جوهر المادة فثبات الوزن أو الكتلة يتكون لدى الطفل في سن التاسعة وثبات الحجم في سن الحادية عشر من عمره . ولهذه المرحلة عدداً من المظاهر منها الاتي :-

أ- تنمو لدى الطفل قدرة التصنيف والترتيب .

ب- يتقدم الطفل بتدرج بطيء في تكوين مفهوم الزمن في حوالي التاسعة من العمر.

ت- تنمو لديه القدرة على استخدام المفاهيم الهندسية المتصلة بقياس الاطوال والمساحات والزوايا والحجوم وان كان لا يستطيع ان يذهب في تفكيره اكثر من حدود الملموس والمرئي والمحدد .

وعلى الرغم من التقدم الذي يحرزه الطفل في تفكيره الا انه يعاني من بعض الصعوبات التي تعوق تفكيره ومنها ضعف قدرته على الاستدلال اللفظي وعجزه امام الفروض والمقدمات التي تعاكس الواقع وكذلك ضعف قدرته على اكتشاف المغالطات المنطقية

ان نوعية التفكير في هذه المرحلة يفوق نوعية التفكير في المرحلة السابقة حيث تظهر مخططات ضرورية للتسلسل والتصنيف كما تنشأ مفاهيم محسنة عن السببية والمكان والزمان والسرعة ، والطفل في هذه المرحلة ينجز عمليات الربط ، الفصل ، الترتيب الضرب ، القسمة ، التعويض ، التفكير المعكوس ، فهم المنظور ، وفي نهاية المرحلة يقوم بالتصنيف والقياس .

اهم مفاهيم المرحلة الاجرائية العيانية :-

- **الاحتفاظ :** هو مظهر من مظاهر النمو العقلي الذي يصل فيه الطفل الى فهم بعض خصائص الشيء (كقطعة العجينة مثلا) لا تتغير على الرغم من التغيير الظاهري الملاحظ في بعض الخصائص الاخرى لهذا الشيء. فالاحتفاظ هو ان مقدار او كمية مادة ما تبقى على حالها رغم التغيرات في الشكل او الموقع .
- **المعكوسية :** ان الفرد الذي لدية القدرة على المعكوسية فهو قادر على تتبع خط التفكير رجوعاً الى النقطة التي بدا منها ، ان تفكير الطفل في فترة ما قبل الاجرائية محتفظا بالجمود الذي يتسم به التفكير في المرحلة الحسية – الحركية حتى يكون متفوقا عليه من النوعية اذ ان تفكيره بطيء متثاقل وغير مرن ويهيمن علية الادراك الحسي ولهذا فانه يبقى غير قادر على العكس وبالتالي فان القيام بعمليات قابلة للعكس تكون صعباً جداً بالنسبة للطفل ولكن في مرحلة العمليات العيانية يستطيع الطفل القيام بهذه العمليات فلو عرض على الطفل ثلاث كرات متساوية في الحجم مختلفة الالوان (أ ، ب ،ج) ان الطفل في فترة ما قبل الاجرائية يتوقع بشكل صحيح ان الكرات ستخرج من اسفل الاسطوانة بتسلسل (أ، ب ، ج) نفسه ولو وضعنا الكرات ثانية في الاسطوانة بالتسلسل نفسه وقمنا بتدوير الأسطوانة بدرجة (١٨٠) يستمر الطفل ما قبل الاجرائية بتوقع ان الكرات ستخرج من اسفل الانبوب بنفس التسلسل السابق من (أ، ب ، ج) وسيندهش حين تخرج بتسلسل (ج ، ب ، أ) في حين ان طفل العمليات العيانية لا يعاني من المشكلة اعلاه حيث انه يستطيع ان يقلب المقلوب (يعكس المعكوس) ويخرج بالاستنتاج الصحيح وبهذا فان الفكر العياني هو فكر قادر على العكس .

٤- مرحلة العمليات الشكلية (المجردة) من١٢-١٨ سنة :

في هذه المرحلة تنمو قدرة التفكير المنطقي الافتراضي لدى الطفل وتتوفر لديه مفاهيم النسبة والتناسب ومفاهيم التوافق والتبادل وفي هذه المرحلة يكون ذروة التطور في البنى المعرفية حيث تصل المخططات الى اقصى مديات التطور والوعي بحلول السنة الخامسة عشر من العمر ويكون المراهق قادرا على التفكير منطقيا فيما يتعلق بحل جميع اصناف المسائل ، فهو يستطيع ان يستخدم التفكير العلمي . ومن الانجازات المعرفية لهذه المرحلة التفكير الافتراضي ، الاستنتاجي ، التفكير المعكوس ، التصور ، التفكير المجرد ، التفكير بالوقت وتوضيح مفهوم اللانهاية .

التطبيقات التربوية لنظرية بياجيه

هناك عددا من التطبيقات التربوية لنظرية بياجيه منها: -

١. ان توفر المواد المحسوسة في غرفة الصف يعد امراً اساسياً في تنظيم تعلم الاطفال لما له من قيمه في اكتشاف طرق الاطفال في التفكير.
٢. ضرورة بناء مواقف تربوية تتسم بالتحدي المعقول لقدرات الاطفال المعرفية بحيث لاتصل مواقف التحدي هذه الى حد تعجيز الطلبة وشعورهم بالتالي بالإحباط والفشل.
٣. يجب ان لا نواجه الطفل بمشكلات تتطلب عمليات عقلية تتفوق كثيرا على مرحلة تطوره المعرفي .
٤. ان اتاحة العديد من فرص التفاعل بين الطفل وبيئته الطبيعية والاجتماعية يساعده كثيرا على تطوره المعرفي.
٥. ان الوقوف على خصائص النمو المعرفي ومراحله يمكن المعلم من التعرف على طبيعة تفكير الاطفال في مراحل نموهم المختلفة وبالتالي يحدد اهدافه في ضوء السلوك المتوقع .

المحاضرة السادسة عشر.. التفكير.. المرحلة الاولى .. مادة علم النفس ..

الــتفكــير

يضع علم النفس عدة تعريفات لمفهوم التفكير لكنها جميعاً تتفق على أنها العملية العقلية التي تتمثل بالاستجابة الرمزية للمنبهات الداخلية والخارجية وتكون هذه العملية هي حلقة الوصل بين النشاط الداخلي والمحفز الخارجي ويهتم علماء النفس بفهم وتفسير ومتابعة موضوع التفكير باعتباره مرتبطاً بالهيكلة المعرفية للإنسان ويعكس الإدراك لديه. ويرتبط التفكير بالتجارب الواعية التي يمر بها الانسان كما تعامله مع المتغيرات والظروف المحيطة به ومهارته في فهمها وربطها وتحليلها واستيعابها والتفاعل معها في إطار حل المشكلات وتلبية الحاجات والرغبات وإدراك الأمور.

والتفكير هو كل نشاط ذهني أو عقلي يختلف عن الإحساس والإدراك الحسي أو يتجاوز الاثنين إلى الافكار المجردة .

وعرف جون ديوي التفكير على أنه الإجراء الذي يتم فيه تقديم الحقائق لتمثيل حقائق أخرى بطريقة تستقرئ معتقداً ما من طرق معتقدات سابقة عليه . ويرى ديبوتو أن التفكير هو العملية التي يمارس الذكاء من خلالها نشاطه على الخبرة أي انه يتضمن القدرة على استخدام الذكاء الموروث وإخراجه الى ارض الواقع.

والتفكير هو سمه من سمات الانسان فهو العملية التي ينظم بيها العقل البشري خبراته بطريقة جديدة لحل مشكلات معينة وتتضمن هذه العملية ادراك علاقات جديدة بين الموضوعات او عناصر الموقف المراد حله .

اغراض التفكير

للتفكير اغراض متعددة منها :-

١. الفهم
٢. اتخاذ القرار
٣. التخطيط لحل المشكلات
٤. الحكم على الاشياء او القيام بعمل ما

وحدات وعناصر التفكير في علم النفس

قسم علماء النفس وحدات التفكير الى خمسة وحدات وهي :-

١. **الصور**: وتشمل التصور العقلي أي الصور التي تم إدراكها بالحواس والصور المخزنة في العقل الواعي واللاواعي نتيجة رؤيتها مسبقاً والتعرف عليها، كما خلق الصور ما يعني تكوين تصور جديد من وحي الخيال لكنها تستند أيضاً للصور التي تمت رؤيتها مسبقاً، فمثلاً إذا سألنا شخصاً كيف تتخيل أن يكون شكل الكائنات الفضائية إن كانت موجودة فعلاً ؟ فإن إجابته ستتضمن ملامح الوجه المخزنة في عقله اللاواعي ولكنه يحرّفها ويضيف عليها أبعاداً وتفاصيل جديدة .

٢. **الاشارات والرموز الحركية :** وهي الإيماءات والحركات وتفسيرات لغة الجسد التي يقوم بها الأشخاص للتعبير عن أفكار في داخلهم ما يساعدهم على التفكير والفهم والتواصل الجيد مع المحيط الخارجي ومع الآخرين.
٣. **المفاهيم :** وهي الفكرة العامة حول شيء أو حدث أو شخص ما، وهي أداة قوية كونها تسمح بالتفكير المتجرد لخلوها من التفاصيل المشتتة. ويعتبر تشكيل المفهوم عملية تتضمن تصنيف المعلومات إلى فئات ذات معنى ، يتضمن تكوين المفهوم خبرة في الأمثلة الإيجابية والسلبية للمفهوم ويكتسب الأشخاص المفاهيم من خلال التعلم أو تشكيل القواعد، والمفاهيم قد تكون مفاهيم ربط أو مفاهيم علائقية أو مفاهيم مفصولة .
٤. **اللغة والرموز :** وهي عبارة عن الكلمات والرموز والقواعد المستخدمة لإيصال الأفكار والتواصل والتعبير عما يفسره ويحلله ويدركه الشخص ، وتختلف طريقة استخدام اللغة بين الدلالة والصراحة أي استخدام مصطلحات وكلمات لكن المدلول يشير لأمر آخر أو أن يكون الاستخدام صريحاً ومباشراً أي أن الرمز أو الكلمة تدل على المفهوم الصريح والواضح .
٥. **الانشطة الحركية :** حيث ترتبط حركة العضلات والجسم عامة بعملية التفكير لذا نجد أن القيام بتمارين رياضية على سبيل المثال يحفز عملية التفكير ويزيد عمقها وقوتها .

انواع التفكير

١. **التفكير الادراكي او الملموس :** هذا النوع من التفكير أساسه الإدراك وفهم وتفسير الإحساس والمواقف والأمور التي يتعرض لها الانسان، وهو من أبسط أشكال التفكير كما يطلق عليه اسم التفكير الملموس لأنه يكون من خلال إدراك الأشياء والأحداث الواقعية والفعلية الملموسة.
٢. **التفكير المفاهيمي او المجرد :** وهو التفكير الذي يتم استخدام مفاهيم ورموز ولغات وأشياء عامة ويعتبر أكثر تطوراً وتفوقاً على التفكير الإدراكي لأنه يوفر الجهد في الفهم وحل المشاكل .
٣. **التفكير التأملي :** تم استخدام هذا النوع من أنواع التفكير عند محاولة حل المشكلات المعقدة والصعبة كونه يتطلب إعادة ترتيب وتنظيم للتجارب التي عاشها الشخص أو التجارب ذات الصلة بالموقف أو المشكلة أو الحالة التي تحتاج إلى حل لتجاوزها، فيكون تأمل الانسان بمخزونه من التجارب السابقة هو مفتاح حل المعضلات والمشكلات التي تواجهه ، أثناء التفكير التأملي يتم أخذ جميع الحقائق والمعلومات المرتبطة بالترتيب المنطقي للحدث أو الموقف للوصول تدريجياً إلى الحل المناسب للمشكلة التي تواجه الشخص .
٤. **التفكير الابداعي :** يقوم التفكير الإبداعي على التفكير خارج الصندوق أي الخروج والحياد عن أنماط التفكير التقليدية في الظروف الاعتيادية والنمطية المتكررة ، حيث يقوم الفرد بإنشاء أو بناء نمط او حل مبتكر وجديد مع الأخذ بعين الاعتبار الحيثيات والمتغيرات المتعلقة بالموقف أو الحدث أو المشكلة ، كما يقوم الشخص بتفسير الأحداث والمواقف والأمور من زاوية أكثر شمولاً ووعياً بعد معرفته بالحلول والأفكار التقليدية لكنه يكسر الحاجز الرتيب للتفكير للايتان بأفكار ابداعية وخلاقة وعلمية ، وقد عرّف عالم النفس سكينر التفكير الإبداعي على أنه

التنبؤ والاستنتاجات للفرد جديدة وأصلية ومبتكرة وغير عادية ، والمفكر الإبداعي هو الشخص الذي يعبر عن أفكار جديدة ويقدم ملاحظات جديدة وتنبؤات جديدة واستنتاجات جديدة

٥. **التفكير الناقد :** وهو التفكير القائم على ممارسة التقييم الدقيق أو الحكم لتحديد مصداقية أو دقة أو قيمة أو صلاحية أو قيمة حدث أو موقف أو شخص ما ، ويكون التركيز في التفكير الناقد على فهم الموضوع بحيثياته وجوانبه والخروج بتوصيات وأفكار ومخرجات من عملية التفكير تسعى لتحسين وتطوير هذا الحدث أو الموقف أو الشخص .

٦. **التفكير المتشعب :** هو التفكير القائم على البحث عن عدة بدائل وحلول والمفاضلة فيما بينها بعد دراسة كل منها على حدة ليتم اختيار الأنسب تبعاً للظروف والمتغيرات والعوامل الخارجية والداخلية للإنسان .

٧. **التفكير الانعكاسي :** يهدف هذا النوع من التفكير إلى حل المشكلات المعقدة ، وبالتالي يتطلب إعادة تنظيم جميع التجارب ذات الصلة بموقف ما أو إزالة العقبات بدلاً من الارتباط بتلك التجارب أو الأفكار، وهذا نهج معرفي ثاقب في التفكير الانعكاسي ، حيث أن النشاط العقلي هنا لا يتضمن التجربة الميكانيكية ونوع الخطأ من الجهود ، وفي هذا النوع ، تأخذ عمليات التفكير جميع الحقائق ذات الصلة مرتبة بترتيب منطقي في الحساب من أجل الوصول إلى حل للمشكلة .

٨. **التفكير الغير موجه او النسبي :** هذا التفكير هو الذي نقوم به بلا هدف وأحيانًا دون وعي ، لذا يطلق على هذا النوع غير الموجه لأنه تفكير غير منضبط يتم من خلال الخيال والأوهام والأحلام ، يهرب فيه الشخص من الواقع ويفكر في عالم غير حقيقي ، فمثلًا يمكن أن يعتقد الشخص أثناء هذا التفكير أنه مليونير، او شخص مشهور، أو مخترعٍ مشهور .

٩. **التفكير الفلسفي :** شكل من أشكال التفكير والذي يقصد به توجيه الفعل أو تحديد طريقة الحياة ، وإن الحياة الفلسفية يكون فيها العمل أفضل توجيه عندما يكون التفكير الفلسفي قد وفر هذا الاتجاه ، فهو نشاط فكري والذي يشمل الفكر النقدي والفكر الشامل ، فالتفكير الفلسفي هو عملية نشاط يستجيب لمطلب المجتمع للحكمة ويجمع كل المعارف التي لدينا حتى نحصل على أفكار جديدة ، لهذا فهو يعتبر جزءاً من النمو البشري وبالتالي فهو جزء لا يتجزأ من عملية التعليم ، فالتفكير الفلسفي والتفكير العلمي يشتركان بهدف مشترك يتمثل في تنمية الفكر الكلي للشخص بالإضافة إلى إدراك الإمكانات البشرية .

دوافع ومحفزات التفكير

تتنوع محفزات ودوافع التفكير لدى الانسان والتي توجهه لتحليل وتفسير الظواهر والاحداث والمواقف والتفكير فيها ومن هذه الدوافع :-

- الحاجة لفهم المواقف والظواهر الخارجية التي تواجه الإنسان ويتعرض لها ويدركها من خلال حواسه الخمسة
- الحاجة لفهم الأحاسيس والمشاعر والخواطر والأفكار والقناعات الداخلية التي يشكلها الانسان نتيجة تعرضه لها .

- التواصل السليم مع الآخرين يتطلب أن يقوم الانسان بالتفكير والفهم والإدراك ليكون تعامله مع المحيطين منطقياً
- إدراك المخاطر والقدرة على حل المشكلات والمعضلات يتطلب فهمها للقدرة على إيجاد مخارج وحلول لها والتعامل معها .

مهارات التفكير وطرق تنميتها

يوجد عدة أساليب عند القيام بالتدرب من خلالها يتم تطوير التفكير لدى الانسان ومن هذه المهارات والأساليب والطرق لتنمية وتطوير التفكير ما يلي :-

١. **زيادة المعرفة والخبرة :** فالتفكير يبنى على ما قام الانسان بجمعه من خلال تعلمه ومعارفه والخبرات والمواقف التي عاشها أو شهدها ، لذا يجب تعليم الأطفال مهارات التفكير بالمعرفة والتجريب من خلال الإحساس والادراك ليتم تحسين التفكير النقدي لديهم ، كما إتاحة الفرصة لهم لاكتساب الخبرة من خلال التجربة والتعلم الذاتي ثم المناقشة وتفسير الأمور لهم وكل ذلك تحت إشراف الوالدين أو المدرسين .
٢. **الدافع الكافي وتحديد الاهداف :** ساعد الدافع في زيادة الطاقة للتفكير وخلق اهتمام بموضوع التفكير والموقف أو المشكلة أو الظرف الذي يحتاج التفكير فيه ، لذلك يجب أن يحدد الشخص الهدف من التفكير وما هي المشكلات التي يود الوصول إلى حلول لها والابتعاد عن تشتيت التفكير لتنمية مهارات التفكير السليمة.
٣. **الحرية والمرونة :** التفكير لا يجب أن يكون محدوداً في إطار معين وضيق ، لذا يعتبر التفكير الإبداعي من أقوى أشكال التفكير لارتكازه على الخيال والربط والخروج عن المألوف أو التقليدي أو المحدد ، عندما يود الشخص ان ينمي مهارات التفكير لديه يتوجب عليه أن يتحرر ويعطي لنفسه المساحة المطلقة للتفكير بمرونة وبعيداً عن الضوابط والقيود المحددة لمهارات التفكير .
٤. **الاستراحة :** عندما يبذل الانسان جهداً كبيراً في التفكير في حل مشكلة ما وبشكل مستعجل فإنه يضغط على أعصابه ويحد من أفكاره ويضيق الأفق الذي يفكر فيه ، لذا يجب دائماً أخذ قسطاً من الراحة والفصل عن المشكلة ، والتفكير في أمر إيجابي وجيد ليشحن الانسان نفسه بالطاقة اللازمة لإعادة استكمال التفكير في المشكلة التي تحتاج حلاً سريعاً وعملياً ناجحاً .
٥. **تنمية مهارات الذكاء :** الذكاء يعني القدرة على التفكير بطريقة صحيحة ، لذا فتنمية مهارات التفكير تتم من خلال تنمية وتطوير مهارات الذكاء بأنواعه المختلفة .
٦. **التطوير السليم للمفاهيم واللغة :** بما أن التفكير يحتاج لأدواته الخاصة فإن تنمية التفكير تتم عن طريق تنمية الأدوات وتحسين المهارات المتعلقة بها من لغة وتفسير وفهم وإدراك للأمور. كما أن فهم الرموز الصورية والحركية وتحسن الصحة البدنية والعقلية والنفسية للإنسان تساهم في تطوير مهارات التفكير لديه وتنميتها.

٧. **تحسين اسلوب التفكير** : حيث أن الطريقة التي يحلل بها الشخص الأمور والمواقف والزوايا التي يفضل الرؤية من خلالها والتعامل مع المواقف عبرها تحدد نوعية تفكيره ومداه ، لذا توسيع الأفق والنظر من أكثر من زاوية وتغيير أسلوب التفكير ورؤية الأمور يحسّن مهارات التفكير بصورة عامة وبدرجة كبيرة .

٨. **القراءة والثقافة** : أن مخزون الانسان المعرفي من خلال المواقف وما يدركه من خلال حواسه يزيد عندما يقرأ الانسان ويثقف نفسه لأنه من خلال هذه الممارسات الادراكية يفتح عينه على زوايا وأمور جديدة ويصبح أقدر على امتلاك مهاراته اللغوية والحركية والادراكية بدرجة ترفع مستوى التفكير لديه ، كما تعلم اللغات يفيد أيضاً بتطوير الذات وتحسين مهارات التفكير لدى الانسان حيث نجد أن من يتحدث ٣ لغات أو أكثر لديه قدرة على التفكير أعلى ممن يتحدث لغة واحدة فقط .

ادوات التفكير

أن هذا النوع من النشاط العقلي يستخدم الرموز من خلال التفكير ، لذلك من المستحيل التفكير دون اكتساب المعرفة الشخصية التي سبق وتعلمها ، وبالتالي فأن استعادة التفكير ضروري ويمكن استخدام ادوات التفكير التالية لاستعادة الماضي :-

١. **الصور الذهنية** : بما في ذلك الصور الحسية وصور الكلام ، فإذا نظر الفرد إلى الكتاب أمامه ورآه يكون الكتاب حسيًا في هذه الحالة ، وإذا أغلق عينيه ، فيمكن للفرد أيضًا رؤيته .

٢. **الكلام اللاواعي واللغة الصامتة** : أي الحركات الدقيقة غير الظاهرة من خلال أعضاء النطق (الحلق واللسان والشفتين) ، تظهر هذه اللغة الصامتة عندما يتحدث الناس إلى أنفسهم عندما يفكرون .

تأثير التفكير على الفرد

الإنسان هو نتاج الفكر، لذا فإن ما يفعله اليوم يتحدد بفكره ، هذا صحيح لأنه من أجل إحداث شعور أو سلوك يجب على الشخص أن يبدأ في التفكير، لذلك يظهر تعريف التفكير في علم النفس الأفكار هي أصل كل السلوكيات والحالات النفسية والعضوية ، ويمكن أن تؤثر على الإنسان ، على النحو التالي :-

- **تأثير التفكير على سلوك الإنسان:** فالإنسان مبرمج بنمط حياة ، وإدراك ، وقيم ومعتقدات ، وطرق التفكير والقيم والمعتقدات تتبنى طريقة تفكيره وتؤدي إلى سلوكه الذي يتسم بالسلوك العدواني ، ويحدث عندما يدرك الإنسان أنه خطر عليه ، أو إذا أدرك أن شيئًا ما يمنعه من تحقيق ما يريد تحقيقه.
- **إن تأثير التفكير على الحالة الذهنية للإنسان:** أهم من أي وقت مضى في تاريخ البشرية ، لأن الكثير من الناس يعانون من القلق والخوف ، بينما يعاني البعض الآخر من التوتر والاكتئاب ، بما في ذلك المنعزلين كل هذا بسبب التغيرات في التفكير البشري ، وتحرك العالم بسرعة ، وظهور الآلات الإلكترونية والسيارات السريعة .
- **تأثير التفكير على الصحة الجسدية:** تؤثر طريقة التفكير على تعابير الوجه وحركات الجسم ، وتؤثر على جميع أعضاء الجسم الخارجية ، وكذلك ضربات القلب ، وارتفاع الحرارة أو انخفاض درجة الحرارة وتؤثر

زيادة التنفس وضغط الدم على أعضاء الجسم الداخلية ، مما يؤثر على الكبد والكلى والطحال والمعدة والرئتين ، لإعطاء مثال بسيط ، عندما يفكر الشخص في أشياء تجعله يشعر بالخوف ، فإنه سيشعر بألم في معدته ، وعندما يفكر الشخص بأفكار إيجابية ، يصبح جسمه أكثر صحة .

نظريات التفكير

١. **النظرية السلوكية :** ينظر السلوكيون إلى التفكير كشيء ينتج تغييراً ملموساً في تصرفات وسلوكيات الفرد ، ومنذ أن احتل التفكير مكانته كرد فعل على المحفزات الخارجية في هذه النظرية ، فإنه يقع على عاتق المدرّبِ توفير بيئة غنية بالمنبهات التي تحفز السلوك المطلوب ، وأكبر مثال على ذلك تجربة بافلوف الشهيرة حول سيلان لعاب الكلب عند سماع جرس الطعام.
٢. **النظرية المعرفية :** تفترض النظرية المعرفية أن الأفكار هي المحدد الأساسي للسلوك والعواطف ، وتعد معالجة المعلومات وصفاً شائعاً لهذه العملية العقلية ، ويقارن الباحثون بين الطريقة التي يعمل بها العقل البشري وطريقة عمل جهاز الحاسوب ، وترفض النظرية الإدراكية البحتة السلوكية بشكل كبير، لأنها تقلل من السلوك البشري المعقّد وتبسطه إلى سبب ونتيجة بسيطين، ويتمثل دور المعلّم في هذه النظرية في بناء الخبرات التي تساعد الأفراد على التعلّم من خلال الأنشطة العقلية والبدنية .
٣. **النظرية الانسانية :** يعتقد الإنسانيون أن استخدام العقل لتكوين الأفكار وتشكيلها أمر لا بد منه عند الخوض في المسائل الأخلاقية ، حتى في بعض المسائل الجمالية ، وهذا الأمر يجب أن يكمن خلف أي فهم حقيقي للحياة ، ويعتقد الإنسانيون أن الهدف من التعلّم هو إنشاء شخص مستقل ، ويمتلك تحفيزاً ذاتياً ، ويستطيع التفكير والتعلّم من تلقاء نفسه .
٤. **النظرية الاجتماعية والظرفية :** تعد هذه النظرية الأقل تطبيقاً في البلاد الصناعية في الوقت الحالي وتفترض هذه النظرية في التفكير أن التعليم يحدث نتيجة للتفاعل الاجتماعي ، وملاحظة السلوك الاجتماعي والإنساني ، ويعتبر التعليم فيها محاولة مجتمعية وليست فردية ، وتضم بعض النظريات الاجتماعية أيضاً البيئة الطبيعية كجزء من مجتمع التعلم ، والهدف من التفكير في هذه النظريات هو المشاركة الكاملة لجميع الأفراد في المجتمع الخاص بهم ، كما يضيف الجزء البيئي فيها تحقيق استخدام الموارد الطبيعية بطريقة مسؤولة وقابلة للتجديد.
٥. **نظرية الذكاء المتعدد :** لقد تطورت نظرية الذكاء المتعدد في جامعة هارفرد ونتيجة للأبحاث التي أجراها فريق من الباحثين بقيادة هاور غاردنر وتنص هذه النظرية على أن الإنسان قادر على أن يتعلم ويعبر عن وجهة نظره بطرق متعددة ، ويرى غاردنر أن الذكاء عدة أنواع وليس نوعًا واحدًا وأن الإنسان يستخدم أنواع الذكاء المختلفة في حل المشكلات وفي إنتاج أشياء جديدة وأن تنمية أنواع الذكاء المختلفة ممكنة طوال العمر إذا استخدم الإنسان الوسائط والخبرات المناسبة . وعرفت النظرية الذكاء على انه عبارة عن قدرة عامة تمكن الفرد من حل المشكلات والذي يعبر عنه عادة بمعامل الذكاء (IQ) إلا أن هاورغاردنر عد هذا

التعريف ضيقًا واقترح تعريفًا جديدًا للذكاء وهو(أن الذكاء مكون من قدرات متعددة ويظهر في مجالات متعددة كذلك سواء في حل المشكلات أو في القدرة على تعديل أو تغيير المنتجات المعتمدة في نمط ثقافي أو أنماط ثقافية معينة).

ومن أنماط الذكاء المتعدد:

١. الذكاء البدني: ومن أمثلته القدرة على أداء الأعمال اليدوية بمهارة والقدرة على السيطرة على الحركات وتنسيقها.
٢. الذكاء الاجتماعي : ويسمى ذكاء التعامل مع الآخرين ويتكون من القدرة على العمل التعاوني والقدرة على الاتصال الشفوي وغير الشفوي مع الأخرين ويتضمن استعمال فهم الشخص لأهداف الآخرين ودوافعهم ورغباتهم لكي يتفاعل معهم بطريقة مرضية كما يفعل السياسي والبائع.
٣. الذكاء الذاتي : وهو قدرة الشخص على فهم ذاته من جوانبها المختلفة من المشاعر والعواطف وردود الفعل والتأمل الذاتي ومن أمثلة الأشخاص الذين لديهم نسبة عالية من هذا النوع من الذكاء هم الروائيين والفلاسفة وعلماء النفس.
٤. الذكاء المنطقي أو الرياضي : وهو القدرة على التفكير المنطقي والمحاكات العقلية والتعامل مع الأرقام وإنشاء أنماط عددية والتعرف على الأنماط المجردة كما يفعل المحققون والمباحث والعلماء والفلكيون .
٥. الذكاء الإيقاعي (الموسيقي): وهو القدرة على تمييز الأصوات والنغمات .
٦. الذكاء اللغوي أو الشفوي (اللفظي) : وهو القدرة على توليد اللغة والتراكيب اللغوية التي تتضمن الشعر وكتابة القصص واستعمال المجاز.
٧. الذكاء الفضائي أو البصري : وهو القدرة على إبداع الصور العقلية والتخيل والفنون البصرية والتصميم المعماري
٨. الذكاء الطبيعي : وهو القدرة على تمييز النباتات والحيوانات ومكونات البيئة والأحداث الطبيعية الأخرى مثل الغيوم والتربة والمعادن .

انماط التفكير :

١. **نمط التفكير المحسوس** : التفكير القائم على بعض المثيرات الحسية ، والذي يستحضر لأسباب وهذا هو سبب اعتباره محسوس ، فهو يثار نتيجة لسبب في الحواس ، استدعت حدوثه، وهو نمط تفكير مبدئي أو التفكير الأولي حيث يبدأ التفكير وينتهي ، بدون طرق أخرى أكثر حداثة في التفكير وهو التفكير الذي يبنى على التحيز ، التكرار ، التركيز على العموميات . **مثال** : تعامل اللاعب مع كرة القدم ، والمدرب ، والفريق المنافس ، وغيره من الأمور الأولية في الرياضة ، واللعبة بحيث يصعب عليه التخيل ، والتحرك على أي أساس غير محسوس بالنسبة له.

٢. **نمط التفكير المجرد :** هو التفكير الذي يحدث في الدماغ بلا سبب حسي ، ملموس ، والقائم على التجريد ، وهو عملية ذهنية تفترض الوصول للنتائج والمعاني والعلاقات المجردة، ويتميز ذلك النمط من الأسلوب بوضوح في عمر الطفولة فترة سن (٧–١١ عام)، وتكون ردود أفعال تلك الفئة مبنية على المثيرات الخارجية ، بغض النظر عن فهم المعنى والمضمون .

٣. **نمط التفكير الاستقرائي :** الوصول إلى احتمالات مستنتجة ، أو قواعد معممة ، مستفادة من المتوفر من الأدلة ، والخبرات، ويمكن استخدام التفكير الاستقرائي في كافة علوم الحياة ، بالرغم من أن تلك الاستنتاجات لا تعد محصنة من الخطأ ، لكنها أساس جيد للبناء عليه . **مثال:** ملاحظة الاستاذ حول الطلاب ، الذين أحرزوا نجاحات، بناء على ملاحظته ونتائجهم ، ويكون بذلك صورة شاملة .

٤. **نمط التفكير الاستنباطي :** هو أيضاً استدلال منطقي الهدف منه الوصول لمعارف أخرى ، بالاعتماد على الفروض، والمقدمات . **مثال:** جميع لاعبي كرة القدم المحترفين رياضيون.

جميع الرياضيين أشخاص عندهم عضلات قوية.

الاستنتاج:

جميع لاعبي كرة القدم المحترفين.

أشخاص عندهم عضلات قوية.

٥. **نمط التفكير العاطفي :** التفكير العاطفي وهو اتباع التفكير للعاطفة، واتخاذ القرارات على أساس ما تمليه العاطفة ، سواء ارتياح أو العكس ، وهذا النوع من التفكير يتميز بالسطحية ، والتعامل الحاد مع المواقف . **مثال:** ان الشخص الذي يعتبر أن كل من يحبه ، أو يعتبره قريب منه فهو نقي ، لا يخطئ ولا يمكن أن يجرؤ على إيذاؤه ، ويرفعه إلى مرتبة المثالية ، والعكس .

٦. **نمط التفكير المنطقي :** هو مرحلة ما بعد التفكير البديهي، وهو الذي يقوم بالأساس على الفهم و الاستيعاب ، والقياس، و تختلف عن التفكير الفلسفي .

٧. **نمط التفكير الرياضي :** هو التفكير القائم على العلاقات بين الأشياء ، والمعادلات ، والطريقة الرياضية ، من وضع علاقات الأشياء ، بطريقة رياضية .

٨. **نمط التفكير الناقد :** هو التفكير القائم على تفنيد الرأي الموافق والمعارض ، و إبداء الآراء والأحكام على أساس ذلك ، وكل ذلك على أساس العقل والمنطق ، والبيانات .

٩. **نمط التفكير العلمي :** وهي الطريقة التي يتم بمقتضاها التعامل مع المشاكل، واتباع طرق الحل الفعلية ، وذلك بالتفكير المنهجي المنظم، ومن أهم أنواع أنماط التفكير، لما يتميز به من خصائص تجعله مختلف عن غيره .

١٠. **نمط التفكير الابداعي :** التفكير الإبداعي هو التعامل بطريقة غير معتادة ، أو من طريق غير مألوف، وتحويل هذا التعامل إلى أفكار، ثم إبداع ، والاستفادة منه ، حيث يقدم هذا النوع من أنماط التفكير ما هو جديد ومبتكر من معلومات ليست بجديدة .

- **<u>عوامل نجاح تعليم التفكير</u>**

أولاً: المعلم : يجب على المعلم الاستماع للطلاب، واحترام التنوع والانفتاح، وتشجيع المناقشة والتعبير، وتشجيع التعلم النشط ، وتقبل أفكار الطلاب ، وإعطاء وقت كاف للتفكير، وتنمية ثقة الطلاب بأنفسهم ، وإعطاء تغذية راجعة إيجابية ، وتثمين أفكار الطلاب.

ثانيًا: البيئة المدرسية والصفية: التي تتضمن المناخ المدرسي العام ، والعلاقات المدرسية، والمجالس المدرسية ، والمناخ الصفي، وأساليب التقييم، ومصادر التعلم وفرص اكتشاف المواهب.

ثالثًا: ملائمة النشاطات التعليمية لمهارات التفكير: مثل ملائمة النشاط لمستوى قدرات الطلاب واستعداداتهم وخبراتهم، وعلاقة النشاط بالمنهج، ووضوح أهداف النشاط.

رابعًا: استراتيجية تعليم مهارات التفكير: التي تشمل عرض المهارة، وشرح المهارة، وتوضيح المهارة بمثال، ومراجعة خطوات التطبيق، تطبيق المهارة من قبل الطلاب، والمراجعة والتأمل.

امثلة حول التفكير الابداعي والتفكير الناقد

استكشافي	(ابداعي)	تحليلي	(ناقد)
إنتاجي	(ابداعي)	اشتقاقي	(ناقد)
يكُون النظريات	(ابداعي)	يختبر النظريات	(ناقد)
تفكير غير رسمي	(ابداعي)	تفكير رسمي	(ناقد)
تفكير مغامر	(ابداعي)	تفكير مغلق	(ناقد)
تفكير يساري	(ابداعي)	تفكير يميني	(ناقد)
تفكير تشعبي	(ابداعي)	تفكير تجميعي	(ناقد)
تفكير غير تقليدي	(ابداعي)	تفكير عمودي	(ناقد)

- **التدريس من أجل تنمية مهارات التفكير:** لقد تبلور في الأدب التربوي المتعلق بتنمية مهارات التفكير اتجاهان : **الأول** : ينحو إلى تصميم برامج خاصة لتنمية التفكير، **والثاني** : ينحو إلى تنمية مهارات التفكير عبر المنهج .

أما الاتجاه الأول والذي ينحو إلى تصميم برامج خاصة لتنمية التفكير فقد صممت في هذ الاتجاه ما يلي :-

١. برنامج تسريع التفكير أو بمعنى تدريس العلوم من أجل مسارعة نمو مهارات التفكير العلمي الذي طبق في بريطانيا ويعرف ببرنامج case ويقوم هذا المشروع على افتراض ضمني فحواه أننا إذا استطعنا تنمية مهارات التفكير في مجال العلوم فإن الطالب يستطيع أن ينقل استخدام هذه المهارات إلى المجالات الأخرى وتتكون فلسفة التدريس في هذا البرنامج من أربعة عناصر:-

أ- المناقشات الصفية.

ب- التضارب المعرفي ويقصد به تعريض الطلاب إلى مشاهدات من خلال النشاط تكون بمثابة مفاجأة لكونها متعارضة مع توقعاتهم مما تدعو الطالب لإعادة النظر في بنيته المعرفية وطريقة تفكيره.

ت- التفكير فيما وراء التفكير ويقصد بذلك التفكير في الأسباب التي دعت إلى التفكير في المشكلة بطريقة معينة.

ث- التجسير ويقصد بها ربط الخبرات التي حصل عليها الطالب في هذا النشاط مع خبراته في الحياة العملية وفي المواد الأخرى.

٢- برنامج مهارات التفكير : وهو برنامج ظهر في أمريكا عام (١٩٩٥) يهدف إلى تنمية مهارات التفكير في المرحلة الابتدائية ويركز على مهارات التعلم الذاتي من خلال تنمية مهارات الاستنتاج والتصنيف وتكوين الأنماط والاكتشاف والتوقع العلمي

٣- برنامج تحسين التفكير بطريقة القبعات الست.

اما الاتجاه الثاني: منحى تنمية مهارات التفكير عبر المنهج: وهو عبارة عن دمج تدريس مهارات التفكير عبر المناهج الدراسية جميعها ويتم ذلك بتصميم الأنشطة في المادة الدراسية بطريقة تؤدي إلى تنمية مهارة من مهارات التفكير .

- **أساليب تنمية مهارات التفكير في الكتاب المدرسي:**

إن مما يجب تلافيه في النظام التعليمي التركيز على العمليات المعرفية التي تقوم على أسس التلقي السلبي من جانب المتعلمين على حساب الجوانب العقلية والقدرات الإبداعية التي تتعامل مع المضامين المعرفية للمناهج الدراسية وبذلك نكون قد حققنا نقلة نوعية بالانتقال من مرحلة التلقين إلى بناء المضامين المعرفية للمناهج الدراسية وبذلك نكون قد حققنا نقلة نوعية بالانتقال من مرحلة التلقين إلى بناء مقومات الفكر وملكات الإبداع لدى المتعلم وفي إطار هذا المفهوم يكون المعلم مخططًا ومديرًا للتفاعلات التي تشملها مواقف التدريس ومكتشفاً للمواهب وليس مجرد ملقن لمضمون المنهج ولعلنا نصل إلى كيفية تنمية مهارات التفكير في الكتاب المدرسي.

أولاً: في عرض الدروس

تعرض الدروس بطريقة تفاعلية تحاور المتعلم وتنمي مهارات التفكير لديه مثل:

- طريقة الاكتشاف الاستقرائي بحيث تتاح للطالب فرص عديدة للقيام بمفرده أو بالتعاون مع زملائه بعمليات الملاحظة أو القياس أو التصنيف .
- طريقة حل المشكلات بحيث تتاح للطالب فرص كافية للقيام بعمليات فرض الفروض واختبارها وتعميمها.
- طريقة الأسلوب القصصي.
- طريقة الأشكال التوضيحية وخرائط المفاهيم والتقسيم .
- طريقة استخدام مصادر المعرفة وتقنياتها بترك مساحات للتعلم الذاتي.

ثانيًا: في التدريبات : تتضمن تدريبات تصنيف الأمثلة – تدريبات رسم مثل خرائط المفهوم – تدريبات الطلاقة – تدريبات من نوع حل المشكلات بالطرق المختلفة- تدريبات الطلاقة والمرونة والأصالة – تدريبات الفهم والتحليل والتقويم – تدريبات التدخل في النص – الألعاب اللغوية .

- **<u>استخدام قبعات التفكير السته :-</u>**

حاول بعض العلماء أن يتعمقوا في دراسة وتحليل العملية التفكيرية عند الإنسان، وسعوا إلى تنميتها وتقسيمها حتى يسهل التعامل معها، ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذه الدراسات الطبيب إدوارد دي بونو والذي استفاد من معلوماته الطبية عن المخ في تحليل أنماط التفكير عند الإنسان حتى ابتكر طريقة **القبعات الست** سنة ١٩٨٠ ومن ثم أصبح دي بونو أشهر اسم في العالم في مجال التفكير وتحليله وأنماطه واخترع عدة نظريات في هذا المجال ومن أشهرها التفكير الجانبي والميداليات الست.

س/ كيف نشأ مصطلح قبعات التفكير، وما المقصود منه؟

ج// لمعت فكرة قبعات التفكير في ذهن دي بونو أثناء سفره من بريطانيا إلى ماليزيا، وشرارة هذه الفكرة انطلقت لدى مقارنته بين طريقة تفكير الغرب التي تعتمد على الفلسفة السفسطائية القائمة على الجدل والحوار والمناقشة، وطريقة تفكير الشرق، وخاصة اليابانيين، التي تعتمد على التفكير المتوازي – كما سماه– فالطريقة الأولى تقوم على التفكير المتعاكس بين الأفراد المجتمعين، حيث يبدي كل طرف وجهة نظره في مسألة ما، ويجادل الآخر لإثبات صحة هذا الرأي، وهذا يجعل الأفكار متعاكسة، أي كل فكرة تقابلها فكرة مختلفة، مما يجعل الأفكار تتجاذب في أحيان كثيرة فتصبح المحصلة صفراً في النهاية، وذلك وفقا للقانون الفيزيائي الذي أثبت أن دفع الجسم من هذه الجهة، ومن الجهة المقابلة بنفس القدر يفقده الحركة، فتكون المحصلة صفراً، وإسقاط هذا القانون على طريقة التفكير المتعاكس يعني أن الجدال أحياناً لا يؤدي إلى نتيجة مرضية، في حين كنا نعتقد أن هذا الجدال سبيل لتحقيق الموضوعية في التفكير. أما طريقة التفكير المتوازي التي يستخدمها اليابانيون بنجاح في إدارة اجتماعاتهم تقوم على التشارك بالرأي باستخدام عدة أنماط متوازية في التفكير، فكل نمط يوازي النمط الآخر ولا يعاكسه، وذلك من أجل الوصول إلى نتائج وقرارات سريعة وفعالة. فعلى سبيل المثال: لتوضيح آلية اتخاذ قرار ما تبعاً لطريقة التفكير المتوازي:

عدد من المدراء في شركة يناقشون إمكانية إصدار قرار لشراء شركة معروضة للبيع. في البداية، يتشارك جميع الأفراد من هذه الإدارات لجمع معلومات عن الشركة المعروضة للبيع، حيث يسلك الجميع خط عمل موحد الأهداف والطريقة، ثم يفكر الجميع في الإيجابيات والمميزات التي يمكن جنيها من عملية الشراء، ثم التفكير الموحد بالسلبيات، وهكذا تتحقق طريقة التفكير المتوازي الذي يمنع حدوث التصادم بين الآراء المتعاكسة، وتعدد أنماط التفكير المتوازي قاد إلى فكرة قبعات التفكير.

س// ماهي القبعات وكيف تعمل ؟

ج// هي عبارة عن ستة أنماط تمثل أكثر أنماط التفكير الشائعة عند الناس، فالقبعة البيضاء تمثل التفكير الرقمي، الذي يؤمن بلغة الأرقام والوثائق والإثباتات، والقبعة الصفراء تمثل نمط التفكير المتفائل الحالم الذي يركز على الإيجابيات، والقبعة الحمراء تمثل نمط التفكير العاطفي الذي يفعِّل العاطفة وخياراتها بشكل أكبر وفي كل المواقف، والقبعة السوداء تمثل نمط التفكير المتشائم الذي يركز على السلبيات، والخضراء تمثل نمط التفكير الإبداعي، الذي يهتم بالبحث عن البدائل الأخرى، والتفكير بالأمور بطريقة غير مألوفة وجديدة، أو يعطي الكلمات دائماً مفهوماً معاكساً، وأخيراً القبعة الزرقاء، التي تسمى قبعة التحكم بالعمليات، وتمثل نمط التفكير الذي يدير

ويضع جدول الأعمال ويخطط ويرتب وينظم باقي العمليات ، والفكرة الأساسية التي يقوم عليها برنامج قبعات التفكير هي ضرورة تدّرب الإنسان على ممارسة كل هذه الأنماط أثناء حل المشكلات والقضايا العالقة تجنباً للوقوع في مصيدة تشويش الأفكار، ويتم ذلك من خلال الممارسة والتدّرب على تجسيد شخصية الإنسان الرقمي والعاطفي والمبدع والإيجابي والسلبي، باختصار، ارتداء قبعة كل نمط ثم خلعها لارتداء القبعة الأخرى وهكذا، فتبديل كل هذه القبعات وممارسة كل هذه الأنماط من التفكير على حدا يساعد الإنسان على ترتيب أفكاره أكثر وتنظيمها بشكل متوازٍ، فيكفل له الوصول إلى الحل الأفضل للمشكلة واتخاذ القرار السليم .

س// كيف نتعامل مع القبعات ؟

ج// إن القبعات التي نتحدث عنها قبعات ليست حقيقية، وإنما قبعات نفسية، أي أن أحداً لن يلبس أية قبعة حقيقية، وطريقة القبعات الست هي الجواب على السلبية حيث ستتوقف بعد استيعابك لهذه الطريقة عن منع الناس من التفكير. فمفتاح الموضوع ليس منع أي نوع من التفكير، وإنما إعطاء كل نوع من التفكير اسمه فهذه الطريقة تعطيك الفرصة لتوجه الشخص إلى أن يفكر بطريقة معينة ثم تطلب منه التحول إلى طريقة أخرى، كأن يتحول مثلاً إلى تفكير القبعة الخضراء التي ترمز إلى الإبداع ، وحتى إذا لم يكن المشتركون في الجلسة يحسنون الإبداع فنقول " لنخصص ثلاث دقائق لتفكير القبعة الخضراء، لنقم بذلك كأننا ممثلون نقوم بهذا الدور، هذا التوجيه يجعل الحاضرين يفكرون دون حواجز ودون خوف، وحينما نتحول من نوع التفكير إلى آخر عن اتفاق وقصد فإن الذي يكون في موقف الناقد دوماً (وهو تفكير القبعة السوداء) يصبح في وضع ضعيف ما لم يغير طريقته المعتادة ، ويتوقف عن الهجوم على الآخرين .

خصائصها :– ذكر إدوارد دي بونو أن التفكير له أنماط ستة نعبر عنها بقبعات ست، وكل قبعة لها نوع يميز هذا النمط، وعندما تتحدث أو تناقش أو تفكر فأنت تستعمل نمطاً من هذه الأنماط أي تلبس قبعة من لون معين، وعندما يغير المتحدث أو المناقش نمطه فهو يبدل قبعته، وهذه المهارة يمكن تعلمها والتدرب عليها. إن متعة وفاعلية التفكير لا يتحققان إلا بخلو التفكير من التداخلات التي قد تسبب في التشويش الفكري الذي يعيق الوصول إلى قرار أفضل، ويعتبر التفكير البناء وسيلة لتحقيق فكر غير مشوش أو متداخل، حيث نقوم بالتركيز على نوع واحد من التفكير فقط في الوقت الواحد والتأكد من إعطاء الانتباه الكافي لكل الأمور.

- **ما الهدف الأساسي من استخدام قبعات التفكير؟** استخدام قبعات التفكير يحقق عدة أغراض هامة منها : الابتعاد عن التحيز وتحقيق الموضوعية والمصداقية والعدالة، وتوضيح الأفكار والوعي بها أكثر، وتحقيق التنوع والاتزان بالتفكير، وتوجيه التفكير نحو أفكار جديدة ومبدعة .

انواع القبعات وانماط التفكير :

١. القبعة البيضاء وترمز إلى التفكير الحيادي
٢. القبعة الحمراء وترمز إلى التفكير العاطفي
٣. القبعة السوداء وترمز إلى التفكير السلبي
٤. القبعة الصفراء وترمز إلى التفكير الإيجابي
٥. القبعة الخضراء وترمز إلى التفكير الإبداعي
٦. القبعة الزرقاء وترمز إلى التفكير الموجه

استخدامات قبعات التفكير :- يمكن استخدام طريقة عمل قبعات التفكير في مجالات عديدة في الحياة سواء في التعليم أو الإعلام أو القضاء ، أو الأسرة والعلاقات الاجتماعية ، وفي مجالات الأعمال كلها واتخاذ القرارات . ففي التعليم مثلاً، يمكن للمعلم أن يُعلِّم الطلاب مهارات التفكير من خلال لعبة القبعات فعندما يعرفون عمل كل قبعة سيحفزهم ذلك على التفكير بعمق في كل نمط من الأنماط الستة، لا سيما وأن استخدام اللعب في التعليم يدفع الطالب إلى التركيز أكثر على المعلومة فيستفيد منها بشكل أكبر وممتع.

واستخدام القبعات في مجال الإعلام يحقق الموضوعية والمصداقية وهما شرطان أساسيان لأي مادة إعلامية ناجحة فالمشاهد أو القارئ لن يقتنع عندما يقرأ مثلاً مقالاً صحفياً لا يتضمن إلا إيجابيات الظاهرة المدروسة التي يتحدث عنها أو سلبياتها فقط ، أو لا يتضمن أرقاماً ومعطيات معينة ووثائق توضح هذه الظاهرة وكذلك حلولاً مبدعة له .

- **الامثلة** :
- مثال على القبعة الحمراء: أنا احب الله سبحانه وتعالى.
- مثال على القبعة الخضراء: دعونا نبحث عن فكرة جديدة.
- مثال على القبعة الصفراء: هذه الفكرة لديها عدة ايجابيات كوجود حل بديل.
- مثال على القبعة السوداء: هذه الفكرة لديها عدة سلبيات كقلة عدد الموارد المتاحة لدينا.
- مثال على القبعة الزرقاء: لدينا الآن أربع اقتراحات ، ما هي الخطوة القادمة ؟؟
- مثال على القبعة البيضاء: لدينا عدد ٥٥ طالب في المدرسة، ٣٠ ولد و ٢٥ بنت.

نظرية جانييه او كانييه (نموذج التعلم الهرمي) او نموذج بنية التعلم / مادة : علم النفس ..... د . رشا جميل

مقدمة

ظهر الاتجاه المعرفي في علم النفس كرد فعل على الاتجاه السلوكي . يعترض أصحاب الاتجاه المعرفي على السلوكيين ويقولون : إن الإنسان ليس مجرد مستجيب للمثيرات البيئية التي يتلقاها ، بل إن الإنسان يعمل بنشاط على تمرير المعلومات التي يتلقاها ، وعلى تحليلها وتفسيرها وتأويلها إلى أشكال معرفية جديدة ، وكل مثير نتلقاه يتعرض إلى جملة عمليات تحويلية نتيجة تفاعل هذا المثير الجديد مع خبراتنا الماضية ومع مخزون الذاكرة لدينا قبل صدور الاستجابة المناسبة له وهناك العديد من نماذج التدريس تختلف فيما بينها من حيث الأسس والافتراضات والنظرية التي تنطلق منها :

- نموذج التعلم الاكتشافي الذي وضعه برونر يؤكد على : التعلم من خلال الاكتشاف وعملية دمج الخبرات في البناء المعرفي من خلال تصميم طرق التدريس التي تعتمد على طرق التمثيل المعرفي واستخدام المنهج الحلزوني .
- نموذج التعليم الشرحي الذي وضعه أوزبل يؤكد على التعلم ذو معنى من خلال مساعدة المتعلم على ربط نواتج التعلم وفقاً لطريقة المنظمات المتقدمة الشارحة والمقارنة .
- أما نموذج التعليم التراكمي أو الهرمي فهو الذي وضعه كانييه (جانييه)على تسلسل عملية التدريس .

* **روبرت كانييه او(جانييه) :** هو الباحث السيكولوجي البروفيسور روبرت جانييه عالم فرنسي، يعد من علماء النفس التجريبيين البارزين، وقد اكتسب خبرة في بحوث التعلم ثم اهتم بمشكلات التدريب العسكرية الحربية ، ومشكلات التربية منذ عام ١٩١٦ ، واهتم بتحليل العمل والتصنيف ، مدخلاً لنظريته في التعليم وصميمه في كتابة (شروط التعلم ١٩٦٦)، ويرى جانييه جانب مهم من جوانب التربية ، ويرى ضرورة التخطيط للعملية للتعليمية وألا يكون العمل ارتجالياً بل منظما ، وهو ينظر باهتمام للظروف الداخلية للمتعلم والظروف الخارجية التي تيسر تحقيق الأهداف التربوية والتعليمية ، كما يحدد جانييه أربعة جوانب للعملية التربوية ويرى أن المربيين يستطيعون أن يستفيدون من نظريته وأن يشتقوا منها توجيهات لخدمة هذه الجوانب وهي على النحو التالي :

١. كيف يستطيع المعلم أن يخطط للأهداف التربوية وأن يحدد القدرات التي تلزم الطلاب قبل أن يقبلوا على موقف التعلم
٢. أن يدير المعلم موقف التعلم بحيث يثير دوافع الطالب للتعلم ويساعده على الاستمرار للانغماس فيه كما ان المرء يستطيع أن يقدم توصيات عن المحتوى الذي يتعلمه الطالب والشروط التي تيسر تعلمه على أفضل وجه .
٣. كيف يخطط المعلم اجراءات التعلم وكيف يختبرها بحيث يستطيع أن يختار الظروف الخارجية المحيطة بالطالب ويرتبها على أفضل وجه لتيسير العملية التعليمية .
٤. كيف يختار المعلم وسائط التعليم _المواد الشفهية والتحريرية (والأدوات المختلفة السمعية والبصرية واليدويات المناسبة والآلات التعليمة والكتب المبرمجة وأدوات التعليم والحاسب الآلي) التي تتيح أكبر قدر من الفعالية لتحقيق الأهداف التربوية والتعليمية.

العوامل المؤثرة على عملية التعلم

- العوامل الداخلية : هي عوامل خاصة بالمتعلم نفسه مثل قدرات ، مهارات متوفرة لديه ، مستوى دافعيته ، ورغبته في التعلم .
- العوامل الخارجية : هي العوامل الخاصة بالبيئة التعليمية الخارجية التي تتعلق بالاستراتيجيات التعليمية مثل تقديم المادة التعليمية ، استخدام التعزيز المناسب ، التغذية الراجعة التصحيحية .

أنواع التعلم عند جانييه (هرم جانييه التعليمي) :

يرى جانيه أن هناك ثمانية أنواع أو أنماط للتعلم متدرجة تدرجاً هرمياً مترابطاً، فتبدأ من أبسط أنواع التعلم التي تعتمد على الاستجابة لمثير ما ، إلى أصعب أنواع التعلم التي تعتمد على حل المشكلات.

وهذه الأنماط الثمانية يمر تعلمها في مراحل أربعة هي :

المرحلة الأولى : الوعي المرحلة الثانية : الاستيعاب

المرحلة الثالثة : التخزين المرحلة الرابعة : الاسترجاع

وهذه المراحل الأربعة تشبه العمل في الحاسب الآلي حيث يتم إدخال البيانات (الوعي) ، وتنتقل البيانات إلى وحدة التشغيل الرئيسية مع برنامج التشغيل (الاستيعاب) ، ثم يتم تخزين البيانات علي الأشرطة الممغنطة (التخزين) ، ثم يتم استرجاع البيانات من خلال ما يسمى بالمخرجات (الاسترجاع) . ويرى جانييه أن أي مشكلة تتعرض لها سواء كانت علمية أو حياتيه يلزم لها قانون لحلها ، والقانون يتطلب بالضرورة مفاهيم ، والمفاهيم تعطي القدرة على التمييز ، والتمييز يتطلب مجموعة من الارتباطات اللفظية ، وهذه الأخيرة تتطلب الإلمام ببعض الارتباطات الحركية . فالتعلم عند جانييه له طبيعة تراكمية وتتابعيه . وفيما يأتي انواع التعلم عند جانييه من البسيط إلى المركب : –

١. التعلم الإشاري :

يعتبر هذا النوع هو أبسط أنواع التعلم البسيط الذي يحدث لدى الأطفال ووصف بأنه يشمل الانفعالية غير المحددة ويفسر استجابة الخوف لدى الصغار ويعبر هذا النوع عن التعلم الشرطي البسيط . فمثلاً : يتعلم الطفل أن صراخ الأب يعني أنه غاضب وأن العقاب سيتم، أو أن النار مؤلمة إذا لمسها. وبذلك يكون الشرط اللازم لهذا النوع هو وجود المثير الذي يستثير الاستجابة الأولى لدى المتعلم. (تتمثل في تجارب بافلوف والإشراط الكلاسيكي حيث تكون هناك استجابات لا إرادية) .

٢. التعلم عن طريق الربط بين المثير والاستجابة :

يشير هذا النوع من التعلم ان يقوم المتعلم على اصدار استجابات متعددة لمثيرات معينة مع صدور الاستجابة يتلقى المتعلم التعزيز وحيث يشير جانييه الى ان هذه الاستجابات تتطلب بعض عمليات التمييز لان المتعلم يدرك ان بعض الاستجابات فقط يحصل على المكافأة من خلالها وهي الاستجابات المرغوب بها ولا يكافأ على الاستجابات غير المرغوب بها او الخطأ وهذا يشمل مفهوم الارتباط عند ثورانديك ، والاستجابة الاجرائية عند سكنر . امثلة : استجابة التلاميذ الى لفظ الحروف والكلمات في دروس القراءة .

- استجابة التلاميذ الى لفظ الاعداد في الرياضيات

- استجابة التلاميذ الى تعلم اسماء ادوات وحيوانات ونباتات في دروس العلوم

٣. تعلم تسلسلات ارتباطية حركية :

تم التعلم هنا عن طريق الربط بين أكثر من استجابة لتكوين مركب واحد ، بمعنى ضم مهارات مع بعضها لتكوين مهارة أكثر تعقيداً ، وهذا النوع يرتبط عادة بتعلم المهارات حيث يتعلم المتعلم كيفية ربط سلسلة متتابعة من الأحداث (ربط حذاء ، تشغيل سيارة ، بري قلم الرصاص ، بناء شكل هندسي من مكعبات) .. فعلى سبيل المثال إذا أخذنا مهارة بري قلم الرصاص ، فيحتاج الأمر إلى : إمساك القلم بيد وإمساك البراية باليد الأخرى وإدخال القلم الرصاص في البراية ، وأخيراً تدوير القلم الرصاص داخل البراية ومن أجل أن يحدث التعلم التسلسلي لابد للمتعلم أن يكون قد تعلم كل تلك المهارات الأساسية الأولية اللازمة للمهمة الرئيسية (بري قلم الرصاص) .

٤. تعلم تسلسلات ارتباطيه لفظية:

يتم التعلم هنا بتكوين السلاسل اللفظية من وحدات ارتباطيه لفظية وليست حركية فتصبح الجمل مكونة من وحدات تعلم مفهومة لدى الطفل لأنها تتكون من مفردات مرتبطة ببعضها ، فمثلاً : جملة الولد يلعب بالكرة مكونة من تسلسل ارتباط بين كل مفردة من مفردات هذه الجملة: الولد، يلعب، بالكرة . أبسط أنواع التعلم اللفظي المتسلسل هو تعلم أسماء الأشياء وأعقد الأنواع هو تعلم تكوين الجمل وتعلم الشعر وتعلم لغة أجنبية ، ويقول جانييه " أن الأنواع المتقدمة من التعلم عند الإنسان تتم بعد تعلم الترابط اللفظي أي هو الأساس لباقي أنواع التعلم المتقدم ". كيف يتم التعلم في هذا النوع ؟

١– يجب تعلم الربط بين مثير واستجابة مثلاً "مفتاح الباب" .

٢– يجب أن يكون هناك تسلسل في الربط فنقول مفتاح الباب وليس الباب مفتاح .

٣– يجب إعادة الجملة أكثر من مره حتى ترسخ عند المتعلم .

٤– يجب أن يكون هناك شخص يوجه هذا التعلم وهو المعلم .

٥– يجب إعادة هذا الربط أو التعلم أكثر من مره حتى لا يتم النسيان .

٦– ممكن أن تسهل عملية الربط من خلال الترميز حيث أنه يسهل تذكره كأن ترسم صورة أو تعرض مجسماً .

٥. تعلم مهارات التميز :

التمييز هو القدرة على التفريق بين المدخلات المتشابهة بحيث يستطيع الطفل الاستجابة لهذه المدخلات بدقة وهذا يتطلب تكوين سلاسل مترابطة والتفرقة بينها كالتمييز بين أسماء الألوان، الأشكال، الكلمات ، الحروف . مثلاً يستطيع أن يميز بين اللون الأحمر والبرتقالي ، بين الفقاريات واللافقاريات، بين الاعداد الزوجية والفردية ، بين الثديات والبرمائيات ، والتمييز بين الاسم والفعل والحرف ، التميز بين انواع الطيور المختلفة .

٦. تعلم المفاهيم :

يعتمد هذا النوع من التعلم على إدراك الطفل للخصائص المجردة للأشياء وتتبع السمات المشتركة لهذه الخصائص فالربط بين الصفات المجردة (الصور الفعلية) للكرسي (مثلا) مع خصائص الكرسي يحدث ما يسمى بتعلم المفهوم ، ويرى جانييه أنه من خلال تعلم المفاهيم يتمكن المتعلم من تعميم ما تعلمه في مواقف أخرى ، وهذه المرحلة تأتي بعد الترابط اللفظي حتى يتكون عند الطالب مجموعة جيدة من الكلمات المترابطة. ومن الأمثلة على ذلك :

١. تصنيف المواد (مخاليط ، مركبات ، عناصر) .

٢. تصنيف اشكال هندسية (مربع ودائرة).
٣. تصنيف العناصر الى (فلزات ، لافلزات ، اشباه فلزات) .

كيف يتم التعلم في هذا النوع ؟ في البداية أخبر الطلاب عن المبدأ الذي تريد أن تصل إليه ، بعدها حث الطلاب على استذكار المفاهيم التي لها علاقة بهذا المبدأ ، استخدم بعض الإيضاحات التي تساعد على ربط المفاهيم بطريقه صحيحه للوصول إلى المبدأ المراد فهمه ، ساعد الطلاب على عمل تطبيق أو أكثر لهذا المبدأ ، اطلب من الطلاب صياغة المبدأ بلغتهم وطريقتهم الخاصة حتى تتأكد من فهم المبدأ بشكلها الصحيح.

٧. **التعلم من خلال تطبيق المبادئ والقواعد:**

قدرة المتعلم على الربط بين مفهومين او اكثر وابسط صورة كما يرى كانيية او جانييه " انه اذا حدث س يحدث ص " ، او اذا كانت درجة الحرارة اعلى من ١٠٠ فان الماء يغلي . امثلة :

١. اذا ارتفعنا عن سطح البحر تنخفض درجات الحرارة (حسب جانييه فان الارتباطات اللفظية التي تشكل هذا المبدأ ارتباطات سلاسل بين المفاهيم مثل الانخفاض والارتفاع عن سطح البحر ودرجة الحرارة وهذه المفاهيم دورية لتعلم هذا المبدأ .
٢. اذا تساوى ابعاد اضلاع المضلع فأن قياس زواياه الداخلية متساوية (المفاهيم التي تشكل المبدأ المثلث ، الزاوية ، الاضلاع)
٣. يتألف المركب الكيميائي من اتحاد عنصرين او اكثر .

٨. **حل المشكلات :**

حل المشكلات هو القدرة على استخدام المبادئ والقواعد التي تؤدي بالفرد الى الحل المطلوب وعندما يقوم الطالب بحل المشكلة فانه تعلم اكثر وقام بإداء جيد ، اكثر من تعلم المبدأ السابق ، هذا النوع هو أعلى مستوى التعلم حيث يستطيع المتعلم أن يستخدم المفاهيم والقواعد والمبادئ في حل ما يواجهه من مشكلات ، وهذا غاية التعلم عند جانيه، فالمستويات الثلاثة العليا المتمثلة في (تعلم المفاهيم ، تعلم القواعد والمبادئ ، وحل المشكلة) هي مستويات التعلم المرغوبة في حين أنه في مرحلة ما قبل المدرسة يكون الطفل قد أتقن الأنواع المتدنية من التعليم. للوصول إلى حل المشكلة يحتاج الأمر إلى إعداد التتابع الهرمي اللازم حتى يتمكن المتعلم من حل المشكلة وبدون معرفة المكونات الرئيسية والمبادئ والأنظمة والعلاقات المتداخلة بين تلك المكونات فإن المتعلم لن يستطيع حل المشكلة ،كيف يتم التعلم في هذا النوع ؟ (إن تعلم حل المشكلة يتم من خلال الخطوات التالية : تعليم الطلاب الترابط اللفظي والمفاهيم والمبادئ بحث تكون مرجعاً لهم في تعلم حل المشكلة ، إعطاء مثال أو اقتراح جيد حول المشكلة من قبل المعلم حتى يوجه تفكير الطلاب نحو المشكلة ، تعلم الطلاب خطوات حل المشكلة حتى يستخدموها في مواقف تعليمية مشابهه وهي :

أ- وصف المشكلة بلغتهم الخاصة
ب- إيجاد المعلومات التي لها علاقه بالمشكلة وكتابتها
ت- التفكير لإيجاد الحلول المناسبة
ث- وضع الحلول على شكل فرضيات إن أمكن ذلك
ج- فحص وتجريب هذه الحلول والاختيار الأنسب منها

– نظرية جانييه (نموذج التعلم الهرمي)

مفهوم التعلم عند كانييه :

يرى جانييه أن التعلم " هو تغير في مقدرة الإنسان وسلوكه ولا يعزى هذا التغير لعمليات النمو، ويظهر هذا التغير على شكل تغير في السلوك ، أو يمكن الاستدلال عليه بمقارنة ما كان عليه السلوك قبل وبعد دخول الفرد لموقف التعلم وعلى قدرة الفرد على الإنجاز في أي شكل من الأشكال." وقد قدم روبرت جانييه تحليلاً لعمليات التعليم ، حدد فيه المتغيرات التي تؤثر فيه ، والتي تؤدي إلى تنظيم موقف التعلم الفعال ويأخذ نموذج روبرت جانييه شكل "التنظيم الهرمي " والذي يتحدد ببعض الفئات الخاصة بالتعليم ، ترتب من البسيط إلى المركب والتي يعتمد فيه التعلم على ما دونه من فئات.

مفهوم نظرية كانييه : فسرت النظرية المعرفية حدوث عملية التعلم نتيجة لحدوث تغيرات داخل البنية المعرفية في عقل المتعلم وقد قامت هذه النظرية على أفكار جانييه وبياجيه وأوزبل ومن أهم إفرازات هذه النظرية في التربية الاهتمام بكيفية اكتساب المعرفة وليس نقل المعرفة ويعتبرون التفكير أحد الأدوات الأساسية في اكتساب المعرفة وإنتاجها . لقد انشغل جانييه خلال الربع الأخير من القرن الماضي بتطوير نظريته في التعليم أو ما يسمى " بالنموذج الهرمي " أو " نموذج شروط التعلم " الذي يرى فيه ضرورة التصميم المسبق لعملية التعليم ، فالتعليم من وجهة نظره لا يسير بطريقة عشوائية ، بل يجب على المعلم أن يحدد كل الخطوات والإجراءات قبل التطبيق أو الممارسة الفعلية داخل الفصل . ويعتبر النموذج الهرمي عند روبرت جانييه الأكثر تمثيلاً للاتجاه السلوكي حيث اعتمد على المفاهيم السلوكية في تفسير التعلم ، إلا أن أعماله الأخيرة اعتمدت بين الحين والآخر على المفاهيم المعرفية خاصة في مجال التعلم والذاكرة .

أحداث جانييه التسعة: قدم جانييه مساهمات كبيرة في مجال التربية واساليب التدريس حيث انه الف كتب كثيرة عن نظريته في التعلم والتي عرفت فيما بعد بنظرية شروط التعلم . كما انه قدم طريقة تدريس مقترحة سميت فيما بعد بـ خطواتها كما يلي : –

١– إثارة الاهتمام وشد الانتباه :

نقصد به أن يهيأ المعلم المتعلم للدرس ويمكن ذلك باستخدام عدة طرق مثل سؤال تفكيري أو حقيقة مثيرة أو مقطع فيديو أو طرح قصة الهدف منها أن يحفز المتعلم للتعلم ويفضل أن يكون ذو علاقة بموضوع الدرس

٢ – تحديد الهدف وإعلانه للمتعلمين :

إعلام المتعلم بالهدف في التعلم من الدرس ، قبل البداية في عرض الدرس تعرض الأهداف التي يراد الوصول إليها بعد نهاية الدرس

٣ – استثارة التعلم السابق :

دع المتعلم يتذكر المعلومات والمهارات السابقة لديه وذلك من أجل استثمارها في الدرس الجديد ليقوم المتعلم بربط ما تعلمه سابقاً بالدرس الجديد ويكون ذلك من خلال طرح أسئلة كمراجعة سريعة أو مناقشة مفاهيم سابقة مع المتعلمين

٤ – عرض محتوى الدرس :

تقديم المحتوى الجديد منظماً متدرجاً بأبسط أسلوب وأيسر طريق نستخدم في عرضنا للمحتوى النصوص ، الرسوم ، مقاطع الفيديو ، الصور، الرسوم البيانية وعند استخدام وسائط متعددة في عرض محتوى الدرس نضمن تحقق التعلم

٥– قدِّم الإرشاد والمساعدة :

يحتاج المتعلم للإرشاد والتوجيه في مساعدته على التعلم ويكون ذلك من خلال الأمثلة فهي تساعد المتعلم على فهم الموضوع

٦– قدِّم التمارين :

شجع المتعلم على استخدام المهارات التي سبق أن تعلمها في التمارين التي تقدمها له ونفذ التقويم التكويني لتتأكد من التعلم

٧ – قدِّم التغذية الراجعة :

عند الإجابات الصحيحة وعند الإجابات الخاطئة ليميز المتعلم بين الصواب والخطأ وليعرف كيف وقع في الخطأ ولابد أن تكون التغذية الراجعة مباشرة وفورية حتى نضمن تحقق التعلم

٨ – تقييم نهائي لكل هدف :

عند الانتهاء من الدرس لابد من إعطاء فرصة لكل متعلم للتأكد من تحقق أهداف الدرس ونقدم التعزيز لمن يحتاج من المتعلمين

٩ – عزِّز التعلم واجعله مستداماً :

اطلب من المتعلم تقديم عمل أو مشروع نهائي لما تعلمه حتى يكون تطبيقاً لما سبق تعلمه وتثبيتاً له وأيضاً ليتمكن في تطبيقه في حياته ويجب على المعلم أن أن يفهم أنواع التعلم المختلفة لجانييه وينتقي استراتيجيات التدريس وأنشطة حجرة الدراسة التي ترتقي بكل نوع من التعلم عندما يبدو هذا النوع مناسباً لتعلم موضوع في الرياضيات يقوم بتدريسه . وتتطلب معظم تتابعات التعليم ، العديد من أنواع التعلم هذه التي ربما تتفاعل بطريقة شديدة التعقيد .

❖ **ايجابيات نظرية جانييه :**

- ترتيب تعلم المهام الفرعية التي تؤدي الى تعلم الأداء النهائي.
- تعتبر النظرية تعلم تراكمي ذات تطبيق مباشر في مجال التعلم المدرسي اذ ان التعلم يؤثر في معدل النمو المعرفي للطلبة
- تحديد الأهداف وتعريف الطلبة بما يساعد على اثارة الدافعية للتعلم لديهم.
- الربط بين التعلم السابق والتعلم الجديد ييسر للطلبة التكيف مع خبراتهم بسهولة .
- فائدة في بناء الاختبارات التشخيصية التي تستخدم في بداية التدريس لتوضيح المهارات التي يتقنها المتعلم.

❖ **سلبيات النظرية :**

اعتمدت النظرية في مراحل انواع التعلم الخمسة الاولى على النظرية السلوكية والتي تؤكد ان الطلبة بحاجة الى مثير للحصول على الاستجابة والتعزيز ، صعوبة ترتيب المعلم لمستويات التعلم في تنظيمات هرمية في بعض المواضيع مثل الرياضيات واللغات